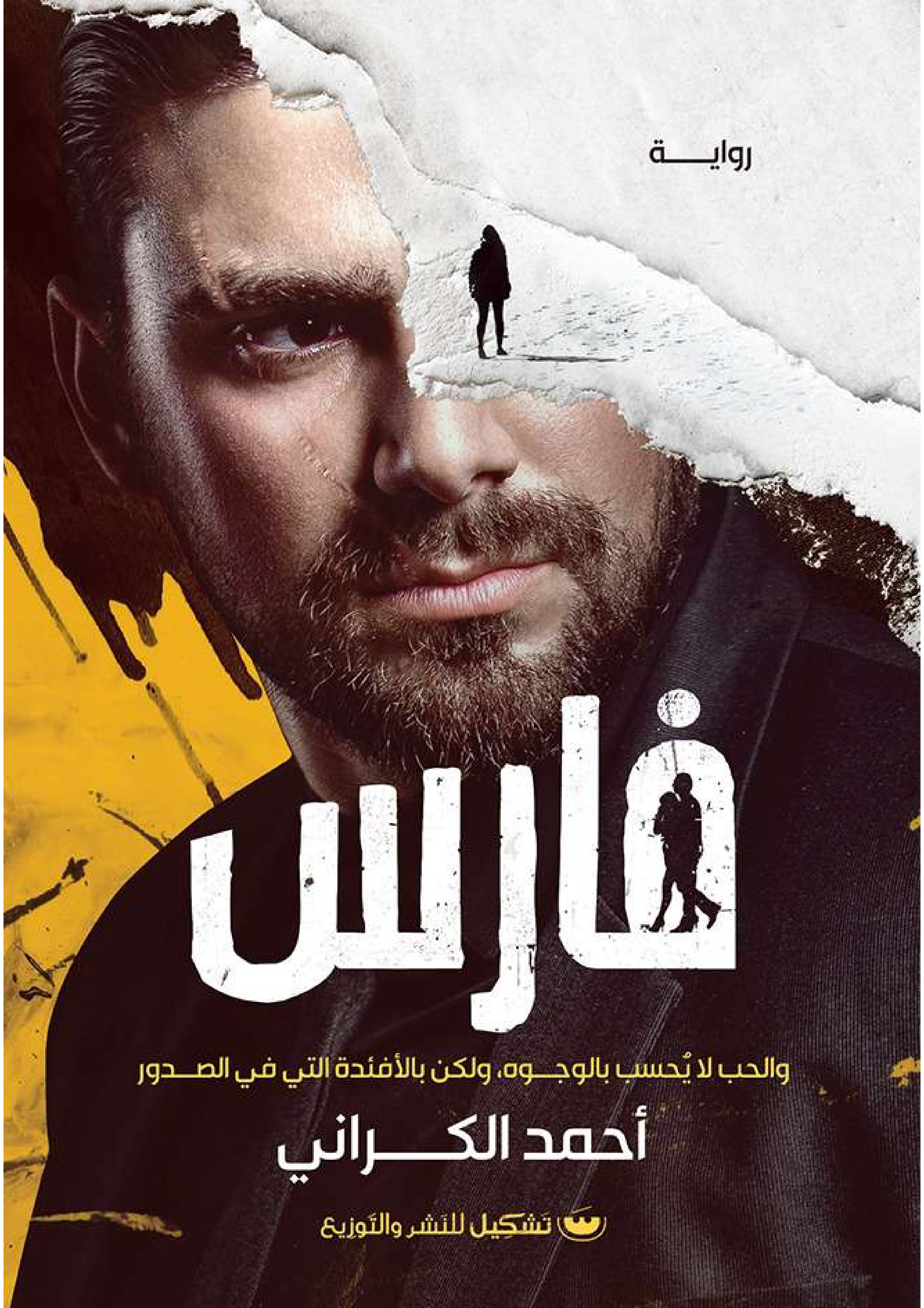

رواية
فارس
والحب لا يُحسب بالوجوه، ولكن بالأفئدة التي في الصدور
أحمد الكراني
تَشكِيل للنَّشر والتَّوزيع


فارس
أحمد الكراني



Email publish@tashkeel- publishing.com

Website www.tashkeel-publishing.com

Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6737-17-4

رقـم الإيـــداع: 27027/ 2019

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

المراجعة اللغوية : زهرة محمد علي

الإخراج الفنـــي : ضياء فريد

المـديـــر العــام : سيد شعبان



رواية

أحمد الكراني

إهداء

إلى عليوه الكراني

البطل الأوحد في حياتي، الأب الذي تركني ورحل إلى السماءِ مُلبيًا نداء ربه، وما زال ضيه يسكن عيني، وأحمل تاريخه كالنجومِ على صدري، ودائمًا أخطو بزهوٍ خلف اسمه.

فـكأن المـوت لمـا أتـاك أتانـي
طِبْـتَ حيًـا وميتًـا يـا أبـي

في عتمةِ الليلِ، تردَّد صوْتُ أنفاس خشِنة مُتقطِّعة كأنّها تخرُجُ مِن بوقٍ مثقوب، بداخلِ سيارةٍ مارقةٍ تقطع إشارات المرور بعصبيةٍ، يندفع المؤشر في عدَّادِ سُرعتها مهتزًا إلى نهايته القصوى، يكاد أن ينخلع من فرطِ انفعاله، وتنعكس أشكال الإعلانات المفروشة على البيوت في مرايَاها، وتتداخل ألوان الحيطان كموجاتٍ طيفية تسرح فوق طلائها الأسود اللامع، صخب إطاراتها ـ وهي تحتك في الأرض ـ يكسر صحوة الشوارع المنطلقة فيها مثل رصاصة طائشة، وزئير محركها رَوَّع أكثر من منطقةٍ في تلك الليلة الليلاء، بالكاد تُميزها العين من الظلام الذي أسدل ستوره على الحياةِ، وكل بضعة أمتار تتراقص الإضاءات المعلقة بين البيوتِ على سقفها المعقوف، وأخْيِلَةُ الأعمدة الكهربائية تتسابق على دفتيها، ومع الضباب الذي يمسح المدى تضاعف غموض المشهد.

تتزاحم تفاصيل الطريق المتتابعة بعُجالةٍ على الزجاج الأمامي، تتلقفها عين الجالسة خلف عجلة القيادة، فهيَّجَتْ أفكارها، حتى انتفض التساؤل في رأسها؛ أيَحدُثُ أن يجرُفك الحنين لِنفسُك؟! ثم بدأت الإجابات المؤكِدَة تنقر كالعصفورِ فوق سريرتها، وهي تنظر إلى صورتها المُضْطَرِبَة في المرآة، كأنها تُذاكر ملامحها، فهي تَحِنُ لتلك المرأة القديمة، لكبريائها وحِلْمِها، أن تكون الأنثى التي مَحَتْ كل تفاصيلها، التي تعلم أنها لن تُقابلها ولو صدفة مرة أخرى، رغم يقينها أنها إذا رجع بها العمر ستعيش ما قد عاشته!

ـ آاااااه!

سمِعَتْ حرفين يتيمين يختصران كل أنواع الوجع، انسَلَّتْ الكلمة من بين أسنانٍ تصطك، قِيلَتْ؛ بنغمةٍ مبحوحةٍ يعتصرها الألم، فاستقرت في رأسها؛ بلا استئذان، كما السكين لا تستأذن إذ تقتحم الجرح، آه، دخلتها تنبش اللحظة بقوةٍ غاشمةٍ، رجرجت لُبَها كقربةِ ماءٍ، سكنت في عقلها كالشظيةِ، ثم جاءتها بقية العبارة المهترئة لتُمزق نسيج وجدانها أكثر وأكثر:

ـ أرجوكِ؛ وديني لأي مستشفى، أنا، أنا هاموت، أنا..أ. آاااااااااه!

جملةٌ متحشرجةٌ قَطَعتْ آخر خيوط نجواها، فالتفتَّتْ بحركةٍ تلقائيةٍ لمصدر الصوت الذي اختطفها، كأنما تذكرت وجود رفيق لها في السيارةِ المجنونةِ، حملقت عيناها الغائمتان بالرجلِ المستلقي على ظهرِهِ في الخلف، متكومًا، جوالٌ قديمٌ من الخيش الميري؛ تُغطي صدره اللاهث بُقع دماء قاتمة، تتسرب من ثقبٍ مقطوعٍ خلفته طلقة نارية،

تتشبع بها بشرته المائلة للزرقة، وتتساقط بلزوجتها ولونها الأحمر من أنامله المرتعشة، قطراتٌ قطرات، ثمّ حَرَّك شفَّتيْنِ متشققتين كالأرضِ البورِ، تابع بحروفٍ مغمسةٍ بأنين مكتوم:

ـ مش قادر آخد نَفَسِي، أنا..أ.أ.

لم يظْفِر بوقتٍ لرفاهية الاستكمال، بُترت عبارته، انهار، رغم مُحاولات تماسُكِه الفاشلة، وأخذ في السعال والدماء تتقاذف من فمهِ، نافورة ثائرة بلا محبس، وبعد بُرهة فاتت ـ تلوكُ في قلبِ الزمنِ ـ ارتجف جسده النحيل، وزاغت نظرته في ملكوتِ الله، وذبُلت حدقته كالمجذوبِ التائه، ثم تمتم بألفاظٍ متشابكة مبهمة، وشدَّ نفسًا مخشخشًا كأوراق الخريف، عَبَّ فيه ما استطاع من الهواء، وصمت. نعم هو ذاك الصمت الرهيب؛ بعد أن تُنتزع الروح من الجسد، يُشطَبْ بلمحةٍ من سجلِ السائرين فوق الأرضِ، ويُحشر بين جثثِ الذين سبقوه إلى جوفها، جِسمٌ هالكٌ يأكله التراب، وهذا المصير الذي اتفقت عليه أقدار الخلائق كلها.

فالموت هو الشيء الوحيد الصادق في تلك الحياة!

الخرس الذي نثر بذوره حولها جعل صوت نبضها يُسمع بوضوح، وخُيل إليها أن القاهِرة – بأرضِها وسمائِها وبُيوتها ومآذِنها ونيلها ـ تتنصّتُ عليها، ورغم أنها أول مرة تقود بهذا التهور إلا أنها لم تُعِر الطريق انتباهًا، وتعلقت به، تتفحصه؛ بنظرةٍ يجلس الرعب فيها، لاحظت ارتخاء أطرافه الباهتات، وثبات عينيه المنطفئتين، وكيانه الذي سَلَّمَ أمانته لرب العباد، ودماءه الملولة ما زالت تخرج من جانبِ شفتيه المنفرجتين، تروي المقعد الجلدي بتنقيطٍ دموي؛ له ضجيج يتضاعف في أذنيها فقط، فكل ما أرادته أن تحتفل بليلةِ العيد؛ لكن

على طريقتها، ولم يَكُن في ترتيبها أن تصل بها التفاصيل لتلك النقطة، فاصلة مهمة في سطورِ قدرها.

فجأة، ارتفع صرير الإطارات وهي تزحف في محاولةٍ للتوقفِ، وقسرًا أدارت عجلة القيادة على اليمين، فلَفَّتْ السيارة حول نفسها مرتين بالعرضِ، وسط سحابة ضبابية من الترابِ حولها، تتصاعد من الأسفلت المغبر الذي بصمت عليه طبقات الكاوتشوك، ذلك أن قدمها ضغطت على المكابحِ بكل قوتها، وكردَّةِ فعلٍ مال جسدها الخفيف على اليسارِ بحدَّةٍ، فاصطدم رأسها بعنفٍ في زجاجِ البابِ الذي تهشم، تحركت الصورة ـفي عينيهاـ بالبطيءِ؛ عندما ظَلَّ نصفها العلوي للخارج، تُحيطه حفنة زجاج مكسور تتطاير، تخللتها شظاياه الدقيقة جدًا، ثم تناثرت على الأرض كحباتِ السكر، قبل أن تَرْتَدّ إلى مقعدها مرة ثانيةً؛ مع ثباتِ العربة أخيرًا، خلفت وراءها غيمة عفار تتبدد ببطءٍ، فتكشف عن آثارٍ حركتها الحلزونية على الطريق.

كُتِمَتْ جميع الأصوات في الكونِ؛ إلا من همسهساتِ القرط المرتعش في أُذنيها، وعلى استحياءٍ تَسَحَبتْ إليها الموسيقى الشهيرة لأغنية «يا ليلة العيد»، مثل الوشوشة، تصاحبها همسات «كوكب الشرق» من مقهى منزوٍ في نهايةِ أحدِ الأزقة، بعد بُرهة؛ رفعت رأسها المجروح ـداخليًا وخارجيًاـ تتحسسه، وتتأمل الدماء التي خَضَبتْ أناملها المرتجفة، وبكلِ ثقلِ الدنيا ألقت وجهها بين كفيها الصغيرين، فكأنما تقبض على حزمةِ الهواجس التي تمرح أسفل جِلدها، تُحاول فتح نافذة للنورِ كي تَنْبَلجَ بِطَانَتُهَا، تُريد أن تدفع الأمر المطمورة في مخاطرهِ، لتستوعب أن ما حدث لها في تلك الليلة قد وقع فعلًا، وعليها تحمُّل

نتيجة العواقب مهما تكن، فهي الآن تنتظر في حي مجهولٍ أَنْكَرَ نفسه منها، تتصاعد الأدخنة من سيارتها، ومعها جُثة طازجة، أهلًا بالجحيم المركز!

أيقنت أن التغيير قد مدَّ جذرًا وراء الآخر في أرضها، وحينما نتغيَّرُ لا نَعوُدُ أبدًا كما كُنّا.

1

طقسٌ مخبولٌ؛ يمضغهُ الصقيع مضغًا، وستائرُ سحبٌ ماطرةً تتمزق أمام وجه الشمس الصاحية، وأشعتُها تسقطُ ذهبية تتقطع من بين الغمام، تتثاءب وسط السحاب، في يوم شتوي غسل فيه الغيث ذنوب البشر، وترك نفحة النقاء فوق خد النهار الذي يفرد جناحيه، متفتحُ الألوان، يمسحُ شبورةً مائيةً تُلملم ضبابها من المدى، ورشرشات القطرات تطوف لاهيات في الهواءِ المنعش.

ساعة ذروة، أسرابٌ من البشرِ متزحلقين إلى أعمالهم، وجوههم جائعةً إلى نوم لم يكتمل، مجاذيبٌ وراء لقمة العيش، طوابير من التلاميذِ زاحفة، تبدأُ رحلة للبحثِ عن مؤهلٍ دراسي؛ في دولةٍ خرجت أصلًا من التصنيف العالمي لجودةِ التعليم! وفي السوق الكبير الذي اشتهرت به المدينة، تنتشر فروشات منكوشة لمنتجات مختلفة يقف فوقها البائعين، يُدللون على بضائعِهُم التي لا تتحرك وأصابها عطن الركود، نداءات مختلفة تتبادل بإلحاح مزمن على الأشخاصِ المتسربين في خجلٍ بينهم، وتاه في زحامهم «فارس».

رجلٌ ثلاثيني بدرجة مواطن عادي، يسير كعادته من منزله إلى محطة القطار مترجلًا، لم يتغير إحساسه بالبرودة التي وضح أثرها على ملامحه، له وجه وسيم، بشرته فاتحة ولحيته خفيفة، شعره أسود قد داعبه المشيب، يخبئ عينيه البنيتين تحت نظارةٍ سوداء، ويرتدي سُترة جلدية صحراوية، يظهر أسفلها بلوفر داكن، عُقدت فوق ياقته كوفية سوداء تُزيده عُمقًا، خطوات ساقاه بالجينزِ الغامقِ راسيةً، ويدبُّ في الأرضِ بِحِذاءٍ ضخم له نفس لون السُترة، يهتم بمظهره ـ كباقي جيله ـ فهو رأس ماله الوحيد، يسمع موسيقى تصويرية للمشهد، تتهادى من الـ «Music Albums» المختارة بعناية في هاتفهِ، فيتجاهل الجميع مع غمغمات سماعة الأذن؛ التي تفصله عن العالم حرفيًا، لذلك غدت أهم عنده من بعض الأشخاص في حياته، وفي رأيه يستحق مخترعها جائزة نوبل للسلام.

يعبُرُ السوق، إلى طريقٍ «كان» على جانبيه حقول يمتد اخضرارها حتى يُقابل زرقة السماء، ويتسلل كل بضعة أمتار عبق ورود مختلفة؛ «كان» يتسابق ـ في عهدٍ ليس ببعيدٍ ـ الفلاحون في زراعتها للتباهي بها فيما بينهم، في الوقت الحاضر تحولت الخضرة إلى كُتلٍ خرسانيةٍ مُسلحةٍ، بنايات ضخمة غُرِسَت أساساتها في بطنِ الطين، فقيرة الذوق، تُطِلُّ بزخارفٍ مُبالغ فيها على شوارع غير ممهدة؛ تمتلئُ بأكوام من فضلاتِ البناء، عملية اغتصاب غيرت شكل المدينة، التحول الذي ضَيَّع ملامحها لم يكن أبدًا في الحسبان، توقعات استضافتها لنهائي الـ «UEFA Champions League» القادم «كان» أقرب لها مما حدث فيها.

و»كان» فعل ماض ناسخ ناقص، لا يكتفي بمرفوعه أي لا تتمّ الفائدة به، وهذا للأسف الشديد!

تسابقت قدماه، فوق أسفلتٍ متعرجٍ مغطى بالوحلِ، وهذا ليس ذنب السماء، لأن المطر الذي نزل وجد الأهالي قد أكلوا الحقول التي تُزهِر، قومٌ لم يتركوا أي شيء لـ»يأجوج ومأجوج»! أسرع «فارس»، وهو يدرأ عن نفسه شوشرة التركيز مع مُحيطه، يكتفي بضجيج أفكاره الملغومة! في الأخير وصل، تخطى سلالم رخامية متشققة، ثم انتظر في صفٍ طويلٍ من البشر أمام شِباك التذاكر العتيق، نافذة حديدية يتزاحم الصدأ مع طلائها الأخضر، قاعدتها الخشبية منحولة من استنادِ المارةِ عليها، طوال قرن إلا قليل من الزمان هو عمر المحطة، فقد أنشأها الاحتلال الإنجليزى عام ١٩٣٠م، ولم يطرأ عليها أي تعديل؛ سوى بعض الدهانات الرخيصة المنتشرة على جدرانٍ حفرتها الأيام، جاء دوره واستقر على عتبتها، قبل أن يفوز بتذكرةِ ذهابٍ إلى القاهرةِ؛ كأنها ورقة يانصيب ربحت (البريمو)، ثم تمشى بتكاسلٍ على الرصيف المفروش بالبلاطِ المحدب، وألصق ظهره في حائطٍ من الطوبِ الوردي أكل الرشح حوافهُ السُفلية، وترك الشمس تَصُب أشعتها عليه، عن يمينه لافتة جبسية قديمة، مُتربة، باهتة، مملوءةٌ بالشروخِ، تهتكت أطرافها وتداعت، مكتوب عليها «مشتول السوق»«Mashtool Alsooq».

على مقعدٍ ليس ببعيدٍ عنه جلست النسخة المصرية من «Rebecca Ferguson»، بجوارها ألقت حقيبة ظهر منتفخة، يُميزُها حجاب صغير من الحريرِ الأبيض؛ ملفوف «Spanish»، ليغطي سنابل شعرها الذهبي، وتهرب خصلة نافرة بلا حصاد، تلمع تحت الشمس

التي تتشاكس مع بشرتها البيضاء، وعيناها البحريّتانِ الواسِعتانِ؛ ملجأٌ لكلِ مُغامِرٍ يهوَى السباحةُ ضِدُّ التيَّارِ، قميصها من القطن الأزرق مفتوح الأزرار؛ يكشفُ بلوفر أبيض قياسي التقاسيم، أسفله بنطال جينز أجرب؛ غَلَّف ساقًا موضوعةً فوق الأخرى، ليظهر خلخال يتدلى ببعضِ الأحجارِ الملونة، تتأرجح على حذاءٍ رياضي أبيض، أخذت إجازة من واقعها وهي تتصفح رواية «الإمام الهارب»، فَرَّتْ من الدنيا بما فيها بين السطور وخلف السطور، تُحلق مع المفردات حتى تُلامس وجه السماء، فهي تشعر أن كل كلمة بين الدفتين قد كُتِبَتْ لأجلها، لذلك تجاهلت الغزل المصبوب على سمعها كل هنيهة، فهذه المعاكسات الصحية تحدث لها دومًا. بعد قليل اقتحم القطار المحطة؛ يصرخ بنفيره المميز، فاهتزت الأرصفة وحامت فوقها عاصفة من الغبار الثائر، لذلك حملت حقيبتها ووقفت استعدادًا، فَرَدَّتْ قوامًا يقطع ضوء النهار مثل حَدّ السيف، ويصيب قِشرَة الكرة الأرضية بزلزالٍ.

امرأةٌ شغلت الألباب بدرسِ التشابُه بين صفاءِ الشّمسِ وبين وجهِها.

خَطَتْ للقطار، وهي تلمح «فارس» يقف نفس وقفته؛ يُهمل الوحش الحديدي الذي رَجَّ الكون من حوله، خطواتها اتجهت إلى الباب الذي استقر أمامه، وفجأة طوقتها أجساد الناس التي تتزاحم للركوب، في هذا الوقت تحرك هو الآخر إلى ذاتِ الباب، وبسبب هرج المسافرين وتدافعهم احتَكَّ جسديهما بغيرِ قصد، فانزلقت قدمه وجاهد حتى أمسك المقبض بيده، هنا طقطق كاحلها لأنها تحاملت عليه أكثر من اللازم، فترنحا سويًا بعدما اختل توازنهما وسقطت حقيبتها، حاول أن يلتقطها لكنه صدم كتفها بقوةٍ؛ مدفوعًا باضطراب العجلات

الفولاذية على القضبان، لذلك هوت من أمام العتبة؛ مع صافرة القطار المعروفة وهو يسحب عرباته معلنًا الرحيل، فبدى دَوِيّه ناحِبًا، كأنه يرثي مصيرها الشؤم، فالطريق ممهد لها الآن بالسقوط الحر تحت عجلاته!



داعب ضي النهار غُرفتها، ومن الشرفة المفتوحة تسللت نسائم الهواء تعبر خلال الستائر البيضاء، فتطايرت تُهفهِفُ فوق شباك السرير المركون بجوارها، داعبت شراشيبها وجه النائمة فاستيقظت، انفرج جفنها متثاقلًا فوق وسادة بضة مطرزة، فلملمت شعرها الأسود الممتد كأنه ليل طويل، حركة روتينية اعتادتها كل صباح، فالنهار لا يزورها إلا بعد أن ترفع غطاء الخُصلات عن وجهها، بنصف جلسة تمطعت وهي تفرد ذراعين كأغصانِ الورد، ترنحت فوق المرتبة الناعمة حتى تدلت قدمها، فلمحت نفسها في مرآة الخزانة المقابلة، امرأة كما يقول الكتاب، تأملت بشرتها النحاسية بعينين سوداوين ناعستين في محجريهما، تحسستها متمتمة:

ـ ٢٦ سنة يا «مريم»، ولسة آنسة!

ففي الشرق مقياس نجاح الأنثى هو اصطيادها لزوج بسرعة! وكلما مر العمر بإحداهن تُشير إليها أصابع وتتبعها غمزاتٍ، ويَدُق ناقوس الخطر في كل سنة من عقدها الثالث، فلا يهُم بمن ترتبط؟ الأهم هو أن يكون ميسور الحال، فأصبح الزواج بالشهادات والوظائف بالحب! قمة السفه الفكري، لذلك قفز «مصطفى» إلى دفتر ذاكرتها، مثل خطاب لم يكتب له الوصول، يأتيها كضياع لن يذوق طعم الهدى، ينسال تاريخها معه في هدوءٍ يُربِت على قلبها، الَحبيب الذي خطفه الموت، نُتف ريشها

وسقطت كعصفورةٍ يُغطيها وشاح أسود، ثم علاقاتها العابرة مع كل من تُقابله، وتوجساتها المُرعبة من الزواج بأحدهم، عمرها الذي يمر وكل ساعة يذكرونها أن القطار سيفوتها، الفيلم الهندي الذي تعيشه يوميًا بمشاهدهِ المبالغِ فيها، ثم توقفت أمام ذاك الذي اقتحم شرنقتها، ومسح غبار الحزن من فوق ورقة روحها، فأورقت، الرجل الذي تعثرت فيه أثناء تجوالها في عالم الـ «Facebook» الافتراضي.

ثقته بنفسه وربما غروره المفرط، حتى مساوئ حياته رأتها جذابة، غموضه، آلاف الاستفهامات التي أحاط نفسه بها؛ غدت في صالحه، كسر الباب واقتحم، لم ينتظر أن تأذن له، كل كلمة قالها حملت لها حجم أحلامها، مواقفه معها لمست سقف دخيلتها، دون ثرثرة عرف الطريق إلى عالمها واحتله في غفلةٍ منها، أحاطها باهتمامه ومذاكرته لأدق تفاصيلها، رفعت له الراية البيضاء، استسلمت، وغمست خيالها في مساحةِ وهمِه، ارْتَشَفَتْ شيئًا من الأماني في وجوده، فتحت له حِضن أنوثتها، فأطْلَقَ شرارة مشاعرها ونفخ فيها حتى صارت جهنم، وهي لم تحسب أو تحلل أو تفكر، فالحسابات العقلانية الجامدة ساقطة في أمور الروح.

داعبت الابتسامة طرف شفتيها، وهي تتحسس خصرها المرهف كأنه قافية قصيدة، جسد يختلس غنته من مقطوعات باريسية الرنين، أنثى نادرة في أوطانٍ تُصادر من أرضها الإناث، نوعٌ نفيسٌ مما يتهافت عليه الرجال، تعبئ عيونها نجومًا وتصنع من سُمرة الشمس لونها، تبكي الأحلام على وسادتها كل صباح لتمنحها موعد العشي. قامت متثاقلة بدلالٍ وارتدت روبًا طويلًا فوق البيجامة البيضاء، ليضفي عليها القليل

من الدفء في هذا اليوم البارد، وعقصت شعرها الثري بميدالية مطاطية محفورة بحرف «F».

ـ الفِطار جاهز يا «مريم»، يلّه عشان تاكلي.

قالتها والدتها من الخارج بصوتٍ أقرب لصراخ، فمنذ أن مات والدها وعلاقتها بأمها هي حالة من الزعيقِ؛ المصاحبً لمشادَّاتٍ على السطوة، مواجهات حامية تِصْلُ إلى القطيعةِ عند كل نِقَاش، تنتابهما اضطرابات قيادية مع كل تصرفاتهما، وتَدَخُل متبادل في كافةِ الأمور، لم تستوعب المرأة بعد أن ابنتها لها كيانها الخاص الذي يجب مُراعاته، ولم تحترم البنت دوافع والدتها، فانقلبت ساحة البيت عويلًا وندبًا ونباحًا، وكل ليلة تنتهي بخصومةٍ وثأرٍ لا يبرد لهيبه أبدًا، وتصحو على تساؤلٍ عمن هو الزعيم اليوم؟! وهكذا، أصبحت بداية أي نهار معروفة، مجرد تحضير لمظاهرةٍ جديدةٍ ترفع راية العصيان بينهما، فلم تتعجب «مريم» من الصياح المبالغ فيه من أمها، ولكنها تحدثت إلى انعكاسها في المرآة، بصوتٍ منغومٍ كدندنةِ البدو حول حلقات النار في الصحاري:

ـ مش هيبقى عشا ولا فطار كمان!

قبل أن تكمل بصوتٍ مرتفعٍ، منفعل، يؤكد على عملية شد اللجام بينهما: حاضر يا ماما أنا جاية حالًا!

وفي طريقها إلى الخارج التقطت هاتفها، ذلك الجهاز الذي تحول بمرورِ الوقت إلى صديق السوء، يشارك البعض كل لحظاتهم، واستُخدِمَت مواقع التواصل الاجتماعي في أشياء كثيرة، يأتي في ذيلها التواصل الاجتماعي! وتنازل المستخدمون –رويدًا رويدًا– عن عالمهم الحقيقي، وسُجن الكثير خلف عالم محكوم بأبعادِ الشاشات، ولم تعي

الأغلبية أن الخصوصيات لها قدسية، فانكشفت بواطن البيوت مع كل تحديث للحالة، واستباح البعض حُرماتها، ومن ضمن هؤلاء «مريم»، التي لا تفعل أي شيء في يومها إلا بعد أن تفتح الـ «Chat» وتُرسل له رسالة، أي رسالة حتى لو على سبيل العراك، وهذا ما فعلته الآن بالضبط.



عمرها المفضض بُذِر على عينيها؛ كوميض جهاز الإضاءة الـ «Flash» في كاميراتِ التصوير، بَدَأَتْ في سردِ سنواته التي تزيد عن الـ٢٠ بقليلٍ، وعيناها تستجدي «فارس» وتحشو حدسها بملامحه، وفعلًا صَدَقَ ما تخيلته، ووجدت ساعده الأيمن يُطبِقُ على خصرها، وبين أصابعه تدلت حقيبتها، وكفه الأيسر كَلْبشَ في مقبضِ الباب حتى كاد أن يخلعه، لوهلة اعتقد أن «أحمد زويل» اكتشف الـ «Femtosecond» لحساب ردة فعله، التي هي بمثابة اختيار بين قدرين، فانحاز لأجرأهما وتمسك بها، وترك بصره يتخطى نظارته المكسورة ـإثر حركته ـ ويحتلُها، أحس بارتعاشة جسدها وهو يسحبها في حِضنه، اندست في ضلوعه مثل الريشة في جوف المكحلة، جذبها بيدِه ـبقمةِ عنفوانهـ إلى الداخل، ثم ربت على ظهرها المفرود بيده الأخرى ليهدئها، لمساته ـمضبوطة الإيقاعـ ربطت على خفقان قلبها، فانفصل بها عن صيحات الركاب وسكن فيها، ثم تحدث بملامح ساكنة؛ شحيحة المشاعر:

ـ انتِ كويسة؟!

نفير القطار غطى على صوته، أخذ جزءً من روحها معه، وتركها تستحلب روحًا أخرى أمامها، لذلك اتسعت حدقاتها وتوشحت بلونِ السماء، بَرقتْ في وجهه كالصُبحِ إذا تلألأ، وسقط فؤادها في نظرتها

إليه، وكأن جميع أحلام الفوارِس القديمة تصُب في عينيه وحده، ساقهُ الله بموقفٍ صغيرٍ أعمقُ من كل الحكايات، جعلهُ القَدَرُ بهذا القَدْرِ ليكون أملح وأعمقُ سحرًا، هذه هي التركيبة الربانية السمحة، عندما تُقابِلُ غريبًا فتشعر معه بأُلفةِ الأهلِ والصحبِ، هكذا أَحَسَتْ به، خاصةً أنها رأت في موج عينيه ما لا يُرى! فَعَمَدتْ إلى التفتيش في أغوارهِ، وبمزيج ـخالٍ من أي إدراك منطقيـ من الخوف والإعجاب، قالت لاهثةً: انت حقيقي؟!

هو يُجيد قراءة العيون، ففهمها، لذلك لاحت شبه ابتسامه على شفتيه: لأ أنا "Three d"!

فابتسمت حتى تألق ثغرها ولعلع وجهها، هنا تذكرت ذراعه حول خصرها، تلُفها، وأيقنت كم العيون التي تراقبهما، وتحسد كل منهما على الآخر، وكم الأفواه المنفرجة من المشهد، بل إنها سمعت لحن أغنية «كلمات» وصدى صوت «ماجدة الرومي» يتردد في أذن الجميع، عندما أخذَّها من تحت ذراعها، شعرت ببطء الزمن وخفوت الأصوات وهو يزرعها في غيمةِ ضَمَّتهِ، رجعت طفلةً فوق صدره، تسمع صوت «فاروق شوشة» وهو يقول: «لغتنا الجميلة» بطريقته الشهيرة، وتشاهد حلقات «العلم والإيمان»، ينتشر في أجوائها المختلجةِ تتر برنامج «حديث الروح»، وحتى موسيقى «نادي السينما»، تنحنحت، وحررت خصرها من ضمته، ولمست عروق يده البارزة وأصابعه المتشبثة بها وهي تنسل منه، رأت قبضته على حقيبتها فغمزته بنفس الابتسامة:

ـ كمان مسكت الشنطة!

فترك لها الحقيبة وضبط هيئته متأسفًا لها، فوضعت أناملها الرقيقة على صدرها وعاجلته: أنا اللي آسفة.

فاتسعت ابتسامته وهو ينظر لها؛ ثم تجمدت ملامحه تمثيليًا فجأةً وقال: حصل خير الحمد لله، عن إذن حضرتِك!

قالها وأعطاها ظهره وتحرك للداخل، نقر خطاه في العربة قبل الأخيرة من «قطار الشرق» كأصداء القنابل، لثانية أو أكثر وقفت تتأمل هذا الجبل الجليدي الذى أدار ظهره لها وابتعد، طعنة مباشرة لأنوثتها المفرطة، ترويض مفاجئ ـ وغير مقبول ـ لتمردها الذي اعتادته، كل الحضور وصفوه بالغريق الذي ترك لتوهِ قشةِ النجاة، صحيح بأنه ـ في داخله ـ رأى أنها هشة لن تقدِر على إنقاذه، وحضورها يزيد من إرباك حياته العبثية أصلًا، ولكن رغم هشاشتها تلك فهي أُمنية لكثيرٍ من الرجالِ، حتى هو ذاته! فتساءلت الأذهان كيف استطاع أن يدخل ذلك السور المكهرب المحيط بها؟ تجاهل اللافتة المعلقة فوق مؤخرتها الملفتة جدًا؛ المكتوب عليها: «ممنوع الاقتراب» كأنها منطقة عسكرية، بل كيف طاوعه ضميره أن يجرحِ سائل عينيها القزحي ويبتعد؟! ومهما تكن أسبابه، هُناك نساءٌ خُلِقْن كَي تُحَارَبُ مِن أجلِهن الظُروف.

تبعته بنظرةٍ تحمل أكثر من مجرد دهشة، حتى استقر ترحاله بين المقاعد بجوار إحدى النوافذ، فتحركت تجاهه وجلست في مقعدٍ قريبٍ منه، تابعها «نطع» كذبابةٍ حول قطعة حلوى، وافتعل حديثًا من نوعية: الشبكة سقطت معايا، ممكن تليفونك ترني عليَّ؟!

أي كلام رخيص مما يتشدق به أمثاله، ردت عليه باقتضاب، قَضُمَتْ الكلمات في جوفه، عَبَّتْ الهواء في صدرها وزفرته في وجهه، أي أنْ رفقًا؛ معي مرآة علَّك تنظر لنفسك! و»فارس» انشغل في العبث في نظارته المكسورة لكنه تابع الموقف بشغفٍ، وهو يسمع وشوشة صوت «عمرو دياب» المتسرب إلى أذنيه:»مايتحكيش عليها..زي الملايكة اما تشوفها ورداية تحلم تقطفها».

ثم انقطع صوت الأغنية فجأة، لم ينتبه «فارس» في البداية، فقد كان ينشئ في بالِه ملجأ للجالسةِ أمامه، يصُف فيه الجدران لبناءِ تكيةٍ لها، يفرش تحت أقدامها الأرض رُخامًا ويُطَعِّمُه بالشُهب، ويفتِق في كل زاوية بستانًا، يوشوشه كي تَدُس فلا يوجِعُها، ويضع أكاليل الزهور على لحودِ تجاربِه السابقة من أجلها، يَنْظُم القصائد، يدخل في الكلمة، يخترق الحرف، يتغلغل في نبضه وأوردته؛ في تمزقه عندما يتشابك مع غيره في اللفظةِ الواحدة، يجلس صامتًا يتأمل لون النهار الذي سكب ضيه في جبينها، لمعة المرايا الملونة بالطيفِ في أحداقها، يخاف أن يُسرَق منه الوقت وتمضي، لذلك أخرج هاتفه ليعرف كم الساعة العَجُولَة، فوجد رسالة «Chat»:

- انت مش هتسيبك بقى من طريقتك دي؟

قرأها وهو يُمارس هواية لي الشفاه ومصمصتها، ثم كتب وهو يمُدَّ البُوز: طريقتي دي اللي هي إيه؟!

تمت المشاهدة، ثم بعد لحظة من الكتابة: كل يوم بنات جديدة، خلاص، ما بتعرفش تعيش من غير البنات حواليك؟!

ظهرت العبارة مسنونة الحروف أمامه على الشاشةِ، رَنَّ صداها في قلبهِ كما اعتاد أن يسمعه بانفعالها، فكلما بحثت «مريم» عن وسائل للسيطرة عليه وجدتها في الغيرة، وإذا أعوزت إلى حُجةٍ للنكدِ؛ لاقت في الريبِ مدعاة مقبولة لاعتقاله، وأعلنت حالة الطوارئ في حساباته على مواقع التواصل، ولو أنها رأت خيال إحداهن في أي تعليقٍ أعلنت الأحكام العُرفية، ووجهت إليه الاتهامات بالجُملة، ثم تُلقيه في الحبس الانفرادي بدون استجواب، فإذا لم تضع يدها على دليلِ الجنايةِ تُصِرُ على تفتيشِ رأسه، ومُصادرة جميع أفكاره وخصوصياته، والاستيلاء على كل أحلامه، وإذا لم تعثر على أحرازٍ تؤكد لها ظنونها فلا بُد أن هناك ذيولًا من تجاربه السالفة، علاقةٌ بائسةٌ جدًا عندما يرتبط الطين بالهبابِ، لذلك تأججت أنفاسه حريقًا، واعتصر هاتفه الأصم يكتب:

ـ «مريم»، مش كل يوم نفس الحوار دا، انتِ ما بتزهقيش!

تحجرت أدمعها وهي تقرأ، فتنبهت لها الأم، وأرادت أن تُشارك في حالة فرض السيطرة: سيبك من البتاع دا وكملي أكلك.

برطَمَتْ «مريم» اعتراضًا دون أن تنظر لأمها، فقد توحدت مع رسائل هاتفها، دائمًا هناك شيء ناقص بينها وبين «فارس»، فماضيه يُلاحقه كشيطانٍ فر من قلبِ الجحيم، وواقعه الذي يعيشه هو الجحيم ذاته، كتلة ملتهبة من الأضداد تجتاحها معه، تُغرِقُ فيها جوارحها وهواجسها ومشاعرها، دون أن يرِّف على خلدها أن تخرج منها، فتستمتع معه دائمًا بالإحساس وعكسه، فهو الذي أعطاها العشق بمنتهى الثقافة، وجعل منها حرفًا جديدًا يُضاف على حروف الأبجدية، وناقضت فيه

أفكارها بين تراب الحقيقة وبين فضاء الوهم، فانفصلت عن نفسها، ورجعت تكتب بعكسِ التحريض الذي ينتفُض في داخلها:

- يا «فارس» أنا بحبك وغيرانة عليك، حاسة بملل في علاقتنا، وعندي ضغط عشان أوافق على العريس المرة دي.
- قُلت لِك، لو اتكلمت هاضغط عليكِ أنا كمان عشان توافقي.
- انت مستفز جدًا على فكرة، ما اعرفش بتعمل كدا ليه؟!

استوطنت الشفقة ملامحه، وتوقف إبهامه عن ملامسةِ الحروف، لم يقصد ألا يجيبها، لكن هذه الفاتنة ـ مع سبق الإصرار والترصد ـ أمامه شغلته، فاضطربت البراكين على أعصابه، جعلت خياله يداعب الغمام المتقطع فوق جبينِ السماء، بتلقائيةٍ تحركت مثل السحاب في دورته الدموية، وألقَّتْ الشمس لتسكن عينيه وتُجَدِل أشعتها المضيئة في حدقتيهِ، تمعن فيها وتنهد حتى أفزع الصباح، فهو رَحَّال متعجل المشاوير، قدّرهُ أن يختبِئَ مِن النّاسِ في زِحامِهم، يجهلهم ويجهلونه، يركب قِطارًا سريعًا ليس له نُقطة وصول، مثل المهاجر، كأنه لاجئٌ يُفتش زوايا الأرض عن وطنٍ، يترك كل الوجوه التي يعرفها عندما تأتي محطاتُها، ويُكمِلُ الرحله وحيدًا شريدًا، فما بال تلك الرفيقة الجديدة تجذبه! وهو يُدرِكُ أن طريقه الأبدي هذا بلا نهاية، هل هُناك عاقِلةٌ تقبلُ بِالسّفرِ الغامِضِ معهُ؟! فكتب:

- تفتكري يا «مريم» فيه حد عايش علاقة زينا كدا؟! راجل متجوز ومراته حامل، وفي نفس الوقت على علاقة بواحدة ١٠٠٠ راجل يتمناها، يا ترى مين فينا العبيط؟!

ظَلَّتْ جامدةً، كتمثالٍ أمام شاشة الهاتف، تقرأ، وكل حرف مكتوب يقطر من دمائها، تذوق ألفاظًا كُتبت من وهجِ شرايينها، عباراتٌ أصابت الحلم -الذي كان يتكئ على وسادتها- في مقتلٍ، فضاق صدرها، وأخذت نفسًا عميقًا لتسمح للبراحِ بزيارةِ رئتيها، لقد ذَكَّرَها بالنار المضطرمة في المسافة التي تفصلهما، ولهذا دائمًا هناك مُبارزة كلامية بينهما، حالةٌ من فَشِ الغِل في كل شجارٍ تفتعله معه؛ لتشعر بأنه لها، وكأنما هذه هي التَرِكَة التي توارثتها النساء جميعًا حتى وصلت إليها، فهي التي مَشَتْ حافيةً على الأشواكِ كي تصل إليه، وتقبلت المرار الذي تتجرعه كل ليلة وهي تعلم بأنه في سريرِ غيرها، ثم جاءتها رسالته الجديدة:

- «مريم»، أنا معاكِ في قرارك.
- خليك محدد يا «فارس»، لو قُلت لي ما توافقيش هانفذ كلامك.
- عارف، وعشان كدا مش هاتكلم.

هي تعرف أن حديثه يحجب أكثر مما يكشف، ولكنها أرادت أن تقرأ تمسُكَهُ بها صراحةً، صحيح أن تسعة وتسعين في المئة من الفتيات تأتيهن يوميًا أكوام من طلبات الزواج، وفي الحقيقة لم يتقدم لهن أحد! لكن «مريم» لم تكن تدعي في الواقع، أما هو فقد رجعت عيناه -من بين أجساد العابرين- إلى الأخرى، كأنه تائه يبحث فيها عن الهدى،

وجد ريش أهدابها منسدل، قدرة الله تسكن تفاصيلها، إبداع الخالق بين حرفي الكاف والنون، «كن»، تلك الكلمة الإعجازية التي صاغت هذا الجمال، ظَلَّ يتأملها ويمسح خديها بنظرتهِ، يُغطيها بجفنيهِ، يمهد لها طريق من جحري عينيهِ إلى قلبِ بصيرتهِ، الغريب أن «مريم» صَمتتْ هي الأخرى، أخرستها جملته الأخيرة، وكأن سكوتها قد قصف ضلع من صدره وغرسه في روحه، فتمشى فوق الحروف الحائرات وكتب ديباجة لفظية خالية من الحِسِ:

ـ يا «مريم»، مش هاتكلم عشان «بحِبك».

«بحبك»، تلك الكلمة الوحيدة التي لا تُلمس إلا بالقلبِ، فزاد حجم الغيم على أحداقها، لم تقوَ على الاحتمال أكثر، وبمجرد أن ذهبت والدتها بالأطباق انهارت، أمطرت عيناها، تحول البريق المتلألئ فيها إلى دموعٍ، نبع لا يعرف النهاية، مجرد كلمات قرأتها لكنها وقفت كشظايا منثورةٍ في روحها، نخرت فؤادها، فلما عادت الأم وجدتها على ذاك الحال، فأسرعت نحوها بلهفةٍ، تضرب صدرها وهي تستفسر، حاولت «مريم» عبثًا التماسك، بعد أن أحرق الدمع وجنتيها، شريطان من لهيب تحركا بتكاسلٍ فوق جلدها، ووالدتها تضمها وتُربِتُ على كتفيها وتمسح شعرها، تُقَبل رأسها، تهديها بعضًا من الأمان، تُلملمها من شتاتها، تناست كل المنافسات الماضية لفرض السيطرة، ورجعت بلحظةٍ إلى طورِ الأمومة، لكنها تنبهت لصوت «مريم» الباكي يخرج بقلةِ حيلة:

ـ أنا موافقة على العريس المرة دي يا ماما، موافقة على «صبري»!



مرت النافذة الصاج -المخلوعة- بجوارها على حقول تتخللها المبان، وطرقات أسفلتية مفروشة بالكسور، وسيارات تشخشخ أجزاءها، وعربات متفرقة لقطارات أُحيلت للتقاعد، ثم تأرجحت وهي تستقر أمام لافتة مدهونة بالغبار كُتب عليها «رمسيس»، فتحت عينيها وأسكنت الرواية في حقيبتها، قامت بقدمين عاجيتين، وتحررت من لزوجة الكائن الذى استلمها كنبطجيةِ الغفير أمام دُوار العمدة في بلدهم، نظرت إليه وهي تمنع نفسها من القيء، رسالة صامتة تعني أن أمثالك في الجيزة محبوسين في أقفاص، تعرف جيدًا كيفية التصرف مع تلك الطفيليات، فقط لأنها تقرأ، فزودتها الكُتب بعصارةِ أفكارٍ عبقرية، وملخص تجارب جهنمية.

فلا خوف أبدًا على امرأةٍ قارئة.

تخطت عتبة الباب المنحولة وهي ترمي «فارس» بنظرة فهمها جيدًا، ورغم أن تلك الفرصة لا تضيع أفلت الطعم، تحاشاها، وفهمت هي معنى انشغاله في هاتفه، حركة قديمة استهلكت في أفلام فاقدي الإبداع، المنتمون لقائمة سؤال: «الفيلم دا قصة ولا مناظر؟!».

مُزة مع سبق الإصرار، مرتبة الشرف لو بحثت عنها في أي قاموس ستجد في التعريف صورتها، خرجت ومع كل خطوة فوق الرصيف المتآكل تجذب «لطخ»، أحدهم يبتعد وآخر يقترب، أحاطتها خلية نحل يلثمون من رحيقها ما يُلثَم، مظاهرة تحت قُبة المحطة الفولاذية المحشوة بالزجاج الأزرق الباهت، فغالبية الرجال ينجذبون لشكلِ المرأةِ الخارجي ويخشون عقلها، فهم مخلوقون بإمكانياتٍ ماردةٍ على النظرِ أكثر من التفكيرِ، خرجت من البوابة الحديدية التي تتخللها الأعمدة

المتوازية، أسفل السقف المُغطى بالرخام، وقد كُتِبَ على جبينه بحروفٍ بارزةٍ «محطة كوبري الليمون»، أخيرًا صفصف الموضوع على السايس الموجود أمام شركة البريد المصري، وجه أقرب لكوكب المشتري، ندوب متفرقة كغبار ذري، وجسد ديناصور أفلت من الانقراض، استلمها، تحرك خلفها كما الكلب وراء قطعة لحم طرية، بمحاذاة السياج التي تفصل عن الطريق، فتح مُعجمه الخاص في الغزل:

ـ مصر عليت أوي، الجميل شغال مضيفة، و..

ـ إيه التأخير دا! كنتِ فين كل المدة دي؟

مجرد عبارة جعلت الآخر يأكل باقي مفرداته، قالها «فارس» الذي سبقها، وينتظر في ساحةِ محطة رمسيس، يستند إلى المصطبة الرخامية التي يستريح فوقها القطار القديم الموجود كديكور في وسطها، وجهه غاضبًا جدًا ونظرته الحادة الدامية وطريقته الحازمة حبكت الدور، ظهوره بهذا الشكل كالصاعق الكهربائي، وأثره كان بالغًا على الشيء المرافق للبطل، هي الأخرى فهمت الحركة المستهلكة أيضًا في كثير من الأفلام، وتقمصت دورها ببراعة، حيث رسمت الجدية على ملامحها، ومثلت كما يجب أن يكون:

ـ مش أنا اللي كنت باسوق القطر على فكرة، ويا دوب وصلت حالًا، انت اللي استنتني هنا ليه؟!

المسلسل الساذج لاقى رواجًا له، ونجاح التفاهة والعشوائيات هي سمة هذا العصر، فَتَصَدَّر أشباه المواهب المشهد الإبداعي في مصر، وتم تنجيم الطُفيليات في كل مجال، ترويج مستهلك ـ بفعلِ فاعل ـ لأردأ أنواع البضائع، هزليات سخيفة مهترئة من كثرة الاستعمال، تحت مُسمى

الفن الذي يبرأ مما يُفعل فيه، لذلك أكل السايس المشهد، ملعوبٌ ارتجالي نثر الرماد في جوفه، فطقطق رقبته ووضع ذيله بين فخذيه وتقهقر، يعبثُ بأظافره في أنفه كمستكشفي البترول في دولِ الخليج، أما هي فابتسمت لـ»فارس»، وردَّتْ له نفس حركته وتركته وانصرفت، تَيَبَّس قليلًا في مكانه مثل أي صنم محترم، ثم ـ بلا تفكيرـ لحق بها، تخطى عشرات المارة متجنبًا حركاتهم الهوجائية واقترب منها، تنحنح:

ـ هو اللي كان جنبك في القطر دا مش معاكِ؟!

ـ لأ طبعًا، هو أنا رخيصة كدا!

قصفته! ومَطَّتْ شفتين كريزيتين، ثم قطبَّتْ جبينًا ينام أسفل منه الضحى، ولمحته بطرف عينها، تابعت تردده، فهو يُناقِضُ فيها استقراره وإرادته، فقد اعترف بأخطائهِ سلفًا وأَقَرَّ بشذوذِ أخلاقهِ، وتعهد أن ينتهي ارتباطه بـ «مريم» وألا يرجع لهذه الأفعال الصبيانية، ولكنه ها هو يعود لعكسِ قراره! كخرقةٍ يمسح فيها عرق علاقاته فلما تجف يكرر أفعاله، حياته جوفاء، مُصطنعة، تُعبِرُ عن مسلسل النُسَخ المُزورة التي يتقمصها ويعيش عليها، قد يكون تصرفه بادئ الأمر كشهامةِ رجل، لكن، يتساءل الآن ـ في تلك اللحظةِ تحديدًاـ ما الذي دفعه للحاقِ بها؟ وما هذا المدخل المبتذل للحديث معها؟! صحيح أنها أنثى استثنائية تُحرك الشعور في حنايا الحجر، لكنه قَلَبَ الإحساس البَتُول إلى ثرثرةٍ فارغةٍ، لا تُعبر عن كم الأشياء الراكضة في لُبِهِ، يتمنى لو أنه صمت وتركها تمضي، وللصمتِ المفعم بالحِسِ إمكانية أعظم على التأثير.

ـ مش قصدي كدا على فكرة، خالص، أنااا، أنا ـ أحم أحمـ أنا «فارس».

قالها متبلبلًا كتلميذٍ خائبٍ أمام مُعلمه، فغمزته وابتسمت: ما سألتكش على فكرة!

تنحنح «فارس» ثانيةً، إحراجًا، وهَمَّ بقولِ شيءٍ ما عندما قاطعته باستفزاز: بس مش باين عليك «فارس» خالص!

تذكرة عبور، فابتسم واثقًا وردَّ لها الغمزة: هو يعني لازم أكون راكب حصان عشان أبقى «فارس»!

- اسمك وحش جدًا.
- انتِ اسمك إيه؟
- مش ممكن تدور على اسم تاني؟! (كأنها لم تسمعه).
- هو دا الاسم الوحيد اللي في بطاقتي!

خطواتهما أخذتهما إلى الميدان، تحركا يتناقران مثل الديكة تحت الشمس، يُسابقان ظليهما فوق الحجارة المحدبة المفروشة على الأرض، حتى خرجا وسط الزحام إلى أسفل كوبري «أحمد حلمي» من جهةِ اليسار، في الطريقِ بين الأكشاك القديمة المنسية، مكعبات مستندة على بعضها، بلا هوية ولا تاريخ، وعلى جانبيهما مواقف سيارات الأجرة، فتأملها «فارس»: منين؟

- من «الوراق» تعرفها؟

هناك أمرٌ عكر صفو ملامح «فارس»، وجعل عينيه تحملقان في اللا شيء وهو يجز أسنانه، ثم قال بغيظٍ مكتوم: أكيد.

توقفا أمام سيارة «سيرفيس» لها سقف ساقط، وصاج مملوء بالخبطات، فابتسمت بسخريةٍ: ماتتفضل معايا!

بلا مبالاة سبقها، ودلف من باب السيارة المخلوع قائلًا: هو دا اللي هيحصل فعلًا.

تابعته مندهشة، نظرتها له تهزأ بالحدود، تعبر خلف حواجز روحه، وفي نفسها تؤكد أنه سينتزع دور البطولة في قلبها، سيدخل المكان الشاغر الذي لم يستطع أي كائن من كان أن يظفر به، فالجميع قد مروا بسلامٍ من أمامها، فما باله يُريد اقتحامها؟! ذلك الـ «فارس» يقف أمام أسوارًها العالية كـ»أخيليس» في «Troy»، يتفوق على «Brad Pitt» نفسه، ويتسلل بعنفوانٍ داخلها على «حصان طروادة» قائلًا:

ـ هتركبي يا آبله ولا لأه؟!

كان ذلك صوت السائق الذي يقف خلفها، ينظر لتلك البُلطية التي فرت لتوها من المالح، بملامحه المعجونة وبشرته التي اقترن لونها بلونِ الأسفلت، فجأة هرب الحصان، واختفت الواحة التي كانت تقف فيها، وتهدمت المعابد في المشهد الأخيرة من الفيلم، وانتشرت النيران مع صوت صراخ أهل طروادة وهم يُقتلون، واقتحم الخلفية عراك مجهول الأطراف، تعالت ألفاظ لم تكن لتتخيلها في ذلك المشهد، واختفت الموسيقى التصويرية وسط نداءات التباعين والباعة الجائلين، عادت الحياة فجأة إلى طبيعتها، بكل قسوتها وعيوبها، لم تجبه، فقط أنزلت المقعد «القلاب» الموجود بجوار «فارس»، وركبت، تجاهلت نظراته العميقة لها؛ لكن فؤادها اكترث، فابتسمت، بشفاهٍ يُصلي عليها الضوء والعبير، زمجرت السيارة وانطلقت مُخلفةً عادمٍ؛ يكفي لتشغيل مصنع الحديد والصلب.

2

«بكالوريوس تجارة» قسم تسويق، سنة التخرج ٢٠٠٩، متزوج، يعمل مدير مبيعات لمكتب استيراد وتصدير أحذية، مهنة كانت مُلازِمَة له طوال عمره، بدأها بمساعد بائع، وتدرج في مهنته وانتشر على محلاتٍ مختلفة، امتزجت خبرته بمؤهله، وهذا اختصار لتعريف «فارس»، الذي تحرر من سكون بيته وانطلق منذ صغره ليستكشف الحياة، فتح صدره للدنيا بما فيها، ولم يعبأ بالصعوبات؛ لأنها خُلقت من أجلِ التغلبِ عليها، ولذلك يعتمد دائمًا على نظرية اضرب على الحديد وهو ساخن، يعرف عمله جيدًا، يُمارسه باستمتاعٍ في الحقيقةِ، فيلجأ إلى اختصار المسافات دومًا، إذا تحدث «الجنيهً» يصمت كل شيء، يلمح لُعاب كل عميل بطرفِ عينيه، ومهمته فقط تسليط الضوء عليه، لذلك لا يدخل في أي صفقة إلا ليكسبها فقط!

اشتهر وسط السوق بأنه رجل الفرصة الأخيرة، يتعامل بعد أن يُذاكر هدفه، يعرف ميوله واتجاهاته واحتياجاته وطلبياته ويركز عليه، لديه قوائم بأسعار وكميات البضائع لدى الشركات المنافسة، فيدخل

من باب «المصلحة» الذى لا يُغلق أبدًا، وينثر الملح فوق جروحهم، طريقه غير متوقع، حركته بهلوانية مثل أفاعيل الجان، مرسوم على وجهه ابتسامة نفاق أحيانًا، مع عرضٍ لا يمكن رفضه، روتين يومي من مكان لآخر بديباجةٍ متنوعةٍ، وعلى طريقة الملاكمين، يخطف، لكن بالكلمة القاضية، يُمارس رتابة تُنافس رتابة دقات قلبه، يتحدث بإلحاحٍ مزمن، مثل زن كيس بلاستيكي تشابك في إطارِ دراجة لطفلٍ صغير.

المادة الخام للملل هي حياة باهتة، كيوم يكرر نفسه بلا توقف.

وكلما فات العمر انكمشت أعداد من ينسجم معهم، لذا قرر «فارس» التمسك بصديقه الوحيد «محمود شبانة»، ذلك الجريد الذي أكلته الشمس، أسمر اللون بوجهٍ مثلثٍ رفيع مع لحية كثة، وشال فلسطيني يُعبر عن تحالف الشعب، يرتدي قُبعة الليبرالية، وتحتل كلمة «رفيق» حواراته، قميصه المربعات مولود به، وسيجارته كالحبل السري للجنين، ينشر جوًا يختلف طعمه مع دخانها، عاشق للمكيفات، رجل الشدائد، الثائر، الذي يؤمن بنظرية المؤامرة، ويتطرق حديثة إلى الإنقلاب المضاد والطرف الثالث والطابور الخامس، يحتفظ بصوره في كل مكان شهد أحداثًا غيرت مصر، في ميدان التحرير أثناء ثورة يناير وحركة يونيه، يحكي دومًا عن بطولاته في «شارع محمد محمود»، ولا يثق أبدًا فيمن لم يمر فيه! لديه حساب «Facebook» تقرأ عليه منشورات من نوعية:

- «اتنين ما لهمش أمان..العسكر والإخوان».

لَفَّ مع والديه وشقيقاته دول الخليج، ولما رجع لم يُصادق إلا «فارس»، فلعبا الكرة في الشارع، هشما معًا -كثيرًا- زجاج جارتهم «سعدية» العجوز؛ المولودة من قبل الميلاد وتعيش بمفردها، رفيقا

درب منذ المرحلة الإعدادية، التي بدأ فيها شارباهما يخط في وجهيهما مثل عفانة لا تزول مهما غسلاها بالماء، سخيفان مراهقان لهما نفس حَبُ الشباب، ارتباط «محمود» بالمنبهاتِ كارتباط رائحة القدم بالشراب بعد مباراة على ملعب تراب، بكالوريوس نظم معلومات ويشغل رئيس قسم الصيانة في شركة هواتف محمولة معروفة، ينافس «فارس» على تشجيع النادي الأهلى، يتقبلان بعضهما بكلِ طبائعهما المتقلبة، ورُبما لم يبقى في عمرهما ما يستدعي التفتيش عن بدائل لصحبتهما، في كل مساء يجتمعان، فيتسامران في مجاهيل حياتهما وهما يضخان الكافيين.

ـ القهوة يا «محمود».

أمه من شرفة المطبخ تصرخ عليه كعادتها: ثوان هاجيب القهوة، امسك «الزخروف» دا عشان ما ينطفيش.

قالها «محمود» وهو يناول «فارس» سيجارة محشوة بمخروط «حشيشي» له رائحة مميزة، وترتفع من مقدمته ألسنة دخان ملتوية، ثم قفز من مكانه، فتابع فارس مبتسمًا بسماجةٍ: ما تخليه في إيدك.

ـ عايز أمي تشوفني فتعلقني أنا وانت!

غاب لحظة، ثم عاد يحمل صينية ترتعش فوقها الأكواب، وضعها أمام «فارس» الذي نظر لها متعجبًا، كمية من القهوة مسكوبة وبقايا بُن وأكواب متسخة، فنظر إلى «محمود» بتقزز: هي أمك دي عشان تشربنا كوبايتين قهوة هتذل أهلنا كدا!

التقط «محمود» كوب القهوة: اطفح وانت ساكت، مش كفاية إنها مستحملة قرفك كل يوم.

قربها من أنفه يتشمم رائحتها وتابع: ثم أنا اللي دلدقتها ع الصينية مش أمي.

ذاق المشروب العجيب في استمتاع: شوية قهوة بقى ما تقولش لعدوك عليهم، ادلق في بطنك وادعيلي.

رشف «فارس» منها فامتعض: شوية قهوة زيماية الغسيل، فعلًا عايزين الدلق.

«محمود» إذا لم يتطرق حديثه إلى المرأة يكون في حالتين لا ثالث لهما، الأولى عندما يموت والثانية لم يستدل عليها بعد، لذلك تجد أن العنصر النسائي له كبطاقة تحديد الشخصية، و»فارس» يفهم مصطلحاته: مش هارتبط بقى ياد يا «فارس»! عايز أبل السفنجة.

- بلاش يا ابن العبيطة، العنصر اللي مش مرتبط دا «عنصر نبيل».
- يا رفيق أنا «محمود» مش «نبيل»! ثم دا في الكيميا يا «فارس»، أنا بقى راشق في أي أنثى.
- على أساس إني ما اعرفش، هو انت بتفتح مواضيع تانية غير الثورة والنسوان!
- بقولك أي أنثى، والثورة والنسوان مؤنث ومرتبطين ببعض، واحنا كرجالة الأنثى في حياتنا بتحصل مرة واحدة في العمر، وتقريبًا ما بتتكررش، عشان كدا احنا متشعلقين في الثورة، مرتبطين بيها، مش قادرين نستغنى عنها؛ لأنها مؤنث، واحنا بنضعف جدًا مع المؤنث، ولأننا عارفين إن الست الصح بتحصل في العمر مرة، وغالبًا بتكون في

الوقت الغلط، برضو حصلت معانا الثورة في الوقت دا، مع ذلك لسة لدلوقتي ماسكين فيها، مش متخيلين إننا نعيش حياتنا من غيرها، الست الصح بتجيلك زى الثورة بالظبط، تشقلب كيانك، تخليك تناقض كل أفكارك، صدقني يا رفيق الثورة والمرأة وجهين لنفس العملة، احنا كرجالة بنعيش العمر كله عشان فرصة تجمعنا بواحدة فيهم، بس تكون في الوقت الصح.

«فارس» غامزًا: بمناسبة الوقت الصح، هاحكي لك على حوار حصل معايا ومايدلدقش منك.

«محمود» صانعاً دائرة دخان: لو له علاقة بالشيء أنا معاك.

- وانا مسافر بالقطر اتكعبلت في حتة بنت، اتعملت عند العبد بتاع الحلويات، مقطوعة من «ريبيكا فيرجسون».

فز «محمود» من مكانه يصفق كالطفل ويهتف: أموت أنا، بس يا عم اتلم، مش انت متجوز ومراتك حامل وكمان مصاحب و..

نفس التفاصيل الملعونة التي حشر نفسه فيها، فـ»فارس» يعرف صديقه جيدًا، يغطي بالهزل على الحديث الجاد، فيصُب الحقيقة المفزعة في قالبٍ من الفكاهة، كي تتقبلها النفس المضطربة الأفكار، يشعُر به يقولها من بين الكلمات، وما الهرج المصطنع هذا إلا غِطاء تمويهي للرسالة التي يُريد إيصالها، فالألفاظ خُلقت للتعبير عن أشتات الحيواة المادية، وهي مُجرد نتوءات ورسومات مُتفقٌ عليها لوصف ما يُرى، ولكن، في العالم الداخلي الذي لا يُبصر إلا بالذهنِ، سماوات الأفئدة الواسعة العالية، السرائر الدفينة، تلك الكيمياء العجيبة التي

تكشفها له نظرات صديقه، تتبادل الحزن معه على العمر الضائع، فيبتلع مأساته صامتًا مع طعم قهوته المُرة، فهي التعويض العادل عن كل خيبات الحياة، وهو مضطرٌ لمسايرته كي لا ينكسر بينهما شيء، سمعه يقول:

ـ تتكعبل في حتة زي كدا ليه، ما أنا موجود أهو ونيتي سليمة وربنا.

ـ ما تتهد بقى يا «محمود»، أنا حواري مع «مريم» ملغبط، مش هينفع أكمل معاها، هي بنت جميلة ومحترمة، وكمان خارجة من صدمة، وأنا عملت اللي عليَّ معاها، ما انت فاهم! وهي مش هتستحملني، وكمان حد متقدم لها، «وكيل نيابة» وكدا، وانا باجيب ورا من المناصب دي.

جدَدَّ «محمود» إشعال سيجارته، وسحب نفسًا عميقًا قبل أن يرسل عمود دخانه للسماء بحماسٍ: الكلام دا كان قبل يناير يا رفيق، دلوقتي كلنا سواء في البلد دي، ومحدش يقدر يهددنا، وكمـ..

ـ يا عم اخرس؛ انت ما بتصدق وتفتح على الرابع، هتسمع الباقي ولا أقوم أروَّح؟

ـ لأ قوم روَّح؛ لأن الحوار اللي بتحكيه بتاع «ريبيكا فيرجسون» دا مش داخل عقلي، عشان بتقول وانت مسافر بالقطر، هي «مشتول» بلدنا بتطلع منتجات تقفيل مستورد كدا.

ـ عقل مين يا «محمود»، هو انت عندك عقل؟! يا حبيبي انت تقفيل جديد، موديل نازل إصدار واحد، ومالوش «Update»، حاجة كدا من غير عقل.

- كمل يا «سي فارس»، لما نشوف آخر الهبد دا إيه؟!
- طلعت من «الوراق»!

قالها «فارس» ضاغطًا الحروف، قبل أن يقوم ليتمشى وهو يحُكّ كفيه ببعضهما ليجلب بعض الدفء، ومن خلفه تيبس صديقه وتدلت السيجارة من شفتيه، هو لا يُصدق ما يسمعه، فـ»الوراق» منطقة تحمل ذكريات شاطحة بكل تهور المجانين، لذلك ظَلَّ متجهمًا صامتًا كي يعرف ما يُخبئه «فارس» في جيوب حكايته، ونقر خطوات الأخير ـعلى السقفـ يدُق في أذنيه، ثم توقف على حافة السور الوردي يتأمل الطريق، والسيارات المارقة التي تتحدى الصقيع تسافر في عينيه اللامعتين، قبل أن يلتفت إليه متابعًا:

- قُلت أجيب معاها كلام، الصراحة وقعت قدام جمالها، ولغيت في ثانية قرار اعزالي للجنس الناعم، يا «Bro» ضحكت سنانها بَرَقت في الشمس، أنا كنت تقيل عليها شوية، حتة على طرف المعلقة.
- لأ وانت تقيل أوي بروح أمك!
- شكرًا يا محترم، المهم لوعتني شوية، وما رضيتش تعرفني اسمها، ما تفهمش روحت راكب معاها الميكروباص اللي بيروح «الوراق» ازاي؟! انت عارف إني بقالي سنتين ماروحتش هناك، من ساعة «الحوار إياه».

لاحت لـ»محمود» لحظة من الذاكرة، جمعته بـ «فارس» في نفس مكانهما الآن، وصديقه يقُص عليه المصيبة التي حَلَّتْ به في «الوراق» يومها، يذكر وجه «فارس» المهترئ كالأقمشة القديمة،

ونظرته التي يسكنها الرعب، وكلماته المبتورة؛ ناقِصة الحروف مثل أحاديث الصغار، ورغم الهواجس التي تحوم بداخلٍ «محمود» فإنه لم يتمالك نفسه، نحى توجسه جانبًا وانفجر ضاحكًا حتى دمعت عيناه، كأنه تذكر نِكات من سنين، لدرجة أن كوب القهوة ارتج في يده، من ركوعه وقيامه، لم يحترم سر صديقه في ذاته، فسمعه بلا آذان وفهمه بلا نُطق، الكوميديا السوداء في صورتها المحلية، فقاطعه «فارس»:

- إيه يا روحها الحلاوة اللي انت فيها دي؟! تصدق أنا غلطان، أنا ماشي، أبو معرفتك.

تحرك «فارس» من مكانه بتردد مجرجرًا قدميه، فى حين تماسك «محمود» قسرًا، وأمسك فيه بيدٍ وبالأخرى نفض ملابسه: أنا آسف يا حبي، وربنا ما عرفت أمسك نفسي، أصلك فكرتني بحوار -يا ديني- دا مابيحصلش حتى في الأفلام.

نظر له «فارس» بحنقٍ، وعضّ شفته السفلى وجز أسنانه، لكنه أكمل حكايته: المهم بقى يا عم مشيت في «الوراق» وراها، من شارع للتاني وانا باتلفت حوليا من الخوف، وقبل بيتها بشوية لقيتها التفتت ليَّ وقالت: «اللي بتعمله دا ما ينفعش، هنا ممكن يعلقونا»، بيني وبينك كنت هاقول لها: «لأ وانا مجرب»، المهم ما سيبتهاش غير لما أخدت رقمي وقالت هتكلمني، بعد كدا روحت لتاجر هناك اسمه «سامي جمعة»، كنت عايز أروحله من فترة، وانا طبعًا خايف أنزل «الوراق» فبما إني هناك قُلت أخلص معاه.

قام «محمود» وأرسل السيجارة إلى مرقدها الأخير، ونفخ ما في صدره من دخانها، وهمس له مبتسمًا: طب ما لهاش أنتيماية؟!

ـ انت مواليد برج الحمار وربنا، قُلت لك أخدت رقمي مش أنا اللي أخدت رقمها، وقالت هتكلمني، الحوار كله معاها.

ـ هتذل أمي أنا عارف لو انت خلصت في الحوار دا، طب إلهي تطفحها بالسم الهاري يا عم لو ما رشقتني في أي حتة من طرفها، بس تكون بنفس التقفيل بتاعها دا.

ـ تعرف، بعد خبرتي في الجواز يا «حودة» أحب أقُلها لك بطريقتك، المفروض إن لكل واحد مصري يكون له اتنين، واحدة حكومي وواحدة ثورة، تتجدد كل سنة، تسقط الحكومة وتعلن تشكيلها من جديد، وتفضل تطبطب على الشعب اللي هما احنا كرجالة.

ـ شوفت بقى ميزة الثورة، اعترفت أخيرًا.. بس تعرف؛ تفسير الحكومة والثورة دا منطقي، لأ وعميق بزيادة.

ـ بس انت ماتنفعش.

قالها «فارس» جامدًا، لكن خانته ابتسامته، فلكزه «محمود» وقال: ليه؟! أكتع دا أنا «أباتشي» يا رفيق، وهتشوف.

ـ مش قصدي؛ أصل انت ما عندكش «High Level»، كأنك بالونة ما بتقولش لأ، بتاخد هوا عمال على بطال، أنا عندي واحدة تدخل وواحدة تخرج، لحد ما ربنا يتوب عليَّ.

ـ أنا بس أتجوز الأول وهاخرم البالونة دي.

- يا حبي خدها نصيحة مني، لازم تتجوز وانت لسة صغير، لأنك لما هتكبر هتعقل واستحالة تفكر التفكير دا.

هذه هي بِطانة الطلسم التي تُغلف «فارس»، يتنقل من سَيّءٍ إلى أسوأ، وقد تقبّل كونه بشريًا يضطرم بداخله آلاف الشرر، خلع عن بصيرته قناعة أنه الفلتة أو المعجزة، فتبدَّل بهدوءٍ مُحبٍ إلى مجرد آلي، يعد الوقت كي يمر، ولذلك أخذ إجازة من عاطفته وضميره، فلم يعي أن روحه مخزون رباني، حدث ذلك لمجرد خطأ واحد ارتكبه في العشرين من عمره، حاول أن يُقنع كل من حوله بتقبلِهِ لما آلت إليه الأمور، ولكنه للآن يدفع الثمن من حياته وحياة من معه، وما كانت علاقاته كلها إلا ترويضًا للوحش بداخله، يعرف أن ما يفعله وجه قبيح للظُلم، ولكن ما يتغلغل في شغاف الفؤادِ أَظْلَم! انتشلته ضحكات «محمود» الذي قال غامزًا:

- سيبك مني، المهم شوف حالك قبل الـ «Valentine»، عشان تقضيه مع صاحبتك الجديدة.

فضربه «فارس» على مؤخرة رأسه وقال: «Valentine» إيه يا جدع! ما دايم إلا وجه الله.



- «فارس».

زاحم النداء أفكاره وهو يجلس في شرفته كالمعتاد، تسرب اسمه بهدوءٍ إلى خلوته، لا يعرف عن الوحدة أكثر من أنها تجعله يغزل بالنار، تنفرط سنوات عمره لاهثةً في خياله؛ مثل حبات مسبحة مقطوعة، يسمع صاحبة الصوت لكن تناديه قوة أكبر بداخله، ويدغدغه أكثر من خاطر،

فتاريخه الرتيب يمر من بابِ الخراب، بلا أمجاد، مجرد عابر وسط الآلاف، حتى أحس بيدٍ كسنونوةٍ حَطَّتْ على كتفه لتبني عشها، تلمسه بلا لماذا ولا كيف؟ كما السفينة لا تطلب من البحر إذنًا، ولا تسأله متى يعتريها الدوار؟!

إنها «يُسرا» زوجته، صِفَةُ الفردوس تحت أجفانه، المادة الخام للمودة والرحمة، وجه الونس الذي يُعمر البيوت، الكفُ التي تمسح عنه غبار الألم، أرجوحة تحمله إلى حيث يفنى الزمن، التي عشقته، رجلًا تركت في سبيله الدنيا بما عليها، باعت لأجله عمرها كي تربحه، باقي بضعة أسابيع ويكمل زواجهما العام الخامس، وهي تُحاول أن تكون له الوجود كله، تؤمن بجمال ما فيه من قُبح، وتتلذذ بما يُسببه لها من ألم، وتضمه كأمه عندما يعود منكسرًا؛ معترفًا بخطاياه، تغسله، تُطهره من إثمه، وفي تلافيف حشاياها يدور جنينهما الأول، يدُ القدير تُشكله، أيام ويكتمل شهره السابع، جزء من «فارس» ينبت في جسدها، «يسرا» ليست كأي امرأة.

امرأة دافئة، يشتعل في صدرها حطب النجوم الساهرات.

احتملته، تنفست الهواء الذي رفضته رئتيه، سمعت صراخه الذي كتمته شفتيه، حررت قشرة المسئولية عن وجنتيه، وتقمصت هي دور رُبان السفينة، تهواه، ترشف كل مساء عرق جبينه، وتُفرِغ في روحه طاقة تُنَظِم حياته، كورود المزهرية التي تستريح على شرفته الآن، لا تطلب منه شيئًا، وتمنحه لمسة الجمال وعناق العطر، قدمت الطعام لـ»الكلب» الرابض في بيته الخشبي بجانبهما، و»فارس» يُتابعها وهو يمسح حلقه

بالبُن، جامدٌ كما التماثيل، لكن جلده ارتعش عندما تحركت أناملها كالتاجِ فوق يده، تابعت:

- ما زهقتش من وقفة البلكونة دي؟! يلّه ندخل من الصقعة ونقعد مع بعض.
- حاضر يا «يسرا» أنا داخل.

قال جملته بلسانٍ ملول، وابتلع باقي قهوته، ثم وضع يده على خصرها في هدوءٍ ودلف معها للداخل، شقة صغيرة لها ذوق بسيط، وأكبر مستويات الروعة تكمن في البساطة، أريكة على شكل حرف «L» تحتضن منضدة دائرية في الصالة، على اليمين مطبخ ودورة مياه، وعلى اليسار غرفتان للنوم وأخرى للأطفال الذين لم يصِلوا بعد، ألقى بجسده على الأريكة وفرد ساقيه فوق بعضهما على المنضدة، وهو يتابع بعض الأخبار؛ التي تتسرب كالنمل في التلفاز الذي يتوسط الجدار أمامه، الدنيا مقلوبة، أكوام من التقارير تخُص الطائرة المصرية التي اختفت عن شاشات الرادار، برامج محشوة بحكايات الكارثة، وأحد مقدمي البرامج يستقبل اتصالًا تليفونيًا من خبير القانون الدولي «كامل العيشي» رئيس نيابة نصر الدين سابقًا، ليدلي بدلوه في الإجراءات المتبعة في تلك المواقف.

جَلَسَتْ إلى جواره، أراحت رأسها على كفيها، تتأمل جانب وجهه المبهم، أهزل ما في الحياة أنها لا تُدرك خفاياه، بعد سبع سنين عجاف «خمسة زواجًا + اثنتين خطوبة» ما زالت تجهل أفكاره، يا لهذا الرجل! يكون بالقرب منها جسديًا فقط، ولكن يفصل بينهما ألف باب، كأنه

في سرداب طويل تنطفئ فيه عينيها، كحرفٍ تاه في كتاب، اقتربت منه، خبأت نفسها تحت ذراعه.

تُمارس هوايتها في توزيع علامات الاستفهام حوله، حزمة تساؤلات ما زالت تعصر عقلها وقلبها معًا، هل هو حقًّا هانئ معها؟ سعادة الهناء المرادفة للسكينة التي تتعارض مع الشوشرة، لكنه أبعد ما يكون عن غبطة الصلح مع الدنيا أو معها، فهو يستر هشاشته وراء السكوت العميق، ولكنها تشعر بالغليان في أنفاسه، فهل وصل إلى الإيمان بالعدالة التي خُلق منها الوجود كله؟ أيُحبها؟! أحد أكبر المسائل التي عجز الزمن عن حل شفرتها، مساحات ملتوية من الطرق لا تؤدي إلى شيء، فقط ضياع يجرح صحو خُلدها، تستجدي لحظة يكون بجوارها، فحُجج غيابه دائمًا حاضرة، مشغولٌ بطبيعةِ عمله وحياته الصاخبة، تتسول الحديث معه، فيسأل ببرودٍ عن أخبارها، ويعود لصمته بعد أن يلقي عليها ابتسامة مشكوك فيها، تمتمت وهي تسكن في ضلوعهِ أكثر:

ـ «فارس» ليه أكتر وقت بتكون بعيد عني هو وانت جانبي؟!

ـ انتِ ليه اشتريتي الكلب دا يا «يسرا»؟!

هكذا هو، يتفنن في تبديل دُفة الحوار معها، صحيح أنهما لم يتناقشا في أمر اقتنائهما لحيوانٍ أليف، بالرغم من أنه يعرف ولعها بنموذج الحياة الأجنبية، لذلك فوجود الكلب شيء ضروري لها، أما في حقيقة الأمر فهو يبغي الحياد عن مسار السؤال، فليس لديه عزمٌ للرد عليه، أراد الالتفاف حول الإجابة كعادته، لكنها لم تُمهله فرصة للركضِ بعيدًا عنها، فعاجلته: أنا لوحدي دايمًا يا «فارس»، ومحتاجة

ونس معايا في الشقة، لأنك على طول بعيد عنى؛ حتى وانت جانبي أهو، عشان كدا اشتريت الكلب، وكتبت لك ورق كتير عشان أعرفك، بس انت كالعادة ما بتهتمش باللي باكتبه، انت مش معايا أصلًا، وبلاش تغير موضوعنا لو سمحت.

ـ مفيش داعي للكلام الكبير دا يا «يسرا «.

قال جملته مغمغمة كإنسانٍ آلي، دون حتى أن يلتفت لها، ما زال مأخوذًا كالمجاذيب، تعلق باله بصوت «كامل» عبر مداخلته التليفونية في البرنامج، زاد ضغطه على احتمالها، فخطفت «الريموت» وأغلقت الشاشة صارخةً: اطفي الزفت دا واسمعني بقى!

اعتدل في جلسته وترك نظره ينام في عينيها، آه من تلك النظرة؛ لطالما عشقتها، تعلقت بتلك الكلمات التي لا تخرج من بين شفتيه، وتلمحها تغتسل في بريقِ عينيه، رغم ذلك لا تفهم ما تحتويه، يصعُب عليها ترجمة الألفاظ المتوهجة في حدقتيه، فدائمًا ما تحمل إليها المعنى وضده في نفسِ الوقت، نعم طريقته في تأمُلِهَا؛ تعويذة تسلبُ إرادتها دومًا، طُلسم يُروضها، تَبُخُّ في نفسها أبخرةِ السلام، رغم غموضها الذي يزيد من رونقها، «فارس» بالنسبةِ لها هو اختصار لكلمةِ رجلٍ، دخل عالمها بتلقائيةٍ لم تعهدها، وباندفاع طفولي، أحبته مهما إليها أساء، تعلَّقت به، ومَرَّ بها العمر وهي تزرع أظافرها في جلده، تتشبث به، فقد اعتبرته ذلك الأمر الذي يحدث في الحياة مرة، لذلك رهنت نفسها به دون احتراس، حتى عُقد قرانهما، واعتقدت ـ ولو لفترة ـ أنها امتلكته، ولكنها أيقنت انها أطبقت قبضتها على الماء، انساب من بين أصابعها، هذا الـ «فارس» مازالت تسأل ماذا يكون؟!

أتاها صوته؛ ليلقي بذُور الخصب في نبضها البور: نعم يا حبيبي، أنا كُلي ملكِك، وهافضل دايمًا جنبِك.

«حبيبي»، كلمة من خمسة أحرف، كل حرف يساوي عامًا من عمر زواجهما، منذ أن وطئ «فارس» أرضها، حرر بداخلها النغم، الحلم، الانفعال، حرر بداخلها الغريزة، نقل إليها كهربة جميلة تصدم أعصابها، نظرت في عينيه، تسأل في مخيلتها، هل هي كما يدعي؟ هل هو فعلًا ملكٌ لها وبجانبها؟ آه من ذلك الغموض الذي يلاحق كل فعل أو قول يصدر منه، فهو رغم كل شيء سندها، أوجعتها الإجابات الفارغة، اغرورقت عيناها، ثم تحررت جداول العبرات على وجهها، كعادتها كلما اقترب منها، لا تعرف لارتجافتها تفسيرًا، أهو ملمس يديه وهي تمسح دموعها؟! يُغلف الضباب كل أحاسيسها ناحية تصرفاته، لكنها تعرف أن مجرد اقترابه منها يُخرِجُ من مسامها الريحان، يروي ظمأ جذورها فتتورد أغصانها، ومع كل لمسة منه تعود المشاعر البِكر إلى فؤادها.

أما هو، فقد أسكن رأسها بين ذراعيه، كباقة أزهار تُجمِلُ خشب صدره الجاف، ثم تأمل وجهها المنمق، وبريق المطر الأسود في حدقتيها، واحتضن وجنتيها براحتيه، تمشى بأنامله فوق غمازتيها، تأمل شفاهها المضمومة كقلبٍ صغير نبت في وجهها، كأنها مرسومة كي يُغرم بها كل مُبحِرٌ في عالمِ النساء، نظراتها إليه شهية الأحلام، ساحرة، قريرة، تُشبِه لقاء الملائكةَ عند أبواب الجنة، وفي كل مرة يُقابلها يفقد ذاكرته ويولد من جديد، لمعة عينها نفضت السطور في خياله، نبشت بين الحروف وخلف الفواصل، أدارت الدنيا بداخله حول نقاط تدور، وجَلَدَ ذاته، يا لقسوته! يترك تلك الجوهرة ويعبث مع غيرها، يستغفر الأقحوان أن

يجرحه، هذه امرأة أسوارها طاهرة، وفي أرضها ينام الشرف، حرب نفسية مسنونة السيوف بداخلِه، تذبح كل مشاعره وتخلع ضميره من جذوره، امتلأ محجره العصي بالدمع فجأة، ما زال جزء بشري فيه لم يمُت، يحيطها بجسده ليشعرها بوجوده، لثم شعرها الفاحم وأرسله خلف أذنيها، فك قيد أجزائه، ونكش أكوام المفردات في عقلِه، تاه، فترك العبارة تنسال دافئة بحريق تنهيدته هامسًا:

- يا «يسرا»، أنا ما اقدرش استغنى عنك، انت هديتي من القدر، ربنا كافئني بيكِ عن تعب عمري.

تنهدت، فعلى قلبها غشاوة عن كل خطاياه، مع أنها ليست مُغفلةً لكنها فقط تُحبه، وشوشته: انت بتكذب عليَّ!

فجميع الرجال كاذبون دائمًا حتى يَثبُتْ العكس، لكنه لا يُثبَتْ أبدًا.

ضَمَّها أكثر، وبين نبضاته آلاف المعارك التترية، يتساءل الآن لماذا يخونها؟! سؤال بحجم معاناة شهريار لو أنه يعي مرارة المعاناة! ويشُم رحيقها؛ كأنها زُنبقة تنام في صدره، فيُقلب ملفات النساء في دخيلته فلا يُدرك الاختلاف بينهن، يدخر كراكيبًا شعوريةً من تجاربهِ تملؤهُ حزنًا وغمًا، وبقايا عنيدة من كرامتهِ المثقوبةِ، تأبى الاعتراف بكونه صاحب دور النذل في حياةِ كل من عرفهن، وأولهم زوجته، والآن يستفهم في جوارحه عن الفرق بينها وبين غيرها، فلا يجد! غير أن الأخريات يتمتعن بوهم الضفةِ الأخرى؛ التي يَرَى عشبها أكثر اخضرارًا -دائمًا- من ضِفتها، ولذلك يتحدى الأمواج من أجل أن تطأها قدماه، وفي النهاية يجلسُ هناك مترقِبًا كالمُحتالِ؛ يبحث عن دربٍ مُبتكرٍ

للرجوعِ، يبدل الحقائق ويُلفق الأدلة ويزور الحُجج، يُتقِنُ تمثيل الأدوار الكاذبةَ، ثم يعود! قد تكون مشكلتها الوحيدة أنها تُسامِحه، فتغفر له كل آثامه، وأحيانًا يكون العفو من سوءِ الفِطن، تمتم:

ـ حد يكذب على نفسه؟! لو كذبت عليكِ الهوا يخاصمني، قلبي يخرب، يا «يسرا» انتِ ساكنة دمي.

ـ نفسي أصدقك يا «فارس» زي زمان!

ـ المشكلة بقت فيَّ أنا، تقريبا مابقيتش رومانسي.

ـ انت طول عمرك مش رومانسي أصلًا يا «فارس»!

أخرجت رأسها من بين ضلوعهِ باسمةً، تقابلت عيونهما بشوقٍ، فأخرجت له لسانها، نجح استفزازها، حرك المياه الراكدة بينهما، وأطلق شعلة النشاط في رتابة الشقة. يقول تقرير «أم سعد» لجاراتها عن تلك الليلة، أثناء جلسة العصر ـالمعتادةـ في شقتها، الموجودة أسفل شقة «فارس ويسرا»، أن الضجيج كان له أثر قوي على إهمال أبنائها لمذاكرتهم، وفكَّتْ شفرات الموضوع بأن «فارس» كان شادد حيله أمس، ومع ارتفاع ضحكاتهن تأكد هذا الاستنتاج من منظر «فارس» وهو ينزل السُلم نشيطًا، ويحمل معطفه خلف كتفه بيسراه وملوحًا بيمناه لزوجته في سعادةٍ، بينما وقفت «يسرا» في الشرفة تودعه بقبلةٍ على طرف يدها.



ضوءٌ أصفرٌ لمصباح كهربائي ١٠٠ يرتعش من هفهفات الهواء، تسقُط إضاءته الواهنة بتمايُلٍ على سُلم حجري منحول الدرجات، مع

درابزين خشبي يصرصر إذا مسه أحد، تُقابله جدران تساقطت طبقات الأسمنت من عليها، متعرجة، تكشف عن أحجارٍ قديمة، ضخمة، خشنة، مصمتة، لها حواف بارزة، فواصلها محشوة بالجبس المعجون بالرمل والجير، يترسب عليها رشح أبيض مُملح مُتداع، تصل إلى بسطة تستقر فوقها دواسة تائكة، تؤدي إلى باب شقة حديدي عليه عدة أقفال، ترتاح فوقه لافتة مكتوب عليها.

«شركة «DEMMA» لتجارة الأحذية بالجملة».

فَتح الباب مع صوت صراخ مفصلاته الصدئة، دخل ثم أغلقه، أزاح من طريقه صفوفًا من الكراتين المتكدسة بالأحذية، حتى استقر ترحاله أمام مكتب أكله الدهر، يحمل جهاز «لاب توب» عتيق، وسط مجموعة مبعثرة من الملفات، مُغطاة بسحابة هشة من العفار، يُطل على خزينة نقود من الفولاذ ضخمة، تحتل نصف الجدار إلا قليل، ألقى «فارس» المفاتيح على سطح المكتب بإرهاق وتكاسل، ونفض بيديه الملفات فثار في وجهه الغُبار، تسرح ذراته بهوجائية تحت الضوء المتسلل من المشربية الأرابيسك عن يمينه، خطف كوبًا كبيرًا ظلَّ في مكانهِ بحطةِ يده منذ يومين، فيه آثار رشفة قهوة ناشفة في قعرهِ، وترك الصالة المتصدعة ليُعِد قدحًا جديدًا، يسُد به جوع مزاجه حتى يبدأ عمله الرتيب، على ضوء لمبة نيون ١٢٠ حائلة ترتعش إضاءتها؛ لتكمل حالة الغموض على المكان، تمشى في الممر الضيق حتى المطبخ ـ أو ما بقيَّ منه ـ بجانبه دورة مياه كأطلال الحرب، لا يمكن أن تأتيه الراحة فيها أبدًا، تأمل الشروخ الزاحفة كالثعابين على الجدران، ويتراقص حولها ضي لهب الشعلة، سَهَا «فارس» في ملامح قابلته في سفر وافترقا و.

«لم يبقى سواكِ بذاكرتي..لم يبقى سواكِ بوجداني»

«قد ماتت كل نساء الأرض..وأنتِ بقيتِ بفنجاني»

أخرجه نداء «كاظم الساهر» في رنين هاتفه من شروده، فخطف نظرة عابرة على الرقم المميز للمتصل المجهول ورد: السلام عليكم.

ـ إيه الدخلة الجد دي؟ ما توقعتهاش خالص بالمقارنة بالـ «Look» بتاعك!

لماذا تَحدُث في ثنايا الروح تلك الهزة السمحة عندما تُشَمُ لفائف الورد؟! ما سرها العبقري؟ الإجابة ببساطة إنها قدرة الله، المفترض أن هذا العصر قضى على مفاهيم الدهشة منذ زمن، وكل الأمور العجيبة مُتَقَبَلة حاليًا، لكن من الجنونِ محاولة الوصول لحدود تلك المعجزة، فإذا تَقَطَعَتْ أوراق الزهر الندية وغُمِسَتْ الأنوف في قلوبها المعطورة، فلن يبقى بين المسام إلا الطِيب، فهل جرب أحدٌ أن يَتَسَحَبَ الشَذا على جلدِهِ ليسكن أذنه؟ ومن ثم يُسْكَب على قلبه! تركيبةٌ جهنمية المشاعر، لا يمكن وصف رهافة حِسها، لأنها من السرائر التي تسمو فوق تصور الكلمات، فإذا ذاق الفَرْدُ هذا الشعور الصبي المنغوم، فقد عرف الحالة القريرة التي يعيشها «فارس» في اللحظة الفائتة.

هي رفيقة القطار، حكاية فرت مثل الحمامة من قفصِ صدرِهِ، على مدى الأيام السابقة دارت سيناريوهات كثيرة في ضميره، ماذا سيفعل لو أنها هاتفته؟ فاحتلت كل وشوشاته مع النجمات، ينظر للسماء فيرى ضفاف عينيها، تمر في باله مر السحاب، صُنع الله الذي أتقن كُل شيء، دروبه ضيقة لكنها تكفي لهما؛ هو وخياله، تفاصيلها الرائعة مروحة مُعلقة في سقف وهمه، حدوتة هامسة بين وردة جورية وفراشة، ترشرش

الندى فوق شقوق أفكاره، تزرع أُفقه المسحور فضة، وتَعِدَهُ بلقاءٍ في غفوةِ الواقع، طال صمته، والكلمات تتوالد فوق شفتيه المرتعشتين، وتتمسح الحروف الساخنة في لسانه ليبدأ بها، تتسلق أحاسيسه، تقفز فوق أسنانه بتدفُقٍ متهور، لذلك تنحنح ليصُب الماء فوق جمر أنفاسه وقال:

- كنت حالًا بافكر فيكِ.
- انت كنت نسيتني عشان تفتكرني دلوقتي!
- أنا...
- ماتكملش؛ مش عايزة أسمع منك تفسيرات، أنا هاقول لك باكلمك ليه؟ هاختصر لك كل الأسئلة اللي في دماغك، بيقولوا إن الراجل زي الكِيف! زي السيجارة مع كوباية الشاي بعد العصر، أو ممكن كوباية القهوة بعد يوم شغل تقيل.

ذكرته بـ «كنكة» القهوة فلحقها وهي على أعتاب الفوران، صَبَّ المزيج، وتوسط كُرسي خيزران يُطِلُ مباشرة من المشربية الموَارَبَةِ على «مجموعة السلطان الغوري»، تلك المنشآت المبنية على جهتين متقابلتين، بمسجدها الأثري المميز بدرجاته الخشبية الضيقة، والمدرسة الشرعية، سقيفتها الخشبية المزركشة، وسياجها الحديدية المعقوفة، وحوائطها المزخرفة بالخطوط المملوكية، ونوافذها المحفورة بالنقوش، السبيل الأثري، والقبة الضريحية التي ينام أسفل رُخامها جسد «طومان باي»، المصاطب الصخرية العتيقة، أمام الممر المفروش بالحجر البازلتي المحدب، الذي يقود إلى أزقةِ القاهرة الفاطمية، تأمل عن يساره زحمة رواد شارع «الغورية» النحيف بأنواره المتكدسة، المجاذيب،

الشحاذين، العربات، الشيالين، النساء بالعباءات السوداء، أسراب نمل، الدكاكين القديمة بأبوابها الخشبية المتفتلة، لو فرد المرء ذراعيه لأمسك بدُكانينِ متقابلينِ، لكم تمنى لو أنه أينما يميل يدركها، سألها:

- انتِ إيه؟!
- عايز تعرف إيه؟
- ازاي انتِ في العالم دا وما عرفتكيش قبل كدا؟! ازاي ما مرتيش عليَّ في يوم من الأيامٍ؟!

شم شذا القهوة وأسبل جفنيه، تاركًا مفعولها يتخلل مسامه، فتُرتبَ أوراق روحه المبعثرة، على إيقاع كلماتها: مين قال كدا؟! أنا نزلت البلد اللي قابلتك فيها غلط، وسألت على أي مواصلات وتُهت، لحد ما وصلت لمحطة القطر عشان أقابلك هناك، وبعد كدا ازاي ما اتقابلناش؟! مقابلتنا كانت متأجلة للوقت اللي نستاهل نقابل بعض فيه.

ذاق طعم محدثته مع رشفاته، تخللت جسده مع الكافيين، وما أروع أن تكون القهوة لها نكهة امرأة جميلة! كلماتها تتخضب بأفكاره، بَلْوَرت الحكاية، أهي فعلًا متكاملة لهذا الحد؟! سأل نفسه، فاندفع: بتجيبي الكلام دا منين؟! كأنك بتقرأي اللي مكتوب على جبيني ومحدش كان قادر يقراه! انتِ بقى اللي حقيقي، ولا انتِ طيف بييجي ساعة النشوى وبينتهي!

كل حرف في عبارته انطلق محملًا بفصيلته وتركيبته، وموقعًا بختم قلبه وعقله، قالت: أخبار مراتك إيه؟!

أحس بمنجنيق «الحجاج» يضرب قلبه، يهدم جدرانه كما فعل مع «الكعبة»: انتِ عرفتِ ازاي؟!

ـ سؤال ساذج جدًا انت نسيت الدبلة اللي في إيدك الشمال!

نظر ليده اليسرى ثم ابتسم وقال: آه؛ الدبلة دي اللي موقفة حالنا.

لم تُضحكها دعابته وقالت بجدية: تعرف إن لولا الدبلة دي ماكنتش عبرتك!

ـ اللي هو ازاي بقى؟!

قالها مندهشًا فتابعت: لما اديتني ضهرك في القطر، قررت أنفضلك، لكن لمحت في إيدك الدبلة، صدقني احترمت إن عندك وفاء لمراتك، ولما جيت تكلمني كنت هاشكرك إنك خليت الكائن الغريب اللي كان بيعاكسني يبعد، فعجبتني بزيادة، بس ماحبيتش أبين لك لأني كنت مخنوقة لما لقيتك سايبني وماشي وانا باكلمك، بس لما بدأت تطلب تتعرف عليَّ، وفضلت ملازمني لحد قبل بيتي عجبني جنانك دا، تأكدت إنك مهتم بيَّ، وكنت مانع نفسك لأنك متجوز، فعذرتك لأن جواك حرب نفسية مش في صالحك أبدًا.

ـ بغض النظر إن اللي بتقوليه يحتمل بعض الصح أو الغلط، لكن اللي زيك بيحصل مرة في العمر، ما حدش حللني كدا، وعمري ما كنت أتخيل إني أسمع مختصر مفيد عن شخصي زي ما سمعته منك دلوقتي.

كأنها تحسست مكامن نفسه، رغم ذلك منعه العند من الإقرار بحقيقةِ صِدقها كاملةً! وبدلًا من الجملة السابقة أراد الضحك، لكنه خشيَّ من الفكاهةِ المجلجلةِ في هذا الوقت؛ الذي يحتاج فيه إلى السكينةِ، ولأن التهريج الوحشي هو مَظهرٌ مُلَفَق، مُجرد عُنوان مُزور لحالته، وهو أبعد ما يكون الآن عن النفاق في مشاعره، فالمرأة لخصت

له الاضطرابات المنفعلة بين قلبه وضميره، فلا يحتاج إلى الاصطناع في قوله كعادته، لن يُغطي على نباح القلق وصراخ الكآبة بداخله، فما اتكاله سلفًا على الغش في هيئته إلا لدرءِ ألسنةِ الناس عنه، كان يعزف الألحان الصاخبة المَرِحَة لتُغطي مساحة أوجاعه، كي لا يكون مادة دسمة للنميمة المحلية، وقراءة أقداح الغيب عنه، وينزوي ببقايا روحه المتآكلة في ظلام وحدته، حتى مع الصخب الذي يُحيط به أوقاته؛ ظلَّ وحيدًا؛ نائيًا، ولذلك تفاجأ برأيها فيه، واقتحامها لحدود عزلته المحشوة بالفخاخ، قال:

ـ لسة ما عرفتش اسمك.

ـ «عبير»..، (قالتها بغُنة ساحرة، فكأنما خرجت الحروف الأربعة من روحها)

ارتفع فجأة من السماعات الضخمة في دكان التسالي بالأسفل، صوت «كاظم الساهر» يُغني من كلمات «نزار قباني»..

«يَا وَجَهَاً يَعْبِقُ مِثْلَ حُقُولِ اَلْوّردْ وَيَرْكُضُ نَحْوِي كَحِصَانِ»

ما تلك المخلوقة؟! تساءل في صمتٍ رهيب، وجودها يضع في إصبعه خاتم سليمان، ويستحضر له الجنيّ ويحقق له ما يشاء، أغمض عينيه، يستحضرها، كأنه عُصفور منبوذ يحلمُ بعُشٍ تملؤه البذور، فقد عاش سنينًا في الظِلِ يؤمنُ بكمالهِ؛ حتى أتت إليه فعرف معها ـ لأولِ مرةٍ ـ ما كان ينقصه، امرأة ظهرت في حياته فكسرت ـ بمرورها ـ حاجز الوقت، كأن مجيئها إذنًا للأرضِ كي تدور، فهو المُقامِرُ على طاولة الزمن، وكل رهاناته الآن تمرق في شرايينه، حاول أن يتكلم، فتزاحمت العبارات، خاف من الإفراط اللفظي، بحث بين أهرامات المفردات عما يناسبها، معنى مفصلًا على مقياسها، كلمة تنقذه من الثرثرة البلاغية وتكون بحجم انفعاله.

ـ انت روحت مني فين؟

قالتها بقوة، سكنت لثغتها المميزة في لحمه، ارتعش، ومع تنهدات المآذن –التي تلُفُ المنطقة الأثرية ـ لصلاة العشاء افتقدها، فلمح التماعة ثغرها في لهيب الشموع المتدلية أسفل قُبة «بوابة المتولي» في آخرِ الزقاق، رأى خصلات شعرها الذهبي تتمشط فوق حجارة السور العتيق؛ بأبراجه، وزوائده، ونتوءاته، حتى ملامحها البسيطة تُطِل عليه من الأكشاك المستريحة على جانبه، ما ذلك الطيش الذي يعبث بالعاطفةِ داخله؟! امرأة أعطته تَذْكَرَة وتأشيرة مفتوحة واستخرجت له جواز السفر ولم تتدخل في رحلته، فجاب العالم بحثًا عنها، رافق الطيور، وصادق الأسماك، وتعلم لغات الحيوانات، لكنه هكذا يتوه بعيدًا عنها ويفتقدها ثانيةً، فرجع إليها متلهفًا:

ـ هتصدقي لو قُلت إني افتقدتِك!

- هاصدقك؛ لأني كنت ساكتة مستنياك تتكلم وافتقدتك أنا كمان.
- أنا حاسس معاكِ إني بافتح عيني على الدنيا كأني باتولد.

صمتت قليلًا، فاستمع إلى وشوشة أنفاسها، قبل أن تتابع بعمق لا يفهمه سواه: حسااااااك!

- آه، يا «عبير».

لسعتها حرارة تنهيدته، أفزعت سكون مشاعرها الذي اعتادته، فأكملت بحماس: يظهر كنت جاية لك، وتوقعني وأكون أقرب للموت فتلحقني تاني، والاقي فيك البراح اللي كان بيضيق قبل منك.

- «عبير» الله يرضى عليك بلاش البداية دي؛ بلاش تبقي مظبوطة كدا، الحياة عندي متلعبكة ومش عايزها تتلعبك زيادة.

قالها وسحب آخر رشفة من قهوته، مُرهِفاً سمعه لها وهي تقول: أنا ظهرت في حياتك عشان اعدلها لك، وعمري ما هاكون سبب للعبكتها أبدًا، وهاكون أقرب ليك من النفس اللي داخل صدرك دا، لأني هاتنفسه قبل منك.

- انتِ خوفتيني، مفيش بنت عارفة ومتأكدة من اللي هي عايزاه، أو من اللي هتعمله بالشكل دا!
- دا في حالة لما تكون أي بنت مع راجل تاني غيرك انت، في الحالة دي بتبقى مجرد بنت، لكن معاك انت أنا بقيت روح؛ بتخرج منك لقلبي وبتخرج مني لقلبك.

ثم أرسلت له ضحكة ألهبت جوارحه وتابعت: مش قُلت لك حساك!

- «عبير»، أنا راجل متجوز! وجوازة صح أوي، يعني هي الست اللي ممكن يتمنى يتجوزها أي راجل خلقه ربنا، مش بس كدا، أنا كمان في علاقة مع واحدة تانية، وبرضو صح ويتمناها أي راجل.

ثم صمت وصمتت، و بعد بُرهة تابع وهي بالكاد سمعته: انتِ هيبقى وضعِك إيه؟!

أهم شرط لبناء علاقة قوية هو الصدق، لأن الكذب يصيب الأساسات بالهشاشة، فينهار المبنى؛ مهما وُضِعَتْ له الدعامات، و»فارس» يعلم هذا جيدًا، لذلك قال الحقيقة، وقد تكون هذه هي الميزة الأهم فيه، أنه رجلٌ صادق، فطال السكوت، كانت متقبلة وضع تلك الزوجة، وتحتمل الترتيب الثاني، نعم «كانت»، فامرأة مثل تلك يبتعد الترتيب الثالث كثيرًا عن مخيلتها، امرأة تسكن القلب كما تسكن الحوريات جوف البحر، ماذا عليها أن تفعل؟! فهي تعيش حياةً تعسفية، سلسلة من الشك والطمع، نكبة، ولكنها تثِق في حدسها دائمًا، فالأمور السريعة التي يصعُب على العقل إدراكها تدركها الروح، فتُعالج البيانات الشحيحة وتترجمها، وهذا سبب اتصالها بذلك الـ «فارس» الغريب أصلًا، أخذت إجازة من الأفكار ومشت خلف فؤادها، الذي صَبَّ فوق خيالها قنينة العطر، وترك الشذا يتسرب بهدوءٍ إليها، وكأن «فارس» مثل نفحة قدرية تمنحها لها الحياة، هكذا أحست به وصَدَّقَتْ ما أحسته، فلن تُكَذِب وجيف قلبها أبدًا، لم يكن لديها اختيار إلا أن تَشُم الطِيب،

لم تجد فرصة لتلضُم ما تبغيه أو ترتب أولويات كلامها، فاندفعت روحها تُهرول في صوتها، وسقطت نبضاتها الثائرات فوق لسانها، وهي تقول بلا إدراك:

- أنا الصح اللي ما تخيلتش إنه ينفعك، الصح اللي انت مش شايفه، غير الصح بتاعهم اللي ممكن ينفع أي حد غيرك.

زاد الزحام بالأسفل بعد صلاة العشاء، وارتفع من دُكان التسالي صوت «أم كلثوم» وهي تؤكد:

«ازاي يا ترى أهو دا اللي جرى..وانا وانا وانا..وانا ما اعرفش»

الجنيّ يقوم بعمله على أكمل وجه، أتاه بصوت «كوكب الشرق»، وهذا مقبول، لكن كيف يأتيه بسيارة «Diana»؟! قبل اتجاها إلى نفق جسر الموت، «Pont de l’Alma، Paris، France»، يراها -في عينيه- تشير إليه أن يتكلم، فقال: اسمعيني، الدنيا دي هي الباب الفاصل بين كل واحد والتاني، مفتوح له شُراعة صغيرة، ومسموح له يبص من زاوية الرؤية دي بس، طول عمري باكسر في الباب، وباعمل فتحة على مزاجي، محاولة أشوف بيها الدنيا كلها من حتة مختلفة، غير اللي مجبرين إننا نشوفها منها.

- وأنا هافتح لك الباب دا على الآخر يا «فارس».



توقفت سيارة سوداء فخمة حديثة الطراز عليها شعار «النيابة العامة»، خرج منها «رمضان» شاب مُجند، أثر الحياة الرثة يحتل ملامحة

الريفية، رأسه «Zero» وشاربه متفتل مهمل، بقايا عرق تحت إبطيه، مع بعض البُقع المنتشرة على بذلته الكاكي، تمشى بخطواتٍ واسعةٍ أقرب للجري، إلى داخل عمارة عتيقة تتكون من خمسة طوابق، في أحد أحياء مصر الجديدة الراقية، ذات الحدائق والأبواب والنوافذ العالية والأرضيات المغطاة بالرخام، على جانبي الباب تمثالين لأسدين من الجرانيت، أقرب لأسدي قصر النيل، انتظر دقائق أمام المصعد، دخله وصعد إلى الدور الرابع حيث يقطن «الباشا»، وعلى أنغام الهُس المنتشر في العقار استمع «رمضان» إلى صوت أنفاسه المتقطعة، حتى وصل، ما يحمله في قبضتيه ينم عن وظيفته الحقيقية، مجند ليس في خدمة الوطن ولكن في خدمة «الباشا»، يحمل حقيبة جلد سوداء وأكياس مطبوع عليها شعار «ماركت أولاد رجب»، وخرج ملهوفًا.

ـ رقم ١٢ تالت شقة على الشمال يا «رمضان».

يتردد صدى صوت «صبري باشا» في مخيلته كما سمعه أول مرة، وأصبح من مفردات حياته مثل اسمه في بطاقته الشخصية، ولم يعطه الزمن فرصة لتذكر باقي شريط حياته، حينما احتَكّ بأحد «البكوات» ساكني البناية أمام باب المصعد، فانفلتت يده، وتبعثر خزين البيت من الطعام، وكان في أحد الأكياس بيض.. تدحرج على الأرض وتكسر، سال زلاله كـ»الترعة في بلدهم» كما وصفه لـ»عبد المتعالـ « صديقه وزميل الكانتين، لكن لم يذكر له أن «البك» سبب المشكلة تلطخ حذائه، ولدقائق بعد الواقعة نسيَّ فيها اسم أمه، حيث استقبلت وجنته ـ المهتوك عرضها سابقًا ـ صفعة وبعض الركل مع وابل من المفردات العاهرة، هنا

نزل على قدم «البك» ومسحها بطرف بذلته، وأذناه تسمع سيرة الحاجة بأفظع الأوصاف التي لم يسمعها في بلدهم أو في القاهرة أيضًا.

بدأ يلملم حاجاته المبعثرة بعد أن استقل الآخر المصعد إلى أسفل، مع دعوات «رمضان» بأن ينقطع سلك المصعد ويسقط تصحبه اللعنة، لم تمر لحظات حتى كان قفاه يستقبل ما استقبلته وجنتاه وهو مطأطئ رأسه، كان منهمكًا في لم بقايا البيض في الكيس البلاستيك، ويحمل حقيبة «الباشا وكيل النيابة» مع خروج الأخير من المصعد، فتخيل سيادته مشهد الجريمة التي فعلها «رمضان» بعدما اشتكى له «البك» بالأسفل، كفٌّ جعل وجه المأسوف على عمره يسقط في بِركة البيض المكسور الذي امتلأ به الكيس، فغسل الزُلال ملامحة الغبرة، ولم يمهله «الباشا» فرصة لرفع جبهته، بل أكمل ما بدأه كفه بأن ضغط على رأسه ليغوص فيه أكثر.

ـ انت ياله، وحياة أمك أرجعك بلدكم في شوال.

ذلك ما سمعه من «صبري باشا» قبل أن يتركه بوابل من الوعيد، أخرج «صبري» ميدالية ذهبية بها بعض المفاتيح واختار واحدًا، اقترب من باب سميك داكن على جانبيه كاميرات مراقبة، يُميز شقته، فتحه ودخل فاستقبلته بالداخل روائح الجنة، تخطى دواسة مزركشة، زاهية ألوانها، تتوسطها كلمة «Welcome»، وخلع سترة يكفي ثمنها لسداد ديون مئة أسرة من محدودي الدخل، عاجلته الفلبينية ببشرتها الـ «Off Wight» وعلى وجهها ابتسامة بلهاء مستفزة، حملت سترته، وفك ربطة العُنق من أثر إرهاق اليوم وأمس وهو يعبث بهاتفه، تقدمته وبصعوبة

فتحت له بابًا جرارًا يقسم الصالة، بينما خلع حذاءه وطوَّح الفردتين على جانبيه.

«صبري العيشي» ذلك الطول المتوسط، له بروز في بعض الأماكن من جسده، تراكمات من الشحم على ترهلات هلامية مبعثرة، وعيون ضيقة باهتة لا يظهر لونها، تحددها هالات سوداء، أسفلها شارب منكوش لا يتناغم مع ملامحه، لكن لا يمكنه الاقتراب منه، لأنه رغبة والده «كامل العيشي» رئيس نيابة نصر الدين سابقًا:

- «ربي شنبك يا «صبري»، عشان يكون ليك هيبه وسط الناس»..

صوت والده كان يركض في رأسه، مثل قطيع وحوشٍ في البريةِ وهو يتحسس الشارب، شعره أسود مستورد من لفة سلك لغسل الأواني، مفروق من على الجانب ليضفي على صاحبه بعض الوقار، تخرج في «كلية الحقوق» عام ٢٠٠٤ بتقدير عام مقبول مع مرتبة الشرف، استقبل اختبارات النيابة مثل نُزهة إلى الساحل الشمالي مع الشِلةِ، لم يخشَّى كم التقديرات التي تنافسه على مقعد الوكيل، فهو من الذين صُنعت لهم تلك الكراسي، بكر أبويه وله أخت تصغره، جعلها الله سببًا في أكبر هزيمة نفسية تعرض لها.

تذكر الأيام الخوالي، التي أتت بـ «مريم» صديقة أخته إلى شقتهم أثناء الدروس الخاصة في الثانوية العامة، وهو في الليسانس، واقفًا يرتدي الـ «بوكسر» خلف باب حجرته، يختلس النظر إلى تلك المهرة وهي تخلع حذاءها فتكشف سيقانها فيحترق جمر أنفاسه، ويشتعل دمه، وتُطَقْطِقْ عظامه، قالت له مرة حينما استوقفها بعد أن أخذ لقب «وكيل

نيابة»، وأصبح يسير مختالًا بنفسه وكرشه وبذلته، ويعتقد أن كل أوامره مجابة، وأن جميع أحلامه أوامر، وأنه يمتلك في قبضته عصا موسى السحرية:

ـ حضرتك أنا مرتبطة وتقريبًا مخطوبة، وبحب «مصطفى» جدًا، ومستحيل أفكر في غيره لحظة.

آه من ذلك الـ «مصطفى»، ماذا فعل ليكون هو خيَّال تلك الفرسة؟! ركلةٌ في كبريائهِ الذي يأخذ طور النمو، حتى أن القدر طاوعه في إزاحة هذا المنافس من أمامه، بطريقةٍ دراماتيكيةٍ غير متوقعةٍ ولا مفهومة للآن، فتقدم أكثر من مرة لخطبتها ويكون نفس الجواب بالرفض، علَّق شهادات رفضها له على حائط خيباته، حتى لم يعد هناك مُتسع، ثم استقل بحياته بعيدًا عن قصر والده، واشترى تلك الشقة لتكون مملكته الجديدة، واستمر في طلب «مريم» غير عابئ بالرفض المتكرر، ارتجل المحبة ارتجالًا، رغبته فيها عمياء، صماء، خرساء، طوَّقها كوسوسةِ الشيطان، إلى أن تم قبوله، دَعَّمَ بيت الأمل بداخلهِ ووضع فيه القوائم الخشبية، سنده بالزوايا الحديدية، ثم انهار فجأة بالأمس، حفل خطوبته لم يكتمل كما يحدث مع غيره، سقطت عروسه كعقارٍ مهدود، قضيا أول ليلة من خطوبتهما في المستشفى، مع تقارير الحالة المتدهورة، وأنباء عن إصابتها بانهيارٍ عصبيٍ، أعصابها لم تحتمل تلك الزيجة.

زيجة تشكو الإفلاسَ الروحي، تعاني جفاف التفاهم.

تسربت الأفكار في عقلة كتسربِ الغاز، نكشت تاريخه من جذوره، وقفت تجربته في حلقه حتى كادت تخنقه، حرر أزرار قميصه وأفسح المجال لرئتيه، ثم خلعه وألقاه أرضًا، وأكمل جلسته على الأثاث

«المودرن» رافعًا ساقًا فوق الأخرى ـبمعاناةـ بسبب «الكرش»، مطب صناعي يتوسط بطنه ويتدلى حتى عظمة الحوض، يعانده بقلةِ عقلٍ كلما أخذته الجلالة في جلسته، يُربِتُ عليه بيدٍ ويُقلِب سجل الهاتف بالأخرى، ينقر عليه كدقِّ الدفوف، ويهدهده كطفلٍ، حتى أتى على رقم «أم مريم» وضغط اتصال..

ـ أيوة يا طنط؛ إيه الأخبار؟ أنا لسة راجع من النيابة دلوقتي وقلقان جدًا على حالتها.

ـ والله لسة غايبة عن الوعي يا «صبري».

ـ خير، الدكاترة أكدوا لي إنها هتفوق الليلة، أنا هاغير هدومي وجاي على المستشفى حالًا.

قام من جلسته، وخلع بذلته وارتدى أخرى ولكن بلونٍ مختلف، لم تمض أكثر من نصف ساعة حتى كانت قدماه تعبران إلى صالة استقبال المستشفى، قابلته والدتها التي كانت في انتظاره، وصعدا سويًا إلى غُرفتها المقسمة لغرفة استقبال وغرفة ملحقة للمريض، دلفا معًا قبل أن يتحرك «صبري» في اتجاه غرفتها ليطمئن عليها، ينفر فؤاده من ضلوعه يسابقه إليها، وفتح الباب.

لطشه وخز في أعلى كتفه الأيسر، وتَثَاقَل الدم في عروقهِ، فقاعة هواء تزداد اتساعًا في شريانه التاجي، تقريبًا أعراض جلطة محترمة، وخبطات قلبه على باب صدره تزايدت، طبول سحرة إفريقيين مختلفي الأحجام والأوشام، إحساسه منخور كما الأحذية القديمة، ورغم أن الهواء مكيف والطقس شِتوي فإن العرق تراكمت حباتُه على ملامحه، تتساقط نقراتٍ نقرات، تتسلل بمللٍ قاتلٍ بين دهاليز جثته، وفاحت

رائحته المكتومة، سجادة مبلولة في دورة مياه عمومية وقت الظهيرة في أغسطس، أصبح كمن أخرج عِفريته من قمقمه، الرؤية ضبابية في وسط هذا الصخب الهادر الذي يجتاحه، والإيقاع الذى ينساب إلى مسامعه كحَلَقَةِ زارٍ نُصِبَت في رأسه.

أمامه امرأة تنام على سريرها، وشعرها مفرود بسخاءٍ على وسادتها، تلك التي مرت سنوات من زحفه على وجهه في سبيلها، حتى أتاها ماشيًا على رأسه، تحركه غريزته، مسحوب من أعصابه، مشلول التفكير. صمتٌ كما المقابر، هدوءٌ ينتظر العاصفة، وآهٌ تنفجر في صدره، جحظت عيناه عندما وقعت على «فارس»، الذي يجلس على الكرسي المقابل لسرير «مريم»، يحتضن يدها المتصلة بالمحاليل، وينحني على كتفها هامسًا، لمح الابتسامة على شفتيها؛ رغم عدم إدراكها، وكأنما روحاهما تتحدثان، من هذا الذي اقتحم فجأة مسرح الأحداث بالنسبة إليه؟! كأنها مِصبَاح كلما فر منه مارد ظهر في الأفق آخر، مثل الفرس الحرون لا تقبل إلا بفارسٍ غيره، اقترب ثائرًا، غير عابئ بالجالس الذي يعيد لـ»مريم» الشريط السينمائي المتقطع؛ عندما ظهر في مربع دردشتها قائلًا:

ـ انت مين، وبتعمل إيه؛ ومين سمحلك تدخل هنا؟!

أفزعته الكلمات التي فرقعها «صبري»، صراخٌ متحشرج، ذئبٌ جريحٌ يغرس يده المرتعشة –بمخالبه ـ في كتفِ «فارس»، نبشه، فانتفض الأخير لهادم اللذات الذي يجذبه، استقام من جلسته واقفًا ثم أمسك قبضته وأبعدها عن كتفه، استطاع أن يلملم فزعه ويقف بروية، في لُبِهِ زلزال بقوة عشرة ريختر، بركانٌ يفور داخليًا؛ متماسك خارجيًا، تسمر في مواجهته قبل أن ينظر في عينيه، واقترب منه دون مراعاة للمسافات،

حتى لفحه صهد أنفاسه الحارة، وأحس بالحريق الخارج من جلده، رغم هذا تحدث واثقًا:

ـ أنا «فارس»!



3

قبل ذلك في صباح نفس اليوم، ارتفعت ضحكات متناثرة من أحد الكافيهات الراقية، إثر تهريج بعض المجموعات الشبابية المتفرقة، اعتاد رواد شارع «عباس العقاد» سماعها، بل اعتادتها «مدينة نصر» كلها، وبرغم أن الوقت ظهرًا فإن الإضاءة بالداخل شبه معدومة، كشافات موجهة «Spoot» على الأرض الرخامية والجدران الخشبية، دوائر من نور مختلف الألوان والأحجام، عُلقت على الواجهة لوحات ضخمة لفناجين قهوة وكؤوس تفيض منها العصائر بألوان زاهية، على اليسار بعض المقاعد العالية تحيط بالبار الاستانلستيل الملتوي، ينتهي بركنٍ لفرقةٍ موسيقية؛ يُجرب أفرادها بعض آلاتها في تتابعٍ منسجمٍ أثناء ترتيب أنفسهم، وعلى اليمين تتراص بجوار كل نافذة ـ منً النوافذً السيكوريت الشفافة المستطيلةـ منضدة تشبه حرف «L» مقلوب.

في ركنٍ بعيدٍ نسبيًا عن الأنظار كانا هناك جالسان على إحدى الأرائك، تلمعٍ قطيفتها الحمراء تحت أشعة الشمس المتسللة من الشِباك، ورذاذٌ خفيفٌ من بقايا المطرِ تلتصق قطراته الناعمة في الزجاج، تتلامس

أصابعهما سهوًا بتأنٍ حميم، يُحدِثُ وجيفًا في قلبيهما، بجوارِ قدحين من القهوة ترتفع الشبورة فوقهما، تمتزج نكهة الأربعة معًا، «فارس»، «عبير»، «القهوة»، «المطر»، توليفة شعورية مِثالية لبداية أي لقاء، كأن الموعد تم ترتيبه فوق الألواح مع أجلِ كلٍ منهما، تنحنحت «عبير» وهي تتأمله:

ـ كنت باتمنى اللقاء دا يا «فارس».

ـ قفلتِ موبايلك، وانا من امبارح أكلمك ومش عارف أوصلك!

ـ من بعد ما اتفقنا على مقابلتنا النهارده، ما حبيتش أسمع أي مفاجأة جديدة، أصل الحاجة اللي بنكون عايزينها ومستنينها، أول ما تيجي لازم تحصل حاجة تعكنن علينا، فقررت أمنع فرصة العكننة دي.

ـ فعلًا، كنت عايز أأجل الميعاد، لازم أشوف «مريم»!

هكذا قالها بهدوءٍ، زاد الهدير في صوت بروفات الفرقة الموسيقية، انتشرت عدوى الصخب في أرجاء المكان، وكأنه يشاطر «عبير» الهياج الذي يتأجج في ذهنها، وبرغم تلك العاصفة التي اجتاحها قالت ببساطة، وفي سكون تحسد عليه: ليه؟!

«فارس» مَطَّ شفتيه وارتدى الوجه الحزين، عقد حاجبيه متأملًا ملامحها: امبارح كانت خطوبتها، بس أغمى عليها في الحفلة واتنقلت المستشفى، وأنا لازم اروح أطمئن عليها.

كلماته مقنعة، مختصرة، ولأسفهما دخلت مُباشرةً في صلبِ الموضوع، وهي تقبلته، الأمر ليس بهذه السهولة، ولا يحتمل تصنيفه

بالرعونة، نصف كلامه يُربِتُ على قلبها برفقٍ، فالمنافِسَة ترتدي الآن خاتم رجل آخر بالفعل، انزاحت من طريقها، والنصف الآخر ينفخ الكير في صدرها، فتلك الـ «مريم» لا تزال متعلقة به، لدرجة انهيارها بسبب أنها لن تكون له، فقد انعجنت معه في شعورٍ واحدٍ لم تستطع المحافظة عليه، توحدت فيه، تَعَلَّقتْ، وليس أخطر على الإنسان من التعلُقِ بأحدهم، فهو سبب الشقاء والتعاسة بين أي اثنين، هكذا لم يعُد لـ»مريم» انفصال عن «فارس»، فَضَحَتْ استسرارها بنفسها واستغلاقها عليها، ومن هنا استنفدت قدسية شخصيتها، وسقطت هيبتها، وهذا هو الفخ الذي تقع فيه أغلب العلاقات الإنسانية، ولعل «الحب» هو أهم هذه العلاقات.

والحب دومًا هو جنسية الغرابة، أرضٌ حُبلى بالمفاجآت، وطن الدهشة والأشياء المتقلبة.

القلق صفق في قلبها، وتسابق فوق حدقتيها، فوجمت وقالت: صح، لازم تشوفها!

بَرْطَمَتْ، كأي امرأة مصرية أصيلة تُلِحُ عليها جيناتها، قمصت، ولوت جانب شفاهها، وتراقصت الصورة في وجهها، فاضطربت، مثل السفينة في البحر حينما تعتريها الأمواج، فسحبت يديها من يديه بطريقةٍ تلقائية، تجتاحها الآن آلاف الأفكار الثائرة، فهي قد جاءت إليه بعدما أعيتها الدنيا تشتتًا، تحتاجه، أرادت لقاءً مُفعمًا بالتفاهم، حالة عميقة من السكون تندر فيها الحاجة إلى القيل والقال، بيئتها كلها شوشرة مُبالغٌ فيها وتفتيش ذاتي، تُلاحِقُها نظرات رجيمة في كل مكان، خليط مسعور من الغيرة والشهوة والشك، لذلك تمنت أن يَصْدُق حدسها في

«فارس»، ليتفاهما ويتصالحا ويتكاملا، تتكشف بينهما رؤية روحية متآلفة، ولكنه يبتدئ الأمر بدبوسٍ ساخنٍ يُخربش به جلدها الطري ويكويه، مجرد ذِكْره لـ«مريم» حفَر قلبها، فما باله يريد رؤيتها! أَحَسَّ بفرقعة القنابل في أوعيتها، فَمَدَّ يده نحوها ليأخذها في راحتهِ ويُربِت عليها، وبإبهامه في اليد الأخرى أدار وجهها تجاهه حتى يسكن في محجري عينيها، فيغتسل مثل الدلافين في مياهها الزرقاء، يتسلل إليه السلام بهدوءٍ يُزحزِح الوحشة من أركانه، ابتسم:

- أنا كنت عايز اقابلك في جو أكتر راحة، عشان كدا كنت عايز أأجل اللقاء دا شوية، يا «عبير» أنا باحسد نفسي عليكِ، في خلال الأسبوعين من بعد ما عرفتك وأنا سارق من الجنة نعيم وعايش فيه، باكلمك دلوقتي وخايف عيوني ترمش وتغيبي عن نظري، كنت عايز أأجل عشان خايف أقابلك وأنسى نفسي معاكِ، لأني وأنا معاكِ عايش في دنيتك بعيد عن كل دنيتي، لأني عارف لو شوفتك هاتشعلق في الوقت وأمنع حركته.

ابتسمت رغم ما فيها: لسة قادر تكون رومانسي.

ثم أسبلت جفنيها، فهربت الأشكال في بصره من أشكالها، وتأججت النار في صدره، ولوهلة أظلمت الدنيا، وتقافزت العفاريت في مداه، وكأن غياب حدقتيها سحب معه ضوء النهار، ورمى الجحيم يسبح في عينيه، وفجأة عاد لطبيعته عندما سمع همسها:

- بس ازاي بتقول كل الكلام دا؟ وانا لسة أول مرة أقابلك، وأقعد معاك، وألمسك وتلمسني!

ـ يظهر إن دا السبب الأساسي اللي خلاني آجي، غير إنك وحشتيني بجد، أنا فعلًا ما اعرفش حاجة عنك، انتِ مين؟!

ـ عايز تعرف إيه؟

ـ كل حاجة وأي حاجة، في المدة اللي فاتت كنت هاتجنن على أي تفصيلة منك؛ مهما كانت بسيطة!

ـ يا سيدي اسمي الحقيقي «عبير زين الدين» عندي ٢٤ سنة وشوية كدا، مهندسة ديكور، بابا وماما منفصلين من وانا عندي ٦ سنين، عايشة مع ماما في بيت جدي أبو ماما، في «الوراق» اللي جيت ورايا فيه دا، ليَّ أختين أكبر مني والاتنين متجوزين ومنهم واحدة مسافرة مع جوزها، حبيت مرة واحدة في حياتي، وفجأة لقيته ربى دقنه وبقيت أنا بالنسبة له شمال، وماينفعش يتجوزني، فركشنا، أنا متحررة جدًا، عقلي متمرد على أي وضع يقيدني، ودا سر مشاكلي كلها.

حَكَّ بسبابتهِ أسفل طابع حسنها: انتِ كدا خلّصتي كل شيء!

ارتعشت، كارتعاشةِ الفُلةِ إذ تلمسها الأنامل، بَرَقَ محياها فأبْصَرَ فيه ضوء النهار، ثم غيرت الموضوع: أنا كنت عايزة أسألك على حاجة أصلًا، وانت ماشي ورايا كنت عمال تتلفت ليه كدا؟! انت اول مرة تنزل «الوراق»؟!

ارتفع ضجيج ضحكة «فارس» فانتبه إليه الرواد، لم يهتم، سؤالها مفتاح يُعربد في قفلٍ صدئ على صندوق أسراره، فارتسمت على وجهها

تقاسيم الدهشة، كيف تعطل جهاز الرقابة الداخلية فيه هكذا؟! فأسكَتَ نميمة خيالها بقوله: م الآخر، من أكتر من سنتين كنت شاقط واحدة شمال من «الوراق»، اسمها «هدى»، واتفقت أقابلها في مدخل بيتهم!

- نعم؟!
- زي مابقولك كدا، جنان، ما تسأليش ازاي أو ليه، المهم في المرة اللي كنت معاها لقيت أخوها في وشي، أتاريها كانت نمرة ومعمولة عليَّ، وطلع يجري ورايا هو وشباب الشارع بتاعهم كله؛ لحد ما استخبيت في عمارة جديدة بتتبني، ومن ساعتها وانا خايف أنزل «الوراق»، عشان ما أقابلش حد منهم، لأني عرفت إن أخوها دا بلطجي وله سوابق، وطبعًا ما أعرفش حاجة عن صاحبتنا من ساعتها، لكن لما شوفتك قتلت الخوف اللي كان جوايا.
- ..!!
- بصراحة هدمتِ المعبد فوق دماغي، وسلمت لك أسلحتي، وما قدرتش أقاوم سحرك، ومشيت وراكِ وزي ما يحصل.

سمعت «عبير» القصة وظل فمها مفتوحًا، كمغارة بحرية تمتلئ باللؤلؤ، ورفرفت راية العجائب فوق جبينها مما سمعته، هنيهة صامتة مرت؛ ثم استوعبت حكايته فانفجرت ضاحكةً: انت طلعت مصيبة يا «فارس»..

صمتا سويًا، سكنت ملامحها فزادها السكون جمالًا، تأملها «فارس» وقال: عاجباني أوي جرأتك دي يا «عبير».

- أنا ماباتكسفش، واللي بيعجبني باقوله في وشه زي ما حصل معاك، انت عاجبني بس دا مش معناه إني بحبك، أنا حساك زيادة عن اللزوم، صحيح اتصدمت من الواقع اللي انت عايشة، بس برضو عينيك فيها حاجات أكبر بكتير من اللي ممكن انت تحكيه عن نفسك، يمكن دا السبب اللي شاددني ليك، حسيت إنك هتكملني وأنا هجملك!

لم يُجبها، فقط توهجت بشرته خجلًا، فابتسمت من حالته وتابعت: مش عارفة حاسة إنك مخبي حاجة كبيرة، أو هيحصلك حاجة كبيرة، البدايات الجذابة أوي دي ما بتطمنيش، ماحصلتليش قبل كدا، ومع ظروفك كانت المفروض صعبة، ومستحيل يحصل انجذاب، بس حصل وكمان بيزيد! مع إني ضد النوع دا من العلاقات، لكن الحكم دايمًا بيبقى مُختلف بعد التجربة! مش عارفة تفسير يا «فارس»، لكن اللي عارفاه كويس إن ما ينفعش غير إني أخوض الحكاية معاك، بدون حساب لنهايتها.

- أصلهم بيرتبوا اللقاء قبل الإعجاب، أو الحب، أو أيًا كان اسم العلاقة اللي ممكن تبدأ من بعده، غلطانين.

شددَّ قبضة كفيه على أناملها الملساء، تحت الشمس التي سقطت على طاولتهما، تُشاركهما الحديث، وتعمق: صدقيني اللقاء بيكون استكمال للحكاية، فصل جديد من الرواية، لكن قبل اللقاء دا بيكون كل واحد مننا مستني نصه اللي بيكمله، محدد ملامحه وطباعه وشخصيته، روحه، قلبه، عقله، محدد كل شيء فيه، إلا وضعه، يعني مش

بيحدد شغله أو مادياته أو حسبه ونسبه، مش بيحدد حالته الاجتماعية، لأن دي مسميات تافهة خلقها البشر لبعضهم، عشان يزودوا العوائق في طريقهم، واللي بيروج للأفكار دي أشخاص جبناء، عايزين حجج للهروب والتخلي عن بعض، لكن الشجعان بس هم اللي بيقتحموا الحرب الصعبة، وبينتصروا.

صمت قليلًا، ليتأمل أثر كلماته على ملامحها، فلما وجدها تنتظر ساكنة، قطة وديعة تجلس في حضن سيدها، مترقبة لحركةِ شفتيه، تستجديه أن يُكمل مخاطبته، ترتشف الحروف التي تسقط من صوته، تقفز بين الكلمة والأخرى كما المهرة، تطير كالعصفورِ حول سكوته، فهو يتحدث على طريقة التليغراف؛ لكل حرف حسابه، معجمًا موجزًا، عباراته عاشقة مكثفة كما لم تسمع من قبل، لم تعلم أن كل لفظة تختصر طرق الأحبة القدامى، وأن ما يقوله فيها قد يحتاج غيره إلى جرائد ليشرحه، فتعمق بصوتٍ رخيم:

- فلما بيقابل شخص فيه الصفات اللي محددها، بيتجسد قدامه اللي كان بيتمناه في خياله، ودي أجمل بداية للعلاقة.
- أقنعتني، أو ثبتني.

قالتها «عبير» بابتسامةٍ، تضاعف قطرها بعد أن غمزت له، كان هذا كبطاقةٍ للسفر فيها، فتابع بدفءٍ جميلٍ: وييجي لنا الدافع في العلاقة غالبًا من مكان ما نتخيلهوش أبدًا، من شخص مش ممكن نتوقع العلاقة تبقى معاه يالتحديد، وممكن تيجي العلاقة في وقت مش على البال، وساعات ما بنفتكرش امتى أو فين بدأت.

أخذت منه طرف الحماسة، وقرأت ما هو مكتوب على جبينه، واتسعت حدقتيها أكثر وأخرجت البرق، تلهو فيه ذرات الغبار؛ مثل خيوط الشمس المتوازية في ظَهرِ الشبابيك، ملأت قلبه صخبًا، كأن نبرتها تُحدد أبعاد الكون كله وتختصر العدم: أكملك أنا يا «فارس»، ممكن تبدأ العلاقة لسبب ما نتوقعهوش، أو ما نعرفهوش، على غفلة من غير حساب، أو مش عايزين نعمل حساب.

ـ حلاوة العلاقة بندوقها في الغموض اللي فيها....ترقصي؟!

قالها ووقف يجذبها نحو المرقص..

كانت الفرقة تعزف لحنًا هادئًا مميزًا للرائع الراحل «Michael Jackson» في تحفته «You Are Not Alone»..

سحر الإيقاع غلف المكان، غرائز الراقصين مسربلة بالموسيقى، أخذها «فارس» من خصرها القياسي والتصق بها، انعجن بأجزائها، فاستجابت أعضاؤها ليديه، وتناغمت معه، بخطواتٍ حنونةٍ كأن الأرض تُقبل أقدامها، وكهربة سائلة في شرايينها، نبضاتها تنساب مع النغمات، لَفَّتْ يديها ـ كطوقِ الوردِـ حول عنقه، فتحسس لسعة جلدها، وغمس أنفه في عطر بشرتها، أغمضت عينيها في حالة من الخيال المغمغم، وتركته يتحكم بجسدها المشدود، تمايل معها، كمن أخرج الثعبان من مخبئهِ، أنفاسها مُلحَنَة، حاول أن يجاريها لكنها غلبته، واتخذت من صدرهِ متكأ، ودَارتْ في ذراعهِ كحمامةٍ بيضاءٍ تزوم قبل أن تطير، نظر في عينيها مباشرةً، اخترقت لحمه كرصاصةٍ لا تتساءل من أين انطلقت؟ ولا تطلب استئذانًا، جذب رأسها من الخلف واقترب بشفتيه فلامست

شحمة أذنها حتى أحس بارتعاشة القرط المتدلي، أسمعها تنهيدته، سرت «الآه» في جسدها فضمته أكثر على صدرها النفيس.

تخلل معها الراقصون، تمايُلها معه لا يتبع العقل، كانت جزءً من آلات الفرقة، خصرها يرفرف طَرَبًا، وأظافرها الحمراء في رقبته؛ تخربش جلده ووجدانه، دفنت نفسها بين أضلعهِ، تنسج أحلامها معه وراء ستائر نفسه، أرسلت سهم نظرتها ليخترقه، وأهدابها ـ القاتلات ـ تتحرك فتقود مقامات اللحن، تبُخُ في وجهه زفيرها المعطور، وطبعت بحمرة شفاهها على جانب عنقه صك مبايعتها، بينما رنة الأوتار يتردد صداها في قلبيهما، تقاربت الرؤوس كأغصان الورد في نسيم الضحى، لعبت الحركات بينهما على أعصابه، وحكة صدرها بجسده تنقر في مجرى دمه، أسقطت نجم النهار ليلهو في حشاياه، فأحس معها بشيءٍ مماثل لمذاقِ اللهيب، كأن كيانه الذي يعرفه ليس هو، اقتربت منه تفُح كالساحرات، فأخرجت الحروف تنسال من روحها:

ـ انت الروح.

ورجعت برأسها للخلف حتى تتعانق مع بصره ثانية، لتقتله ثانية، لتنفجر الآه في دخيلته ثانية، فقال: يمكن انتِ أكتر!

ثم اقترب منها ووضع شفتيه على أذنها ولثمها، تخدرت مسامها، فأحسها، وتابع: انتِ أكتر بكتير أوي من اللي اتمنيت.

ارتفع التصفيق من جمهور الراقصين، وهي لا تزال ترتجف بين يديه؛ وكأن أصابعه نمت فيها أسباب الوجود، وارْتَدَتْ كسوة الكمال، فتنبها سويًا للمحيطين، وأنصتا لوشوشة الخطوات حولهما، فنظرت في عينيه واحتضنته بتلقائية رافعة قدميها، فطوقها من خصرها وأسكنها بين

ذراعيه وصدره، حملها فوق ضلوعه، ودار بها كالحواةِ على هزج تصفيق وصرخات المراهقين الذين يقتربون منهما، نزلت وجمر وجنتيها يفضح مشاعرها، فنقرت الرخام بحذائها كالأطفال، ثم قالت بمرحٍ مكتوم:

- مشيني من هنا بسرعة يا «فارس»!

ابتسم وهو يلمس طرف شفتيها بأنامله، ثم ضمها وتحركا سويًا في اتجاه الخروج فهمست: روح انت المستشفى دلوقتي.

ثم ربتت على طرف يديه وقالت راجية: خلي بالك من نفسك.

ضحك على غير المتوقع حتى أسمع الشارع قهقهته: طول عمرى نفسي حد يقولي بسهوكة «خلي بالك من نفسك»، أنا آخر مرة اتقالت لي كانت تهديد.

استطاع أن يلتقط من النور شعاعًا ويضعه في ثغرها، ابتسمت فابتسم، والبسمة بالبسمة والبادي أجمل، فقد آمنت به، وجاءته تحمل أحلامًا مؤجلةً بحجم أشتات الكون كلها، تعرف أنه سيغير الوجه العكر لأيامها، تُصدقه، فنغزة القلب المفاجئة تؤكد أن الأرواح تآلفت، وهذا بالضبط ما أقرته في نفسها عندما قابلت «فارس»، فقد تسلل مثل العِطرِ بهدوءٍ إلى حناياها، وَصَلَتْ بين يديه إلى ذروة الشغف، بلا افتعال أو اضطراب، بل مجيء مؤنس يُزيح الوحشة، تابع كلماته ضاغطًا على كتفها، يملؤها شعورًا بالمعية:

- «عبير» انتِ نفسي.

ثم قال بجدية: هاوصلك الأول يا «عبير»، واطمئن انك روَّحتي بالسلامة، وبعدين هاروح على المستشفى.

ضمت يده إليها بقوةٍ، مطمئنة نفسها بأنها سمعت الرد الذي تمنته، اختلست منه حس الأمان، فأرخت رأسها على كتفهِ في سكون وسلام، وانصرفا مع انصراف النهار، وترك كل منهما في شريان الآخر بقاياه.



ذهب إلى المستشفى، قد يواجه والدتها ثانيةً، وينتفض في رأسه تحذيرها السابق بألا يقترب من «مريم» بعد ذلك، لكنه الآن لا يهمه سوى ابنتها بالفعل، لن يتخلى عن رحمته تجاهها، تلك المرة سيكون جوارها، ولو لآخر مرة في عمره معها، طاشت برأسه الدماء، يعرف الآن طريقةً لمواجهة تلك المرأة القوية؛ التي رفضته عندما طلب يد ابنتها سلفًا، رأت فيه شبحًا يهدد استقرار فلذة كبدها، في الماضي حار الجواب في حنجرته عندما سألته: أتُحِبُها؟! وقف السؤال في رأسه مُبهمًا كالوهم في بال المجانين، الآن سيقول الحقيقة؛ إنه لا يحب «مريم»، إن ما يُكنه لها أعمق من الحب وأطهر، إنه يرحم بها، والرحمة توطد سلطة المحبة بين الشعوب، تقود انقلابًا سلميًا تُغير به وجه الحضارة، تحول ملح الحياة إلى قطعةِ سكر، لذلك ضحى بوجودهما معًا من أجل صالحها، رحمته ظهرت في إنكار ذاته، مع أن حضورها في حياته الصماء كنغمةٍ أبحرت من الأوتار، كحضور السحاب يحمل في الصيف رطب المطر، وتجلى ذلك في قرارها الذي شجعها عليه، أن اقبلي بذاك العريس واهربى من جحيمي، انفدي مني، واتركي نار لحظاتي تأكل هشيمي.

دخل غرفتها فوجدها وحيدة كعادتها، جلس بجوارها وتخلل أصابعها، تحركت يدها الرقيقة في صعوبةٍ، والأسلاك متصلة بها تبث في شرايينها المهدئات، فتلامست أناملها في قبضته، تحدثت لغة البصمات، أحست بارتجافته، وسمعت ضجيج نبضاته، حاولت فتح عينيها لكنها لم تستطع، ملامحها ـ رغم الشحوب ـ جميلة بدون تدخل الـ «Make-up» المعتاد، بداخلها إيقاعِ رتيب لصداع يأكل في رأسها بانتظام، كنقراتِ الأجهزة المنتشرة حولهما، حاولت رفًع يدها الأخرى وتراجعت، فهي ثقيلة كشكارة جبس امتلأت مياهًا فتحجرت، وذكرى ليلتها الغابرة تلسع عقلها كقنديل بحرٍ يتيم، على استحياءٍ ـ وسط الضباب ـ ميزت صوته:

ـ «مريم، سامعاني يا حبيبتي.

الصوت يأتي من بئر عميقة؛ يتردد صداه ثقيلًا بين جانبي رأسها، حاولت أن تجيبه، لكن الشفاه الناشفة تكاسلت، متشققة، مالحة، بحثت عن حبلٍ صوتي مازال يعمل فلم تعثر، اكتفت بضم أناملها الواهنة على أصابعه، ففهم طًريقتها في الرد، واستكمل:

ـ أنا آسف على كل شيء، في حاجات مابنشوفهاش من لهفتنا عليها، وبعد ما نتعمق في مشاعرنا، نلاقي إننا اتزرعنا زي المناعة في جسم كل واحد فينا، دا اللي حصل بيننا، الكلام دا مش في وعينا وبس، لأ، دا حتى في عقلنا الباطن، كُنا لبعض طوق النجاة، كنا بَرَكة في حياة بعضنا، فكنتِ أحسن حاجة حصلت ليَّ في السنين اللي فاتت والله.

صمت قليلًا، ملامحها تزحف في المنطقة المبهمة بين الصحو والإغفاء، ثم تابع: في كل الأحوال بقى كل واحد مننا جزء من التاني؛ يتعب لتعبه ويفرح لفرحه، وحتى لو هو مش السبب برضو بيشاركه، ودا اللي جابني بدون تفكير عندك.

بُح همسه وهو يتحدث، ببراءةٍ، وبإفاضةٍ مُراهِقَةٍ، وبلا ترتيب انسابت الكلمات منه، شيء أقرب لنداء الروح، والأرواح لا تعرف الرياء ولا تذوق مرارة المجاملة، هي الصورة الخام من الإحساس، يكلمها كما يتكلم حدس المرء لصاحبه، تأملها بعينين مغرورقتين، ثم مسح على شعرها، مثل الربيع يوزع الظلال والنسيم، قبل جبينها، ناعم كشفاهِ المزهريةِ الملساء، ابتسامتها تطوف بخجلٍ في ملامحها، وهو يستجدي شفاهها أن تترجم نداء روحها لروحه، فابتلع ريقه وأغمض عينيه واسترجع أول كلماتهما في الدردشة على الموقع الأشهر، وهنا لمح في خياله وجهها يلتفت تجاهه، فتوهم أنها تهرول إليه، وفي عينيها ملايين الحكايات التي لم تُحكى، وأحس بيدها تهبط لتتشبث بكتفه، الارتجاف غرس أظافره في مسامه عندما بدأت تتكلم:

ـ انت مين، وبتعمل إيه؛ ومين سمحلك تدخل هنا؟!

انتشله صوت «صبري» من حالته..

والدة «مريم»، التي تقف بداخل الغرفة أمام الباب المفتوح مباشرة بخطوتين، تابعت المشهد الكارثي، أمامها «صبري» يواجه «فارس» الذي وقف ورفع كف غريمه عن كتفه، وعرفه باسمه، بثقةٍ تمس حدّ الغرور، تسمر «فارس» موليًا ظهره لسرير «مريم» الممددة عليه، يفصل الكرسي ـ الذي كان يجلس عليه ـ بينه وبين «صبري»، وتجمد المشهد

لثوانٍ قليلة، «صبري» يقف فارغًا فاه كالأبلهِ لا يستوعب، والدة «مريم» لا تعرف حلًا لتلك المعادلة، «فارس» يحسب الفعل وردة الفعل لكل كلمة ممكن أن تقال له أو منه، أو كل فعل يصدر منه أو إليه، ثم تنحنح والتفت نصف التفاتة إلى والدة «مريم»، وفي تأثر قال محاولًا إطفاء بعض الحريق الذي سيبدأ:

- ألف سلامة على «مريم» يا فندم، بإذن الله تعدي الأزمة على خير وترجع أحسن من الأول.

التجاهل أصاب كبرياء «صبري» في مقتل، فلم يتمالك نفسه، انسحب من لسانه حين هَمَّتْ والدة «مريم» بالحديث فقاطعها، وهو يسحب «فارس» من جانب كتفه ويصرخ بغيظ: كلمني أنا هنا، انت مين؟ وكنت قاعد كدا ازاي مع خطيبتي؟!

ثم التفت إلى «أم مريم» وعينيه يتطاير منهما الشرر: مين دا؟!

تردد صوته في ردهات المستشفى، فأسرعت رئيسة وحدة التمريض من أسفل لافتة كتب عليه «الهدوء من أجل راحة المرضى»، قطعت الممر إلى مصدرِ الصوت، في الوقت الذي تحركت فيه «أم مريم» حتى تفصل بينهما، مَدَّتْ يدها لتجذب «فارس» قائلةً:

- انت إيه اللي جابك هنا؟ هو أنا مش قُلت لك قبل كدا ملكش دعوة ببنتي تاني؟!

ولكن قبل أن تمسك بـ «فارس» كانت له ردة فعل تلقائية لفك قبضة «صبري»، لكن الأخير تشبث به أكثر، أدار معصمه فقاومه، فاضطر «فارس» إلى دفعه بعيدًا عنه، اصطدم «صبري» بحرف الباب المفتوح قبل أن يَرْتَدَّ مترنحًا كثورٍ يحتضر، اختل توازنه وحاول الاتكاء

على منضدة؛ تحمل محاليل وأشعات وبعض الأدوات الطبية، فلم تحتمل وزنه الزائد وهوت به أرضًا، لمس كرشه الأرض كبالونٍ مضغوط الهواء، وفوق رأسه سقطت المنضدة، فارتطم وجهه بعنف في البورسلين، كانت الممرضة في نفس اللحظة أمام باب الغرفة من الخارج، فأسرعت وضغطت زر الإنذار، هنا أخيرًا وصلت والدة «مريم» إلى «فارس» فسحبته كخروفٍ عنيدٍ إلى الخارج وصاحت به:

ـ انت اتجننت! اتفضل امشي من هنا، وإياك أشوفك أو يكون ليك اتصال بـ «مريم» تاني.

خرج «فارس» متعجلًا؛ بمفاصل تحتك بأزيز عالٍ، يرتعش، وطنين نحل في أذنيه، يهندم ثيابه وبداخله يغزل بالألغام هواجسه، بينما استند «صبري» بيديه للنهوض، منتفخ الأوداج، أضحية ترك فيها الجزار سكينه المسنون وتركها تفَرْفِر، مسح خيط الدم الذي فتح طريقًا له من أنفه، وشد حزام بنطاله ليلُم قميصه المهلهل، وحاول ـ عبثًا ـ السيطر على رزازه المتطاير، وهو يتحدث إلى «أم مريم»:

ـ إيه اللي حضرتك عملتيه دا! الواد دا كان لازم يتربى.

قالها ونظر لدمائه، لطخت المكان وتتقاطر على قميصه، فتابع وهو يرفس الباب: وحياة أمه لأخليه يندم على اليوم اللي اتولد فيه.

وعلى صدى أذان العشاء في المساجد المحيطة، فَرَّ «فارس» من المستشفى، التي دوت فيها صافرة الإنذار وتزاحم فيها الأمن، وحشر نفسه في أقرب تاكسي، طالبًا من السائق الهرب وإخراس الكلب البلدي الذي يصدح في السماعات، وضغط الاتصال في هاتفه:

ـ أيوة، انت فين يا زفت دلوقتي؟!



على رصيف مقهى شهير في وسط البلد، جلس «فارس» فوق كرسي خيزران وأمامه منضدة تحمل اسم المقهى، يحتسي «Espresso» في كأسٍ فُخار، ألقى نظرة خاطفة على شاشة هاتفه فوجده قد فارق الحياة، ضغط زر التشغيل فلم يستجب، أصابته سكتة بطارية، تحتاج لإسعافات كهربية أولية تشحنها، فألقاه، وأخذ رشفة قبل أن ينقل بصره في الشارع الذي لا يهدأ، يُخرج ضيقه مع المد والجزر في موجات البشر، حتى ظهر «محمود» من بعيدٍ يأتي مسرعًا، بقميصٍ مُربعاته زرقاء كيومِ «فارس»، لمح صاحبه فاقترب منه وتصافحا، فعاجله «محمود» وهو يسحب كُرسيًّا من أمام منضدةٍ أخرى، غير عابئ باعتراض الجالس بجواره:

- إيه يا رفيق، جايبني على ملا وشي كدا ليه؟ فيه حاجة حصلت؟!
- مصيبة.
- هيبقى فيه مصيبة أكتر من العيشة بتاعتنا دي! أبوك مات ولا إيه؟!

قالها «محمود» وهو يجلس سارقًا رشفة من الكأس المستريح على الطاولة: انت عرفت إن «مريم» اتخطبت على «وكيل النيابة» إياه؟

قال «فارس»، فأعاد صديقه الكأس إلى مكانه وقال: ألف مبروك يا سيدى، ما المناصب دي هـ...

كان الشريان الثوري يُلح عليه فبتره «فارس»، الأمر جلل ولا يحتمل أي خروج عنه، لذلك استكمل حديثه مُباشرة؛ وقص عليه الأمر كله، عن ليلةِ الخطوبةِ وما حدث فيها، الفرح الذي لم يكن فيه أي فرح، ومتابعته لكل التفاصيل عن طريق حساب «مريم» على الـ

«Facebook»، تلك الآفة المجتمعية التي تكشف ستر الله على حياة الخلائق، الشِباك المفتوح على سيرة كل واحد من المستخدمين، الأرض الخصبة المزروعة بالشائعات للجميع، وعليه تناقل الأمر بين صديقاتها، سواء بشفقةٍ أو بشماتة، قال «فارس»:

- بصراحة يا «محمود» ما قدرتش إني ما اروحش أشوفها.
- لأ وانت فيك الخير أوي بروح أمك.
- روحت المستشفى، ما لقيتش حد معاها فقعدت جانبها، وشوية وحصلت كابسة، أمها وخطيبها.
- وكيل النيابة! ليلتك زرقة شبه الصوباع المدوحس، وحصل إيه؟

سؤال جعل روح»فارس» أقرب للسماء، فبدأ في حكاية التفاصيل المملوءة بالشوك، كأن الزمان محبوس في غرفة «مريم»، وجميع الأقدار تصب في دماء «صبري» التي سالت هناك، مرَّ الأمر في باله مثل شظايا لغم انفجر في هواجسه، خمس دقائق لخص فيهم سيناريو الواقعة، شتم فيها القدر الذي قاده إلى هلاكه، قَلَبَ حياته القديمة كلها في لحظةٍ واجه فيها السُلطة، كيف تُضمَر جينات الرجولة في داخله هكذا؟ ويفر كأي مُطارد من المواجهة! الإجابة بتؤدةٍ أهلًا بك في وطنِ الكادحين والسارقين والمتدينين، و»محمود» مستكين بين كل لفظَة وأخرى، يَعُد عليه حالات التناقض، هذا هو صديقه الذي يعرفه، متهور، عنيد، مغرور، عصي، شجاع، جبان، غني، فقير، عاشق، كاره، ناقم، أحمق، ذكي، غبي، بسيط، معقد، مؤدب، سافل، قوي، ضعيف، باختصار بشر كما يجب أن يكون، لذلك أطلق صافرة الخوف من شفتيه، وقال بتقطير ممل يفصل بين الكلمات:

- يعني انت ضربت وكيل النيابة!
- آه، تتحسب كدا، وما اعرفش الحكاية هتخلص على إيه؟!
- ومين قال إنها هتخلص، دي بدأت بس يا شقيق.

استغرقت الجلسة في خذ وهات «Espresso» و٣قرفة و٤شاي، وكم معقول من «معسل النعناع» في مركز شباب الشيشة هذا، حجر الشيشة من أهم الأحجار الكريمة عند المصريين، يبجلونه بدرجة تصل إلى حدِّ التقديس، ينفثون فيه همومهم ويلمحون أعمارهم وهي تحترق في شرارته، مثل القرابين التي تُقدم إلى آلهة النار، لذلك لا عجب أن تكون الشيشة حاضرة، عند انعقاد أي جلسة مهمة في أي منطقة مصرية، ضيف مستديم ولا تكتمل المناقشات إلا وسط دُخانه، وأهم القرارات تُأخذ تحت تأثيره، وبعد مرور أكثر من الساعة انتهى «محمود» من كلام فض المجالس، صمت كثيرًا مُستمعًا إلى «فارس» حتى قال له كلمة النهاية:

- انت تعيش حياتك، بيتك وشغلك، كأن مفيش حاجة حصلت، واللي ليه حاجة ييجي ياخدها.
- طب وبسلامته!
- يا عم هو يعرف عنك إيه؟
- «أم مريم» تعرف عني كل حاجة، لو قالت له اسمي بس هيعرف يجيبني.
- يبقى يعمل اللي يعجبه، اللي حصل حصل وخلاص، انت بقى لو شايف حاجة تانية قُلها، وبعدين هو في إيدك حاجة

تعملها؟! لو في إيدك انت عارف، أنا معاك، عشانك أدخل في الحيط يا رفيق.

ـ مفيش حاجة والله يا صحبي أقدر عليها.

ـ خلاص بقى، تِكِن كدا لحد ما نشوف آخرتها إيه.

ثم ربت «محمود» على كتف صديقه لتهدئته وتابع: خليها على الله وهتعدي، بس الموقف دا يعلمك.

هي ذات المسألة التي تتسكع على ناصية جلد الذات، فأفضل الأصدقاء من يُصارح بالعيوب في الوجه، لا لشيء إلا لأنه يحب، و»محمود» من هذه النوعية، لا يخشَّى من غضبةٍ مؤقتةٍ لصديقه ولكن يخاف عليه من الضرر، و»فارس» يحفظ تلك الديباجة المغسولة بالبارود، ويتجنبها دومًا، لأن الدقائق فيها تُصبح حُبلى بألف انفجار وانفجار، يتسابق الزمان على التواءات الحروف، ويُبعثر لحمه حول الفواصل، يتململ حتى يملأ فراغات الكلام ضيقًا، لذلك علمته التجارب أن يبتر الحوار، فحاول أن يختصر الإعلانات وقال:

ـ ها ارغي، يعلمني إيه بقى؟ ما هي كانت ناقصاك.

ـ يا عم اسمع مني أحسن ما تسمعها من الغريب، انت عارف إني أكتر حد في الدنيا دي يهمه مصلحتك.

ـ عايز تقول إيه؟ انجز يا «شبانة»، بلاش النص ساعة إعلانات اللي في الأول دي وحياة أبوك.

ـ مراتك لو لفيت الدنيا مش هتلاقي واحدة زيها، قابلاك بقرفك ومستحملاك وشايلة همك، وكمان ربنا بيكرمك معاها أهو وقريب هيشرف ولي العهد، عمرها ما اشتكت

من ضيق الحال، وبتقتنع بأقل القليل، وبتتمنى لك الرضى ترضاه، ومنورة لك صوابعها، صونها بقى وكفاية..كفاية، اللي جاي في العمر مش قد اللي راح.

لكزه «فارس»: شوف مين اللي بيتكلم؟!

- ما لكش دعوة بيَّ، انت ما سمعتش كلامي قبل سابق، لما قُلت لك بلاش تتجوز دلوقتي، كنت عايزك تعيش حياتك بمزاجك، يبقى اسمعه مرة، اِلحقْ استمتع باليومين اللي المفروض حلوين في حياتك، قبل ما تلبس.
- من ناحية اللبوس فكدا كدا كلنا هنلبس أو بنلبس عادي، ودا ما بقاش يقلقني، أصل مش كل حاجة تحصل تزعلني، لسة في حاجات كتيرة جاية وهتزعلني أكتر، كمل جو التنمية البشرية بتاعك دا.

هنا انفجر «محمود» ضاحكًا من جدية «فارس» التي ظهرت في جملته الأخيرة، وارتفعت أكفهما وتضاربت بانسجام خَلَّاق، محظوظ هو «فارس» بصديقهِ، فالإنسان يحتاج إلى شخص لا يهتم بالشروخِ التي تملأ كيانه، ويتقبله برغم كل الأمور التي تعيبه، مرت الرؤية فيِ عينيه بالتصوير البطيء و»محمود» يمسك «لَّي الشيشة» متأكدٌ أن صديقه يُترجم ما في داخله ويتقبله، الأفكار تمر سلسة بين عبق الكربون الكثيف، وبين وجوه العابرين، انقضى الوقت وهنا نظر «فارس» في الساعة وأعلن الرحيل:

- حاسب يا حيلتها.

قنبلة انفجرت في وجه رفيقه؛ غير عابئ بالألم الذى اعتصره وهو يقول: نعم! هو مش انت عايش عندي آكل شارب وساعات نايم كمان، كل يوم، والقهوة اللي أمي بتطفحها لك.

- برضو هتحاسب.
- ممعيش فلوس، ومش بس للقهوة لأ كمان لبقية المواصلات.

«ملعون أبوك يا فقر حاوجني للأندالـ «

ارتفع صوت «أحمد شيبة» من مكبر الصوت في داخل المقهى، فنظر كل منهما للآخر وانفجرا ضاحكين مرة أخرى، هنا رَنَّ هاتف «محمود» برقم غير مسجل فانشغل في الرد بسرعة هربًا من الحساب، بينما ضحك «فارس» من المشهد المحلي رديء الصناعة الذي يقوم صاحبه بتمثيله وأشار للنادل، انشغال «محمود» بالرد على المكالمة طال، وقف بعيدًا نسبيًا عن «فارس» بوجهٍ شاحب كالموتى؛ هربت منه الدماء، تَعَلَّقتْ عيناه الحائرتان بـ «فارس» في صمتٍ، هدوء يثقب الكلمات وينخر نقاطها، لف حول نفسه جيئةً وذهابًا، كسجين بين أربعة جدران، عفنت في عقله الأفكار، هنيهة حزينة مرت تُخربش أعصابه وهو يرد:

- البقاء لله، حاضر احنا في القاهرة، هنيجي دلوقتي، مع السلامة.

أغلق «محمود» الخط وعينيه معًا، ثم تمتم: إنا لله وإنا إليه راجعون.

تحرك كطفلٍ يلمس الأرض لأول مرة؛ متثاقلًا، بالكاد تزحف قدميه فوق أتربةٍ الرصيف، يكنسها، اقترب من صديقه بعدما دفع الحساب، وجهه مُتهدل الملامح، كلماته أكبر من صوته، أحس «فارس» بثقلٍ يتزايد فوق صدره لما لمحه فسأله: في إيه ياله مالك؟

ـ انت نازل البلد الليلة ولا كنت مبيت في القاهرة؟

صوت «محمود» خرج مهترئًا كقماشة بالية..فقال «فارس»: لأ هابيت، لأن بكرا عندي مشـ...

ـ أجل مشوار بكرا دا..

قاطعه صوت «محمود» كغلغلة السكين، فاندهش «فارس»، إدراكه الحدسي ينبئه بمصيبةٍ أخرى، طريقة الكلمات المتقطعة التي يتبعها رفيقه يعلمها جيدًا، هذه السيالة النيئة في الحوار يعرف أنها تخبئ في جيوبها النار، يتكلم هكذا دومًا إذا اعتراه خطب يفوق احتماله، سأله عن السبب، فارتعشت شفتاه المحترقتان، زاد الطين بلة، عليه أن يجوب ألواح القدر جميعها حتى يرسى على بر الكارثة، يجب أن ترفرف أوراق خياله كالغربان بحثًا عما ينتظره، حتى استجمع «محمود» نفسه للحظة، ووضع يده على كتفه:

ـ يا «فارس» انت راجل طول عمرك، وموحد بالله.

تاه «فارس».. يعرف المخبأ خلف هذه الديباجة، خبر يمارس السحل في لحمهِ بلا تبصير، أحس بضغط الهواء في رئتيه كإطار سيارة ينفجر، ضاق البراح عليه، وشعر، لا لم يعد الشعور ممكنًا.



شعار كبير لوزارةِ الداخليه، بعض اللافتات من عينة «الشرطة في خدمة الشعب»، «الشرطة والشعب في خدمة الوطن».

«قسم شرطة الوراق»، غرفة مُكتوب على بابها «ضابط المباحث»، يجلس داخلها «عماد عتمان» خلف مكتبه، متوسطة الاتساع، تميل إلى الشكل الدائري ملحق بها حمام صغير وباب خلفي للخروج والدخول، مكتب فخم عليه بعض الملفات في ترتيبٍ وحافظة مستندات، مَقْلمة من النحاسِ مُطَعمة بالعاجِ محفور عليها اسم ورتبة صاحبها، ثلاجة صغيرة تمتلئ بزجاجات عصائر ومياه غازية، شاشة عرض مثبتةٌ في وجه الجدار، تبُث مباراة كرة قدم في إحدى الدوريات الأوروبية، لحظة وقرع الباب «عبد المتعالـ «:

ـ تمام معاليك، «أنوس» برا.

أشار إليه أن أدخله، فخرج وهو يعطي التحية مرة أخرى، ثوانٍ ودخل «أنوس»، ضلفة باب بدون كالون، كائن يجمع بين شكل الدبابة ومقومات المدفع وحدَّة الساطور على شكل آدمي، شعرٌ أشعث حليق من الجانبين، فيه رسمة مفحوتة بالموس لسكك حديدية حتى الرقبة، مدبب من الوسط كالمصعوق، وجه فيه خطوط طول وعرض مختلفة، مُغطى بالندوب، آثار خياطة لجرحٍ قطعي في الرأس لم يلتئم بعد، لحية سوداء خشنة كثيفة متعرجة يضربها شريط أصفر «ماء أكسجين»، انحنى في ذل وعيون مكسورة لا تنظر إلى سيده، ويده اليمنى ـ الموشومة بأفعى فارغة فاهها ـ ارتفعت بتحية مبالغ فيها، وكح لتسليك زوره ثم قال:

ـ زاموا عليكوا يا با چا.

«أنوس» صوته مُصاب بعطن الخمر والمخدرات، ويظهر تأثيره على حروفه المتداخلة، السين والصاد والثاء تنطق زين، والشين تنطق چيم، والحاء تنطق عين، والخاء تنطق غين، والفاء تنطق ثاء، وهكذا، ومن حوله فهموا القاموس اللغوي الخاص به..

فقال له «عماد» وهو يُتابع المباراة باهتمام: انت ياله خلاص ما بقاش ليك كبير؟!

- يا باچا انت الكبير هنا وكلنا تعت أمرك، بإچارة واعدة نجيب عاليها واطيها، عچان غاطر معاليك.
- انت عديت الخط يا «أنوس»، طيب طالما انت مقطع شراايينك كدا؛ ماكنت علِّمت ع الواد اللي استأفاك وشقط أختك «هدى»، وانت حيحان عليه بقالك سنتين وما عترتش فيه، هي «هدى» فين دلوقت؟ معلوماتي إنها سابت «أول عباس».

هنا بَرَقَتْ عيون «أنوس»، واعتدل في وقفته فبانت تفاصيل من العضلات منحوتة من عوامل الزمن، تنين هارب من أسطورة قديمة للصينيين، حريق القاهرة التهم حدقتيه، وتحشرج صوته، بقيَّ له أن يبُخُ النار، فقد نبش «عماد» في واقعةٍ مملوءة بالخوازيق، فمنذ تلك الليلة الغابرة و»أنوس» ليس كما هو، هناك نقطة سوداء في سجل خدمته خلفها ما قد حدث، صحيح أن «هدى» لفت ودارت على صدورِ الكثيرين، لكن تحت عين أخيها، الذي انتفخ جيبه من شرف شقيقته، وعندما يقوم أحدهم بتغفيله معها، فلا يقدر أحدٌ أن يجزم؛ هل تلك

الغضبة على نفسه أم عليها؟! وعمومًا فإنه لا يهتم إلا بمصلحته، وقد يكون هذا هو السبب، فتمتم:

- هاجيبه، الواد دا هاجيبه وهانقغه
- دا أنا اللي هانفخك، انت ازاي ياله تعلَّي صوتك على رجالتي؟!
- يا باچا ماعيچت ولا كنت، لكن الباچوات قللوا مني وزط منطقتي.

احتدّ «الباشا» وضرب سطح مكتبه بقوة قبضته، جعلت الملفات المتراصة فوق بعضها تتطاير في أنحاء الغرفة، وقف مستعرضًا طوله وقوامه، قميص أبيض ناصع، فرده الكَي من ياقته حتى أطرافه، المحشورة داخل بنطال جبردين كحلي سادة، يلُمه حزام أسود عريض، وفي مؤخرة ظهره طبنجة ميرية، حذاءه أسود جلد ضخم، دفع به الكرسي إلى الخلف، في حين بدأ «أنوس» في جمع الملفات المبعثرة، اقترب منه «عماد» وأمسك بطرف ياقته وجذبه من أسفل لأعلى، وهو يحدق في عينيه ويجز أسنانه على كلماته:

- منطقة مين يا أبو منطقة، انت ناسي يا حيلتها إني أنا اللي عملت ليك لازمة في المنطقة دي! لو نسيت ممكن نعيد من تاني ونشوف غيرك، فوق ياله، انت كارت وممكن أحرقه في أي لحظة.

لملم «أنوس» أكتافه على نفسه: يا باچا أنا تعت الطوع.

ملامح وجه «عماد عتمان» ممكن أن تكون الدليل الحي الوحيد على نظرية التطور بأن الإنسان في الأصل قرد.

وجهٌ مُطبِقُ جانبيه، ضب بارز عليه شفتين كشفاه الغوريلات، وعينيه الداخلتين الرفيعتين تدل على سُلالة الشامبانزي، مع أذنين بارزتين كالمقاطف، تركه «عماد» بدفعه بعيدًا وعاد إلى كرسيه، جلس ورفع قدميه فوق بعضهما على سطح المكتب، في مواجهة وجه «أنوس» الذي وضع الملفات باهتمام كبير وهو على نفس هيئة انكماشه، وتراجع دون أن يدير ظهره لـ»الباشا»، حتى ألصقه في الباب، كوشم مدقوقٍ في أخشابه، انفعل «عماد» مع هجمة ضائعة في المباراة وهو يُوجه حديثه لـ «أنوس»:

ـ الواد «بريزة» اللي شبه الزومبي دا، كانت الحملة نازلة عشانه، عايزه يجيلي الليلة، اتصرف.

ـ زعب يا باچا، دا عوَأ كتير، ومُچ هاعرف أوزله.

هَبَّ واقفًا وضرب كفيه ببعضهما: شوط في الجون ياله، ماشي يا «أنوس» زي ما تشوف، بس انت كدا ماتنفعنيش.

ـ يا باچا أنا رقبتي ليك.

ـ مش عايزها، أنا لو عايزها كنت قطعتها من زمان، أنا عايز رقبة تانية، ولو مش هتجيبها لي قبل الفجرية، أنا هاجيبها بمعرفتي، بس ساعتها انت هتزعل، وهتجيب معاك ناس تزعل كمان.

ـ عاضر يا باچا، هاجيبه، الليلة يبات عندك ماتـ...

أكل «أنوس» باقي جملته حينما دق هاتف «عماد» بموسيقى «انت عمري»، هو يعرف أن كل سطوته بمباركة الباشا، ولو أراد أن يهدم دنياه لفعل، فمنذ أن اتفقا ـبدون اتفاقـ على الخدمات المتبادلة، وأصبح «أنوس» الحاكم بأمره في تلك المنطقة، ولولا أن الحكومة تغض

طرفها عنه ما كان له وجود، صحيح أن «بريزة» هو حليفه الاستراتيجي الأهم، وبوشايته عليه سيخلق له عداوة لا يحتملها، ولكنه الآن حائر بين عداوتين! لذلك اختار أيسرهما، أما «عماد» فأهمل هذا الكائن الملتصق بجدار حجرته، وأجاب:

ـ الباشا بنفسه، يا خبر أبيض معاليك تكرمت وكلمتنا..

أتاه صوت «صبري» عبر الأثير: طالب منك خدمة، بعتلك التفاصيل في رسالة.

ـ اعتبرها حصلت، في أمان الله، اتفضل يا فندم، اتفضل.

أغلق الاتصال وفتح رسائله وجد صورة مقطوعة لـ»فارس»، وقد اقتُصت «مريم» التي تقف بحواره ليظهر وحيدًا، وتحت منها بعض التفاصيل عن اسمه ومهنته والأماكن التي يتردد عليها وحياته، وفي آخر الرسالة وجد المطلوب..

ـ [«عايزه يزعل، بس ما يموتش زي المرة اللي فاتت!!!!»]

فنظر في اتجاه «أنوس» وأدار له شاشة الهاتف: «أنوس» تعرف الهتية دا؟!

لمح «أنوس» الصورة وتقمص دور التنين وهو يبُخ زفيرًا حارقًا ويقول: يا ديني يا باچا دا الواد «فارز» اللي بادور عليه من زنتين.



4

ماتت زوجته «يسرا»..

ذلك القلب الآن بين يدي ربه، تُرى ماذا يقول عنه؟! سيسأله الله وسيخبره بإجرام «فارس» في حقهِ، طوال تلك السنوات لم يتخيل للحظة أن شريكته ستهجره بهذه البساطة، فاجأها المخاض وهي وحيدة في شقتهما، نزفت ولم تجد من يغيثها، وسقط المولود بين فخذيها، حتى انتبهت «أم سعد» جارتهما إلى صوت عواء الكلب في الشرفة، فأسرعت لها وتفاجأت بما حدث، لم يكن في الحسبان ولادتها الآن، فاتصلت بالمستشفى، لكن كعادةِ الإسعاف في بلادنا تأتي في الوقت الضائع، بالكاد لحقوا المولود، وماتت هي بدون رفاهية الوداع، يتساءل كيف رحلت دون أن يضع يديه على يديها؟! تركته، وهو الذي كان يحسب أن يومه سيكون قبلها، وسيلفظ أنفاسه طالبًا منها الغفران، وسيغمض عينيه على ملامحها الوديعة، لكن السيناريو الرباني له حبكة أخرى، مضت، وخلفت وراء خطواتها زوجها المصدوم، والريح تُصفر في أذنيه كما تُصفر بين شواهد القبور، كأنه ريشة تتأرجح تحت زخات المطر، رغم

هذا لا تزال مسافرةً في عروق يديه، سابحة في ماءِ عينيه، أتُراها فكرت به كما تُفكر العصافير في أوراق الشجر؟!

قضى أيام التعازي في بيت والده، يصرخ بشفتين ملتصقتين، ساكن كالتماثيلِ، نقص وزنه وشحب لونه، تملكت بعض العادات منه؛ قلة الأكل، الصمت، الشرود، السجائر بعد أن هجرها لسنينٍ عادت تحتل وقته بشراهة، تؤنسه القهوة، تلك الرفيقة التي تثير اضطرابات الشعور، أذنه اعتادت على الكلمات الموجعات، وبعد عناء استطاع أن يَلُم حاجاته ليعود بما بقيَّ في شخصه لما بقيَّ من حياته، إلى شقته الحزينة، بعد مناقشات طويلة مع والديه رحل، لم يهتم بما قاله الأب أن يعود أدراجه ليعيش معهما، وتجاهل الأم، التي ترجته أن ينتظر فقط حتى يخرج «ياسين» من الحضَّانة، نعم، «ياسين» ابنه، كيف سيعيش حياة اليُتم؟! بلا أم، اعتصره الألم أكثر، أهكذا تتدمر الحياة بخروج الأنثى منها؟! تلمع في خيالهِ كلماتٍ قديمة لوالدهِ؛ الذي نادرًا ما يُسمع له كلمة، حيث قال مرة:

- الراجل دا أضعف مخلوق في الكون، من غير الست ولا يسوى حاجة، يغرق في شبر مايه، أيامه كأنها لوحة من غير ألوان، العيشة بتاعته باهتة، دا إذا كانت عيشته من غير ست ممكن يسميها عيشة أصلًا!

الآن أدرك أن زُهد أبيه ليس إلا حكمة بالغة، فهو لا يساوي شيئًا الآن بدون «يسرا»، تلك النسمة المعطرة، ماتت معها الأيام، دُفن في قبرها الوقت، فتخاصمت اللحظات، وتقاتلت الثوانِ والدقائق فوق حركة الساعات، ليست كأي سيدة، فكانت الجنة تتوسد صدرها

لتنام، امرأة من شعرها ترتفع أغصان الليل، وثغرها يمسح عن السماء غبار الغمام، إنسانة تنفجر بين يديها آلاف النواهل، فمشى إلى محلِ سكنه، لم يأتي للعمارة منذ أيام كثيرة، المرة السالفة كان يهاتفها ويلمح ابتسامتها وبريق عينيها، لهفة تقاسيمها يتراقص عليها الشارع، شيء ما غادر ذلك الحي، يتأمل الشرفة الثكلى، التي وقف فيها الكلب ينبحُ مُناديًا على صاحبته، تسمر في مكانه وأخرج هاتفه ليتصل بها، ما زال لم يقتنع بعد بإشكالية خروجها من حياته للأبد! في المدخل، يرى كل شيء يُشارك فؤاده لون الحِداد، خطواته ملولة فوق السُلم الذي «كان» إذا لمسته تزين بالخلاخيل، وأمام الشقة تقدم بالبطيء مترددًا، بصعوبةٍ اقتنع أنها لن تكون بالداخل، وهذا قدره، ولا مجال للأهواء مع القدر، سيقبل به، إما راضيًا أو راضخًا.

انفتح الباب ناحبًا، انطفأ اللهيب في البيت، ونُفِخَ رماده في وجهه، خطى بقدمهِ اليمنى إلى العتبةِ وهو يتمتم بآية الكرسي، وقف يدور بعينيه، نعم غادرت، والعُش المسكين يسأل عن عصفورته الندية، هل تدخل من خلفهِ مشرقةً كاخضرارِ الروابي؟! التفت وراءه ـ علَّها تُقابله ـ فلم يجد إلا الفراغ، أحس فجأة بضيقِ المكان بعد رحيل سيدته، وصوت «محمد رفعت» صاحيًا بين الجدران، والدته تركت «إذاعة القرآن الكريم» تصدح من بعد الوفاة، دلف بخطوةٍ إلى الصالة وأغلق الباب، خلعِ ملابسه فى انكسارٍ، يتعرف على حياته بدون بسمتها الشهية، بدون بَرَكة وجودها، لن يتفاجأ بها تهرول إليه كقطةٍ تموء، تتعلق برقبتهِ ضاحكةً مشاكسةً له!

أشعل سيجارة يحرق فيها حطب اكتئابه، واتجه للشرفةِ بصدرٍ عارٍ يستقبل الصقيع، رسائلها له ما زالت وريقاتها معلقةً على الحيطان؛ باكية، فيها رائحتها، عيونه تمتص انحناءات أناملها في سطورٍ نسائية الرعشات، ناعمة، هشة، وملامحها تتنقل بين البراويز؛ تلعق تحت الزجاج، مليحة، فكم من العمر يتبقى له؟ ليقتنع من جديد بعدم جدواها في حياته! تَنْحَرهُ كل أمورهما المشتركة، دخان طعامها يرفض أن يسافر، وهي تمرِقُ كالحلمِ بين المرايا والستائر، ورغم الشتاء الذي يحيط به إلا أن قلبه اشتعل، جمر تساقط فوق جوارحه وخرج من مسام جلده، بُركان نَشَطَ في روحه، يتأمل صمت المدى، الكون حوله يرتدي السواد لأجله، حزنه الذي فاض من كل وجدانه وغطى الأرض والسماء، سمع عواء الكلب من جواره، فالتفت إليه صامتًا متأملًا طعامه الذي لم يقربه، فقال:

- خلاص، اللي بتسأل عنها مش هتشوفها تاني، صاحبتك سابتنا ومشيت.

تنحى عنه ورجع للغرفة، فقابلته قصاقيصها القديمة المُعلقة على المرآة، تخبره فيها أنها ستقتني الكلب، هكذا قالت آنفًا، وتُذكره بتاريخ عيد زواجهما، الليلة! حتى لا يتفنن في تجاهله كالمعتاد، طعنة أخرى تسكن في حناياه، والآن، هذا الخط المنمق والحروف الناعسات الصغيرة المعتدلة، تنبت مُزهِرة في فؤادهِ، نظرته تتنقل سريعًا بين العباراتِ المنظمة الملونة، جاءته من ضبابِ الضباب، نبش بين السطورِ، هرول بين الفواصلِ، كهِرٍ ينكُش فُتات الفُتات، نقاط تسيل منها رائحة لم تغادر صدره بعد، نكهة تقول ألا أنثى سواها، فعاد أدراجه إلى الكلب، عانقه وقبله، وهو يبكي في حِضنه كما لم يفعل من قبل،

انهار معه على صوت إذاعة القرآن الكريم، حرر عفريته المسجون وراء ضلوعه، وكأن كلماتها العزيزة وصيتها تجاههما، أضاء الشرفة؛ اقترب منه متوجسًا، يتيمان يترقبان بعضهما، يتعارفان، فإما القبول وإما القبول، ليس هناك ترفٌ لرفض أحدهما للآخر، عاينه، كلب ذكر له فروة كثيفة وشعر طويل، أبيض الوجه والقوائم الأربعة، أما الظهر والوجه فقد شابه السواد، وعينان زرقاوان، نوعه «Haski»، هذه السلالة الروسية التي تنتمي للذئاب، انحنى، وألصق وجهه فيه ينشف دموعة، وهو يُربِتُ عليه كمن يواسيه على فقيدته، وشوشه:

- احنا دلوقت يا صاحبي مالناش غير بعض، وعد مِني إني أراعيك وأحافظ عليك، وأصالحك على الدنيا كلها، هاعوضك عن المعاناة اللي شافتها صاحبتك معايا، بس بالله عليك عرفني النهاية جت ازاي؟ طيب جروح روحي واوصف لي، هل جابت سيرتي؟! طب بلاش؛ هل شافت ابنها وملت عينها منه؟ ولا الدنيا بخلت عليها زي ما أنا عملت معاها!

انقطع سيل أسئلته مع ارتعاش هاتفه، «عبير» تتصل بإلحاح مزمن، على مدارِ الأيام السابقة لم تكف عن مهاتفته، ولا يريد أن يحادثها، فهو مطعون في أعماق الأعماق، وهي بمجرد أن قرأت التعازي على صفحته الشخصية، أدركت فاجعته وتُصر أن تسمع صوته، أن تشاركه حزنه وتغمسه معه، أن تحيا في بيئته تلك، تشعر بالخيانة أن تتركه في مصابه وحيدًا، وهو يضنيه الذنب تجاه «يسرا»، فأهمل الاتصال وسرح في صورة فقيدته المعلقة، شعرها الغجري الأسود مثل فستانها مثل

حظه! الآن يشعر بالوفاء المباغت لذكراها، قد كانت وفاتُها على حين غرَّة هكذا قاسية، أفهمته ألا شيء يبقى، أشعل سيجارة أخرى وتابع حديثه للكلب:

- قلبي مولع، هاتجنن يا.. أنا حتى ما اعرفش اسمك إيه! عشان أنا كنت غريب أوي عن الشقة دي، اللهم لا اعتراض.

فكرة أبدية الأحباب مُستحيلة، وأن خطأه الكبير -الذي لن يغفره لذاته- هو تأجيل التزامه الشعوري لها وحدها، فأصبح معها شبه سند بمُسمى رجُل، ضَمِنَّ أن العمر ما زال فيه مُتسعٌ؛ يستطع فيه أن يَصِلَ إلى النضج الذي يوجِبُ عليه مُراعاتها، لكن، ها هو الآن يتحسر على الأيام الآنفة التي منع نفسه عنها، لم يُمهِله القدر الوقت الكافي ليُعوِضها عن مكابدتها معه، وأيًا كانت المشاعِرُ التي بَخلّ عليها بها فهي لعنة ستُرافقه، وهو مُلزمٌ بالتكفيرِ عن ذنوبهِ معها؛ في كل لحظةٍ باقيةٍ له، فالوقت والاهتمام هما أهم ما يُقدَمُ لشريك الحياة، وهذا ما لم يفعله أبدًا، الآن، غدت امرأته دمعة ناشفة فوق خد أحلامه المبتورة. وما زالت تتصل «عبير».

لم يكن سوى راسب في التعليم بدرجة امتياز، أَدْمَنَ المسكِرَات والمخدرات بكل أنواعها، شلة من «البايظين» كما كان أبوه شيخ الزاوية يلقبهم، عندما يمر أحدهم بباب منزله، وينادي عليه باللقب المطلق عليه في الشارع الذي أصبح مملكته: «أنوووووس»..

فيجذبه والده من ملابسه ويسمعه بعض الكلمات المؤنِبة، ويلعن اليوم الذي حَضَرَ فيه بسلامته إلى حياته، وارتبط اسمه باسمه، ويحمد الله أنهم لا ينادونه باسمه الحقيقي، «أنس»، الرجل الكبير والده «الشيخ»؛ لم يتحمل كثرة مصائبه وتلونه في الموبقات، وأكوام الذنوب التي يئن كتفه الأيسر من تراكمها، كره نفسه ودنياه، وكلما نظر في وجهه تمنى من الله أن يريحه منه، أن يُنقي سيرته من دنس هذا النبت الفاسد المفسد، الدنيا لا تتسع لهما هما الاثنين معًا، فإما هو أو ابنه، وللأسف هذه المصيبة ضربت بيوتًا كثيرة في هذا الوطن، وفي ليلة رضي الله على «الشيخ» فتقبل دعاءه، ولم يستيقظ كعادته لصلاة الفجر، رحل عن تلك الحياة بطُمأنينة.

ترك له أختًا تصغره، وتحول البيت ـ الذي بناه الشيخ طوبة تقوى وأخرى إيمان ـ إلى وكر، ولله في أمره شئون، نبتت الفتاة في بيئة مسرطنة فهوّت هي أيضًا، تخصصت في شارع «عباس العقاد»، يدور حولها طالبي الهوى، لكنها وضعت حدودًا، ولم يقترب أحدٌ من عفتها، إذا كانت تلك العفة هي غشاء بكارتها فقط! ورماها الموج يومًا على قدمي «فارس»، وضبطهما أخوها «أنوس» ذات ليلة في مدخل البيت، وقبل أن يستحلب منه المال هرب «فارس»، جرى من أمام ذلك الثور، ومن يومها يبحث عنه كقرين، لم يستطع أحد من قبل أن يُعلِّم عليه، «أنوس» اعتبرها علامة، ولم يمر في أعتى سيناريوهات تخيله ـ للحظةٍ ـ أن يكون «فارس» مأمورية جديدة، بتكليف من ضابط المباحث، منها يشفي غليله ومنها يكون قد أدى فروض الولاء والطاعة للباشا.

الساعة تخطت منتصف الليل، وقت الزلة، صوت قطرات تتساقط بإيقاع رتيب من صنبور صدئ، يتسلل قرعُها ـوسط السكونـ إلى «أنوس» الملقى على كنبة مهتوك عِرضها، بجواره صدفة مستعملة كمطفئة سجائر مفخخة بالفلاتر، تتصاعد منها أعمدة دخان أزرق تتلوى كالعفاريت، حافي القدمين يرتدي بنطال جينز متسخًا مفتوح الأزرار كاشفًا «boxer» به بُقع، وفانلة داخلية المفروض أنها بيضاء، وحول رقبته سلاسل وجنازير لزوم الصياعة، يُصدر شخيرًا متقطعًا تارة ومنتظمًا تارة أخرى كـ«شكمان» سيارة، شفتاه صنفرتان مفتوحتان كبالوعة، شعر لحيته مبعثر كنشارة الخشب، والخط الملون فيها يزيده بشاعةً، بجانبه أطباق بلاستيكية ملوثة بتنوع كئيبٍ من أطعمة، مَزَّةٌ عليها بقايا تعفن، علب بيرة ID» ١٠٪»، سقَّارة، «STELLA»، وبعض الزجاجات المجهولة، ملقاة على الأرض كخريطة منقوصة، أمامه تلفاز عتيق مفتوح بدون صوت على إحدى قنوات الرقص، فيه أفعى تتلوى، دخل إليه من فتحة الباب المخلوع باب آخر، كنس القمامة المبعثرة على الأرض بقدمه ثم تحسس جثته وقال:

ـ «صلاح الأعرج» اللي شغال مع «سامي جمعة» برا.

فتح «أنوس» عينه اليسرى وهو يحجب شعاع النور النافذ إليه عبر فتحة الباب، كمصاص دماء أصيل وتثاءب قائلًا: دغله.

انصرف وهو يهرُش عينه اليسرى العوراء، واعتدل «أنوس» بمللٍ، وهو يضع رأسه بين كفيه ويفرك عينيه المتوهجتين من أثر التعاطي، في حين دخل «صلاح» يجُر قدمه جرًا، فيها عرجٌ بسبب «أنوس»! بعد مُشاجرة قديمة لفرض السيطرة، عاهة مستديمة في رُكبته اليُمنى،

أجبرته قِسرًا على صرف النظر عن زعامة البلطجة، ومن يومها وهو يدين ـكغيرهـ بالسمعِ والطاعةِ لـ»أنوس»، ولما كان «صلاح» هو البلطجي الحامي لتجارةَ «سامي جمعة»، الذي اتفق على تعاون تجاري مع «فارس»، لذلك قصده «أنوس»، فجاء مُلبيًا النداء ودخل يتقافز كالكانجرو فوق الأرضية الرطبة للحجرة، يمشي مُتحاملًا على قدمه السليمة وهو رافعًا يده بالتحية:

ـ أؤمرني يا حامى الحمااااااه.

ـ إيه يا «زلاع»، مُچ انت قولت إن «ڤارز» جاليكم في اليومين دول، ڤات أزبوعين ولا عز ولا غبر!

ـ يا كبير وانا هاعمل إيه، ورحمة أمي أول ما أعرف هيشرف امتى هاعرفك، وتكون في استقباله.

ـ ماتزعلنيچ منك يا «زلاع»، انت عارف إن زعلي وِعچ.

ـ ربنا ما يجيب زعل، دا احنا عايشين بنَفَسَك معانا.

وفجأة ـدون مقدماتـ انتفض «أنوس» من مكانه، دفع «صلاح» وهو يُكلبش قصبته الهوائية، نُكشت مُحتويات الغرفة المبعثرة من حركتهما، شكمه، ورفعه عاليًا بيده اليمنى وهو يستكمل دفعه إلى الخلف حتى التصق بالجدار، تفتتت طبقات الطلاء القديم تحت ظهر «صلاح» الذي يرفُس؛ بقدمٍ ونصف، يلفظُ أنفاسًا تُخربش صدره المترجرج، نظر له «أنوس» بعيًنين داميتين يتأمل الهلع في وجهه، ويداه المتشبثة في يده، انتظر قليلًا حتى هدأت حركات قدميه الهائجتين، قبل أن يهمس في أذنه اليسرى ضاغطًا الحروف:

ـ وعيااااااة أمك اللي عمري ما أعلق بيها باطل، أغليك مره... وأغلي كل عيال العتة يلعبوا ڤيك لو اتعوجت معايا، أنا بادغلك في الزكك بتاعتي، وبتعرف أزراري، إياك تڤكر إنك هتزلمني للعكومة، ولو الكلام مُچ زامعه كويز.

وأخرج بيده اليسرى من ظهر بنطاله مطواة قرن غزال، وضعها على جبين «صلاح» وأدار وجهه للناحية العكسية، ثم ضربه بظهر السلاح على أذنه اليمنى وتابع: ودنك التانية تزمعك.

ثم أفلته من قبضته قبل أن تخرج روحه، ورجع إلى مكانه الأول وهو يضم مطواته ويكنَّها في مخبئها، في حين أمسك «صلاح» رقبته وهو يسعل مثل بوقٍ مشروم، والسعال ناشف يخربش حنجرته، وهو يفترش الأرض ممددًا كجثةِ بغلٍ نافق في قارعةِ الطريق، حاول النهوض لكن خانته رُكبته ـ التي تحمل بَصْمَة «أنوس» ـ فسقط مرة أخرى إلى مكانه، مثل سقف بيت مهدود، بينما جلس «أنوس» مجددًا في تراخٍ على أريكته كما كان، بعد أن أخرج هاتفًا حديثًا وضغط اتصال على آخر رقم في السجل، لم يرُد الطرف الآخر، وبعد لحظة مرت يتأمل فيها «صلاح» الذي يزحف للخارج اتصل مرة أخرى، طبق الأصل المرة الأولى، هو يخاف من تساقط الكلمات من فم «الأعرج»، فما حدث أبدًا أن خرجت أسرار عمله خارج دائرته، هنا أتاه اتصاله المنشود، فعاجله «أنوس»:

ـ يومين يا «عماد باچا» ورزالتك هتوزل بعون الله..

ـ كتير..

- أعذرني معاليك، الواد مِغتقي بقاله أزبوعين، وله قلوز كمان هنا عند تاجر ومُچ زائل فيها.
- أعذارك كترت، لو الشقاوة مابقتش على مقاسك عرفني..

قالها «عماد عتمان» وأغلق الخط، فتمتم «أنوس» وهو ينظر للهاتف: مُچ لوعدك اللى عايز تركبه، أنا بازتعد له من زنتين..

ثم شرد بنظره إلى شيء وهمي يتراقص له عن يمينه، شيء يحمل ملامح «فارس» الذي ينتظره المزيد..



مرت أسابيع في صمتٍ رهيبٍ يغلف «فارس»، تزعجه بعض الأعراض، كرعشةٍ تنتابه بين الحين والآخر، وصداع يضرب رأسه بغتة، وبعض التشنجات غير المُرتبة، وأصبحت براشيم الاكتئاب لا تُفارق جيوبه، انطوى على نفسه مثل القلادة، أصدقاء ومعارف بدأوا في التسرب من حوله كالماء، تركوه ساكنًا كالبيتِ الخرب، أصبح العالم بالنسبة له مكانًا مُوحشًا، شِلة الأصدقاء القدامى لم يعد انخراطه بهم كالماضي، انفصل عنهم وابتعد، هنا ظهر «محمود» كطوقِ النجاة، فالصديق الحقّ هو من يُقْبِل عندما يُدْبِر الجميع، خاف عليه، فأخذه من يديه وعاود الالتحام بمجتمعهم، لكن محاولته كان لها أثرٌ مُضاد، فالأمر ليس بكثرتهم حوله! هدير صراخهم أثناء لعب الـ «Playstation» كان يرُج أفكاره، ويحشو أعصابه بأصابعٍ ملغومةٍ تنتظر التفجير، فانسلخ منهم.

وأحيانًا يُقرر الإنسان اعتزال الحياة طواعيةً، ليلحق ما بقيَّ من نفسه.

حياته ضيقة في كهفه، محدوديته تكفيهما هما الاثنين، هو و»الكلب»، ظِلان للشخص نفسه، يجلسان معًا، يخرجان معًا، يتسامران معًا، يأكلان معًا، التصق بالكلب كليًا، أصبح كرسالةٍ من القدر إليه، يشحن قلبه بالأمل في مواصلة تلك الحياة التي فقدت حياتها، أحس به قريب من الروح ساكنًا فيها، شعر تجاهه كما يشعر تجاه ابنه «ياسين» الذي يراه من خلف زجاج الحضَّانة، فالكلب أصبح كعضوٍ آخر من أعضاء جسمه، خرج منه ويسير إلى جواره، تتعانق خطواتهما في كل مكان، بواقٍ من نفسه تتحرك في أرجاء الشقة، يلعب معه وينام إلى جواره، ينظفه، يطعمه بسخاء، يهتم به أكثر من اهتمامهِ بنفسهِ، كذلك الكلب ارتبط به أكثر وأكثر، تكاسل عن تسميته، كان يُناديه بـ «الكلب»، وقرر أن يكون اسمه أول مُهمة لـ»ياسين»! وفي كل لحظة تمر عليهما معًا يندهش «فارس»، فقد كانت لديه تحفظات على وجوده، فكيف أصبحت له كل هذه القيمة؟! عادت والدته للاتصال به:

- ازيك يا حبيبي عامل إيه؟ بتاكل كويس، يا ريت يا بابا تبدأ تاني تنزل شغلك، وامشي في وسط الناس زي ما كنت الأول، وِشُوش الخلق هتنسيك كل حاجه، ارمي همك في الزحمة.
- حاضر يا ماما، «ياسين».. شوفتيه؟
- أيوه يا حبيبي، زي القمر وهو في الحضّانة.
- طالع لأمه.

قالها هكذا، الألم في شكله الخام، جعل والدته تخرس، طلبت منه تقليل شرب السجائر، وأغلقت الخط..

مرت أسابيع وهو على هذا الحال، يستيقظ صباحًا متحينًا أي فرصة لينام مرة أخرى! تدهور أداء عمله، قل وزنه، بانت عظامه، كأنه عصا مكسورة أو خرقة ممزقة، يومه فيه نصف وجبة وعدة أكواب قهوة وعلبتا سجائر، ينتظر حتى لا يجد ما يرتديه فيُلقي كل حاجاته في الغسالة، وبعدما تجف يستر نفسه بما يقابله بدون تنسيق كسابقِ عهده، اغبر مظهره وتآكلت نُضرته، انطفأ توهجه مثل لمبة محروقة، يتحرك كـ«زومبي»، نسي استمتاعه بالأشياء، بدا له لأول مرة أن عمله كحمارٍ في ساقية، المتعة نفسها أصبحت كلمة لا محل لها من إعرابه، يعود بعد أن أنهى مشاويره داخل ملابس مُبقعة بالعرق، حذاء مترب، شراب مكتوم، وجه أشعث بلحية مجاذيب، جاحظ العينين، شارد النظرات، وتائه الخطوات، منخور الهواجس، لم يعد كما كان، ولم ينتبه له أحد.

يخدع الجميع بقولهِ: أنا بخير، رغم أنه يدعو الله ـ كل لحظة ـ أن يكون كذلك حقًا.

- «عندما تنطفئ لن تجد من يُضيء لك روحك، فهم حولك بقدر توهجك، أما العتمة فهي من أجلك فقط، لك وحدك، يجب أن تدرك هذا وتتأقلم عليه أيضًا!»

كتب ما يفكر فيه الآن، في تحديث حالته على الـ «Facebook»، وبالفعل لم يجد من يسأل عنه أو فيه، وضبط نفسه متلبسًا بكشف خبيئته للغير، ها هو يقوم بالأمور التي طالما رفضها! ولهذا؛ لا يجب الحكم على أفعالِ الناس إلا بعد المرور بنفسِ ظروفهم، فالتجربة هي ميزان ما يدّعيه أي شخص، مع ذلك تجاهل كل شيء وذهب إلى والده لأداء صلاة الجمعة، أتاه كالمجاذيب، تائه، يبتسم في وجه الجميع بلا أدني

تعبير، ويُحرك شفتيه بلا صوت على سبيل الردود، يستمع لوالده بآذان مغلقة، هذه حياته الجديدة، وبعد خروجهما انتشلته نغمة منظم مواعيده، يخبره بميعاد مع «سامي جمعة» وبين قوسين «الوراق»، فالعمل هو الملجأ النهائي لإخفاءِ التعاسة، الانشغال العميق في أموره يُنسيه الشقاء، يجعله يتجاهل الغصة التي يشعر بها في قلبه، ركب سيارة أجرة تشخلل، وعلى صوت أذان العصر دخل على «سامي» وهو جالس وسط بعض التجار: سلامو عليكو.

ردّ الجميع التحية، وتقدم «فارس» يمدّ يده ـ قبلها بيومين ـ ليسلم عليهم واحدًا واحدًا، ثم جلس منكمشًا في مقعده كدُمية تائكة النسيج، حتى أنهى الحاج عمله مع الآخرين: ازيك يا «فارس» ربنا يجعلها آخر الأحزان.

هزّ رأسه، وتمتم بكلمات مبهمة كتعاويذ الدجالين، فتابع «سامي»: اتأخرت في مجيتك، وانت عارف الفلوس بتنادي صحابها، بس تقديرًا للظروف أنا شيلتهملك، اتفضل عِد فلوسك..

التقط منه حقيبة جلدية سوداء: يا حج معدودين هو دا كلام، أستأذن أنا.

انصرف «فارس» وهو يحتضن الحقيبة كأنها رضيع، يُداري نفسه من نفسه، لم يخطر بباله أن هناك عيون مستذئبة تترقبه، يقف من بعيدٍ يتابعه منذ دخولِه، وبمجرد رؤيته أخرج هاتفه وأجرى اتصالًا ما، لم يتم الرد، فأعاد الكَرَّة مرة أخرى، لكن الطرف الآخر لا وجود له، وعندما كان «فارس» يستلم الأموال، كان «صلاح» يلف ويدور في المكان كوحشٍ أعرج في الأدغال، حتى تعب فارتاح على حرف البوابة، وفجأة

ارتعش هاتفه وهو يضج برنين مهرجاني الإيقاع، وبمجرد أن لمح الاسم «أنوس» أجاب بسرعة:

- أيوة يا كبير طلبك جاهز، «فارس» هنا قاعد مع «الحج سامي» أهو قدامي..

لم يجيبه «أنوس» فقط أغلق الخط وخرج متجهمًا من وكره، وهو يصرخ في رجاله، ويطوف الموت في ملامحه، والدماء تسيل من عينيه، خرج إلى النور بوجه محترق، يركل بقدمه كل ما يعترض طريقه، تفيض منه رائحة شياط، وحان وقت إخماده..



- هتفضلي ساكتة كدا كتير يا روحي؟!

قالها «صبري» وهو يُتابع شرودها، ساعةٌ مرّت وحدقتاها في محجريهما ثابتتين، فالتفتَتْ «مريم» إليه بنظرةٍ تحمل كمًّا موحشًا من الفراغ، ثم أعادت النظر إلى معالمِ القاهرة من أعلى «برج الجزيرة»، الصمتُ، هو كل ما تبقى لها من مَشوارها مع «فارس»، تتأمل صفحة النيل، تراث من التجارب تتلألأ مع تراقُصِ ضوءِ الشمس الأخير، «صبري» بجوارها، برميل رومانسية، يُرفرف جفنيه ألف مرة على اعتبار التسبيل، يحمل تركة ثقيلة من الانتظار، يتعجل نَيْلُها، في رأيه أنها واحدة وليس لها على الأرض بَدِيل، تنحنح:

- لو تعبانة نروح.

- يا ريت.

قالتها بلهفةِ طفلٍ ضائعٍ يبحث عن أمه، فتحنن قائلًا: للدرجة دي زهقتِ مني!

لم تجبه، وظلت تعبث بسلسلة فضية تتدلى من رقبتها، سرحت، فناداها، فلم تجب ثانيةً، فانفعل: يا مريم انتِ مش سمعاني؟

طال الصمت تلك المرة، فتح «صبري» شفتيه ونكش المفردات، أخذ جولة بين اللغات؛ حتى يجد ما يقوله، لكنه فشل في الولوج إلى الجدار الناري الموجود أمامه، شخص واحد فقط يقدِر، يحمل الرقم السري لخزينة سعادتها، ما زالت تحتفظ ببقايا منه في تلك السلسلة؛ التي إذا دققت فيها ستجدها «Seraf»، نعم هي «فارس» كتبت بالإنجليزية وبالمقلوب، أحست بالهواء يضغط على رئتيها، ازداد هوسها بمداعبة الاسم، زفر في ضيق يحرق أنفاسه في صدره، وهو ينظر مُعاتبًا النهر أمامه، فتحول الماء العذب إلى حمم مصدرها جوفه، جمر، تذبحه التفاصيل الصغيرة التي يحتفظ بها في ذاكرته، كل يوم يفتح قلبه وينظفه ليليق بصورتها المعلقة فيه، لكل دبوس في شعرها حكاية يُذاكرها كل لحظة، وكل قرط يعرف تاريخه، وكل سوار تظلل تحته من شمس الصيف.

أخرج هاتفه حتى يلتقط صورة «Selfie» لهما؛ لكنها رفضت بشدةٍ، احمر وجهه إحراجًا، أحس بالدفء ينساب بين فخذيه، شعر للحظة أن مثانته قد خانته وأفرغت مخزونها، وفي حركة تلقائية عبث بها وأعدل من بضاعته، كان مشهدًا مقززًا بطريقة مستفزة، زادها نفورًا، «صبري»، الشيء اللزج الذي ساقته الأقدار لها، رغمًا عنه نظر إليها يتأمل شرودها، حاول السباحة في هذا الموج الساكن، امرأة تُبحِرُ في

موج دمه بلا سفينة، يتذكر جيدًا تعليمات الطبيب المعالج لها، الذي خاطبه بالأخص قائلًا بحزم:

ـ محتاجة تغيير جو، وتبتعد عن أي انفعال مهما كان.

لذلك هما هنا لكسر الروتين، من بعد خروجها من المستشفى كانت تغلق غرفتها على نفسها بالأيام، تصوم عن الطعام والكلام، والدتها تأسف عليها، حتى هبط عليهم الليلة كالقدر المحتوم؛ كالقضاء، أصر هو على الخروج معها بصفته خطيبها، إصرار مزمن كزَنِّ نحلةٍ تسرق رحيق الورد، أخيرًا خرج معها لكنه رغم ذلك يشعر بالوحدة أكثر، مئات التفاصيل السخيفة تدور في باله، يتذكر كل كلمة قيلت منها إليه أو عنه، يحاول أن ينفضها ولكن غراءها كان مُحكم اللصق، مُعَلَّقة بوجدانه وفي زوايا أفكاره كبقعةِ زيت، نظراتها المشمئزة باردة في قلبه، ويجلد ذاته، فهي الوحيدة التي يستثنيها في كل شيء، ويُعاملها بعكس ما يُعامل جميع خلق الله، كسر لأجلها قاعدته المقدسة التي تسير عليها حياته، لطالما فَتشَ عن امرأة تقتله وها هو في حضرة الموت الجميل.

تعبث بهاتفها..لا، ليس كأي عبث.. إنها تتصل بـ «فارس»! تضغط الاتصال السريع على شاشة هاتفها، ما زال رقمه يحتفظ باسم «حبيبي»، تتصل وترد اللعينة: «الهاتف غير متاح حاليًا من فـ..»، يأكلها القلق فتغلق وتعيد الاتصال، تنفعل من داخلها، تثور، تتصل على الهاتف الأرضي في شقته، لا ينقطع الأمل، ماذا ستقول له في وجود الآخر جوارها؟ مازالت تهاتفه، فقد يقتلها حديثه معها، أو تقتله، فلا فرق معها ـعندما يبدأ الكلامـ بين القاتل والقتيل، تحلم أن ينفتح الخط ويرد عليها كعادته قائلًا:

ـ دي أول مرة نخرج مع بعض، انطقي، قولي أي حاجة مش كدا!

«صبري كامل» تَنبلٌ، جِبِلةٌ، جِلفٌ، مُبَذِرٌ في استخدام الوقت الخطأ لدرجة الإنهاك.

يحشر نفسه كالموتِ، مُفلس المشاعر، تحولت أفكاره إلى مرافئ للذباب، فانفعل: أنا عايز اتكلم معاكِ شوية.

فلما وجدها شمعة تحترق بلا كلمات أشاح بيديه غيظًا: إيه الاستفزاز والبرود بتاعك دا، انتِ ايه؟!

هنا لم تتملك عينيها وفارت منها الدموع، مسح على رأسها بيديه لتهدئتها، فكورت نفسها في سياج السور، مثل الجنين، مبتعدة عنه كعقربٍ سام تخشى لدغته القاتلة، الطبيب حذرهم من أن لديها ميولًا انتحارية، فأخذها «صبري» إلى برج القاهرة! خياره يعبر عن الغباءِ في تقييم الأمور، فهذا الارتفاع دافع مثالي للانتحار! زفر مرة أخرى، فتهدج صوتها باكيًا: بعد إذنك روَّحني.

حاصرته بجبال الحزن والضجر، رفعت سلاحًا فتاكًا لا يقدر على الصمود أمامه، ضعفها، فهو آخر الحضارات التي بقيَّت على شفاهها، وحملت الريح ـالتي تزوم بينهماـ أخبار مُقلقة عن مصيرهما، فرفع كفه في وجهها وجز أسنانه وهو يضم أصابعه ببطء يخربش أعصابه، شاء القدر أن يكون الحب مرهون في المزادات، فلا هو تركها ولا هو أخذها، بقيَّ في المسافة المجهولة بَين بَين، وأكبر الكوارث الشعورية هي مسافة اللا شيء تلك، ظلَّت حرون عليه، وكلما أخذ خطوة ناحيتها صهلّت في وجهه، ولذلك لا يحاول أحدٌ ترويض الخيل إذا كان الصهيل يُرعِبُه!

هنا رَنَّ هاتفه معلنًا رسالة جديدة، فبصق بجواره وهو ينظر لها كاظمًا غيظًا يمضغ حشاياه، وأخرج الهاتف يتصفحه، لمح اسم المرسل «عماد عتمان»، ضغط على الرسالة كأنه يحفر الشاشة ليتعجلها.

- [«فارس» هيتم التعامل معاه، الرجالة قاطرينه، وهتسمع خبره الليلة، أنا في مول الهيلتون قابلني]

ابتسم في تنمر وقال شامتًا: يلّا يا ضاكتورة عشان تروَّحي لأمك، يلعن..؛ ولا بلاش.



5

ازدادت وطأة البرد فجأة في أذنيه بلا مقدمات، مع أن الشتاء لملم نفسه ورحل، عبأ صقيعه في حقائبه وابتعد، أخذ معه زوجته ودفء بيته، ترك له الشقاء يستقبل الصيف، يضع أمامه الزجاجة والكأس ويدعوه للسكر، ترنح، رفع ياقة سترته الخفيفة أكثر حول رقبته، طقسٌ بارِدٌ فاقد للأهلية هاجمه في غير أوانه، يزيد من حالة اللا فهم التي يعيشها، فانكمشت رأسه كرأسِ ثومةٍ مكتومة، شعوره بالوحدة يُضَيّق عليه صدره، يُطارده في انعكاسِ أضواءِ السيارات، يتراقص بين ألوان الإعلانات، طريقه طويلٌ طويل، انتقل من «الوراق» حتى مصر القديمة، سَلَّم الأموال التي في حوزته إلى الخزينة، ورجع يحمل ما بقيَّ من جسده وروحه المتآكلة، يُبحِر ضد التيار، لا يدري من أين قادته خطواته، مع لون المغرب الباهت؛ ظهر النهر العتيق أمامه يجري في عروقه، فاستيقظ على شم النسيم خياله، بعض الأحبة يتناثرون على جانبي الطريق، حرارة ضماتهم وقُبلاتهم تغلب على الجو، سيارات وأعلام، كالعادة اللون

الأحمر منتشرٌ في الشوارع، والرجال لا يرتدون الأحمر إلا في تشجيع الأهلي، أهازيج وزمامير وأغان..

«الأهلي عندي بالحياة..ونصره اليوم هو المنى..

فريق مايعرفش المحال..جمهوره وراه زي الخيالـ «..

مباراة «Al Ahly&A.C Roma» ستبدأ الليلة، على استاد «هزاع بن زايد» في دولة الإمارات العربية المتحدة، كم بدت فكرة كرة القدم ـ ذلك الهوس الذي ينخر في عمر الآدميين ـ تافهة في داخله إلى هذا الحد؟! هو حتى عهد قريب كان جنونه بالأهلي والتشجيع جزء أصيل منه، وهذا هو الإلهاء المتعمد لأي نظام، يُوهِمُ شعبه بأهمية لعبة رياضية، فيتناسى البسطاء احتياجاتهم وشقاؤهم وأمراضهم ورداءة تعليمهم، ولذلك يتذيلون الأمم، لكن مباراة الأهلي وروما هذه غطت على قرض روسيا، الذي غطى على أمر الطائرة الفرنسية، الله على ذاكرة العوام التي تُشبِه كثيرًا ذاكرة السمك!

الصداع يرنّ في رأسه كأجراسِ الكنائس، رجرجة في جمجته تمدّ جذورها في أعماقه، جُرح تهترئ أطرافه من رأسه وحتى الأصابع، تحمله خطوات تتراقص في كفِ النسيان، تحامل على عظام ناحبة وانتصب وأكمل سيره، والشمس تنام في الأفق، استقل قطارًا متفسخًا، محشور فيه أطنان من البشر المغمسة في العرق، صفوف رُكاب يملؤها إرهاق يكفي جميع أهل الأرض، هذا الشعب أنصاف أموات أنصاف أحياء وتلك هي المشكلة! طال طريقه كما لم يحدث من قبل، لكن أخيرًا وصل مع عتمةِ الليل، إلى مدينته «مشتول»، وهل أبدع الخالق مثلك في الدنيا أجمعها؟! يدفن نفسه في ونس أهلها، يُحبها، مدينة امتدَّت أصوله فيها،

دروبها مرساة لا ترسو، وبيوتها سفن تتأرجح بين الشطآن، لكنها الآن نائمةٌ في غُرفةِ التخدير، يقصدُ شقةً خاويةً تنتظره الوحدة فيها.

والوحشة هي أَرْعَبُ ما يواجه البشر في حياتهم، حيث لا يعبأ أحدٌ لأمرهم.

يمشي كعادته حتى الشارع الذي يقطن به، يتكئ البدر فوق الأسطح، ينشر على الظلامِ جدائِله الفضية، يسيرُ في دواماتِ الهواءِ مرتجف الجبين، منفردٌ فيَ صقيع مفاجئٍ خبأ الناس، وبين خطواته التؤودة يسمع خربشات العصافير، ًتنقر في أعشاشها وفي صدره، وصل إلى الشقة وفتح فهرول إليه الكلب، احتضنه وقبله، دمدمة المحبة الباقية في حياته، جلس «فارس»، فاستقبلته الأريكة بكل الآلام التي يحملها، عظامه لانت بعدما استقبلت صفعة القدر، عُوده الناشف دغدغه الواقع، ليله ثري الأحزان، كئيب، يبدأ بالتقوقعِ العميق في ظلامهِ مُتمنيًا أن ينساه العالم، رغم أنه أحوج ما يكون لمن يتَذكرهُ، شغل الرسائل المسجلة على هاتفه الأرضي:

رسالة من «محمود»: انت فين ياله؟ تعال نتفرج على الماتش سوا! عايز أكلمك عن البوست اللي انت كتبته دا.

ـ فيه حاجات ما ينفعش فيها كلام أو شرح، بتتحس وبس!

تمتم «فارس» وهو يستمع إلى رسالة أخرى من أمه: ازيك يا «فارس» يا حبيبي عامل ايه دلوقتي؟ كنت عايزاك تيجي تتغدى معانا بكرا، ونروح المستشفى مع بعض عشان نجيب «ياسين» من الحضَّانة، الساعة سبعة بالليل.

أخرج هاتفه المضبوط على الـ «Flight Mode»، فهو قد قَطَع كل صِلة تربطه بالمجتمع، اكتفى بنفسه، لا يُريد من الأيام إلا أن تمر فقط، لذلك يمنع أي اتصالات، فتح منظم المواعيد، أصبح دفتر ذاكرته مثقوبًا، كل المناسبات التي فيها أرقام تتساقط، عقله كالقشةِ تتقاذفها الرياح، نسيج مهترئ، فغدا أسلوب حياته مرهونًا بالمنظم، فيأكل ويلبس ويستحم به، ضبطه على موعد «ياسين»، انسالت ملامحه على الشاشة الصماء لهاتفه، رددها في نفسه: «أنا لا أمُت بِصِلَةٍ إليَّ»، ثم ألقى الجهاز البارد بين الوسائد.

تجرد من ملابسه كلها إلا بنطاله، ودخل إلى دورة المياه وفتح الماء في حوضِ الاستحمام، أحضر ثيابه المهلهلة وألقاها في الغسالة كعادته، أشعل سيجارته ودخل المطبخ، على ضوء الثلاجة شاهد مقبرة الفضلات، علبة جبن مفتوحة وبيضتين مسلوقتين، بطاطس على وشك الحموضة، عيش بلدي، نصف ليمونة، شاحن، بقايا زجاجة لبن، معلبات عصائر فارغة، عبوات وشرائط لأدوية متنوعة، فتح علبة أقراص وسفّ آخر حباتها، ثلاث بِرشامات تضمن انتظام القرع في رأسه، صب اللبن فى كنكة القهوة وأضاف البن والسكر، أخرج بيضة وهرسها مع ملعقة جبن، وسخن الخبز، طَبَق طعام يُغلق شهية «سيد قشطة» بقفلٍ كبير.

- «فارس» حرام عليك، رد عليَّ، كلمني، ماتخليش جناني هو اللي يتحكم فيَّ، انت عارفني ما تزودهاش كدا و..

هذه كانت رسالة أخرى من «عبير»، جاءته من خلفِ الغيوم باكيةً، فما كتبه قتلها، وحاولت الوصول إليه لكن كل الدروب مسدودة، لم يسمع بقيةِ الرسالة، لأن صوتها المنتحب المفاجئ أفزعه، فارتد للخلف، خبط ظهره بصينية مهملة على رُخامة المطبخ، سقطت على السيراميك بدوي أفزع معه الكلب فأصدر عواءً قويًا، غطت تلك الجلبة على صوت «عبير»، فصبَّ القهوة في كوبٍ مُتسخ وحمله مع وجبته، وضعهم فوق منضدة الركنة وجلس، ركن سيجارته على حافةِ مطفأةٍ مزدحمةٍ، وهو يلغي صوت الرسالة التي تليها ويُعيد رسالة «عبير»، حينما رَنَّ جرس الباب، قام واتجه ناحيته وهو بهيئته، يرتدي بنطاله فقط وصدره العاري.

فتح الباب فوجدها «هي» واقفةً في سحرها الأخاذ، «هي» لا أحد سواها، بتلك النظرة التي تحفر في ضلوعه، «هي» دائمًا فوق المواسم وفوق المواعيد، «هي» إذ تمشي يزور العبق بال الورود، بتلك الملامح الملائكية التي ينام بينها ضي القمر، بتقاسيمها المُكهربة، «هي» لاحت فسكن في أحداقه وهم الذهول، جاءته كصورةٍ بلاغيةٍ في زمنٍ قطفوا فيه ألسنة الشعراء، لم تنتظر ردّه ـ فقد بدا كجبلٍ ثلجيـ دخلت الشقة بخطوةٍ واحدة، وأغلقت الباب بكعبِ حذائها، اقتربت منه وانتظرت معه قدوم الشيطان.

الملحق التجارى لـ»هيلتون رمسيس»، في البهو كافيه راقي، يجلس وسط الحضور»عماد عتمان» ضابط مباحث قسم الوراق؛ لمشاهدة مباراة الأهلي مع روما الإيطالي، يتصاعد عمود الدخان من سيجارته الـ «Marlboro»، ويده تمسك فنجان قهوة، وضع ساقًا فوق

ساقٍ مُركزًا بشغفٍ في الاستوديو التحليلي، مارِدٌ سخطه الله في هيئةِ ضابطٍ، إنسانٌ قيمته في داخل بذلته الميرية، عبارة عن برواز تحمله الدبابير وتحميه، وهو يعرف تلك الحقيقة ويتقبلها، ذلك أن الضامن الوحيد لمكانتهِ ليس شخصه بل رُتبته!

حوله تكدُس من العرب رجالًا ونساءً، فرع جديد من جامعة الدول العربية على ضفاف النيل، لهجات متداخلة، سوق عكاظ نُصب في رحاب «الهيلتون»، ينقصهم مُجسمٌ للكعبة ليطوفوا حوله مكررين «نحن غرابا عك..عك إليك عانية!»، أصحاب جنسية الإمارات العربية المتحدة مميزون عن الباقين، يتحدثون في تفاخرٍ ببلادهم المستضيفة للقاء، الجميع مُخمر، رجال بجلابيبٍ بيض وعلى رأس كل واحد شال وعقال، ونساء منتقبات أو محجبات بعباءات سوداء، تفوح فوق رؤوسهم سحابة من العبق والأدخنة.

كل المقاعد محجوزة بأصحابها، إلا من كرسي بجوار «عماد» فارغًا، في مكانه المعتاد في صدر البهو، أمام شاشة العرض الضخمة، على جانبيه الواجهات الزجاجية للمحال الموجودة في مدخل المركز التجاري، بعد قليلٍ حضر «صبري كامل» يترجرج بكرشه الذي يلمه بمشد التخسيس، بالون مملوءٌ بالماء، يتحرك بنفس بذلته التي كان يرتديها منذ قليل وهو مع «مريم»، اقترب من «عماد»:

ـ مساء الخير يا «عماد بيه».

ميز «عماد» صوته جيدًا، فأنزل ساقه، وقام واقفًا يمد يده اليمنى المزينة بخاتم ذهبي ضخم في سبابتهِ: «صبري باشا» اتفضل.

تصافحا وجلس كل منهما، فتابع «عماد» حديث واجب الضيافة: معلش يا باشا، أنا عارف إنك زملكاوي، والماتشات العالمية اللي زي دي مالكوش دعوة بيها خالص، عشان بتبقى بين الأندية الكبيرة بقى، وآخركم تسمعوا عنها بس!

تجاهل «صبري» الدعابة الأهلاوية الاستفزازية، فقد اعتاد على مثيلاتها طوال تاريخه في تشجيع الفريق الأبيض، فكل علاقته بالكرة؛ تخرج من شِعار «سنظل أوفياء»؛ لتدخل في شِعار «الزمالك قادِم»، رغم أنه فريقٌ يتقهقر فقط ولا يَقدِمُ أبدًا! لذلك منعًا للدخول في تفاصيل تُعكِر مزاجه المُتَكَدِّر أصلًا؛ انشغل بتصفحِ هاتفهِ، بينما فطن «عماد» للحركة الخائبة التي يفتعلها «صبري» فلَم يضغط عليه، ثم تنبه إليه وهو يقلب الحوار، ويدخل في صُلب الحكاية: الموضوع اللي طلبته يا «عماد» لسة ما خلصش ليه؟!

هنا أهمل «عماد» المباراة التي كانت تبدأ بالفعل والتفت لـ»صبري» باهتمام: مش بإيدي، صدقني التأخير دا مش من عندي، الواد اللي أنا مسرحه يا دوب لسة مكلمني، قال إنه عرف مكانه وبعت حد أطره، عشان «فارس» دا بسلامته مش ثابت على مكان، بيتنقل كتير أوي، وانت عارف يا باشا الحاجات دي محتاجة لحظة مناسبة، لكن الخبر الأكيد الليلة، ما تقلقش.

ـ لأ قلقان، الواد دا لازم استريح من أمه في أسرع وقت.

ـ يا باشا ما انت اللي معقدها معايا، مش متساهل، «مصطفى» اللي انت شربت قهوته السادة قبل كدا، احنا

كتبنا له شهادة الوفاة بدون أي مشاكل، المرة دي انت مش عايزنا نخلص ليه؟!

- لأن المرة اللي فاتت كنت عايزه يبعد وخلاص، إنما المرة دي أنا عايزه يتحسر على نفسه.

أفرز ساديته، انتشى، فوقفت أمامه العفاريت لتكتسب الخبرة، تُصفق له ثم ترقد لتذاكر فروضها المدرسية، زبانية الجحيم بعثوا برئيسهم إلى الدنيا، كلماته تلقي جذوة نار على وجه الإنسانية، كأن ألفاظه المغتاظة تلك خرجت لتوها من حطبِ جهنم، مجلسهما دورة تدريبية للأباليس حديثي التخرج، شهادة خبرة معتمدة من قاعِ سَقَرٍ، قالـ «صبري» كلماته الأخيرة المغمسة بالحريق، فلملم «عماد» الحِمم من شفتيه، انتابته رجفة غامضة، هو نفسه لم يكن سادي الأفكار هكذا! ولكنه ابتلع ريقه المر وقال مؤكدًا:

- اعتبره حصل يا باشا، كم ساعة كدا وهتسمع مني أخبار تفرحك.

في تلك اللحظة ارتفعت الصيحات، لا ليس في «هيلتون رمسيس» فحسب بل القاهرة كلها ضجت، ارتجفت الشوارع تحت الأقدام، الجماهير تحتفل بالهدفِ الأول للنادي الأهلي، تخيل الملايين في القطر العربي يقفزون معًا في نفس اللحظة، زلزال يضرب قشرة الكرة الأرضية من المحيط إلى الخليج، عندما يُحلق النسر الأهلاوي عاليًا، مع كل انتصار لنادي الوطنية، تلك الحالة القريرة التي لا تُوصَف بالكلمات، لأن جوهرها أعمق من اللألفاظ، فكل الأندية لديها جمهور إلا النادي الأهلي لديه شعب، من بين المحتفلين صاح «عماد عتمان»،

وقف مصفقًا في حرارةٍ احتفالًا بهدفِ التقدم للفريق الأحمر، وفي زمرة المهرجان هذا استأذن «صبري» للانصراف، فما فيه يكفيه! لكنه تعمد التأكيد على إتمام المهمة الليلة، ردّ «عماد» التأكيد بالتأكيد، بإيماءةِ رأسه وعينه مُعلقة بإعادة الهدف، وقبل انصرافه؛ استدار «صبري» ووضع يده اليمنى على كتف «عماد» الأيسر، دنا من أذنِهِ وقال له شيئًا، لم يسمعه «عماد»؛ من صرخات معلق المباراة ـالمبالغ فيهاـ على الهدف، فهي مُباراة ودية على كل حال! فكرره:

- «عماد» ما تنساش إن ملف مقتل «مصطفى» إياه ممكن يتفتح في أي لحظة!

فرجع «عماد» برأسه للخلفِ عاقدًا حاجبيه حتى تلامسا، لا يُصدِق، ينظر إليه بدهشةٍ و»صبري» يتابع: أنا بافكرك بس.

ظَلَّ جامدًا والإعادات المتتاليات للهدف تسير بالبطيء من خلفهِ، تتحرك ملولة كما الصور في خياله، يرمقه بحزنٍ رقرق حدقتيه تعجبًا، طلَّتْ منه نظرات شك قرأها «صبري»، جملته الأخيرة تنفُخ في عظم «عماد» الذي ضحك مُكابرًا، وقال بثقة يشوبها القلق:

- يا «صبري باشا» مقتل «مصطفى» دا أنا اللي مسئول عنه، بس مش لوحدي، فلو الملف دا اتفتح في ناس كتير هتزعل، وماتنساش إن الأوامر جت ليَّ من معاليك، فأول واحد ممكن يزعل هو سيادتك، وعمومًا مش محتاج كلامك دا يا باشا، ما تقلقش؛ «فارس» دا هيتم التعامل معاه الليلة، هيتمنى الموت، ودي تبقى آخر خدمات متبادلة بيننا.

حجرٌ ضُرب في زجاج علاقتهما، دخل الشيطان بينهما؛ بل إنه لم يُفارقهما منذ التقيا أول مرة! فربت «صبري» على كتف «عماد» مرتين ممتعضًا، عضَّ على شفتهِ السفلى قبل أن يستدير مودعًا، ظلَّ «عماد» واقفًا في مكانه، يتأمله بهدوءٍ مُغتاظ وهو يبتعد في طريقه، تتوالد المسافات بينهما من المسافات، وتضيع الأبعاد في الأبعاد، الزوايا والأركان أصبحت معكوسة في نظرتهِ، لا يعرف الأرضيات من الرفوف من الأسقف، تتأرجح المشاهد في إدراكه، وصورته المعكوسه ـ تهتز في الزجاج ـ عصفت بأفكاره، و«صبري» ابتسم نصف ابتسامة وهو يسير مزرِرًا سترة بذلته، اتجه إلى الجراج، ودخل إلى سيارته الفارهة، فأدار «رمضان» محركها وانطلق، في حين أخرج «صبري» هاتفه وعبث ببعض محتوياته، قبل أن يرتفع صوت إعادة تشغيل المسجل الـ «Replay»..

- [يا «صبري باشا» مقتل «مصطفى» دا أنا اللي مسؤول عنه، بس..]



- «عبير»..

كالفراشةِ البيضاء الرُخامية، توزع على الحقول الساخنة جميع ما علق بها من رحيق الورد، هذا ما حدث داخل «فارس» عندما ردّد الاسم، سمعته حنايا قلبه فتدفأت بسيرتها المُشعة، كأنها سنبلة القمح التي ارتوت من دموعه، وخرجت في تربته البور، فأحيتها، وجدها بما فيها من استثناء لا يخطر على بال المفردات، بكل بريقها الذي يخطف الأفئدة ويحبس الأنفاس، تدخل عليه فتسكُب الذهب بين كسور روحه،

لتُرَقِع ثقوبه، تؤكد أنه حتى إذا انكسر فيه شيء فهي تستطيع أن تُزيد قيمته، تعرف كيف ترفع ثمنه؟! وقف «فارس» صامتًا متعريًا فاغرًا فاه، يمسح حزنه بملامحها، تأملها داخل الشقة بعد أن أغلقت الباب، تنظر في محجريه مباشرةً وتسكن فيهما، فجميع أمانيها في عيونه، وفي الخلفية الرسالة المسجلة تُعاد مرة أخرى، فأكملت هي بصوتها مع صوت الرسالة:

- «فارس» حرام عليك، رد عليَّ، كلمني، ماتخليش جناني هو اللي يتحكم فيَّ، انت عارفني ما تزودهاش كدا ولو ما عبرتنيش زي الأيام اللي فاتت هتلاقيني قدامك.

وساد الصمت، فهي البداية قبل أي شيء، ومعها النهاية بعد كل شيء، أحاطت عنقه بذراعيها، اقتربت، تأكل من حشائش صدره، وتلامست تفاصيلهما ببعضهما، فَرَشت الحماوة أهدابها عليهما، وامتزجت أنفاس كل منهما بالآخر حتى الثمالة، الأيام السالفة دغدغتها، فمنذ أن ألقاهما القدر في طريق بعضهما وهي لم تعُد كما هي، أحبته، وأحست بجمالِ الحياة معه، فكأنه قدرٌ، ومن يا تُرى يقدر أن يهرب من القدر؟! فقبلت ما قسمه الله عليها بابتسامة، لكن الأمر لم يستمر هكذا، انقلب، ابتعد «فارس» وانطوى وتقوقع؛ تركها لوِحْدتها، فالبداية دومًا كمسحةِ القُطن التي تسبق وخزة الإبرة، همست: واديني قدامك أهو يا «فارس».

«فتشتُ جيوب الغيب عليكِ، فَلَمَّا وجدتُكِ سَطَعَ ضي الجنة من ملامحي».

هكذا قال صمته، فأبلغ الكلمات تلك التي يقولها المحِبُ في استسراره، مات الوقت، وهو كتمثالٍ في مكانه، جامد الملامح بأنفاسٍ جهنمية، يغوص فيها، لا يبحث عن النجاة منها ولكنه يبغي الغرق، كسر تلك الحالة خرير المياه المندفعة في حوض الاستحمام، فأمسك بمعصميها وأبعدهما عن رقبته، قبل أن يستدير مسرعًا ويغلق المياه، ثم سحب قميصًا مبلولًا من الغسالة ليخبئ فيه عريه وارتداه، خرج لها يقطر ماءً، فوجدها تجلس على الأريكة وتأكل من طعامه، وترتشف بعضًا من القهوة:

ـ انتِ إيه اللي جابك هنا يا «عبير»؟! بلاش الجنان دا.

لم تنظر إليه، بل رفعت سيجارته من المطفأة وسحبت دخانها، ثم دفعت به ضبابيًا تجاهه ببطءٍ يُدغدغ الأعصاب، هي زينة وتحفة بازخة وحسب، نسمة هواء تلمس خد الفجر، لون النهار يفتح نافذة للشمس، صَدَفَة تحمل في جوفها جينات البحر، ما زال هناك أمل يستوطن ثنايا العمر يا «عبير»، تجمد في مكانه يرتجف بعد أن تسحب البرد إلى جلده، تصطك أسنانه وتُطَقطِق، عيناه تحملقان فيها بدهشةٍ، ونظراته تُفرقِع بشررٍ عنيفٍ، ومسامه المثلجة تكتم أسفلها جحيم حشاياه، فبعض الحب يقتله التأجيل، قطب جبهته وضم حاجبيه، ذلك قبل أن يعقد ذراعيه على صدره العريض، قائلًا بصوتٍ متقطع كالإنترنت في مصر:

ـ من إمتى بتدخني إن شاء الله؟!

ـ لأول مرة والله، بس أنا حبيت أدوق طعمك.

هكذا قالتها، ففي داخلها جوع إليه يأكلها ويمضغها، ولن ترضى بفتات ما يقدمه لها! ولهذا جاءته الليلة، فجأة انطلق الكلب نحوها؛ قفز على فخذيها يلعب معها، كأن عشرتها معه منذ زمن، يرفرف ذيله الكثيف كمروحةٍ تُقلب الجو على قدميها، وعيناهما القزحيتان تتوالد فيهما الألوان من الألوان، وبياض بشرتها الناعمة مع لون شعره الثلجي الطويل، تلاعبه وتلمح «فارس» بطرفِ نظرتها، تُعانقه ببصيرتها ويُقبلها بابتسامته، يمحو معها سنين العمر أجمعها ويولد من جديد، غمغم: انتِ ازاي كدا؟! كل شيء بيقع في عشقك، حتى الكلب ـ اللي أول مرة يشوفك ـ بيلعب معاكِ وكأنك صاحبته، انتِ بالشكل المتكامل دا ازاي؟!

ابتسمت هي بسحر وتعمدت ألا تتقابل نظارتها مع عينيه وقالت: وطبعاً الكلام دا، كنت المفروض بتقوله في سِرك.

ـ ما انتِ المفروض سري.

أجابها بتلقائية، فهو حاضر البديهة دائمًا معها، بلا ادعاء أو مزايدة، وهي تعرفه أكثر من نفسه، لذلك زادت ابتسامتها حتى غطت الأرض والسماء، لمع ثغرها كشظايا البلور، كانكسار حبات الندى؛ كانعكاس الشمس من المرايا، وهو متجمدٌ تلهثُ في رأسِ الأفكار، ترتوي من ملامحها فتصُب على تقاسيمهِ ألف أثر، فهي زهرة شبابه التي طرزت بوجودها الأحلام، وعَلَّقَتْ حول مدامعه المناشف، لمحها فتبدد ـ في لحظةٍ ـ الألم السخيف الذي يلاحقه كدخانٍ مندثر، وبنظرة منها مسحت من عينيه غيم الوجع، انتزعت من صدره مخالب الآهات، ومن بشرتها تسرب النهار في عتمة روحه، وألقت صهد أنفاسها في ثلج أيامه، فسالت

أمامها خواطره، انحنت وخلعت حذاءها وأخرجت هاتفها وعبثت فيه قليلًا، قبل أن يصدح الـ «Music Player» يحمل صوت «فيروز»:

«شايف البحر شو كبير كبر البحر بحبك»

«شايف السما شو بعيدة بعد السما بحبك»

بدون مقدمات، بعد أن أزاحت الحذاء انتصبت واقفةً، فردت أعضاءها وتناسقت تفاصيلها المشدودة، ذلك القَدُّ القياسي يفتفت النجوم ذرات، ولا يُحص ما انكسر، ممدود كالرمح يثقب صدر السماء، وفي غرفِ الشُهبِ يجري شذاه، شم في أنفه عطرها، مُلونٌ كأحلامِ الصغار، خياله الطيفي يُسافر في جيوب أحلامه، أحس بتضاريسَ جسدها في جسده، عندما التصقت مقدمتها ـ الثمينة جدًا ـ بصدره، الثقة تنبع دائمًا من المقدمة، اقتربت منه أكثر وسكنت ضلوعه، مدّت ذراعيها كحمامتين ترفان حول وجنتيه، لامست عروقه النافرة من عنقه، حَوَّلَت بلل قميصه إلى حريقٍ يلسع جلده، حكت ظهر كفيها بأسفل ذقنه الخشنة، مرت فوق حنجرته البارزة، نامت أصابعها في جوف ترقوتيه، امرأة إذا ما تَدُس الأرض تنمو الحجارة أزهارًا، إبهامها لامس شفتيه وتبلل بريقه، نظرت لعينيه، أحست أن جمر شفتيه ينادي رطب شفتيها، وبلا استئذان ظمأت وجفّ حلقها، وحدث التلاحم.

«ناطرتك أنا نادهتك أنا رسمتك على المشاوير»

«يا هم العمر يا دمع الزهر يا مواسم العصافير»

التقمها، انعجنت شفاهما الشهية في قُبلةٍ منزوعةِ النون، قُبلةٌ، كالفكرةِ المحررةِ، وقد يزول البؤس بزوال الهمزة، تتدفق علي ملامحه نقلة فنقلة، حُلوةٌ، مُعطرةٌ، أخذها بين أحضانه، اجتاحه الكي عندما

ذاقها، جاع إليها واعتصرها، أمسكت برقبته وضمت رأسه كي تسكُن في شفتيه، طائرين متعانقين في غفلةِ الزمن، توحد طعمهما، فتلامست ألسنتهما بكهربةٍ رائعةٍ، شلال يلعب على إيقاع النبض، شعر بكيانها؛ عصفورةٌ ترقص على خد الماء ولا تخش الغرق، إتيانها يُشْعِرَه بالمعية التي تؤنس البال وتدرأ عنه الوحشة، نبضات قلبها كأنها في قلبه، مجرى دمائهما اتصل، تقاطرت فصيلتهما؛ منه إليها ومنها إليه، أنثى أَلْقَتْ طعم البراكين الجائعات في صدره، أرخت رأسها فوق كتفه الأيسر، فوق قلبه، سقط شعرها يلهث عليه، مزرعة من الحبق، بحر دماء تقطر.

«ما أوسع الغابة وسع الغابة قلبي»

«يا مصور على بابي ومصور بقلبي»

انفصلا قليلًا، ولكن لم تنفصل نظرات ثلاثتهم، هما والكلب، لم يستطيعا أن يفترقا إلا للحظات، عادت الشفاه للانجذاب كمغناطيس مختلف القطبين، مرة ثانية وثالثة وكما يحتمل العدد أكثر فأكثرٍ، ضماتهما مهموسة الإيقاع، كل ذرة فيها في داخله، لحظة غنج مسروقة؛ تبصم فيها يديه على تقاسيمها المرهفة، تخربشها، تحفر في جلدها علامات لأول مرة تعي حلاوة آلامُها، تغزل لها من اللهيب قميصًا، تنفُذ في خبايا جسدها الذى أعلن سقوط مقاومته، رفعت له راية بيضاء كلونها المرمري، ترفرف كما ترفرف هي في حِضنه، صادحة، سائحة، مستسلمة، «فارس» يكتب على كل منحنياتها أنها ملكية خاصة له، يعاين زواياها، ويرتاح بين أركانها، ويَجْرِد محتوياتها، فهي له فقط بدون شريك، يُسجِلُ اسمه على قوامها المثالي، ويدهسها كليث هائجٌ في الأدغال.

«ناطرتك سنة يا طول السنة أسأل شجر الجوز»

«أشوفك بالصحو جاي من الصحو وضايع بورق اللوز»

نَقَشَ ملامحه على كل خلاياها، تمشى بين مسام بشرتها، يرتاح على نَحْرِها، ويهرول بين تُرقُوتيها، ويأخذ قيلولته على عاتِقْها، ويبني له كوخًا صيفيًا بين مَنْكِبيها، ويقضي إجازته على عُنقِها، دَوَّنَ توقيعه على صدرها، كشهادةِ امتلاكٍ وتنازل منها إليه عن نفسها، أنينها جوقة ناحبة مترنحة، تَعَلَّقَ فيها كتشبُثِ طفلٍ بأمهِ، تتفنن بكل ما أوتيت من حيلٍ أن تتغلغل فيه، تلهو كما تشاءُ في أعصابه، فمرةٌ تعصي ومَرَّاتٌ تُوافِق، دست أصابعها وقبضت على شعره، عضت شفته ومضغتها، وتركته يقضمُ ما يشتهيه من ثمارها، ثم رفعت ساقيها عن الأرض واحتضنته بهما، وسكن بقوامه العنتري بين فخذيها، يعاركها، ولا يهم من فيهما المنتصر، دار بها في الهواء، كحركاتِ الحواة، كالبهلوان، خطفها، الآن يرحل بها عن سطح الكوكب، بل بعيدًا عن المجرة كلها.

«ما أصغر الدمعة أنا دمعة بدربك..بدي أنذر شمعة وتخليني حدك»

اعتصرها «فارس» تحت ذراعيه، خصرها قصيدة بحرية تُوجِعُهَا الأنامل، ضغط عليها فطقطقها وهو يندفع بها إلى الخلف، مثل القِطار يصدمها، تأوهت عندما ارتطم ظهرها بالجدار، ونبح معها الكلب مُشاركًا، شهقت، ولم يكفيها الهواء كله، فصاحبها يتوغل بين شقوقها فيسحقها، تجربة الوقوف أمام الإعصار، هَبَّ عليها، اقتحم تلافيفها، وحشٌ جائع ينهش لحم فريسته، أكلها؛ حتى اهترأت كقشرة الفاكهة بين أسنانه، ذابت كقطعة السكر في مياهه، أمسكها بقبضته اليسرى من أعلى كتفها عند التماس مع رقبتها، وهو يُقَبِلُها أسفل شحمة أذنها، يدغدغها،

يلعقها، يغسل رقبتها البَضَّةُ بريقه، يذوق عسلها الشهي، كل شيء فيها الآن بين شفتيه بإرادتها، ارتخت أطرافها وسكنت كل أعصابها، لم يبقى منها إلا همهمات تائهة مترنحة، خيط ملتهب ضائع في صوتها.

«كبر البحر وبعد السما..بحبك يا حبيبي»

نثر «فارسها» قبلاته على تضاريسها، وتعثرت تفاصيلها تحت عاصفة ضماته وأماكنها، يعرف تحديدًا أين يوجه كل لمسة من يديه على جسدها، كالرسام الذي يوجه فُرشاته بدقةٍ تنفُخ الحياة في لوحته الغالية، وهي تريده، تتمناه، تحتاجه، ويجتاحها،..و..

«بحبك يا حبيبي..يا حبيبي..يا حبيبي بحبك»

انتهت الأغنية، فانفصلت عنه وأنزلت قدميها لتسكن الأرض، آلت إلى طبيعتها البشرية التي ودعتها، انحنت وألقت شعرها أمامها، قذفته في اتجاهه، طويلٌ كأبعادِ شفقٍ مُبعثر، كذيل مهرة عربية، بلا موجات أو تشابك، يلهو فيه لون الدم الذي صبغته به، فكل الألوان تليق بها، ثم أعادته مرة أخرى إلى الخلف، لفته حول رأسها، موسوعة جينيس لأكبر كحكة شعر، ثم بدأت تحجبه بطرحتها مرة أخرى، كل هذا وعينيها لا تفارق «فارسها»، هو أيضًا يقف يتأملها ويخترق كل انحناءاتها، تنام فيها نظراته التي شربت منها حتى ظمأت أكثر، آه من ذلك الكيان الذي كتب لتوه عقود ملكيته لما تَبَقى من عمره، يتمم على محتوياته وهو يتمتم:

- يا «فارس» رد على تليفوناتي عشان خاطري، أنا محتاجة لك أكتر من أي وقت فات.

كان ذلك صوت «مريم» في الرسالة المسجلة.



رَنَّ هاتفه فجأة، قام فاتحًا عينًا ومغلقًا الأخرى، بحث فوق الكومود عن نظارته الطبية حتى خبط فيها، ارتداها بالمقلوب في عجالةٍ وهو يتثاءب، وعلى ضوء شاشة الهاتف ظهرت ملامحه، تقاسيم وجهه البارزة، واضحة المعالم كخريطةٍ عبث بها الزمن، وعزفت عليها سنين عمره، حاجبين كثيفي الشعر، بعض التجاعيد الجامدة، هالاتٌ سوداء تحت العينين، ولحية خفيفة تُميز وجهه تتخللها خيوط الشيب كأسرابِ الجراد، علامة صلاة فوق جبهته واضحة من أثر سجوده، تطاير شعره من المنتصف، وما تبقى يميل لونه إلى الرمادي، قوامه ممتلئ من المنتصف قليلًا، تظهر شخصيته في صوته التؤود، الذى يُدخله في دائرة عُمرٍ تدور في أواخر العقد الثالث، وبمجرد أن لمح جهة الاتصال «مدام إحسان» اعتدل وفتح الخط بعجالةٍ، وقال وهو يكتم تثاؤبًا سخيفًا يتداخل في كلماته:

ـ سلامو عليكم، طمنيني يا مدام، في حاجة حصلت؟

جاءه صوت «أم مريم» باكيًا: الحقني يا «دكتور خيري»، بنتي،...،إ.إ.إ..

لم تستطع أن تُكمل حديثها، البكاء نثر ملحه في صوتها فألهبها، فقال وهو يقفز من سريره: خلاص يا فندم أنا جاي حالًا..

أغلق الخط، وأضاء نور الغرفه المهملة، جينات ذكورية طافحة في المكان، ذوقًا وكركبةً، التقط من على مكتبِهِ ملابسه المنثورة، وشرع في ارتدائها وهو يُلملم أدواته في حقيبته، تحيط به شهادات طبية بتقديراتٍ متفوقةٍ معلقةٍ في جانب غرفته، تُذكره دومًا بوظيفته التي أصبحت كل حياته، بورتريهات لآيات قرآنية مختلفة الأحجام والأشكال، وفوق رأس مكتبه استقر برواز كبير للفظِ الجلالة، على اليمين «Reception»

مفتوح تحتل واجهته مكتبة ضخمة، تحتوي على كتب ومجلدات مختلفة متنوعة، خليط من علم النفس والعلوم السلوكية والفلسفة، روايات عربية وأجنبية، كتب دينية متنوعة لتفاسير القرآن والصحيحين، الفقه والشريعة.

فَرَّ من شقتهِ، ولم تمر الساعة إلا وكان بجوار «مريم»، يتسلل إليه صوت نحيب «إحسان»، التي تجلس ملتصقةً بالباب باكيةً وتعتصر بيديها المرتعشتين مصحفًا صغيرًا، تبللت صفحاته بدموعها، تقرأ ما تيسر من كلمات الرحيم، عَلَّهُ يستجيب ويرحم تلك المسكينة المنهارة في الداخل، صراخ «مريم» يمتد لآخر المنزل، ويتردد صداه كالبوقِ في الحي بأكمله، خرج فجأة «خيري» لاهثًا يضبط وضع نظارته دون أن ينظر إليها، ممسكًا بهاتفه ويُجري اتصالًا مشغولًا به، أخذه من أي أولويات أخرى، فأسرعت إليه «إحسان» ووجهها المنحول يُسابقها إليه، بينما فؤادها سَقَط منها في حِجرِها، أمسكت بذراعهِ تجذبه بقوةٍ نحوها، ليُطمئنها:

ـ ادعيلها يا مدام، ربنا قادر يخرجها من اللي هي فيه، واطمئني أنا مش هاسيبها، هاعمل أي شيء عشان تتحسن.

مِسمَارٌ دُقَ في نبضها، فقدت النطق، جاوبته بدموع عينيها، فبعض المواقف تلهث فيها الكلمات كالخيول على المرتفعات، فربت «خيري» على كتفها وأخذته محادثة الطرف الآخر، مكالمة بدت أهميتها على وجهه وهو يدور حول نفسه جيئةً وذهابًا، بينما تسحبت «إحسان» ودخلت على ابنتها الممددة على فراشها، غائبة عن الوعي، وبرغم هذا كانت دموعها كشلالٍ يُغرق وجنتيها الذابلتان، احتضنتها

كأي أم حقيقية، ومسحت على رأسها وهي تقبلها من جبهتها، ونكشت حفنة الأحداث التي مرت على «مريم»، تُعيد ترتيب الأمور وتتخلى عن معركتهما على القيادة، ترفع الراية البيضاء، عندما دلف «خيري» وهو يقول حازمًا:

- مدام «إحسان» برغم إنها وافقت على خطوبتها إلا إنها كانت مش مقتنعة أبدًا، بل الأكتر من كدا إنها كانت كارهة خطيبها دا، وهو دا السبب الرئيسي للي حصل لها في ليلة الخطوبة، وطبعًا حضرتك إحنا مانعرفش إيه اللي حصل بينهم لما خرجوا، دا مش وقته، عمومًا أنا كلمت المستشفى هيبعتوا عربية إسعاف وطقم تمريض يخدوها، هناك هنتابع الحالة وهتبقى تحت الملاحظة، مش هاكتب لها على خروج لحد ما الحالة تستقر، طلب وحيد باترجاكِ إنك لازم توافقي عليه.

مسحت «إحسان» دموعها وخضعت له، لكن «خيري» بقيَّ صامتًا، دُمية كهربية تحتاج للشحن، يتابع ملامحها ويديها المتشبثتين يابنتها في سكوت، حتى عاجلته هي مرة أخرى وهي تضم «مريم» أكثر: اتكلم يا بني، أنا هاوافقك على أي شيء.

فخرجت كلماته حازمة وقاطعة لأي مجال للرفض: مدام «إحسان»، مش مسموح لحضرتك بزيارتها حاليًا، والأكيد ممنوع نهائيًا لخطيبها إنه يحضر لزيارتها، مهما كانت الأسباب أو العواقب، طبعًا مش هاقدر أتدخل في المسائل العائلية دي وأقول لسيادتك إيه اللي لازم تعمليه،

أو إيه هو التصرف المناسب اللي تشوفيه، مع وضع في اعتبارك الحالة النفسية المتدمرة اللي «مريم» فيها، بسببه.

نظرت «إحسان» إلى «خيري» في شرودٍ صامتةٍ، نعم هي تعلم جيدًا ما يجب أن تفعله، تلميحات الطبيب الشاب تدركها، كانت تنتوي أن تفعل ذلك من نفسها، لكن الآن لديها مبررًا لما ستُقدِم عليه، ولو كان في إمكانها أن تتصل بذلك الـ «فارس» الآن وتترجاه أن يأتي لابنتها لفعلت، لكن مهلًا، الآن يجب عليها أن تُخلص ابنتها من هذا الكابوس، الخازوق الذي غرسته في حياتهما، هي و»مريم»، وكلمات الطبيب واضحة، جاءتها ختامًا لمشهد النهاية في هذه الرواية التعيسة، فجففت دموعها بطرف ثيابها وتركت «خيري» بجوار ابنتها، تحركت للخارج لتُجري اتصالًا بـ «صبري»، محادثة أخيرة تكتب بها الوداع، مهما كلف الأمر.



6

الصقيع الاستثنائي دفن الحياة في المدينة، الدُنيا صامتةٌ مع سبق الإصرار والترصد، غربة بين البنايات وبعضها، البرد فاجأ الجميع فاختبأوا تحت أسقف حجراتهم، محكومون بالدقائق العالقة في درجة حرارة مخبولة تنخفض بالتدريج، ومثلهم تدثر «فارس»، غفى، ولكن أحدهم استيقظ في البال فاستحال النوم، «يسرا»، باغتته باكيةً في الحلم، رَدٌ قاسٍ من فقيدته على ما اقترفه في حقها، وفي مملكتها الخاصة، فتح عينيه فجأة وهو يتثاءب ويستغفر ربه، وما كانت رحمة ربك محظورة، استرخى على ظهره ويديه تحُك عينيه، محاولة بائسة لإزاحة المشاهد التي تُهاجم مخيلته، حتى سمع صوت الكلب يقترب منه، فتح له ذراعيه فقفز نحوه وهو يلعق وجهه بلسانه، تبدلت طبيعته العنيفة منذ تم استئناسه، ارتبط به «فارس»، وجد فيه ذاته، نَفَّس معه الضيق في رياضةٍ شاقةٍ يوميًا، اسمها البقاء، فهمه، إخوانه تصطاد الدبب القطبية، لكنه وديعٌ الآن في حِضن «فارس»، الذي أسبل جفنيه يسترجع ما حدث تلك الليلة.

يتذكر في ذهنهِ تقاسيم وجه «عبير» الغاضبة، وهي تنظر له وتستمع لصوت «مريم» في الرسالة المسجلة، قبل أن تضبط هيئتها وتتنحنح، محاوِلة أن تطفئ الفتيل الذي اشتعل بين أحشائها، لتمنع الانفجار، قالت: «فارس» كلمها وشوفها محتاجة إيه؟!

فتح «فارس» فاه، لكن مفرداته لا تكفي لعبور مسافاتها، أراد أن يلملم بقاياها المتساقطة، مشكلة تتفاقم بينه وبين ثمانيةٍ وعشرين حرفًا لا تُغطي مساحة حِسه المتزايد بها، لكنها اقتربت ولمست وجنتيه براحتيها وتابعت بحنانٍ: «فارس» أنا بحبك أوي، أكتر مما تتخيل، ولو حاولت أوصفلك والله مش هاقدر، لسة ما اتخلقش كلام يترجم اللي جوايا ليك، انت مش حبيبي وبس؛ دا انت ابني.

نزلت العبرات تتدحرج على وجنتيها، فهي فقط أرادت ـ بِكُلِ سهولةٍ ـ أن تكون معه، فكانت؛ برغم كل هذا التصعيب، لذلك خرج الأمر من حيز الصح أو الخطأ، النسبية تحكم بينهما، تمالكت نفسها وتابعت: لكن والله يا «فارس» ما كان في نيتي حاجة وأنا جيالك الليلة غير إني أشوفك، عشان كنت مشتاقة لك، وما قدرتش أمنع نفسي إني أكون جنبك في موقفك دا..

مسح «فارس» الدموع الثرية بأطراف أنامله، وهو يضع سبابته على شفتيها مانعًا لها من الكلام: ششش، بس يا «عبير»، ما تدخليش للنقطة دي، أنا عارف اللي جواكِ، الكتالوج بتاعك عندي، عارفِك على إيه، عشان أنا بحبك أكتر منك، ولو فيه أكتر من كلمة بحبك دي كنت قُلت، ربنا يخلينا لبعض ولا يحرمنا من بعض ويزود حبنا لبعض حتى واحنا مش مع بعض.

ثم اقترب منها أكثر، ترك السلام ينساب من ملامحه إليها، وتابع: ويجمعنا يارب ببعض.

قالها وهو يمدّ يديه ليعانقها، فابتعدت عنه وهي تلوح بالرفض: لأ كفاية يا «فارس»ماينفعش، أنا لازم أمشي دلوقتي.

أمسكها من ذراعها وهو يقول بعصبيةٍ: انتِ اتجننتي، تمشي ازاي دلوقتي؟ انتِ عارفة الساعة كام!

- أكيد عارفة، بس لازم أمشي، مش هينفع اتأخر، ومش هينفع أبات عندك الليلة يا «فارس»!

ثم غمزته، ففطن لتلميحها قبل أن تتابع: اتصل بـ «مريم»، شوفها مالها، واضح من صوتها إنها بتعاني، فلازم تكون جنبها..

قالت الجملة بكل ما بها من قسوةٍ تمزق روحها، لكنها تماسكت وأخرجت مفرداتها موزونة برغم ما يدور في خلدها، هكذا هي، ولذلك هو عشقها، تابعت باسمة: الحمد لله إن رسالتها اشتغلت، دي هدية من القدر ليك وليَّ عشان تخرجنا من الحالة إياها دي.

ضحك «فارس»: استني يا مجنونة، هالبس هدومي وهانزل معاكِ عشان اوصلك.

أكملت ضحكها وهي تقول ساخرة: ما تتعبش نفسك، هات بس أُجرة المواصلات وأنا هاتعامل.

فزادت الضجة في صوت ضحكته وقال:

- ازعى يا عيلتها عچان عمك «أنوز» جالك.

«Boom»، ألغام مُتفجرة خرجت من بين شفتي «أنوس»، الواقف فوق رأس «فارس» في حجرة نومة، يمسك في يده سكينًا ضخمًا، سنجة، وقد وضع شفرتها الحادة فوق رقبة «فارس» المذهول، و»أنوس» يتابع: هتچوف الموت بعنيك، وهتتمناه كمان!



صوت شخير سَحَبَه «صبري»، كأي ثور هائج في موسم التزاوج، تردَّد صداه في مبنى النيابة العامة، حتى سمعه الشجر الصامت في الشارع، وسعلت الرياح لتلفظ نبرته المتحشرجة، كبغلٍ يتجشأ وهو يتابع: نعم يا مدام، خطوبة إيه اللي تتفسخ، شايفاني سوسن!

فقد سادت العروبة العالم وقت أن كانت شعبًا واحدًا يتحدثُ بلسانٍ فصيح، أما الآن فقد تذيلت الأمم، منذ أن اعتادت على محادثات تخرج من الحلق والأنف، ذلك أن الشعوب تكتسب طباعًا من الحيوانات التي تتغذى على لحومها، ولهذا في مصر لا عجب من طبائع الحمير أو البِغال المنتشرة بين البشر تلك الأيام، وما يفعله «صبري» الآن دليل حي على حقيقة تلك المعلومة.

وقف يعتصر هاتفه بقبضة يده، ويدور حول نفسه في داخل غرفة مكتبه، الغرفة متعمدة الاتساع بشكلٍ مستفز، يُمكن تجزئتها إلى شقتين ونصف لإسكان الشباب، يتوسطها مكتب فخم مُتعدد الأدراج، مصنوع من الخشب الأرابيسك، ينتشر على جوانبه نقوش وزخارف بديعة يغلب عليها الطابع الإسلامي، يُحيطه من ثلاث جهات مكتبة مُحترمة على شكل حرف «U»، تحتوي على مجلدات ضخمة، قانون مصري وتعديلاته وقوانين عالمية ودساتير لأكثر من دولة مختلفة، مجلدات

لحقوق الإنسان وبعض المنظمات الحقوقية المنتشرة، بجوارها مكتبة صغيرة تحتوي على ملفات مختلفة الأحجام والألوان، ولكل ملف اسمه ورقم تسلسل، ثم تكييف شباك يتوسط الحائط، يُحيطه براويز متنوعة لمتقطفات من جرائد على قضايا مختلفة، ودور البطولة يتوسطها «صبري» وكيل النيابة، حائط بطولات محلي الفكرة والتنفيذ، أمام المكتب مقعدين بينهما منضدة صغيرة عليها دائرة رخامية، وأيضاً فوق سطح المكتب دائرة بطول وعرض المكتب من الرخام الأسود، ولافتة صغيرة من الفضة مكتوب عليها اسمه، بجوارها حافظة أقلام قيمة فيها أكثر من نوع مميز من الأقلام، وملف مفتوح عليه صورة واسم ورقم..و..
عاجلته «إحسان» بهدوء:

- معلش يا بني كل شيء، قسمة ونصيب و..

فقاطعها بسحبةٍ أخرى كسابقتها، تكفي لإصابته باللحمية، واستطرد: انت مش عارفة أنا مين ولا إيه؟! كنتِ ممكن تقولي الكلام دا وأنا لسة على الباب، لكن جاية دلوقت بعد ما بقى فيه خطوبة وفرح، عايزة تقوليلي معلش واتمعلش مثلًا!

- يا بني مش بإيدي، الدكتور قال إن حالتها مش مستحملة تكمل الخطوبة معاك، انت عارف لو عليَّ أنا موافقة، هي مش هتقدر تكمل، ولا عايزها تموت يعني!
- تموت ولا ماتموتش، ولا ياكل معايا الكلام دا، وبعدين دكتور إيه دا كمان؟ هي إيه الحكاية؟ هو أنا هافضل لحد إمتى احابي وادادي على الموضوع بتاع بنتك دا؟! كل يوم يظهرلي حد جديد.

انفجرت «إحسان»: عيب بقى، ما اسمحلكش تقول كلمة تانية عن «مريم»، دا الدكتور «خيري» اللي بيعالجها فى المستشفى.

ـ دكتور على نفسه، إيه داخله؟ ولا خلاص أنا بقيت سيرة على كل لسان..

ـ يا بني عيب الكلام دا.

ـ أنا مش ابنك، وعيب إيه اللي بتتكلمي عنه؟ انتم تعرفوا العيب! م الآخر بس كدا عشان ما نكترش في كلام ملهوش لازمة، خطوبة مش هافسخ، وبنتك دي أنا هاتجوزها، بمزاجها أو غصب عنها كمان، أنا مش شخشيخة في إيديكم تلعبوا بيها، ولو هي هتموت؛ يبقى تموت وهي على زمتي انت فاهمة وحتـ...

أحدهم لن يتردد لحظة في أن يُمسك رقبة امرؤ بأسنانه وينتزع حلقه، ثم سيقف ـودماؤه تقطر من بين شفتيهـ ليقول له أن طعمه مقزز، بل وسيطلب منه أن يعتذر له، لا يجب اعطاؤه الفرصة لتنفيذ ذلك المخطط القذر، كذلك فعلت «إحسان»، حشرت كعب حذاء ابنتها ـالغائبة عن الوعي بجوارها في عربة الإسعافـ في حلقه، أغلقت الخط في خلقته، بصقة من شفتيها لصقتها في عينيه، لم تمهله وقتًا ليكمل نهيقه وأراحت نفسها من صوته، هي تعلم أن ذلك الكائن لن يتركهم، وأنه سيحوم حولهم منتظرًا فرصة ليفترسهم و.. أتاها اتصالًا جديدًا من «صبري» فرفضته لاعنةً، مرة واثنين وثلاثًا، بلا هوادة، وبعد أن سحب نخرة أخرى ألقى الهاتف بطول يده على المنضده، لم يستوعب بعد أن الخطوة التي قطعها ناحية «مريم» ارتدت في صدره هكذا، ولكن

هذه المرة ألقته خارج الملعب نهائيًا، ولن يكون هناك سبيل آخر ليعود للمنافسة، بمجرد استقرار الهاتف ارتعش بعدما تلقى رسالة جديدة، ألقى نظرة سريعة على اسم المرسل «عماد عتمان»، ففتحها متلهفًا على مضمونها الذي كان عبارة عن كلمة واحدة:

- [حصل]..

فعل ماض يدُل على حدثٍ وقع قبل زمن التكلم، يكفي ليعي إتمام الأمر، تمت إزاحة «فارس» غريمه الأول من أمام وجهه، والآن حان الدور على غريم جديد يقتحم عالمه، لم يكن في حسبانه، نعم يجب إزاحة ذلك الطبيب، فصرخ: «رمضاااااااان»..

ففتح الباب بسرعة، قبل حتى أن ينتهي من ندائه، كعفريتِ عُلبةٍ يحضر بمجرد التفكير فيه قائلًا: أفندم يا «صبري باشا»..

زَعَقَ به، وهو يرتدي سترة بذلته: انزل جهز العربية عشان توصلني المستشفى لخطيبتي.



استرد «فارس» انتباهه، أفاق مذهولًا من هذا الموقف، ينتفض تحت قشرة رأسه استفهامات كثيرة، عن كيفية حدوث هذا الانفجار في حجرة نومه؟! دار في عقله ألف سؤال وسؤال، وكل سؤال يُنادي جوابًا، يُتابع لُعاب «أنوس» المتطاير بين وجهه وبين لحم المرايا، وملامحه المهتزة معكوسة في نصل السنجة الفضي، وأظافره الطويلة المقصوفة أطرافها محشور فيها طين، لا يفرقه عن بشرة «أنوس»، و»فارس» مُعلق بين حلم زوجته ووجه «عبير» الذي غادره، سرق من الزمن لحظة حمد الله فيها على أنها رحلت، أوصلها بنفسه وتحركت السيارة أمامه، اطمأن

أنها لن تعود في هذه الليلة المشؤومة، وعليه أن يواجه ـوحده ـ عبث الأقدار بمصيره.

ـ آآآآاااااه!

تزاحمت الحروف التي تطلب مقابلة «فارس». ولكن الـ «آ.هـ» حرفين سقطا من شفتيه بتعمدٍ، بعد أن استقبلت أنفاسه قبضة أحد رجال «أنوس» المرابطين حول سريره، ارتج جسده قبل أن تهرب الدماء من أنفه وتُطَرطِش وجهه، وفي وسط الألم الذي يجتاحه نسيَّ اسمه لثوانٍ، ولكن، انتفض الكلب من جواره، تذكر طبيعته الشرسة المُخرِبة، وحشٌ ينقض على صاحب الضربة من الخلف، قرر فجأة أن يُقلِد جميع أسلاف عائلته وهي تُهاجم الدببة، لكن التفاتة الرجل منعت أنياب الـ «Haski» من الوصول لعنقه، وأخذّ العَضَّة على كفه، ارتج جسده إثر تلك المفاجأة، وانطلق صراخه ودماؤه تسيل من خنصره الذي يقضمه الكلب.

ضغط عليه الكلب فارتد مرغمًا إلى الوراء، اصطدم بحامل الملابس، اتكأ عليه، فلم يحتمله ومال به على المرآةِ ثم سقط على الأرض، والكلب لم يفلته، دوى صوت الكركبة فى الشقة، وفي حين حاول الاثنان الآخران إفلات زميلهم من شراسة الكلب؛ كان «فارس» يباغت «أنوس» بلكمة قوية استقرت في معدته، رجع إلى الوراء وانتفض «فارس» من على سريره –ودماؤه تسيل من أنفه ـ محاولًا السيطرة على ذلك الـ «أنوس»، فناوله ركلة مقصية في قدمه الثابتة فأسقطه، ثور تعثر فانكب على وجهه.

وتقدم «فارس» ليلتقط السنجة التي أفلتها، ولكن، عصا زان هوت على مؤخرة رأسه، من أحد رجال «أنوس» الذين تنبهوا لحركة

«فارس» على زعيمهم، ارتطمت بأعلى جمجمته من الخلف، عنف الضربة الشديد جعل الدنيا تدور في عيني «فارس» ويسقط ليُجاوِر «أنوس»، تمدد جسده وهو ممسك رأسه بيديه، في حين رفسه «أنوس» كأي بغل هائج، ضربة غيظ بكل قوة عجنت أحشاء «فارس» ورجرجت جسده، لم يحتاج الرجل الآخر لتوصية، فعاجله بضربةٍ أخرى ألصقته بجانب السرير، بعدما لحس السيراميك.

سقط الـ «فارس» كالغصنِ المكسور تحت أسنان الصعاليك.

مرت الأحداث سريعة، والكلب ما زال قابضًا بفكيه على يدِ الرجل الآخر، ويزمجر وهو يمضغه بأسنانه حتى قطع إصبعه، وسقط في فمه، وصراخ الرجل يملأ المكان، ورغم الضرب المتتالي على الكلب، لم يستطع هو ولا الرجل الآخر الذي يساعده أن يبعداه، أو يُخففا قضمه لجذور العظم الباقي في اللحم، فالتفت لهم «أنوس» في ثورته والغضب يحرق جسده زاعِقًا: اقتلوا الكلب.

غلف الضباب نظرة «فارس»، زاغت وسط صوره مع زوجته الموجودة فوق رفوف متناسقة في غرفة نومه، وكان الرجل ذو العصا الزان ينهال عليها ضربًا، تسللت الرؤية باهتة إلى إدراكه، وهو يُتابع حفلة التكسير المقامة فوق الأثاث، ينتقمون من الغرفة، ما ذنب المراتب أو الوسائد المطعونة؟ ماذا أجرمت الستائر التي تمزقها المطاوي؟ صوت تهشيم الزجاج يناديه، تاريخه يتلوى كالثعبان بين الشظية والشظية، يتناثر من حوله الحطام المتنوع، «كوكتيل» مخفوق من مكونات البيت، تزحف النظرات الكسولة فوق البراويز التي تحفظ ابتسامة زوجته، يمدّ يده بإشارات مُبهمة نحو ملامحها الممزقة بين الخراب، التشوش الذي

يجلس في حجرة الانتظار يقتحمه الآن، هذيان، تتداخل فيه خطوط الحوائط مع خطوط يديه، تتعلق عينيه المنهارتين بسقف الحجرة؛ كما تتعلق عيون الأطفال بأسقف المساجد والكنائس، وفي الأخير استقر مطافه التائه عندما تعلقت نظراته الواهنة بالكلب.

يد الرجل بين فكيه، والخنصر المقطوع يتدلى تحت الأنياب مع زبد لعابه، في حين قام صاحبه بإمساك أقدام الكلب وقبض عليها بيديه، رفعه لأعلى، فأخرج الأول مطواة «قرن غزالـ « وانهال طعنًا في بطن الكلب ورقبته، جائزة الأوسكار في التصوير، بؤبؤ عين «فارس» تقريبًا تضاعف، فأصبحت الرؤية بالنسبة له دائرية، مع ميزة الإعادة البطيئة للمشهد، شاهد «فارس» تمزيق جسد رفيقه رويدًا رويدًا، أحس بالطعنة وراء الأخرى، وكأن النصل المغروس في جسد الكلب قد طاله، أذنه ميزت عواءه الناحب كمن يستنجد به، يُذكره بوعده إياه أن يُراعيه ويحافظ عليه، وأن يُصالحه على الدنيا كلها، فهكذا هو «فارس» كل من يقترب منه مصيره الهلاك! يُشاهد محاولته اليائسة للفرار من قتلته، ثم انفراجة فمه باستسلام، والدماء تتطاير، دماء الرجل ودماء الكلب ممزوجةً معًا، حتى هدأت حركات قدميه ثم استكانت، هبطت حدة أدائها نهائيًا معلنة خروج الروح إلى بارئها.

يتجه هذا الكوكب نحو الجحيم مباشرةً، فلم تَسْلَم حتى الحيوانات من أذيةِ البشر!

صورة المشهد ـ بالنسبة لـ»فارس» ـ بدأت تسوء كأفلام الفيديو في التسعينات، حاول الوصول إلى مكان رفيقه لكنه يرى المسافَات تبتعد، الغرفة يزداد طولها، وتتزاحم، امتداد جديد من طريق «صلاح سالم» في

حجرةِ نومه المكلومة، ينشب أظافره في السيراميك ويَجُر نفسه، يرفع يده في إشارات مبهمة نحو القاتل بدون تمييز لما يريده، ينبش أحباله الصوتيه عن كلمات فتجرح حواف الحروف حلقه، تقصف حنجرته، ينكش السجاد المهترئ وصولًا للكلب، نوع من المشاركة في الدفاع عنه ولو بنيته، فهما لهما نفس المصير، ثم رفع سبابته ناحية القاتل، وقال بصوتٍ مبحوحٍ أقرب للوشوشة: أنا هاقتلك..

حاول الاتكاء على حافة السرير المغتصب للنهوض، لكن «أنوس» خَبَطَهُ على رأسه بظهر «السنجة»، شُجَّ رأسه وانفجر منه سيل دماء، أعلن سقوطه وبدأ يستسلم للغيبوبةِ، فَعَجل «أنوس» الأمر بضربةٍ أخرى على يده اليسرى الممددة على الأرض، التي كان يُشير بها، فانشق جلده واندفعت دماؤه من عروقه، ثم كال له ضربة أخرى من قبضته في أنفه فعجنها، وأخرى في عينه اليسرى طمست هويتها، تحول وجهه إلى كومة لحم ممضوغ، هنا كان الفصل الأخير من محاولات الحفاظ على الإدراك، رجرجه «أنوس» كقربةٍ ماء حتى يوقظه، لكن «فارس» غاب في طريق مسدود بلا عودة، أخذ رحلة قسْرِية ليس لها محطة نهاية، فالتفت لرجاله:

- مُچ عايز عاجة زليمة ڤي الچقة دي.

أخذوا الأمر على محمل شخصي، وبدأوا تنفيذه في التو واللحظة، انهالوا تخريبًا وتحطيمًا في كل شيء يقابلوه أمامهم، لا يوجد شبر تقع عليه أعينهم إلا ويتحول إلى هشيم محتضر في لمح البصر، جلس «أنوس» على فراش «فارس» ومدَّدً قدميه فوق جسد الأخير المتكوم على الأرض، وبركة دماء يزداد اتساعها أسفله، ثم أشعل سيجارة ملغومة

ألقاها بين شفتيه المحروقتين، وهو يعبث بهاتفه، أجرى اتصالًا بآخر رقم في سجل الهاتف، لحظة سُرقت من عُمر الزمن قبل أن ينفتح الخط فقال بسرعة:

- تم يا كبير، زاعبنا متكوم تعت رجلي.
- إوعى تكون قتلته!

ألقى «عماد عتمان» بكلمته في لهفةٍ واضحة، جعل «أنوس» يستدرك وهو وينفُخ دخان سيجارته في وجه «فارس»: عيب يا كبير، كان بِوِدِي بَز أوامر معاليك تُنفذ.

خطف نظرة ضبع إلى فريسته وجز أسنانه، ثم أغلق الخط مع تأكيد «عماد» على ألا يترك أي آثار أو بصمات لتلك الفعلة، حتى لا يكون هناك أي ذيول وراء الموضوع، لا يهم التأكيد فـ»أنوس» يعرف عمله جيدًا، ويقوم به..



السكون يكفي لخلع مبنى من جذوره بدونِ انتباه أحد، صوت دوامات الهواء تحوم في الفناءِ الرحب للمستشفى، تحمل أكياسًا بلاستيكية تائهة ومخلفات، فتضرِب بها الجدران والشبابيك، أكروبات عالمية، صمتُ الشجر يصمد في وجه صفير الرياح، التي تتمشى وتكنُس أوراقه الجافة من على الممر الحجري، اقتربت سيارة الإسعاف بدويها المعروف يكسر حالة الصمم التي تُعاني منها الحياة، عبرت الباب المفتوح بدون أن يستوقفها أحد، الخَفيرُ ملفوف في بطانية حول تلفاز عتيق يعرض فيلمًا لـ»إسماعيل يس»، وتُغطي قهقهاته المملوءة

بالمعسل البلدي على الصوت، أخذت لفة فوق الممر الجانبي حتى ثَبَتَتْ أمام مبنى الرعاية المركزة.

هرع مُمَرِضَان هائمان على وجهيهما، ملامحهما منتفخة بعيونٍ نصفِ مغلقة، إدراكهما تحت تأثير النعاس، ثم فتحا باب سيارة الإسعاف الخلفي بأزيزٍ بطيءٍ، أنزلا النقالة المستلقية عليها «مريم»، وتحركا للداخل وبجوارهم كل من «إحسان» و»خيري»، حتى أودعاها حجرتها التي كانت بها المرة السابقة، لم تمض ساعة إلا وكانت في ثباتٍ عميق، بعد أن أجرى لها «خيري» الإسعافات الأولية لاستقرارها، تمهيدًا لجلسات العلاج من باكر، ترك بجوارها إحدى الممرضات لتضبط لها المهدئات في المحاليل وخرج.

ـ قومي ارتاحي انتِ يا مدام «إحسان» أنا هاتابع حالتها.

قالها «خيرى» وهو يدلف إلى غرفة الاستقبال الأولى، موجهًا حديثه إلى «إحسان» التى كانت تائهة مشوشة الفكر، مكالمتها السابقة مع «صبري» تنبش في وجدانها، مفرداته عاهرة كأفكاره، حلقة زار يرتفع ضجيجها في رأسها، فلما لمحت الطبيب انتفضّتْ من دخوله وأحرقت تنهيدتها وهمست: ومين يجيله طعم للراحة؟!

أشفق عليها فربت على يديها ليزرع بداخلها الطمأنينة، ثم تركها دامعةً ورجع إلى غرفة «مريم» ليتابعها، وأغلق الباب، لا يعلم بما يدور في خُلد «إحسان»، وتوجساتها مما قد يفعله «صبري» بعد حواره ـالراقيـ الأخير معها، فجلست تقرأ ما تيسر لها من كتاب الله، لم تمر ربع ساعة حتى اقتحم الجناح «صبري» في ثورة عارمة، أزرار بذلته مفتوحة وربطة عنقه مفكوكة وقميصه رث، ينم عن حالة عصبية رهيبة،

خَشَّ بدون استئذان، دفع الباب بقوةٍ وتدحرج إلى غرفة «إحسان»، من رعبها سقط المصحف منها؛ ظهر جليًا في رعشة يديها وهي تلتقطه مرة أخرى، بينما يترنح «صبري» وأنفاسه تحمل معها عبق الخمر النتن، ويقول بغوغائية:

ـ ازاي «مريم» تيجي المستشفى الزفت دي تاني؟

انتفضت «إحسان» وهي تضع المصحف على حامله، ثم وقفت لتقطع طريق «صبري» نحو غرفة «مريم»، اعترضته بجسدها الصغير وحررت نظرها أطول من قامتها، تسقط كالنار فوق ملامحه، ازداد الموقف اشتعالًا، فقالت وهي تصبغ لهجتها بما في أحبالها الصوتية من قوة: انت إيه اللي جابك هنا؟! مش مكفيك اللي سمعتهولي في التليفون، جاي ليه؟! انت ملكش أي صفة هنا.

الجملة خرجت ضعيفة جدًا رغم محاولتها، فَضَحِك «صبري» في أداء درامي مبتذل، وصفق بكفيه ليُكمل المشهد، تسللت إليها رائحة ماء المجارير التي تطفح من جوفه، فسدت أنفاسها وهو يقول: المفروض عليَّ إني أخاف وأكش من دا الوش!

حاول أن ينحيها جانبًا بيده وتابع: وسعي بقى شوية كدا النفس بس.

لم تتزحزح من موقفها، امتدت قدماها كأظافر كتكوت غُرِسَت في الأرضِ، وأمسكت كتفه وهي تدفع يده اليسرى بعيدةً عنها صائحة: الأسلوب اللي بتعامل بيه المجرمين دا ما تتعاملش بيه معايا، احترم نفسك واعرف تعامل ولاد الناس ازاي.

دفعها بيديه، ارتدت إلى الوراء واصطدمت بالباب بعنف شديد وهتف: ولاد ناس! وسعي بعيد عني.

«صبري كامل» كائن عديم الإحساس، هلامي، لزج، مترهل؛ ككرشه الذي يهتز مع كل حرف.

دوى صوت الكركبة، سمعه «خيري» وهو يحقن «مريم» بمهدئ أقل تأثيرًا مما سبق، فهبَّ واقفًا من جوارها وأمر الممرضة التي ترافقه أن تُكمل عمله، فهزت رأسها إيجابًا دون رد، وأخذت مكانه فوق سرير «مريم»، وتحرك «خيري» بخطوتين واسعتين فوصل للباب، فتحه بعجالةٍ ليفهم ما يحدث في الخارج، فوجئ بـ «صبري» يواجهه وبينهما تتمدد «إحسان»، تتلوى قبل أن تفقد الوعي من أثر الدفعة، ذبيحة ترك الجزار في رقبتها سكينًا صدئًا، فوقف «خيري» مشتت الفكر والقرار، عيناهما تلاقت بسكوتٍ رهيب، وتعارفا.

لكن «خيري» اهتم بـ «إحسان» الممددة على الأرض، موجوعة، غائبة، فأسرع إليها في لهفةٍ واضحة، وهو يرمق «صبري» المشتعل أمامه كعود ثقاب، انحنى عليها يعدل جسدها المخلي برفقٍ، وهو يتحدث إلى الممرضة في الغرفة: اتصلي بالأمن بسـ.....

- تتصل بالأمن دا عشان مين؟! الأمن دا عليك انت واللي زيك.

قاطعه «صبري» وهو يتخطاه إلى داخل الغرفة، في نفس اللحظة التي ضغطت فيها الممرضة زر الإنذار، فانطلقت صافرته في أنحاء الدور، بينما خطا «صبري» خطوة واحدة ولم يكمل الثانية عندما قابلته الممرضة بالداخل: يا أوستاذ ما ينفعش اللي بتعمله دا!

الموقف تسارع، في الوقت الذي أمسكت الممرضة ببذلة «صبري» تمنعه من الدخول، حيث وقفت حاجزًا بينه وبين سرير «مريم»، كان «خيري» يحمل جسد «إحسان» ويضعه برفق فوق الأريكة في غرفة الاستقبال الأولى، واستدار عائدًا إلى الحجرة، لحق بـ «صبري» قبل أن يقوم بدفع الممرضة كما دفع «إحسان» منذ لحظات، فجذبته يد «خيري» من كتفه إلى الخلف قبل أن يصل لها، فاستدار «صبري» فجأة نحوه بدون مُقدمات وكال له لكمة خطافية قوية في فمه، طار على إثرها سِن من أسنانه ورشرشت دماؤه على صدغ الباب، ارتد «خيري» غصبًا إلى الوراء، وأقبل عليه «صبري» في هوجته تلك وكال له أخرى في معدته، جعلت الأول ينحني في ألم، فاستقبلته ركبة الأخير في فمه مرة أخرى، فسقط على ظهره ومعه سِنٌ آخر.

انقلب «خيري»؛ كشجرةٍ قُسمت لنصفين، جعل «صبري» يعتليه ويكيل له الضربات، أصابعه الغليظة تتتابع فوق ملامح «خيري» كقارعِ الطبل، عجنت وجهه وأنحاء متفرقة من جسده، لم تتح له رفاهية العزفَ المنفرد تلك، حيث ظهرت الممرضة في مدخل الغرفة، وبين يديها حامل المحاليل المحاذي لسرير «مريم»، وبغيظ رفعته ونزلت به ـ بكل قوتها ـ فوق رأس «صبري»، برميل هلام سقط من أعلى سيارة مُسرعة، ارتج جسده وأصدر خوارًا عنيفًا للحظةٍ، قبل أن يسقط مغشيًا عليه فوق جسد «خيري».

انطلقت الممرضة إلى الخارج تصرخ في رجال الأمن، الذين بدأوا يتوافدون على الجناح، فقادتهم إلى الداخل، قيدوا «صبري» واقتادوه إلى الأسفل زاحفًا بقدمين غائبتين، ورئيس الأمن يبلغ قسم الشرطة

بالواقعة، في حين أفاق «صبري» وصرخ: بتعملوا إيه؟! انتم ما تعرفوش أنا مين؟!

لم يعيروه أي انتباه، فكل من هَبَّ ودَبَّ يقول ألا تعرفونني؟! المصدر لثقافة البلطجة في هذا الوطن، فالجميع يتحصن في شيءٍ ما أو في شخصٍ ما أو في منصبٍ ما، المهم أن تكون هناك حماية لتجاوزاته، فأفسحوا مجالًا لصعود فريق من المسعفين للأعلى، وحملوا «خيري» ـ المفرومة ملامحه ـ لإسعافه وإفاقته، في حين أكملت الممرضة إفاقة «إحسان» وبدأت تروي عليها ما حدث، وضع جديد فى نفس الغرفة، يسافر القدر بين جدرانها بأحداثٍ مختلفةٍ كل مرة، كأن مكتوب عليها أن تشهد مشاهد العنف باختلاف نتائجها.



7

في «مركز شرطة مشتول السوق»، أحرق فدان تبغ وهو جالس، ورأسه يعيد شريط التسجيل من البداية، فقد بعثه القدر لـ»فارس» حتى يَبِيت الليلة معه في شقته، عادة اكتسبها على مدار الأسابيع الفائتة، فهو لن يترك صديقه فريسةً لهواجسه المتمردة، خاصة أن هذه هي ليلة الرابع عشر من شعبان، وقد جاء يحمل طبق أرز بلبن أعدته والدته، «طبق الرشوة» كما يسميه «فارس»، فمدَّ يده أسفل الدواسة وسحب المفتاح الاحتياطي وفتح الباب، صرير الضلفة أفزع سكون الظلام الذي غلف كل شيء، فدخل يبحث عن زر المصباح وضغط، التيار خاصم الأسلاك أو اللمبة أصابها عطل، ضرير تحسس الجدران حتى تعثر في شيءٍ ما وسقط.

قام يسب ويلعن وأمسك بهاتفه يستخدمه ككشافٍ، فلمح الحطام، أطلال خرائب في كل مكان، أكوام من الكراكيب المهشمة، تقريبًا لا يوجد شِبر في الشقةِ سليم، تخطى الحواجز وهو يُنادي مرعوبًا على «فارس»، حتى عثر على خيط دماء يتسع؛ في آخره جثة الكلب الراقدة

بدون حراك، ارتجل الدعوات بين شفتيه، وبنبض شحيح تحركت الدماء المشكوك في وجودها بين عروقه، حتى استقر في وسط غرفة النوم، ووجد جسد «فارس» عاريًا، تنتشر فيه الجروح طولًا وعرضًا، منبوش، مهتوك، منهوش، خريطةُ أحراش متشابكة التفاصيل، منقوشةٌ بالنصلِ في جسده، أطرافه الأربعة محفور فيها خطوط سكك حديدية متقاطعة، عمليات تنقيب واسعة الانتشار في جلدهِ، ولا يظهر لونه بشرته وسط بحر الدماء الذي أغرقه، انخلع قلبه وأسرع إليه تُسابقه نبضاته و..

ـ «ضياء باشا» بيقولك اتفضل..، (صوت الأمين أعاده إلى مكانه)

دفن سيجارته في المطفأة الاستانلستيل وتحرك لـ«ضياء حسن» رئيس المباحث، دخل قائلًا: ازيك يا «ضياء بيه»؟!

ـ أهلًا يا «بشمهندس محمود».. مش بشمهندس برضو؟

قالها وأشار له بالجلوس على المقعد المقابل وأخرج عُلبة سجائره، واجب الضيافة الحكومي، سحب «محمود» سيجارة من العلبة وجلس وأشعلها بقداحته: جاية في وقتها يا فندم والله، أنا قعدت شوية برا خلصت فيها سجايري، حضرتك بعتلي، خير؟!

قال جملته وقرب القداحة المشتعلة من سيجارة «ضياء» الذي أشعل سيجارته بدوره وقال: لأ خير بأمر الله، أنا بَعَت ليك بخصوص موضوع صاحبك، انت اللي اكتشفت الواقعة، وزي ما عرفت إنك انت صاحبه الأقرب، وهو مش مختلط بحد في البلد هنا، مقطوع عن كل الناس، دا حتى عن أبوه وأمه يا راجل، مفيش حد يقدر يفيدني في التحقيق غيرك..ولا إيه!

شَدَّ «محمود» نفسًا عميقًا من سيجارته وهو يومئ برأسه إيجابًا، قبل أن يُخرجه فى دوائر ملولةٍ إلى السقف: كلام حضرتك مظبوط طبعًا يعني، ما حدش يعرف أكتر من الشرطة، بس برضو ما اعرفش سيادتك هتستفيد مني إزاي؟! مش فاهم.

قام «ضياء» من كرسيه الدائري فدفعه بمؤخرته إلى الخلف، وهو يهندم قميصه ويحشره في داخل بنطاله، ويضبط وضع الحزام ويعدِل الطبنجة الميرية في جرابها تحت إبطه، وفَرَدَ ياقة قميصه وهو ينفض عن كتفيه في شكل سينمائي أقرب للكوميديا، خرج من خلف مكتبه وهو ينقر على سطحه الزجاجي بأصابعه، ولف بخطواتٍ بطيئةٍ وتوقف وراء مقعد «محمود» ثم ربت على كتفه:

ـ لأ يا بشمهندس، بعد إذنك فتح دماغك كدا.

قبل أن يواجهه فينحني ليكون في مستوى نظره، ويأخذ نفسًا من سيجارته ويتابع: أنا لسه ما بدأتش كلامي، ياريت تخليك معايا وتطول بالك عليَّ شوية، عشان باين إن خُلقك ضيق حبتين، أنا عارف..عارف.. عارف إن الداخلية بلطجية والجو دا، عارف إن ما بينك وبين البدلة الميري سوء تفاهم، بس زي ما انت شايف أهو أنا كاجوال، وكمان المثل بيقول صوابعك مش زي بعضها! فإذا كان موجود حد في الدنيا دي كلها ممكن يساعد صاحبك، يبقى هو أنا، لازم انت تشترى مني وتتعاون معايا دا لمصلحته.

هزَّ «محمود» رأسه في تفهم واضح للموقف، وزفر الدخان الذي عَبَّهُ، واستطرد: «ضياء بيه»، بعد إذنك بلاش الشكل بتاع أفلام الأبيض وأسود دا، كل اللي أنا قُلته يا ريت تفهمني انت عايز تعرف إيه أو أقدر

أساعدك ازاي؟! يبقى ما لهوش لزوم تعمل مشهد اتكرر كتير قبل كدا، حضرتك ممكن تتفضل على مكتبك، تسأل، وأنا من مكاني هاجاوب، ولا كلامي غلط؟

اعتدل «ضياء» في وقفته مفكرًا، حَكَّ بسبابته أسفل ذقنه الحليق ضاممًا عينيه، ثم هز رأسه متمتمًا: معقول برضو..

ثم عاد مرة أخرى إلى كرسيه وجلس وهو ينظر لـ»محمود» قبل أن يفرك رأسه الصلعاء: م الآخر يا «حودة»، أنا ما بحبش اللف والدوران والتلزيق الكتير قبل الموضوع، بحب أختصر، هاسألك سؤال وتجيب لي كل اللي في عِبك.

- اسأل حضرتك.
- تفتكر مين اللي عملها؟ وانت برا أنا قرأت ملف «فارس» ومش قادر أوصل لحاجة، راجل من بيته لشغله وما لهوش أي نشاط لا سياسي ولا ديني، ولا حتى له في أي حاجة شمال، وفي شغله بيشكروا فيه، ولو ع السرقة طب ما اللي عايز يسرق هيسرق، لكن اللي حصل دا كان بغرض الانتقام، واللي جه كان عارف هو عايز يعمل إيه بالظبط، يبقى لازم كان في بينه وبين حد عداوة، مين بقى اللي بينه وبين «فارس» عداوة عشان يوصله إنه يعمل كل دا فيه؟!

ألقى «محمود» سيجارته إلى مثواها الأخير، ثم صمت وهو يخبط بقدمه على الباركيه توترًا، وكفه يمسح مكتب «ضياء» بحركة مرتعشة، فأدرك الأخير -بحسه الأمني- أن «محمود» يخبئ شيئًا، لكنه متردد في الإفصاح عنه فعاجله: يا بني اتكلم، أنا زي أخوكم الكبير، قُل مين

يهمه يحصل اللي حصل دا لصاحبك؟ وأنا هاجيبه ليكم بلبوص، قُل ليَّ، عشان نجيب حق الواد اللي مرمي دا بين الحياة والموت، والله أعلم اتعمل فيه إيه تاني! انت نسيت كان مرمي عريان ازاي وجسمه متقطع؟! ولولا انت روحت له كان ممكن يروح فيها، دا ربنا بعتك سبب عشان تلحقه، فخليك كمان بقى سبب عشان نجيب له حقه.

جملة «ضياء» الأخيرة شكة دبوس فجرت بالون أسرار «محمود» في وجهه: حاضر يا فندم، أنا هاحكي لحضرتك مين الوحيد اللي يتمنى الأذى لـ»فارس» وليه؟ بس توعدني إن «فارس» يتأمن وأنا كمان، لأن الصراحة الكلام دا هيزعل ناس كبيرة.

ـ يا بني الكبير ربنا وبس، ما تخافش أمانكم عندي، انطق.

بدأ «محمود» في سرد قصة «فارس» مع «مريم»، ومواجهته لخطيبها وكيل النيابة، كان يحكي وهو يجهل سيناريو النهاية لصديقه أو حتى نهايته هو، ولا يعلم لماذا يحكي من الأساس لذلك الرجل الغريب أمامه، لكن شيئًا ما في مناقشتهما جعله يتكلم، لم يكن يدري ما هو رد فعل «ضياء»؟ أو ما هي حتى النتيجة؟ لكنه حكى.



أسبوعان مرا، وهلَّ هلال شهر رمضان و»فارس» صائم عن الحياة كلها، تتسرب الأيام من بين يديه مثل الماء، حتى بدأت إفاقته في الليلة العاشرة من الشهر المبارك، تحركت يده بصعوبةٍ وسط غابة الأسلاك من ناحية، ومن ناحية أخرى من أثر الضمادات الطبية المصبوغة بالأحمر، مقلوب على ظهره كأي جثة محترمة، غُرز خياطة بالعشرات تلهو في كفيه وعلى طول ذراعيه وأكتافه، صدره مُكفنٌ بأمتار طويلة من الشاش الطبي

وشوال من القطن، دبابيس متفرقة مغروسة في مسام جلده المسحول، على جانبيه وتحت ظهره، سحجات وجروح قطعية مختلفة الأحجام والأشكال، وجهه لا يظهر فيه سوى عينين منتفختين، حولهما شبكة عنكبوتية من خياطات التجميل، شكائر عماص تراكمت على مدار الأيام السابقة، تتضاخم، مكونة لجبلٍ من الشمع الزجاجى فوق جفنيه، وعُلقت قدماه على حاملين، بعدما تم تجبير مفَاصله وتثبيتها بالشرائح والمسامير، استُبْدِل بجسدٍ آخر صناعي!

فقدت الكرة الأرضية التوازن، وأحاط الظلام بإدراكه، عتمة شاملة، كمن فُقئت عينيه، فأرعبه هاجس العمي، لذا تحامل يرفس بأطرافه حتى اعتدل، وبغباءٍ حاول قسرًا أن يفتح جفنيه، محاولته أججت اللهيب في حدقتيه، وتحركت يديه المخدرة تنميلًا تتحسس رأسه الحليق غصبًا، فيه آثار لكدمات وخيوط متعرجة وأطراف سلك طبي وزوائد جراحية، فنفض ذراعه في حركة أثارت حفيظة الأسلاك المتصلة بالمحاليل، فصفرت الأجهزة تحذيرًا، لكنه أكمل رفع كفه على محجريه، فركها بتلقائية طفلٍ يعبث بعملية الطهارة، أشعل فيها البارود من تلك الحَكَّةِ، الحريق لا يحتمل، جمرة مستعرة في عصبه البصري، تصُب الجحيم على غدده الدمعية: آاااااااه.

انطلقت منه الـ آه مكتومة، مع زلزالٍ يرجرج أوردته، صداع مجنون يجتاحه، خلاط يضرب مؤخرة رأسه، لم يعرف سببًا محددًا لعدم سماعه لصوته بوضوح، صداه آت من سردابٍ ليس له آخر، ضغط على نفسه مقاومًا اللسع المحيط بقزحيتيه، قنديل بحر يسبح في دموعه، ثم بدأ بصيصٌ من رؤيةٍ مشوشةٍ يأتيه، خيط نور واهن يتسحب من شباكٍ متهالك، دقائق عديدة أُهدِرَت وهو يَفُك التحام أهدابه، وأخيرًا ميز بعض الوجوه الباهتة وسط تداخلات الضمادات والأصباغ، طبيبة شابة تتوسط المشهد، في مواجهته، ممسكةٌ بكشافٍ صغيرٍ تُسلِط عليه نوره، كأنه الشمس التي تسطع على أهل الكهف بالنسبة له، أزاح وجهه ـبعد عناءـ بعيدًا عن مصدر الضوء فلمح بقية الوجوه، أمه، والده، «محمود»، وأيضًا كانت تقف من بعيدٍ «عبير»، في رُكنٍ منزوٍ.

مهلًا هل ظهرت «عبير» في المشهد؟! بمجرد أن تساءل انشرح صدره، تسللت كالسمكة تُحرك مياهه الراكدة، بلحظةٍ بدأ يتجول بين النجوم رغم آلامه، جعلت أحلام صحرائه بجداول المياه تتحقق، أقام لها طريقًا في ضاحيةِ الوقت، لم يعترف بحساب الزمن الحقيقي، عندما سكن بصره ـالزاحف من أسفل عينهِ الموَاربةـ في ملامح «عبير»، فسحب يده ـالمتهتكةـ من يدِ الطبيبة التي تقيس له النبض وأشار نحوها، وفتح شفتيه كي يحدثها، خرجت حشرجة موحشة، صوت زمجرة من محركٍ قتيل، وأنفاسه كريهة معتقة كرائحة قبو مُغلق طفحت فيه مياه المجارير، ولم يستطع إلا أن ينطق بكلمة واحدة غير مكتملة، مقصوصة الحروف: «أبير».

حرف العين التصق في سقف حلقه ورفض الخروج، لكن»عبير» فهمته كعادتها، فَطِنَتْ أن النداء هذا المبهم لها، فأسرعت إليه، أحاطت ظهره العاري المملوء بالجروح بيدها اليمنى، ويدها اليسرى أمسكت يده اليسرى الممزقة، ألصقت جانبها الأيمن بجانبه الأيسر المنتهك، عُريه أخذ قيلولة في سِترها، واتكأت إلى جواره على السرير، هجرت عشيرتها وجاءته عندما أخبرها «محمود»، انكفأت على وجهها بجواره طوال الأيام الفائتة، تربط نفسها فيه، جلست بجانبه تقتسم الوجع معه، جاءت تسحبه معها إلى ميادين الحلم الخلفية، ففتح لها صناديق دموعه المتحجرة، وألقى كل ما حدث فيه ليطيب في حِضنها، فهي الملاذ الأوحد له ولا شيء بعدها، وكل إنسان يستحق أن يُحَب –برغمِ هشاشتهِ وآثامهِـ كأنه معجزة لا تتكرر، ابتسمت الطبيبة الشابة:

ـ حمد الله على سلامتك يا بطل، شهيق وزفير متتابع.

قام «فارس» بسحبِ نفسٍ عميقٍ، كركب صدره برجرجةٍ عنيفة، سيارة تأكل مطبًّا عاليًا بسرعتها القصوى، وحاول أن يفغِر ذلك القبر الموجود فيه لسانه ولكنه فشل، أكملت الطبيبة قياس ضغطه وتابعت بنفس الابتسامة: انت استحملت حاجات مستحيل حد عادي يستحملها، ما شاء الله عليك، احنا عدينا المرحلة الحرجة الحمد لله، فيه شوية جروح وكدمات منتشرة في جسمك كله، فترة وهتعدي، طبعًا فيه كسور هتاخد وقت؛ لكن مع العلاج الطبيعي هترجع أحسن من الأول، ما تقلقش!

ثم ضغطت زرًّا صغيرًا بجوار سرير «فارس» وأشارت في وجهه: دول كام؟

ـ تلاتة، «محمود»!

استجاب «محمود» لنداء صاحبه، تحرك مسرعًا إلى الناحية الأخرى من سريره: أنا جنبك يا «فارس»..

ـ الكلب دفنته؛ ولا رميته وخلاص؟!

ـ لا يا صحبي دفنته في الجنينة بتاعتنا.

مَدَّ «فارس» يده اليمنى وأمسك بيد صديقه وشدَّ عليها بوهنٍ، فَطِنَ «محمود» لطريقة الشكر المعتادة من صديقه، فربت على كفه برفقٍ وسحبها من قبضته، دخلت الممرضة من باب الحجرة في مواجهة الطبيبة التي عاجلتها: بلاش مضاد حيوي، وهنكمل من بكرا، لكن غيري الفرش دلوقتي، وجسمه يتطهر من كتمته طول المدة دي.

انصرفت الطبيبة بعد تحية مقتضبة للجميع، في حين بدأت الممرضة في خلع الملاءة أسفل «فارس»، وعرت الجزء المغطى من نصفه السُفلي، لم يشعر بالخجل، لأنه ممنوع من الصرف في حالته تلك، فإحساس الألم يدهس جميع الأحاسيس الأخرى في طريقه، خاصة أن جسمه مُغطى بالضمادات فلا يهُم ما يظهر منه، ترك للممرضة حرية التأمل وتركها أيضًا لـ»عبير»، فبدأت الممرضة بتنظيف جسده بإسفنجة مبلولة، وتغيير القسطرة، لكنه أراد معرفة ملامحه إثر المعجنة، فتحشرج صوته ثانية وقال: آيز مراية!

لكنه أحس براحةِ «عبير» تضغط على كتفه وسمع همساتها الباكية: بلاش يا «فارس» عشان خاطري بلاش يا «حبيبي».

أدرك حجم المأساة التي يعاني منها فتراجع متابعًا: ماما، «ياسين» آامل إيه؟

فجاوبته: يا حبيب قلبي هو زي الفل، عند جارتك «أم سعد» معتنية بيه، شد حيلك انت بس عشان تاخده في حضنك..

ـ ازيك يا دكتورة «الحالة» النهاردا أخبارها إيه؟

ـ تمام يا فندم، هو فاق، وكنت ناوية أستفهم عن حالة وقدرة المخ والذاكرة، خاصةً بعد ما عدينا مرحلة الارتجاج الخطرة، بعد ما طَوِّل في الغيبوبة، ولكنه عرف وشوش الحاضرين وسأل عن الكلب، فكان باين إن الإدراك ممتاز الحمد لله.

ـ طيب كويس أدخل له بقى.

استطاع «محمود» تمييز صوت «ضياء حسن»، الجهوري، عندما تحدث مع الطبيبة في خارج الغرفة، لحظة فاتت وكان في وسطهم ومعه اثنان من المعاونين: انت تمام خالص أهو يا راجل، ازيك يا حج «محمد» ازيك يا حجة ازيك يا بشمهندس.

أدار «ضياء» وجهه في الموجودين، وانتظر قليلًا مبتسمًا أمام «عبير» التي ألقت عليه نظرة سمجة قتلت عبارته إليها..فتنحنح:

ـ اكتب يا بني، أنه استكمالًا للمحضر السابق واكتب تاريخه، فُتح المحضر بتاريخ اليوم واكتب تاريخ النهاردا، عن طريقنا نحن «ضياء حسن الدنياري» رئيس مباحث مركز شرطة مشتول السوق، أنه ورد إلينا اتصالًا من مستشفى مشتول العام يفيد بإفاقة/»فارس محمد علي

سليمان المصري»، وقدرته على استكمال الاستجوابات العالقة بالمحضر السابق، فتوجهنا إلى المستشفى في تمام الساعة واكتب الساعة كم معاك دلوقتي، وبسؤاله تبين لنا ما يلي، س/ تقدر تحكي لنا يا «فارس» إيه اللي حصل لك في شقتك في ليلة.. واكتب تاريخ الواقعة؟

صمتٌ ثقيل عم المكان، «فارس» يمسك بيد «عبير» ويضغط عليها بأصابع لينة، و«محمود» يقف إلى جوار سريره شاخصًا، والده ووالدته يجلسان في مواجهة السرير على يسار باب الغرفة، رفع «فارس» رأسه ـبمعاناةٍـ نحو السقف يستدعي إله الإجابات، تعلق بصره المشوش باللمبة الموفرة التي ترتجف في سقف الغرفة، شعاع رؤية خامل تمشى بين الجدران الأربعة السماوية اللون، توقف كثيرًا بين فواصل القيشاني الأبيض الذي يُغطي نصف الجدار، تدحرجت الصورة تتلوى فوق الأجهزة الطبية على جانبيه، ثم نظر بتلك العين في وجه «ضياء» متأملًا للحظة، خواء يجتاح قراره، لكنه فَرَجَ فاه، وبصعوبةٍ قال جملة واحدة مقتضبة:

ـ مش فاكر أي حاجة!



ـ ثلامو عليكو يا مدام «إحثان».

قالها «خيري» وهو يدخل إلى غرفة الاستقبال، على «إحسان» في الجناح الذي يضم «مريم»، وجهه مُغطى بالكدمات وفمه ينقصه سنان، لذلك تجد أن مخارج الحروف عنده تعاني كثيرًا في حروف «السين» و«الصاد»، حيث تسمع نغمة كل حرف منهما «ثاء»، قامت «إحسان»

من مكانها لاستقباله بوجهٍ بشوشٍ، وعندما اقترب خطفه حضنها وضمته أكثر إليها، أم تستقبل ابنها التائه، أخذته المفاجأة من مكانه وزرعته نجمًا يلهو في الفضاء، وهي تُقبل وجنتيه، جعلته مثل الحصان يركض في ماراثون حدقتيها:

ـ ألف مليون سلامة عليك يا دكتور، مش عارفة أشكرك ازاي؟ وباتأسفلك على اللي حصل.

أفلت «خيري» نفسه من بين ذراعيها برفقٍ وهو يُربتُ على كتفيها، تراث من التربية يفيض فوق ملامحه الخجولة، وجهه صُبغ ـ رغم كدماته ـ بتورُدٍ واضح: حضرتك أنا ما عملتش حاجة، واللي حثل ليَّ دا متقدر الحمد لله، المهم «مريم» عاملة إيه؟

ـ يااااه، الحمد لله، احنا كنا فين وبقينا فين، دلوقتي أحسن بكتير، البركة فيك وفي علاجك.

قالتها وجلسا سويًا وهو يرد بخفوت: لا حضرتك، البركة في ربنا، أنا ثبب مش أكتر، وآثف إني غيبت عنكم الفترة اللي فاتت.

فطبطبتْ على كتفيه تمهيدًا للسؤال الصعب: وانت يا بني عملت إيه معاه؟!

انحنى رأسه، مكسور النظرات، رغم مغالبته لها فإنها غلبته في النهاية، وقال في غير حول منه ولا قوة: والله يا فندم أنا مش عارف أعمل إيه؟! مدير المثتشفى قالها لي على بلاطة احنا هنعتبر مفيش حاجة حثلت، ودا لمثلحتي، لأن الموضوع لو خرج برا عن هنا أنا اللي هاتضرر، ومش أنا وبث وحضراتكم كمان وحتى الممرضة، طول الشهر اللي فات كنت تايه، أنا غثب عني والله مش هاقدر أعمل حاجة، ولكن

بعد ما أتابع حالة «مريم» بأمر الله أنا مش هاقعد في البلد دي، هاثافر برا، البلد دي مش بتاعتنا.

ترقرقت الدموع منه دون قصد، نزلت على وجنتيه، تحرِق مسام جلده وتمضُغ خواطر نفسه، البكاء هو الحل الأخير الذي يُحرر تركة من الوجع تتمشى بين وجدانه، ما أصعب أن تهون نفس الواحد في وطنِه؟! حالة تتجاوز إطار الخصوصيات، عندما يقف الممثل أمام المرآة متجردًا من ثيابه المسرحية ويرى حقيقته، قتلٌ بالبطيء، صدر فيه حكم الإعدام بلا استئناف، أحس بالقهر في دولةٍ ينام فيها الظالم مرتاحًا؛ كلما كان اللقب الذي يسبق اسمه أقوى! ولهذا نشأت طبقة مجتمعية من أشباه البشر، أموات بدون أوراق ثُبوتية، وفقدت بيوت العوام أي ملامح للحياة، كالمقابرِ أو أشد وحشة، فهناك قبورٌ تملؤها الحياة أكثر من بعضِ البيوتِ!

يعي أنه لا يجوز له أن تنبت مدامعه، قوانين سخيفة فرضتها عادات المجتمع عليه، خاصة في حضورِ النساء، وكأن معشر الذكور ليس لهم حق الضعف، مع أن الدموع هي السماء التي يركض أسفلها جميع الرجال يوميًا، فيها طفولتهم وحرارتهم وصفاؤهم وصدقهم، هي الدليل على وجودهم، فقط عندما يشعرون أنهم غير مراقبين، ويكتسب الإنسان حريته من قدرته على الانفعال، لذلك ذرف «خيري» دمعاته، لا يدري لماذا فعل ذلك في حضرة «إحسان»؟! علَّها تَذْكِرةٌ من الماضي فيها طيف أمه، فترك نفسه بغير خضوع لإقامته الجبرية جوارها، وزاد نحيبه، مبحوح النبرة، يفُح وينفُخ، جعل من رئتهِ جهنم، تُطلق لهيبها المسعور في أنفاسهِ.

فجأة فُتح باب غرفة «مريم» وخرجت منها تتكئ على مصراعهِ، وبمجرد أن تلاقت عيناه مع عينيها شدَّت قواها وقالت بحَمِيَّةٍ جددت طاقتها التي وَلَّتْ: ليه يا دكتور عايز تسافر؟! أنا مديونة ليك، لو الدنيا كلها وقفت ضدك أنا هابقى في صفك.

كلماتها ـ رغم الحماس ـ خرجت ضعيفة، إلا أنها أعطته القوة، فجفف نبع دمعاته وهرع يسندها، بعض المفاجآت تأتي بقدرِ ما يحتمل المرء في سبيلها، فمنذ أن بدأ في علاجها وهو يتمنى أن يتشارك لسانه مع لسانها في أي حديثٍ عابر، وبلا مُقدمات يكون هو «بطل» هذا الحديث، على غفلةٍ، القدر كما يأخذ فهو يعطى.. وبقدر ما يقطع فهو يصِل، لذلك ابتسم:

- يا دكتورة «مريم»، ما تتخيليش جملتك الأخيرة دي عملت إيه في نفشيتي، أول مرة أحث فعلًا إن العلاج النفشي بيجيب نتيجة، والدليل الحالة اللي أنا كنت فيها قبل خمث دقايق، والحالة اللي أنا فيها دلوقتي، مش هاقدر أوثفلك.

هاجمت حمرة الخجل وجنتي «مريم»، هناك منطقة في النفس تتجاوز سُلطة الكلمات، ضحكت أمها وساد جو أسري كان ثلاثتهم يفتقدونه، والسلام قد يولد من الأزمات التي تسحق الناس معًا، وأخيرًا عاشت «مريم» دور الابنة المطيعة المحبة، و»إحسان» تذكرت دورها كأم، لذلك السعادة الحقيقية هي من شواهد الله في خلقه، هي تلك المِزية التي لا تُقال ولا تُفَسَر بما يُقال، حالة مُجردة تُرى بالدواخل فقط، مبهجة، مفرِحة، شعور فِطريّ هادئ مُفعم بالصُلح مع المقادير،

ومع الله، إحساس طُفوليّ بريء، كان قد ودعهم منذ زمن وكان بلا رجعة، قبل تلك اللحظة، أوقات فاتت عليهم رَكن فيها الخراب إلى الخراب، فتحدث «خيري»:

- أنا كتبتلك على خروج النهاردا، بث ليَّ رجاء لازم تهتمى بديكورات الثيدلية بتاعتك، عشان تخلث وتبدأي الشغل فيها، دى أكتر حاجة هتثاعدك فى الأيام اللي جاية.

فغمزته «إحسان»: يبقى خلاص يا «خيري» يا بني، رجلها على رجلك بكرا، تروحوا سوا وتشوفوا الشغل أخباره إيه هناك.

فابتسمت «مريم» بهدوء: خلاص يا دكتور، بكرا هانتظر حضرتك، ونروح وسط البلد عشان نشوف الصيدلية.

- خلاث هاصلي العصر وآجي، ونبقى نفطر مع بعضنا في الحثين، وبعدها هاعزمك على آيث كريم عند «جروبي».

- وانا موافقة.

قالتها «مريم» ضاحكة وهي تحتضن أمها، وعيناها تتجنب النظر في ملامح «خيري» المتوهجة، انتهت الجلسة، وقامت «إحسان» ـ بعد انصرافه ـ لتصلي ركعتي شكر لله، على الحالة المطمئنة لابنتها، بينما وصل «خيري» إلى شقته في المساء، بعد طريق تجمل في عينيه بلا تفسير، تقافز على الأرصفة بخطواتٍ واسعة، كعصفورٍ يمرح بين البساتين، ولج للشقةِ وتذكر موعده غدًا فأخذ يدور حول نفسه، كقطٍ عجوز يمرح بين الحقول، فاتحًا ذراعيه ومحركًا مفاصله التي صدأت من الركنة، وكل هنيهة تُصدر صوت صرير، استعراض ضعيف ولكنه بذل فيه مجهودًا مضاعفًا، ثم جدد وضوءه وبدأ في صلاة القيام التي لم

تدم طويلًا، إذ انطلق جرس الشقة بإصرار مستفز، وصوت طرقات كثيرة تتداخل بفزعٍ على الشُراعة، قطع الصلاة ـوهو يستغفر ربهـ ولحق بالباب قبل أنً ينهار:

ـ أيوة أيوة مين اللي بيخبط؟

ـ افتح الباب، مباحث.

جاءه الصوت، متحشرجًا قويًّا بأسلوب صارم، له نغمة حكومية غير مألوفة لديه إلا في الأفلام، عالج الكالون والدهشة تجتاحه، وبمجرد أن انفرج الباب؛ اندفع منه ضابط وخلفه سرب من العساكر والمخبرين في زي مدني: حضرتك دكتور «خيري»؟

ـ أيوة يا فندم أنا، في إيه؟!

ـ احنا معانا أمر من النيابة بالقبض على حضرتك وتفتيش الشقة، يا ريت بدون دوشة ولا شوشرة تتفضل بهدوء معانا.

ـ أمر من النيابة! عشان إيه؟ أكيد في حاجة غلط يا فندم!

ـ بعد اذنك، بلاش تدخلني في أسئلة معنديش إجابات عليها، حضرتك هتتفضل معانا، وهتعرف كل شيء، دا أمر النيابة.

ناوله ورقة مطوية، التقطها «خيري» بيدٍ مرتعشة، طالع ما هو مكتوب فيها، ثم طأطأ رأسه لأسفل مستسلمًا، لم تمر عشر دقائق إلا وكان «خيرى» وفي يديه الأساور الحديدية مكبلًا، وبعد أن قلبوا الشقة عاليها أسفلها أنزلوه تحت الحراسة لأسفل العمارة، ومعهم بعض الأحراز التي وجدوها في شقته، على مرأى ومسمع جميع سكان الحي الذين يعرفونه جيدًا، تُطل من أعينهم استفسارات ليس لها إجابات، وفُض التجمهر

والعربات الشرطية الزرقاء تقطع الشارع وبداخلها حمولتها، المعزومة على وجبة السحور الحكومية.

8

علاء الدين، لص بغداد، أبو زيد الهلالي، علي الزيبق، أو قد يكون «Robin Hood»، أو حتى الإله حورس الفرعوني، بطل من أبطال القصص الأسطورية، طافت تلك الأسماء بعباراتٍ مختلفة على مدار الأيام الكثيرة السابقة، على شفتي الطبيبة الشابة وهي تتردّد على حجرة «فارس»، لمتابعة تطور حالته، نظرت لها زميلتها في مكرٍ وقالت: مش يمكن يكون عايز بوسة.

فنظرت لها الطبيبة في استنكارٍ وغضب فاستدركت الأخرى على الفور: انتِ إيه اللي فهمتيه يا بت، أنا أقصد «بوسة الحياة».

أنهت جملتها بغمزة، فابتسمت الطبيبة ببرودٍ متعمد، أعادت النظر إلى «فارس» الملقى على السرير الطبي، وبعض الأسلاك تخرج منه في اتجاه الأجهزة المحيطة به، تمعنت في جسده العاري، عضلاته المتجسمة، صدره الواسع العريض، في تشاريح بطنه، تقاسيمه، اعوجاج الخياطات الطبية المفروشة ـ كأغصان الغابات ـ في جلده، وجهه المهترئ الشاحب، يطوف حوله الموت ويتمسح فيه، الدبابيس

والضمادات فوق جروحه المتفرقة في جلده، رأسه الحليق المنتشر فيه القطع والكدمات، تنهدت بحرارةٍ وقالت:

- لازم نكون له ملايكة، بعد اللي حصل له من الشياطين.

ربتت زميلتها على كتفها، ثم مالت عليها باستعراض كعازف كمان، شيء من الاستهتار الرخيص: لا ربنا معاكِ يا حبيبتشي.

- هاقول إيه؟! انت عديمة الدم، مش شايفة اللي حاصل له، شكله بقى ازاي، مستحيل يكون اللي عامل فيه كدا بشر!

- طب هو عمل إيه؟ ما تنخدعيش في المظاهر، هو فيه حاجة حلوة كدا مش مفهومة، بس ماتندلقيش.

- مظاهر إيه بس واندلق إيه، هتفضلي على طول سطحية.

ثم راودتها ابتسامة، فالتفت بجسدها اتجاه زميلتها بجدية: تعرفي انتِ صح في حاجة، إنه فيه حاجة حلوة، غريبة تجذبك ناحيته، فتهتمي لأمره بدون مناسبة، زي سحر القصص اللي كنا بنسمعها واحنا صغيرين، حاجة تلاقيه هو نفسه مش حاسس بيها.

اقتربت زميلتها منها، ووضعت يدها فوق جبهتها: آدي اللي بناخده من الروايات، لأ ماتسكتيش على نفسك أكتر من كدا، الحالة دايمًا في بدايتها ممكن علاجها، لكن بعد كدا الموضوع بيتصعب، واحنا دكاترة والمفروض عارفين الحاجات دي.

لم تُعِرها انتباهًا تلك المرة، لكنها حاولت أن تفُك طلاسم ذلك الغامض الغائب عن كل ما يدور حول جسده، واقعه مختلف تمامًا، منذ ذلك الحادث وهو أبعد ما يكون عن الحياة، تربطه بها أنفاس متقطعة وقلب ينبض، يفيق لدقائقٍ ثم يغيب خلف نفسه، كما يغيب النمل في

شقوق الجدران، يشعر بهمساتهم حوله، دموع أمه وحسرة أبيه وحتى بكاء ابنه، لكنه لا يستطع أن يغادر، مسافر قصير الإقامة في مكانه، خُلوته أفضل كثيرًا مما عاشه، وبالتأكيد إذا غادرها لن يكون هو الـ «فارس» المعتاد الذي يعرفه، ذاكرته محاصرة بانفعال ذكرياته، أحلامه التي تعطيه طعم كل شيء وأي شيء، ولا شيء! فقط ذكريات مكتوبة على صفحاتٍ مائية.

هي «جامعة الزقازيق» وكيف ينسى أجمل أيام عمره؟! تلك المباني التي تركت الحرائق في أعصابه وبين دفاتره، رماد تجاربه الرائع الذي تناثر فوق أصابعه، اِدَّكَرَ فتاة جميلة، لم يبقى منها إلا آثار أقدامها الصغيرة على تُراب قلبه بعد أن رحلت، يدخل تحت وهج شمس الصيف من باب «كلية الآداب» ـ الكعب العالي ـ متجهًا نحو كلية الشعب «التجارة»، واثق الخطوة مختالًا فوق الرصيف، ثم تجمد أمام «مسجد كلية الحقوق»، هناك استراحت سيارة «Cabriolet» يجلس على مقدمتها ثلاث فتيات، فتقدم نحوهن:

ـ صباح الخير يا بنات، بعد إذنكم ممكن تقوموا بس عشان أشغل العربية، عايز أمشي.

تنبهت الفتيات لذلك المنطاد الذي هَبَط عليهن، وفجأة بعد جملته انفجرت قنبلة من الضحكات بينهن، حتى قالت من تجلس في المنتصف: طب خد المفتاح دا شغلها بيه أسرع!

قالت جملتها، وقذفت إليه سلسلة مفاتيح يغلب عليها الطابع الأنثوي، التقطها بسرعة وتنبه لمفتاح السيارة الموجود فيها، فابتسم،

ونظر لها بطرف عينه صامتًا قبل أن يقترب منها، كان النهار جميلًا نسيميًا، والشمس ساطعة مثل عينيها الصاحيتين، مع لمسةٍ هواءٍ جعلته ينتشي، ازداد توهجًا تحت انعكاس الضي من ثغرها البسام، لا يعرف لماذا لم يشعر بالإحراج منها؟! لماذا لم يعتذر عن هذا التدخل؟! كيف غلفه الأمان؟! ازداد حريةً معها وكأنها من دمه، دنا منها ببطءٍ والأسفلت ينبت بالعشب مع كل خطواته، لَبِسَتْ جدران الجامعة من حوله الخضرة، وشبابيك المسجد -التي تُطل عليهم- ظهرت كينبوع مفضض ينتهي بشلالٍ، وقف -وخرير الماء يتكرر في أذنيه- مبتسمًا أمامها، فهي فتاة وُلِدَتْ في روضات الجنّات، رفع كفه اتقاء خيط الشمس الساقط عليهما وقال:

- طيب يا ترى أنا شكلي وحش دلوقتي؟!

ضحكت صاحبة الغمازات مشاكسةً وعقدت حاجبيها فزادت روعة: لأ عادي، بتحصل، ما تشيلش في بالك.

- طمنتيني، أنا كنت شايل الهم بعد ما أسيبكم وأروح على شلة المقاطيع في الكلية.

- اشمعنى يعني؟!

- عن كمية التريقة والضحك اللي هاتتقال منكم في حقي.

- ما تقلقش، وحياتك احنا بنتريق وبنضحك من دلوقتي.

فتنبه إلى الفتاتين الضاحكتين المجاورتين لها، فابتسم لهم ابتسامة مجاملة، على سبيل جبر الخواطر، الطبيعي أنه لن يترك الشمس ويهتم بالسحاب، فتعلق نظره بها مرة أخرى: أحم أحم، إذا كان كدا أنا موافق،

المفروض دلوقتي أسيبك وأروح على الكلية، بس الصراحة مستخسر أمشي، حاسس إني حتى لو قررت كدا رجلي مش هتطاوعني.

قالها وغاص في مياهها منقبًا عن اللؤلؤ، فابتسمت في خجلٍ لوَّنَ وجهها بالورد أكثر، والكحل كستارةٍ ظللت قزحيتها، يُجَلِّدُ مروحةً أهدابها الطويلة التي خبأت نظراتها، فعينيها مَرْجعٌ دراسيّ صعب يستحيل مُذاكرته، لكن المستحيل خُلق لكي يفعله، قرأها، كما لم يفعل مع أي واحدة من قبل، فردّ ريشه أمامها كأي طاووسٍ أصيل، وتوقع سؤالها وأجابها قبل أن تسأله: كلية الشعب.

جرجرت أفكارها المختلطة في رأسها، إجابته متماسكة لسؤالٍ لم يتخطى بعدُ شفتيها، خبطها، خطفها، بشكلٍ لم تعهده من قبل، حتى لحظة فاتت كانت تُتابعه بعينين مسترخيتين مستخفتين، تهزأ بمُحاولته العابثة معها، ولكن، تساءلت لماذا لم تضع حدًا؟! تلك اللعبة المربكة متى تصل فيها إلى كلمة «Game Over»؟! لكنها مستمتعة حتى تلك اللحظة، منتشية، تطأُ أرضًا لم تعرف طقسها من قبل، يُعجبها الفتى، ولكن تُعجبها حالتها ـ المتوهجة ـ معه أكثر، وهذه هي البداية المثالية لأي علاقة، فالإنسان يبحث دومًا عمن يُضيئه، تلمح في روحهِ أُلفة تُعمر خَيَالهَا، ورغم هشاشتها تماسكت، وأكملت دورها المتقَمَصُ بعنايةٍ، ثم قالت:

ـ تجارة... مممممم زميل يعني، كنت لسة هاسأل انت في كلية إيه؟! طيب يلّه يا عم المسهوك، أنا هاروح معاك على الكلية، مع إني ما اعرفش انت جاي تعمل إيه دلوقتي أصلًا؟! مش وقت محاضرات ولا سكاشن خالص يعني.

غمزته بعينها بعد أن قالت جملتها، وقفزت من فوق مقدمة السيارة؛ لتقف إلى جواره، مَدَّت يدها مصافحةً له، قررت خوض مغامرته حتى النهاية، مؤشرٌ تكشف به لنفسها سببًا للسعادة، أو التعاسة، لا يهم، فقط أرادت معه احتماء العمار بالعمارِ، وركُون العاطفة إلى العاطفة، فقد تنهض معه بحياةٍ تعترف أن مصيرها الزوال، لكن، من التعاسة ألا نسمح لأنفسنا بالتجربة، فالعمر لا يتكرر، أفلا يستحق عناء المجازفة؟! وعليها اختبار فاعلية حقل ألغامه، لكن بتؤدةٍ، ودون تصادم عنيف يَهلَكَ فيه الاثنان، لذا، أخذت تلك الخطوة الجريئة بلا تفكير، فهي لا تملك إلا لحظتها هذه، وكأنما لا يوجد خيار غيره في هذه الدنيا، قالت: «يسرا».

صافحها، وهو يشدد قبضته ضاغطًا ـ بقصدٍ ـ على أناملها الرقيقة، كمن يقبض على حياته: «فارس».



«خيري» يقف حافي القدمين والأصفاد تُدمي معصميه، يرتكز بظهرِه على الحائطِ المجاور للباب، وبجانبه «رمضان» المجند يمسك بياقته المفتلة، أسبوع أسود من قرن الخروب، لم تكن تفاصيله تمر عليه حتى في أسوأ كوابيسه، رحلة مُرة من داخل قسم الشرطة إلى مديرية الأمن، وبين الجدران الصماء استلموه، «Reception»، ترحيب، وكل من يقابله يكون له طقوس خاصة في استقبالهِ، حفل بلاء لا ينتهي في كل ليلة حتى الفجر، إغماءاته تكررت أكثر من مرة مع كل لقاء، ولكنهم لم يسمحوا له برفاهية غياب الوعي، تخيل أن يصبح الإغماء رفاهيةً! نخروه كالنعال القديمة، حاول الصمود والنهوض، وفي كل مرة يُقابلوه

بوابل من أهلًا وسهلًا خاصتهم، استجوبوه، دونوا جميع الأسماء التي يعرفها، التي قابلها ولو صدفة في طريق، سألوه لكنه لم يفهم مقاصدهم:

ـ عايزين تودوا البلد في داهية، يا إرهابيين، انطق، اعترف، اتكلم.

فكيف يُجيبهم وهو مُكمم الفاه؟! أَنَّ، هَمْهَمَّ، تألم، مثل أي دابةٍ مربوطة.

ـ مرحب يا «دكتور خيري»، شوفت الدنيا ضيقة ازاي؟

نطق «صبري» الجملة عندما خَشَّ الحجرة، وخلفه كاتب النيابة، شاب في أوائل الثلاثينات يحمل دفترًا كبيرًا، بمجرد دخوله انتفض «رمضان» في وقفته بتحيةٍ منفعلة، أهمله «الباشا» واستقر مطافه في مقعده الوثير، وهو يفتح أزرار بذلته خلف مكتبه، جلس الكاتب على كرسي صغير قريب منه، وأشار «الباشا» ناحية «رمضان» إشارة فهم معناها بالانصراف، فأدى له تحية وخرج تاركًا «خيري» المهتوك عرضه سلفًا، ثم أغلق الباب من الخارج، في حين نظر له «صبري» بشماتةٍ وغِل، وقال للكاتب ونظره على «خيري»:

ـ ابدأ يا بني..، س/ علاقتك إيه بتنظيم «الإخوان المسلمين»؟

لم يجبه «خيري» فقد كان يلتقط أنفاسه بصعوبة كبيرة و..: اصحى يا «دكتور»، الكلام دا موجه ليك انت، فتختصر وترد.

زَعَقَ فيه «صبري» وهو ينتصب، بعد أن خبط سطح المكتب بقبضة يده، ارتجف جسد «خيري» من تلك الثورة، وجاهد ليبحث عن

حبلٍ صوتي ما زال بإمكانه العمل في ظل تلك الظروف، تنحنح ثم قال: هو مش المفروض إني يكون ليَّ محامي!

أهم صفة في أي محامي هي قرابته للقاضي أكثر من القانون، ولذلك ضحك «صبري» على طريقة السينما ضحكات متقطعة: يااااه يا دكتور، الحاجات الصغيرة دي مش هتفرق دلوقت، هتبقى تحتاج لها في المحكمة وعليك خير، اختصر وجاوب ع السؤال؟

ابتلع «خيرى» ريقه المُر بصعوبة، تُراب ناشف ترسب في حلقه، بعد أن جفت شفتيه وتحنط لسانه وتبخر فمه: مفيش أي علاقة..

- ازاي مفيش علاقة! واحنا لقينا ـ بعد تفتيش بيتك ـ كتب دينيه وتفاسير لابن تيميه وغيره.
- هو ممنوع إن الواحد يكون على درايه بدينه؟!

قالها «خيري» بتلقائية، أراح «صبري» زنديه وشبك أصابعه على كرشه وتابع بسرعة كمن يعرف آلية الإجابة: لأ.. لا سمح الله، بس اللي ممنوع يا دكتور إننا نلاقي وسطهم كتاب «معالم في الطريق» بتاع «سيد قطب»، ودا كتاب ممنوع من النشر أو التداول، وكمان كتابه «في ظلال القرآن»، أو زي ما بتسموه «في ظلال الآيات الكريمة»، وكتاب «١٩٨٤» لـ«جورج أوريل».

- أنا قرأت كتب «سيد قطب» فعلًا بس مش عندي، وكتاب «جورج أوريل» دا عبارة عن رواية عادية جدًا، للاطلاع الشخصي، ومش ممنوعة بالمناسبة، ومفيش أي قانون أو دستور ممكن يبقى فيه حجر على أدمغة الناس، ودا مش معناه إني مؤمن بكل كلمة في الكتب دي، وعمومًا أنا

مختلف معاهم في حاجات كتير، ودا ما يمنعش إن فيهم حاجات صح.

- اثبت بقى الكلام دا يا دكتور!
- واثبته ازاي بس يا فندم؟! لو حضرتك شايف إن دا يمس الدولة فأنا ما ليش دخل.
- ما هو دا مشكلتك مش مشكلتي أنا، بالنسبة لي الكتب دي مع كم «تويتة» من بتوعك، عن حكم العسكر والظلم اللي في البلد، وكدا أنا قضيتي انتهت واتقفلت، وحضرتك بقيت خطر على الأمن العام.
- يا فندم كل دا عشان لقيت عندي كتب، فيها أفكار من اللي أغلب الخطيرين على الأمن العام معتنقينها.

عبارة «خيري» الأخيرة هي بالضبط ما يحتاج إليه «صبري»، كي تُعطيه ذريعة للسطو عليه، وسحله، ومُصادرة حياته وأفكاره، ويضع على أيامه الأقفال والفولاذ، وهذا مُلخص بسيط لجحيم العدالة، تجعل من الأشرافِ أنذالًا بجرةِ قلم، كلابٌ مفترساتٌ؛ توزع المخبرون في الأزقةِ والحواري، يُشمشمون ورًاء أخبار البُسطاء، ويرفعون أكفهم بالأسواطِ ليُرهبونهم، يُريدون أن يشطبوا على أحقيتهم في الوجود نفسه، ولا يجوز للضحايا الكشف عن أوجاعهم أو مصائبهم، فكُل كلمة تُحَرَف على أمزجة من يسمعها، ودفاترهم وكُتَّابهم وأقلامهم تحت رهنِ الأوامر، لذلك انتشى «صبري» بعدما التقط الخيط من كلمات «خيري»، وقال:

- اكتب يا بني، وقد اعترف المتهم بحيازته كتب تحتوي على أفكار يعتنقها معظم الخطيرين على الأمن العام.

هنا انفعل «خيري»، وتقدم خطوتين إلى داخل الغرفة: هو حضرتك بتعمل ليَّ تهمة من أي كلمة، ليه كدا يا فندم؟!

فانفعل «صبري» بأداءٍ محفوظ: كمان! طيب، اكتب، كما قام المتهم بتوجيه اتهامًا للنيابةِ العامة بتلفيقِ التهم جزافًا للمواطنين.

فتح «خيري» شفتيه في تعجبٍ فلم يجد لسانه، ما قيمة المواطن الذي يُقطع لسانه؟! بحث بين مفردات جميع اللغات، على أي رد مناسب للمهزلة التي تحدث، لكنه لم يجد ما يُشابه إحساسه، يجب أن يخترع لغة جديدة على مقاييس مصيبته ومساحة ضعفه، فظلَّ فاتحًا شفتيه صامتًا، تتراكم عليه أكوام من الأفكار التي تسحبه إلى الجحيم، خصيصًا مع عدالة مفتعلة لوكيل النائب العام، محشوة بمواصفات السعير، أهمله «صبري» وفتح الملف الموجود على المكتب وأخرج بعض الصور، وقذفها في وجهه:

- تعرف حد من اللي في الصور دي؟!

فتناثرت الصور على الأرض و»خيري» يقول: أنا دكتور، وارد يكون حد منهم اتردد عليَّ مثلًا، عادي زي أي مريض نفسي!

ابتسم «صبري» بسماجة: لو سمحت بص في الصور كويس، بعد إذنك جاوبني لو تعرف حد فيهم أو لأ، لو ممكن تتعاون معانا.

- يا فندم ما هو أنا مش عارف أ....

- اكتِب يا بني، في حين امتنع المتهم عن الإجابة على النيابة، ولم يظهر أي تعاون معنا في سير تحقيقات القضية.

رفع «خيري» يديه المكبلتين بالأصفاد أمام وجهه وجز أسنانه مزمجرًا بحنق: امتنع إيه بس! بلاش يبقى الموضوع شخصي بيننا.

قال «خيري» جملته وانحنى ليلتقط الصور من على الأرض، و»صبري» يوجه حديثه للكاتب: قال المتهم للنيابة أنه لم يمتنع، وأكمل بصيغة تهديد لنا «صبري كامل العيشي» وكيل النائب العام بقوله: بلاش يبقى الموضوع شخصي، في حين تجاهلت النيابة ذلك التهديد الواضح، وأكملت التحقيق..، س/تعرف حد في الصور؟

فطن «خيري» إلى لعبة «صبري» أخيرًا، فأصبحت كل كلمة تخرج من شفاهه محسوبة بالمليمتر: لا يا فندم ما اعرفش حد فيهم.

رفع «صبري» حاجبًا وأنزل الآخر: لكن تحريات النيابة أكدت إن الولد في الصورة التانية دا كان بيتردد عليك كتير.

نظر «خيري» مطولًا في الصورة، برنامج التعرف على الوجوه في رأسه بدأ يعمل، سرح قليلًا في سواد الليل الصامت، المتسحب إليه من شباك الحجرة المفتوح، يستجمع الملامح في باله، ثم قال بعد فترة السكون تلك: أيوة يا فندم افتكرت، دا ولد «ديلفري» شغال لحسابه بينقل طلبات، كنت اتعرفت عليه في المستشفى، وبقيت أبعته يجيب أي طلب ليَّ، كمساعده له.

ابتسم «صبري»: اكتب يا بني، وقد أقر المتهم بمعرفته بالمشبوه الثاني، بعد أن أنكر معرفته به سابقًا.

احتسى «صبري» من كوب القهوة الباردة، التي كانت تنتظره طول مدة التحقيق، ثم نظر بعيون لامعة تسيل منها الشماتة لـ»خيرى»، ذئب أمامه فريسة مغروسة في الوحل تلفظ أنفاسها، ثم قال ببطءٍ مؤكدًا على حروف كلماته: هنا وقد أمرنا نحن «صبري كامل العيشي» وكيل النائب

العام، حبس المتهم أربعة أيام على ذمةِ التحقيقات، ويراعى التجديد له في المواعيد المحددة.

كعادةِ الأيام تبدأ لكي تنتهي، أتم «فارس» أيامه الباقية في المستشفى، انتهى شهر رمضان الكريم وهو مستلقٍ، مثل ذكر عنكبوت مقلوب على ظهره، مطمور في أمتار من الشاش والقطن، كالمومياء، سافر بين دفاتر ذكرياته، طلب إجازة طويلة من حياته فلم يحصل عليها، عاد ليواجه الواقع بكل قسوته، لم يَبقى بين وجدانه إلا جثة تجاربه، يقف يتقبل عزاءه في حياته القديمة، صحيح أن حزن الرجل نادرًا، ولكن عند حضوره لا يكون بمفرده أبدًا، بل يعبئ في حقائبه كل خيباته السابقة، كأن حزنًا واحدًا لا يكفي!

مرت الأسابيع متشابهة كأشجارِ الغابات، مواظِبًا على تمرينات العلاج الطبيعي، وأكوامٌ من البراشيم والأدوية والدهانات، أكمل الوقت بلا مُبالاةٍ، تعمُد لحظاته إلى تقطيع الثوابت في حياته الرتيبة، حجر سقط في بِركته الراكدة، تتوالد دوامات من الدوامات في ذهنه، غمس عينيه في تتابع الدقائق، عَلَّقَ نظره في عقاربِ الساعة، مدمن ينتظر جرعة مخدر تأخرت عنه قرنًا، وفي كل لحظة يُخربش جلده ويحرث فروة رأسه، تتضاعف أعراض الانسحاب، صدمة اكتشافه لشخصيةٍ جديدةٍ تزوره ولا تنوي الرحيل، كما القمر الذي يتأمله الآن من نافذة المستشفى بوجهه الفضي اللامع؛ يُخفي أجواءه القاحلة، وجباله المرعبة، وقممه الجرداء، وحرارته الملعوب فيها، قرر «فارس» مُقابلة الحياة بمنطقِ القمر، مخبئًا لثوراته وانقلاباته وصراعاته ومعاركه الضارية، جاءه

«محمود» بسيارته ليُقله، بعدما تأقلم على جروحهِ وتأقلمت هي عليه، جسمه تحسن نسبيًا، لكن حالته النفسية تحسنت أكثر! فالله يمتحنه بهذا البلاء.

لا يدري من أين جاءه هذا التحفيز؟! ربما السر هو صراخه الضخم الذي لا تحتمله حنجرته، فأراد أن يخلع رداء العنتريات المهلهل من فوق مفرداته، ألا يستهلك من القماش اللغوي ما يزيد عن حاجته، خرج من المستشفى بخطواتٍ تُغطي نقراتها مساحة انفعاله، لن يلعن الظروف بألاعيبها، حالة الانكسار التي أصابته بعد وفاة «يسرا» تلاشت في لحظةٍ، وكأن الألم دواؤه ألم أكبر منه!

- إيه يا معلم ساكت ليه كدا وسرحان؟

لم يتلقى «محمود» إجابةً من رفيقه، ففطِن أن جوفه يموج بشيءٍ أكبر من الكلمات، فتابع: ناوي تعمل إيه معاهم؟!

التفت «فارس» إلى صديقه صامتًا، وكأنه يقول له ألا تدري ماذا أنتوي أن أفعل بهم؟! في حين تابع «محمود»: انت تعرفهم؟!

أومأ برأسه إيجابًا بدون صوت، فتساءلت عين «محمود»، فأجاب «فارس»: فاكر البت «هدى» بتاعة الوراق، أخوها البلطجي.

ضغط «محمود» على مكابح السيارة فتوقفت قِسرًا، وتشابك صوت زحفها مع صوت»محمود»: يا ديني، طب وهتعمل إيه؟!

سرح «فارس» بنظرهِ وطال سكوته، فهذا سؤال ينادي حفنة أسئلة، وهو لا عزم لديه لأي إجابة، أو أن جعبته شُحت من الردود، باله الشارد تركُض فيه ألف فكرة تعوي كذئبٍ ينادي القطيع، انفصل عن دنيته لدقيقةٍ بألف سنة، فرَّت دفاتر ذاكرته أمامه، وأفعاله التي أوصلته إلى هذا

الحال، يُريد أن يلطم وجهه كأفاعيل الشيعة في يومِ عاشوراء، يكتم الغِل في نفسه، ليزيد من أحطاب الجحيم الذي يعيشه، لم يستمع إلى الجملة التي عقب بها «محمود»، حاول عبثًا تهدئته أو تحذيره من اللانسياق وراء شره، ولكن «فارس» التفت فجأة إلى رفيقه مُحملقًا، شيءٌ في نظرته ألجم «محمود» فأخرسه، حكايا كثيرة تغزلها مُخيلته حتى قال «فارس»:

- بُص ليَّ يا «محمود»، قُل كدا شايف إيه؟
- الحمد لله شايفك اتحسنت و...
- ما أقصدش اللي انت ناوي تجاوبني بيه دا على فكرة!..... وانت عارف قصدي يا «محمود»!

لم يعقب، فبعض الأسئلة لا محل لها من الإجابات، خاصة إذا كانت الإجابة معجونة بالبارود، أخرج منديلًا ورقيًا يمسح حبات عرق؛ تتدحرج مالحة على جبهته فتلهب عينيه، ثم تابع بنظره «فارس» وهو يضغط زر الإضاءة ويخلع الـ «Capcho» الملحق بالـ «Sweatshirt» الذي يرتديه، كُشفت ملامحه المحشوة بأصابع الديناميت، تحت اللمبة الصفراء المرتعشة في صالونِ السيارة، بدت رأسه ككرةٍ كاوتش منحولة، صلعاء، تنتشر بها قطاعات بالطول والعرض من الجروح التي تُحاول الالتئام، بعض الخيط الطبي المنتشر فوق الدبابيس وبقايا ضمادات، ملامحه متناسقة مع شكل رأسه، تقاسيم وتجاعيد ظهرت لتزيد من سنوات عمره، يمتلئ بالندوب؛ شاهدٌ أبدي ثائرٌ يذكره بكل ما حدث،

وحشٌ فَر لتوهِ من الأدغال، أشار «فارس» إلى وجهه المفحوت بالحفر ثم صرخ:

ـ بُص يا «محمود» ع الخلقة اللي قدامك دي، قووول، هو دا «فارس» صاحبك؟

مَطَّ «محمود» شفتيه وقال بصوت متقطع: الواحد مننا مش بالشكل يا «فارس»، وبكرا الآثار دي تختفي وترجع زي الأول.

ـ إذا كانت الآثار الخارجية هترجع زي الأول، فالآثار الداخلية مش هتختفي، وعمرها ما هترجع زي الأول.

ـ بلاش الكلام العميق دا يا «فارس».

ـ أنا دلوقتي ماعنديش غير العمق دا.

ـ يا صحبي اسمعني...

ـ اسمعني انت..

قالها «فارس» ليقطع الطريق على باقي كلمات «محمود»، ثم عقد حاجبيه حتى تلامسا، قَطَّبَ جبينه وغاصت نظرته في ملامحٍ صديقه، اشتدَّ صوته وتحشرج ـ بنحيب مكتوم ـ وهو يجز أسنانه غيظًا، ويعاند غصته: أنا كنت راجل كافي غيري شري، باعمل شوية شقاوة، عادي زي أي شاب أو راجل، ولكني أقسم بالله ما اتسببت في ضرر جسماني ولا نفسي لأي حد، يقوم كل دا يحصل فيَّ! وعشان إيه؟! دا أنا كنت ماشي جانب الحيط، وساعات جوا الحيط كمان والله..

ثم رفع سبابته االمضمدة وتابع: لكن أقسم بالله إني هاغير الطريق دا، أنا هامشي في وسط الشارع، وعكس الاتجاه كمان.

ربت «محمود» على كتف صديقه لتهدئته: ما تفكرش في حاجة، انت مش موزون، أجل أي قرارات لحد ما يتم شفاك على خير.

ابتسم «فارس» بطرف شفتيه ساخرًا: انت مش فاهم يا «محمود».

ارتسمت علامة «١١١» على وجه «محمود»: مش فاهم إيه؟!

فجأة انفجر الدم في جبين «فارس»، فار من رأسه والتهبت جروحه وهو ينظر لصاحبه، شخط وزعق، وضع نهاية الحوار قائلًا:

ـ أنا الكلب بتاعي اتقتل..!!!!

كانت جملته تحمل من الحزم كفايتها، وامتلأ جحر عينه بأكوام البارود، انفجر، مثل حقول الألغام، فداخل وجدانه وحشان يتقاتلان، أحدهما مُسالم مثل حياته الماضية، وآخر يدعوه للانتقام، وقد قرر إطعام الأخير حتى يفوز في معركته، «محمود» لم يستوعب مقصد صاحبه، لكن الطريقة التي تكلم بها زلزلت كيانه، فالتقط علبة معدنية لتبغ ملفوفٍ بيدٍ مرتعشة، ناول «فارس» واحدة، فأشعلها الأخير ونسيَّ أنَ يُشعل سيجارة «محمود» في زحمة أفكاره، قبل أن يُحوِل «محمود» دفة الحوار: إإيـ...

فقاطعته تمتمات «فارس»: مش باقي غير شوية عيال بلطجية، يدنسوا بيتي ويلبسوني طرحة زي النسوان!

سمعه «محمود» فأخرج رأسه من شباك السيارة، نظر خاويًا للفراغ المظلم، مُحاولةٌ مُصطنعة ليُغطي على جرس الإنذار المنطلق في سريرته، باطنه اللعين تفتق فيه هواجس بألفِ قرارٍ مجنون، فلم يجد الطريقة المناسبة ليشرح مخاوفه، ولا يُريد استمرار الجدال السخيف، فمهما كانت النتيجة فهي مُقلِقة، هنا اختلف صديقه عما عهده دومًا، «فارس»

تأذى أكثر مما يَحْتَمِل فتغير أكثر مما ينبغي، تمرد على موضعه من الإعراب، لن يكون «مفعولًا به» مرة أخرى، سيكون دائمًا وأبدًا «فاعلًا» لما تَبَقى من عمره..

9

القبور الفرعونية يكون جوها مكتومًا، سحابة كيماوية تتخلل الهواء الخارج منها لحظة فتح القبر، الصمت والظلام يخيمان على كل شيء، وداخل الزنزانة هنا أشبه بتلك التفاصيل مع الاختلاف، القبر الفرعوني تنتشر على جدرانه الحجرية؛ نقوش مرسومة وتواريخ لانتصارات صاحبه وما قدمه في حياته، وبجوار التابوت الحلي والأواني والطعام الذي يستخدم في الدنيا؛ زاده في رحلته الجديدة، لكن هنا تنتشر على جدران خرسانية متآكلة كشط وحفر، رسومات لأشجار وسيارات وزواحف وقلوب مختلفة، أسماء مدونة وتواريخ الدخول، القبر الفرعوني يكون ساكنه جثة واحدة ولكن هنا العشرات من الجثث، أينعم لم تكتب شهادات وفاتهم بعد، ولكن ينتظرون فقط إمضاء صغير وتُعتمد الحالة من الجهات المسئولة، فهذه دولة الأوراق والأختام.

وكم من ميت يسير بيننا وينتظر فقط إعلان الوفاة؟!

أجساد متناثرة كبقايا حرب، في باطن الغرفة المستطيلة، أشلاء، بعضهم يفترش الأرض نائمًا أو جالسًا، والبعض لم يجد مكانًا لنومه أو لجلوسه، فآثر الوقوف والاتكاء بما تَبَقى له من عزمٍ على الجدار، وهناك من لم يجد متسعًا له في الجدار فاستخدم ظهر أوٍ كتف أو صدر زميل آخر، مستنقع من العرق والرطوبة، رائحة النشادر تعتق في المكان، من أثر (كبانيه) بلدي في زاوية الغرفة، توارى خلف سطور من الطوب المفتت، قاعدته الصحية عبارة عن جردل، ممتلئ لحافته بفضلات النزلاء، خدمة فُندقية فوق الممتازة.

«خيري» مُلقى في كنفه، يجلس القرفصاء في وسط غابة من السيقان، على الأرض الإسمنتية الحمراء، ويستند بظهره ورأسه على الجدار الطوبي، لم يشمئز من ريحه أو يحاول الابتعاد عنها، ولكنه راح في ثباتٍ عميقٍ، لأن رائحته الشخصية طغت على الوضع العام بالنسبة له، جثة منتفخة مُلقاة بجوار مصرف مجارير لن تشمئز من المصرف، ذاكرته تأبى النوم، والأفكار تحوم بالآلاف في عقله، أسئلة تفقع الخيال بلا أجوبة، ماذا يفعل هنا؟ ولماذا؟ ثم اقتحم عقله السؤال الأصعب، هل يحب «مريم»؟ وهكذا هو الحب؛ زائرٌ مُتطرِفٌ غريب المواعيد، خربشت علامة الاستفهام في نفسه، فبحث بين شكائر الإجابات، ومزق مئات المسودات.

لكن! هل هو هنا بسبب «وكيل النيابة»؟! هل كل هذا لمجرد ظهوره في حياة «مريم»؟ إذن فمن يكون وراء موت «مصطفى»؟ أينعم الحادثة قضاء وقدر، ولكن كم من الحوادث كانت من صنع البشر وارتدت ثوب القضاء والقدر! إذن لمجرد ذلك الدور البسيط الذي

ظهر به في حياة «مريم» كان مصيره تلك الزنزانة، إذن فما كان مصير «فارس»؟ ما نصيبه من كحكة العقاب تلك؟ من فيهما حظه أتعس من الآخر..هو.. أم ذلك الـ «فارس»؟ استمرت عملية قص ولصق الاستفسارات في رأسه، عرف وجع الإجابة وذاق مرارة التيه، كالملحِد، الذي لن يعرف الله إلا عندما يذوق عذابه، لا يعرف لماذا تذكر في تلك اللحظة بالتحديد كلام أمه له؟:

- «خيري» أنا عارفة إن يومي قرب، خلي بالك من نفسك، لأن نفسك دي هي اللي طلعت بيها من دنيتي، هي العوض من ربنا بعد وفاة أبوك، وربنا يعلم أنا استحملت إيه عشان تاخد شهادتك الكبيرة، أنا عايزاك توصل لأعلى المراتب.

هبطَّ على رأسه الحديث الأخير لوالدته قبل وفاتها، وهو يجهل أعلى المراتب ـ التي كانت تقصدها ـ هل تتوفر منها نسخة مصرية؟! ما المانع أن يعيش الإنسان في تلك الدولة كما يريد؟ ما الدافع أن يحاول أحدهم إقصاؤه لمجرد أن بمقدرته فعل ذلك؟ ما المانع أن يرتفع سعر المواطن كما ترتفع بقية الأسعار؟ أكوننا نُحِب ونُحَب جريمة يُعاقب عليها في هذا الوطن؟! ماذا اقترفنا حتى نعيش أجمل أيام حياتنا بتلك الطريقة؟! استرسل في الاستفهام ولا يوجد إجابات محلية، استنفد المنطق وفشل في الرد على نفسه.

بعد قليل، تحرك ضابط ومعه خمسة عساكر في الممر المؤدي إلى غرفة الحجز، يقتادون أربعة شباب ضاعت بعض معالم وجوههم من أثر الدماء، رسالات الترحيب بهم ماركة صُنع في مصر، وابل من كفوف وشلاليت، وبعض المقتطفات من اللعاب المصاحب لكمية لا بأس بها

من البصق، والكثير الكثير من ذكر أمهاتهم بألفاظ تخدش الأدب العام، جرجروهم إلى رفاقهم المحشورين سلفًا في هذا القبر، كانت محطتهم السابقة غرفة التحقيق، استُخلِصت منهم معلومات تمس أمن وسلامة الوطن، وكل شيء في سبيل أمن وسلامة الوطن والمواطن يهون! وكان يصاحبهم زميلان آخران، لكن قدرهما رحم بهما؛ سيبيتان تلك الليلة في المستشفى، كدسوهم كطيات الملابس فوق بعضهم أو في بعضهم عند المدخل، عبارة عن حاوية لحم بشري تُسقط مخزونها على عتبة الباب المصفح، ولمثل هؤلاء فإن الموت هو عين الرحمة، لأنه السبيل الباقي للحرية والكرامة، فصاح أحد رواد الحجز القدامى من الداخل:

ـ دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة.

سمع الضابط ذلك الهتاف من الداخل، فأمر العساكر الغلابة بالتوقف عن أداء واجبهم الوطني في محاربة أعداء الوطن، ودخل بنفسه، يكنُس بقدميه الأجساد المهترئة مثل الخرق القديمة، وتردّد صدى صوت خطواته في هذا القبو المشوش الإضاءة، حيث يتسلل إليه النور مستحيًا من لمبة موفرة باهتة، تتراقص في مدخل الممر الموجود تحت الأرض بثلاثةِ طوابق، ثم وقف ودار حول نفسه متأملًا أكوام المعتقلين، بيت خرب لفظ أحشاءه التائكة المتفتلة، ثم قُطع صمت المقبرة عندما سحب شخيرًا عنيفًا وقال:

ـ الدكر اللي صوته خرج منه يوريني إنه شبعان لبن أمه، ويكشف لي نفسه كدا.

لم يتلقى ردًّا، ولكن قام كل المعتقلين وقوفًا وبينهم «خيري»، دار الضابط حول نفسه متأملًا الوجوه الممصوصة، أسطورة الموتى الأحياء

تتجسد لأول مرة في الواقع، وفجأة صاح كل من في الحجز: دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة.

رأوا أن معاندة الدبابير التي تُحلق فوق كتفي الضابط هي البطولة المتبقية لهم، فما المانع أن يقوموا بها، ثم صدح الضابط وسطهم:

- آه دا انتم تشكيل بقى، ماشي، يا «مصيلحييييي».

أصدر نداءه الأخير بنفس حدة الصوت، وتردد الصدى بين الجدران، حمَلت كل أرجاء العنابر النداء على «مصيلحي»، وعلى الفور ظهر وجه جديد على المشهد، دخل ثور أسود بدون قرون يرتدي بذلة صيفية لها أكمام زيتية اللون، وقف في مكان الباب المفتوح فأغلق فتحته، أدى تحية محترمة، مع صوت كانفجارِ إطار سيارة مسرعة على الطريق الدولي: أؤمر معاليك.

- في تكدير الليلة لكل اللي في العنبر دا، عايزهم يعرفوا إن دولة الظلم ساعة صحيح، بس بألف ساعة مما يعدون، فاهمني.
- عَلِم ويُنَفَذ يا «إبراهيم باشا».



رجع «فارس» إلى الشقة، لحياته الرتيبة، لجميع انكساراته وخيباته التي لم تُغادرها بعد، تنتظره في كل ركنٍ منها حزمة هواجس بُركانية التكوين، كلف «ضياء حسن» رئيس المباحث خدمة؛ من الخفراء أو المخبرين أمام باب العمارة، يأتي في الصباحِ أحدهم يجلس على كرسيه البلاستيك، ويشعل سجائره الملونة، ممسكا بكوب شايه أو قهوته من

إحدى شقق العمارة، يدور مرة أو اثنين حول نفسه في الشارع لزوم الشغل، ثم يعود إلى مكانه ويجلس ليتصفح هاتفه كالمجذوب، كل دقيقة يعلو صوت الـ «تشش تشـ» الصادر من جهاز اللاسلكي المحشور في حزامه، فيسترق السمع إلى الأوامر الميرية متبوعة بألقاب «البهوات» أصحابها.

بمرور الوقت خلا مدخل العقار من هذه الخدمة المميزة، وبالبطيء عاد كل شيء لطبيعته، حتى «فارس» نفسه؛ تابع جروح رأسه تندمل وشعره الذي يطول ليغطيها، ولحيته تزداد كثافة يومًا بعد يوم، فتُخفي أسفلها حفنة ندوب كحباتٍ العنب، منثورة في وجنتيه، كل صباح يلمح في المرآة مُشردًا مجهولًا، فيجاهد ليستوعب قسماته، أغلب الأورام والآثار ـ التي انتشرت في وجهه وصدغه وأسفل عينيه ـ بدأت في التلاشي، تَبَقى له ندبتان سمجتان كتذكارٍ مستفزٍ من الحادثة، عبارة عن خيط بادٍ يقطع منتصف حاجبه الأيمن بتعمدٍ ليستقر أسفل عينه مُباشرةً، وأسفله آخر مغروس في طرف شاربه، خطان جراحيان معدومي الشعر يتسلقان بعضهما، لكن بقيت غابة الجروح القطعية في يديه وساعده وظهره وبطنه وجوانبه، تشوهاتٌ تركت له علامات بارزة، يخفيها تحت ملابسه ويشعر بحكتها في النسيج، وانتهى برنامج العلاج الطبيعي، ورجعت حركة مفاصل وعظام أقدامه كما كانت، يشوبها عرجٌ خفيف، تَعلَّم كيف يواريه أو ينساه أو يتحامل عليه! فأفضل علاج للألم هو التجاهل، وهذا ما يتميز به «فارس».

لكن، بات الصمت والتفكير بعمقٍ كقرينٍ لا ينفك الابتعاد عنه، لازم شقته ولم يحاول أن يُصلح ما أفسده الآخرون فيها، غير

أنه مسحها أكثر من مرة، ليُزيل بقايا دمائه ودماء الكلب، هجر العالم، حدثت قشعريرة في جسد الزمن، قاد انقلابًا على شريعة البيئة والمجتمع، ذاقت أيامه طعم التكثيف فانكمشت حتى اندست في خرم إبرةٍ فجأة، فالإنسان منا لا يتغير إلا عن طريقِ حبٍ يقتحم قلبه أو كارثة تَقْلِب حياته، و»فارس» مرت عليه التجربتين، حفرتا في أرضه، فتَبَدَل من الجلدة للجلدة، اخترع أبجدية جديدة لمدينةٍ أُمية، فيها الخمر حلالٌ لمن لم يجربون خطيئة السكر بعد! كَتَبَ ذات يوم على حائط صفحته الشخصية على الـ «facebook»:

- «واعلم أن وحْدَتي هي ملاذي، فأنا مُثقَل، أُخبئُ أفكَارًا ملغومةً في جيوبِ صمتي، فلا تُفجِرها».

رسالة مسمومة طالعها «محمود»، فأخذها على نفسهِ بدون تفكير، قرأ حِبرها السري الموجود بين الحروف، ففطِن إلى مضمونها المشفر، لذلك هَاتَفَهُ، حتى يسهرا سويًا في أي مكان، فقط لكسر حدة الجمود، حُجَةٌ ساذجةٌ يسوقها دومًا عندما يُعانده صاحبه، أراد أن يستجوبه بهدوءٍ، وبعد إصرار ثقيل ـ كزنِّ ناموسةٍ في ليلٍ صيفي حارـ وافق «فارس»، فخرج وهو متململ منغص القرار:

- شوفت فيلم نهر الحب؟

قالها «فارس» وهو شارد يُتابع أضواء المدينة المتراقصة أمامه، فتنفس «محمود» الهواء وقال: أيوة طبعًا.

- الفيلم دا، بيبرر خيانة واحدة لجوزها، عشان جاب لابنهم في عيد ميلاده شطرنج وهي جابتله قطر!

هربت من «محمود» ضحكة مبتورة من أسلوب «فارس»، لأكثر من ساعة كانا صامتين يدخن كل منهما سيجارته، فوق مئذنة مسجد «عز الدين» الذي يُعاد بناؤه من جديد بالجهود الذاتية، المئذنة شاهقةٌ ولم يتم الانتهاء من تشطيبها بالكامل، اعتادا التسلل مساءً والجلسة فوقها، بين السقالات والخشب وزوايا الحديد، يلطشهم هواء ليالي الصيف المنعشة، وهم يلملمون أطراف المدينة من أضوائها المترامية التي تجرح خد الظلام، يسرح فوقهم سَحَابٌ مُدْلَهِمٌّ كشعرٍ غجري فاحم، فسحب «فارس» من سيجارته ونفخ:

- أنا باتكلم جد، فيلم «نهر الحب» دا بيجيبلي إسهال من كتر الضحك، خصوصًا و»زكي رستم» بيقول انتِ تافهة وجاهلة وأنا ما اضيعش وقتي أتكلم مع واحدة زيك، المشكلة إنك لما تكمل الفيلم تكتشف فعلًا إنه صح، وإنك عملت في نفسك اللي هو نصحك ما تعملوش، وإنك حرفيًا ضيعت وقتك معاها.

- بس دي قالت له يا سيدي انزل لمستوايا وارفعني معاك لمستواك، ثم دي «فاتن حمامة» و»عمر الشريف» يا «فارس».

- ما هو مش عشان هي «فاتن حمامة»، والزوج «زكي رستم»، وابنهم «وجدي العربي»، والعشيق دا «عمر الشريف»، يقوم الراجل يتقرطس عادي كدا، ثم الراجل ما أجرمش يعني عشان جاب لابنه شطرنج!

- بس الست قالت له طلقني يا عم وهو اللي ما وافقش، الله يحرقك أنا شوفته كذا مرة وما جاش في بالي التفسير دا.
- ولا كان هييجي في بالك إلا إذا أنا رميته كدا.
- لالا ما تمثلش، انت اللي من بعد الحادثة وانت مش «فارس» اللي أعرفه، أفكارك ونواياك وطريقتك مختلفين.
- انت مش واخد بالك إن الاتنين واحد، اللي حصل إن «فارس» القديم فتح الستارة على الجديد، وشاف في الكواليس حاجات مختلفة ودا لازم تفهمه، ويا تقبل «فارس» بالـ «Update» يا ما تقبلهوش، لأن مفيش رجوع للي فات.

تأمله «محمود» دون أن يعقب، فصديقه ينتوي كسر أبواب القدر المفروض عليه، ثم قال بعد لحظة: بمعنى؟!

جاوبه «فارس» بالسكوت، فهو الجزء الأخرس بداخل كل من يود الصراخ، يشدُّ نَفَسًا من السيجارة النائمة بين أصابعه، يحرق في جوفه آلاف المجاهيل التي تنتظره، مثل أفران الـ «Holocaust»، فالإجابة تُمثل نتائج الاضطهاد الممنهج الذي وقع عليه، ورَدُّ فعله لا يُدرِكُه شرح أو بيان، هو أكثر واقعية من خيال الألفاظ، مثل أوامر العقل الخفية لخلايا الجسد، لذا دوت صافرة الصمت بينهما، فكرر «محمود» سؤاله، يُلِحُ، كأي ثوري حقيقي، يعرف أن الأمور المبهمة هي الوجه الآخر للضياع، وما كتبه صديقه ينغز قلبه، يعرف أنه مملوء بالشروخ، لذلك قرر الالتصاق به حتى يُساعِدُ في التئامِهِ، فالانهيار يكشف من هو السنَد حقًا، راعه «فارس»:

- بُص يا صاحبي، اوعى تفكر إن البلطجية اللي عملوا فيَّ كدا كانوا لوحدهم، لأ، دول الأداة، لكن فيه اللي قرر واداهم أمر التنفيذ، وهو دا بقى اللي هيدفع التمن الأكبر، البلطجية لازم أفشخهم ومش هما بس، لأ، وكمان اللي وراهم.
- البلطجية هتفشخهم مفهوم، بس اللي وراهم هيبقوا مين؟ يا عم خاف بقى على نفسك وعلى ابنك وربيه كويس.
- انت اللي بتقول كدا! والله كله عشان «ياسين»، أبويا الغلبان دا اللي ملهوش دور يذكر قال لِّي في مرة: «مش هتعرف قيمتك عند أبوك غير لما تخلِف»، صدقني؛ بعد اللي حصل اتبدلت المعاني في حياتي، حتى كلمة الخوف دي مبقاش لها مرادف عندي، والسبب إني هاخاف من إيه أكتر من اللي حصل؟! وإذا أنا ما أخدتش حقي يبقى الخوف انتصر، ما خلنيش أعمل من ابني راجل يعرف يعيش بكرامته في البلد دي، ما هو ازاي هاعلمه يبقى راجل وأنا مش عارف أبقى له الراجل اللي يفتخر بيه! صدقني لو ما أخدتش حقي مش هاعرف أبُص في وش ابني.

انكتم «محمود»، يعرف أن صديقه يفيض بالتناقضات، يبحثُ عن السَكِينَةٍ الروحية، الهدوء، لكن كيف يجد السلام والضجيج ينبع من أعماقِ أعماقه؟! صراخ وعويل يأمره بالتفتيش عن القصاص، وانتزاعه، يفهم حقيقته بغض النظر عن تصرفاته الطائشة، قال: يا «فارس»،

احنا عايشين في مصر، ودي حالة مَرَضية ميؤوس منها ومالهاش علاج، وطالما مش هنقدر نعيش في بلد تانية يبقى ننفض للي انت بتقوله دا، الله هو مش «مصطفى كامل» قال: «لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا».

- على فكرة، احنا مش لازم ناخد على كلام الراجل دا بالمناسبة.
- ليه بقى؟!
- «مصطفى كامل» مات وهو عنده ٣٤ سنة، عاش منهم ١٥ سنة في فرنسا، يعني ما يعرفش مصر أصلًا.

قهقه «محمود»، وهو يتجه إلى الحافة ليُلقي فلتر سيجارته في الهواء، يمضُغ توجساته المتمردة بتؤودةٍ، ولكنه يُجاري صديقه فيما يقول، ومن خلفه مصمص «فارس» شفتيه وقال: اسكت يا «شبانة» الله يسترك، دا فيه بلاد جنبنا عملت وزارة للسعادة.

بدأ «فارس» بخلط الهزل بالجد، يأسف على حالهِ بدون ذكر نفسه، فبداخله حالةٌ من خراب النفس، تتمزق روحه بين آلاف الأنصال، مثل قطعة اللحم عندما تدخل المسلخ، فالتفت له «محمود» مُقهقهًا قبل أن يقول: ومين قال اننا معندناش النوع دا من الوزارات، لأ يا أبو لسان طويل احنا وبلا فخر كل وزرائنا تخصص سعادة.

نظر إليه «فارس» وهو عاقدًا حاجبيه يستشف مقصده، ففهمه «محمود» وتابع بتلقائيةٍ: هو مش كل وزير عندنا بنقوله سعادة البيه الوزير، ما احنا عندنا نفس التخصص أهو، ولا بتاع برا حلو بس!

ضحك «محمود» ولكن الدُعابة لم تضحك «فارس» الذي ظَلَّ جامدًا، وكأنما كل مسببات البهجة لا ترتقي لمستوى حزنه، يبحث عن عدلٍ وهو نفسه ليس بعادلٍ، ينهض بأيامه متثاقِلًا ويسير نحو الهلاك، تدور في رأسه أطياف الماضي بِكُل شطحاته، والنتيجة، ها هو يقعُد مثل اللقيط، لا يملك من دُنياه إلا لحظته الحالية، لم يستفد شيئًا من كل اقتتاله الماضي، فلِمَا كانت كل هذه الضراوة والشناعة كي يقتنص غرامياته؟! وحماسته السالفة تهزم نفسها بنفسها الآن، مثل أي حيوان لا يعرف عن الحياة إلا شهوته، ولكنه بعد كل ما حدث يُحاكم ذاته، ويَجْلِدَها، قصف «محمود» صوت ضحكته، واقترب منه ليجلس، تمرح في باله ما كتبه على الموقع الأزرق، وكل كلماتهما الليلة تؤكد أن «فارس» على وشك الانفجار، في داخله انفعال وحشي يهرس وجدانه، لذلك قال بجدية:

- كل اللي باتكلم عنه إنك تهدا وترتب أولوياتك.
- أولوياتي أنا عارفها يا «محمود»، وبالمناسبة مش عايزك تكون جانبي وأنا بانفذها، ودا لمصلحتك.
- انت مفكر اني هاكون نتن وأسيبك تروح في داهية لوحدك، والله الداهية اللي تلمك لازم أكون معاك فيها..

ليس هناك تبريرٌ بين الأصدقاء، فهم لا يفتشون في النوايا، لأنهم ببساطة يعرفون بعضهم، ويلتمسون الحقيقة فيما بينهم، ابتسم «فارس» ثم ارتفع ضحكه ممتنًا للقدر على هديةٍ في شكلِ خِلٍ وفي، وتعانقت أكفهما بحرارةٍ، قطع ذلك المرح اتصال هاتفي جاء إلى «فارس»، ظهر على الشاشة رقم «عبير» وملامحها، تَوَهَجَ لونه، فهي أنثى تضيء القلب،

ويتغير معها اتجاه العمر، في كل مرة تظهر تجوع الأحداث لها، يحبها، امرأةٌ ترفرف في روحه كأجنحة الطواحين، تسافر في صدره كما تسافر الشمس خلف الغمام، امرأةٌ صُنعت من ضلع آخر من ضلوع آدم، لذلك أشار لـ»محمود» بالصمت، فغمزه الأخير وهو يُقلد طريقته في الرد متهكمًا:

- أيوة يا حبيبتي.
- «فارس» فيه مصيبة لازم تعرفها!
- مصيبة إيه يا «عبير»؟!



دخلت تتأمل المكان كقطةٍ عادت لتوها إلى بيت سيدها، تموءُ بهدوءٍ، تبحث عن ذاتها بين الرفوف، تتأمل ملامحها المعكوسة خلف الزجاج، وقفت «مريم» بين زحام اللمسات الأخيرة في ديكور الصيدلية، شريك فكرتها غائب، وهي تحمل بجوار رئتيها قلبه، جاءت بعد مدة من الانعزال تتابع كل شيء عن قرب وترقب، اختارت أن تعيش، عملية الاختيار في حد ذاتها مرعبة، فما الحال لو كان الاختيار بين حياتين! كانت تؤجل تلك الخطوة بدون «خيري»؛ بل تخشاها كما يخشَّى المتهم البريء قرار القاضي.

- يا اسطى ما ينفعش المواعيد دي، لو سمحـ...

خرج النداء من شفتي «عبير» وهي تخرج من باب المعمل، فشاهدت «مريم» تتابع آخر التفاصيل في عملها فتوجهت إليها وعلى شفتيها ابتسامة تحتل ملامحها، لقاء السحاب، عندما ينبغي للشمس أن

تُدرك القمر، لو أن عبق حقول الورد يرسم فيُشَاهَد، لكن الوضع أكبر من قدرةِ الأرضِ المحدودة بحكم قوانين مواسم الزرع، أو الغيث، أو حتى تزاوج الطيور ورحلاتها، هذه أبدية الدستور الرباني، أما هنا فقد تم استنساخ الطبيعةِ من جديدٍ، لكن بشكلٍ أكمل وأوسع وأشمل، بطريقةٍ لا يمكن أن يحتمل الكون روعتها.

يكفي أن يُغلِق المرء أهدابه ويشاهد هذا العناق، يندفع في المروج الخُضر ويستنشق رائحة العشب، يسمع وشوشة السقاية، يغمس أنفه في عبقِ الزهرِ المُبلل بحباتِ الندى، تُحيطه شقشقة العصافير فوق الينابيع، يُطفئ الأضواء ويُسدل الستائر فيتحول مخدعه إلى مزارع حبق، يجلس خلف المواقد في الشتاء وينعم بنسيم الربيع، يشرب القهوة وهو يتنقل بين السياج والحقل والبحر والسماء، يسجد فوق سقف غرفته النهار، ويرشرش فوق جدرانها الليل، يَدُسُ كيانه في هذه الكتلة المركزة من الصورِ، فتسرح في جلدهِ قشعريرةٍ سمحة، ويعيش نفس الحالة القريرة لرواد الـ «Mall»؛ الذين تأملوا أنوار برج إيفل وهم يستجمون في جزر المالديف.

ـ ازيك يا دكتورة، حمد الله على السلامة، وصلتِ إمتى؟

قالت «عبير» جملتها وهي تصافح «مريم» التي عقبت: لسة حالًا، إيه الشغل الروعة دا يا باش مهندسة، الصراحة أنا مش مصدقة.

ـ دا أقل حاجة عندي يا دكتـ....

ـ مبروك يا «مريم» والله أنا فرحت لما وصلني خبر الصيدلية.

بترت «عبير» كلماتها، وهي على وشك البدء في شرح الديكور، بينما التفتت «مريم» مصعوقةً بعد أن مَيَّزَتْ صوت «صبري»، كَذَّبَتْ نفسها، قبل أن تواجه صاحبه، وبحدقتين زائغتين ـ حاولت جاهدةً أن تبقيهما ثابتتين ـ نظرت إليه، وَقَفَتْ أمام قاتلها كالمذبوحةِ تَذود عن دمها، بداخلها ألف ألف ثورة تلعن جنابه، ولا يَهمها أن تدفع الثمن، تهرب من فخاخه وخوازيقه المبعثرة بسخاءٍ في حياتها، ولكنه كمدينة الحزن التي ليس منها مفر، جاءها، رغم أنه يدهس كرامته بحذاءِ سُلطته، فإنه لا يرى غيرها، هي مثل السفينة التائهة في ماء عينيه، أتاها يحمل وروداً منزوعة الرحيق مغلفةً بالتهديد، فقد سُدَّت كل الطُرق في وجهه، ولكنه ها هو يخطو نحوها؛ يُقدِم موته وموت جميع الخلائق، فقط لأجل الحصول عليها، تنحنحت وقالت:

ـ انت بتعمل إيه هنا؟! اتفضل اطلع برا قبل ما أطلبلك الأمن.

تجاهل «صبري» إشارتها للخارج، وأكمل خطواته، إقطاعي يسير بزهوٍ وسط ضيعته: الصراحة شغل جميل، زيك يا هندسة.

احمر وجه «عبير» أمام نظرة ذلك النطع الذي يتفحصها، يختلس النظر لشكل رقبتها وصدرها الشامخ، ويتأملها من كعب قدمها المزين بخلخالٍ ذهبي حتى خصلاتها الحمراء والذهبية المارقة من حجابها: أستأذنك يا دكتورة هاروح أكمل شغلي.

قالت جملتها وهي تنظر بطرف عينيها في امتعاضٍ لكمية الشحم المترهلة من «صبري»، انسحبت وهي تملأ صدرها بهواءٍ نقيٍ، يكرر صفو رئتيها الذي تعكر برائحته، و»مريم» تتباعها بنظرها حتى غابت

في داخل غرفة المعمل: انت مش هتيأس، جاي هنا ليه؟! بتتصل وما بيتردش عليك، ومعمولك «Block» من حياتي كلها، خلي عندك دم وحس بقى، إيه! الجواز مش بالعافية.

نظرت باحتقار لـ»صبري» وهو يتابع مؤخرة «عبير» وتناسق حركتها، ويتمتم: الاهتمام بالمؤخرة يضعك في المقدمة.

ثم اقترب من «مريم» وغمزها متابعًا: أخبار دكتور «خيري» إيه؟ مش تسألي عن سر اختفائه كدا، علّ المانع خير كفى الله الشر؟!

ـ هييجي منين الخير وانت وأمثالك معانا في نفس البلد.

ـ البلد دي بتاعتنا يا دكتورة.

ـ لا انسى، لكل ظالم يوم.

ـ كلام روايات، ما تحاوليش ترددبه؛ لأن أصحابه مش مصدقينه.

ـ وأنا مش من أصحابه، ولكن فعلًا ليك انت واللي زيك يوم.

ـ ماشي، ع العموم «خيري» ذنبه في رقبتك، بس تقدري تلحقيه لو سيبتك من الجنان اللي انتِ عايشة فيه دا، كل اللي بيقرب لك نهايته على إيدي، كفاية الل حصل لـ «فارس» حبيب القلب.

كلماته ارتجفت على أذنِ «مريم» كقرعٍ على مفصلات باب حديدي صدئ، تصرصر بإيقاعِ أزيزي، اقشعر جسدها وكل شعرة فيها انتصبت تتمايل تصفيقًا، دخلتْ حروفه تخربش في مسام جلدها، تنقر في أعصابها، سَرَحَت في جوفها كالحريق يشوي حطب أحشائها، العبارة

انطلقت مدببة الرأس كرُمح ينخر في عظامها، تجتس أوردتها، وصوته يعوي في رأسها فيرجرج طبقات رأسها.

قبلها بدقيقة كانت «عبير» تحاول الاتصال بـ «فارس» في الداخل، لكن شبكة المحمول ـأسقطها الله ولعن تغطيتهاـ كعادة مقالبها السخيفة، حاولت مرارًا وتكرارًا والنتيجة واحدة «Call Error»، فقررت الخروج، لذلك تحركت ممسكةً بهاتفها ومرت بجوار «مريم» و»صبري» محاذيةً لهما، أمام باب الصيدلية من الداخل، فسمعت تفاصيل جملة «صبري» الأخيرة، فتوقفت في بلاهةٍ أمامهما، كعربةٍ نفد وقودها، فتحت شفتيها، وعينيها زادت مسافة قطريها، وحَدَّقَتْ في «صبري» و»مريم» بذهولٍ، المعنى الحرفي لـ»الدنيا ضيقة»، تجمدت بلا إرادية، وسقط الهاتف بسذاجة من يدها، كأن أصابعها مخلية العظام، والاتصال يتم بالفعل بـ «فارس»، الذي يظهر اسمه واضحًا في جهة الاتصال على شاشة الهاتف مُرفقًا بصورته، في حين أسرع «صبري» في التقاط الهاتف من على الأرض.

قَطَعَ ضابط التحقيقات في السجن المسافة إلى العيادة بخطواتٍ وقعها منتظم، الطرقة ممتدة مفروشة بالبلاط الأبيض المغبر، يتحرك تحت الإضاءات المتسربة من اللمبات الصفراء المعلقة في السقف العالي، يتراقص ظِله على الجدران الضخمة، المصمتة، الطويلة، والسياج الحديدية في أعلاها، حجارة بيضاء خشنة متعرجة تملأ فراغاتها الحشوات الإسمنتية، ومثبتٌ في أركانها كاميرات المراقبة، تُتابع كل

شبر، تعلوها الأبراج، يعبر الأبواب الموصدة على الجانبين حتى دخل عنبر متهالك، أدار وجهه فيه يُعاينه ويستقصيه.

«خيري» المسجي على مرتبةٍ مهترئةٍ، مكبل من قدمهِ اليمنى؛ في سور السرير الحديدي الصدئ، نظر مليًا إلى الشبابيك وتحسس قضبانها في حركة روتينية، لم يسترعِ انتباهه ما حل بـ «خيري»، تفاداه وهو يتمدد إلى يساره، فقد معالم الحياة، يرتبط بخرطوم مجدول؛ يسحب أنفاسًا متكاسلةً على جهاز التنفس الصناعي المتصل به، رأسه تحت كومة شاش مشبع دمًا، والكدمات التي تسابقت لحجز مكان لها في تفاصيل وجهه، قدمه اليسرى مكفنة تحت جبيرة من الجبس الطبي الأبيض، يده اليمنى احتلتها قبيلة من اللصقات الطبية، حولها بعض خيوط متعرجة فوق جروح غائرة، ويده اليسرى المتصلة بالمحاليل في وريد ذابل محبوس تحت دوبار.

ـ مساء الخير يا «إبراهيم بيه».

أتاه صوت الطبيب، وهو يدلف من الباب ـ الذي تساقط طلاؤه ـ في العيادة مرحبًا بالضابط، في حين تابع الأخير فحص محتويات الغرفة، تحسس الجدران الرطبة بيديه، وتمشى فوق البلاط المصْفَر للأرضية وأزاح كُرسيًا أكتعًا من طريقه، وغسل يديه من التراب الذي علق بها من الجدار؛ تحت صنبور يصُب ماؤه في حوض متآكل، ثم قال وهو يُفتش الأدوات الموجودة في الدولاب الصاج:

ـ إيه الدلع دا كله يا دكتور؟ دا انتم عايشين في بزخ.

ـ بزخ إيه اللي حضرتك بتتكلم عنه؟!

ـ بزخ إيه؟!

أعاد الضابط السؤال بتعجبٍ، واستدار عاقدًا حاجبيه وهو يشير إلى الغرفة وتابع: إيه يا دكتور انت مش شايف، دي خدمة خمس نجوم اللي بتقدمها هنا للنزلا.

عقد الطبيب يديه أمام صدره، بعد أن أفرغ حمولة حقيبته على منضدة مقابلة لسرير «خيري»، تمثلت في صور لأشعة مقطعية على المخ، وأشعات مختلفة للهيكل العظمي وبعض التحاليل وقال: خدمة إيه! اللي حضرتك شايفه دا أقل شيء ممكن نقدمه.

توقف «إبراهيم»، واستدار ليواجه الطبيب، يفصل بينهما سرير «خيري»: أقل شيء! ما خير ربنا كتير أهو، أصل انت خَوَّتِنا بتقارير واستغاثات عن تردي الخدمة الصحية، وإنك مش قادر تقدم رسالتك، وكلام طبي كبير كدا صعب الفهم.

ابتسم الطبيب باستهزاء: والله مش ذنبي إن سيادتك فهمك قليل في الطب.

لم يقُل له بأنه غبي، ولكن «الضابط» فهم السُبة النائمة بين الكلمات، فاحتقن وجهه ولَفَّ حول السرير المُخلخل، لناحية الطبيب، بملامح تكسوها الصرامة والغضب، جعل الطبيب يرجع للخلف ويصطدم بالمنضدة، التي مالت وبعثرت كل الأشعات والتحاليل، جلجل صوت الحركة في فراغ العنبر، لم يهتم «الضابط» بالصخب وقال: بُص يا دكتور، أنا ما أفهمش في الطب بس بافهم كويس في حماية البلد، وعارف ان زباينك هنا دول ناس ملهمش أي حقوق، واللي انت بتعمله لهم دا جِمِيل من البلد دي.

- جِمِيل من البلد إننا نديهم الفرصة في الحياة؟!

قالها الطبيب بدهشةٍ وهو يلملم ما بُعثِرَ و»إبراهيم» يُعقِب: إذا كانوا ما ادوش الفرصة لباقي الشعب في الحياة؛ عايزنا نديهالهم!

أَمْسَكَ الطبيب بالأشعات والتقارير وقال: والله مش أنا ولا انت اللي نحاسبهم، فيه قضاء مسؤول عن كدا.

- يا عم انت افهم بقى، القضاء دا متكتف بقوانين، لو بإيديه كان أعطى للجميع إعدام.
- والله الكلام اللي حضرتك بتقوله دا ما لهوش أساس، لأنك هنا المفروض جهة تحقيق لا أكتر ولا أقل، ولكن قُل ليَّ؛ إيه هي نوعية التحقيق اللي تخلي واحد في الحالة دي؟!

قال الطبيب جملته وأزاح الضابط من أمامه، ثم أشار له على «خيري»، قبل أن يلتفت إليه مرة أخرى: على فكرة، الخدمة اللي انت مستكترها دي مش مكفية، ولازم الراجل دا يروح مستشفى وإلا هيموت، وأنا هارفع تقرير بالكلام دا.

- ..!!
- كمان هارفق معاه الأشعات والتحاليل دي، تعرف يا حضرة الظابط بتقول إيه، ولا بلاش ما كدا كدا سيادتك ملكش في الطب، ولا حياة الناس تفرق معاك، اللي يفرق معاك هو الأمن والأمان وبس.
- أكيد طبعًا اللي يفرق معايا هو الأمن والأمان وبس.

- يا حضرة الظابط، الأمن والأمان اللي ما يبقاش في صالح حياة الناس، ولا يحمي حريتهم، عمره ما يتسمى أمن ولا أمان!
- هاقولك إيه يا دكتور؛ ما انت مش شايل روحك على كفك وماشي بيها عشان تفهم كلامي.

هي نفس الحُجة المستهلكة لتبرير أي تجاوز، مفرداتٌ جوفاءٌ مثل كوب الماء المثقوب، ليس لها أي قيمة إلا عند من يقولها ومن يؤيدها، تبرأ منها المِلَّةُ وبرفضها الوطن، مُفرِطةٌ في سذاجتها بلا منطِق يُدعمها، رديئة الأخلاق رغم الترويج المكثف لها، أُرهِقَت من كثرةِ اللجوء إليها، وهذا التبذير في استخدامها أفقدها الصدق إن وُجِد أصلًا! فهي مُراهنةٌ خاسرةٌ للطرف الذي يلتجئ إليها، لذلك ابتسم الطبيب باستخفافٍ، وهو رد الفعل الذي لم يكن ينتظره الضابط، فقد اعتاد دومًا على التصفيق المذيِل لتلك العبارة، وهذا ما جعله يقف كنسرٍ مُنتفِ الريش، عاري، لا تستره بذلته بعدما انكشف عقله، موقفٌ لم يخطر على باله، فقد جاء يملأ جيوب ألفاظه بكلماتٍ أيقن تأثيرها، حتى صَدَّقه، فتخيل أنها تحمل حجم انفعاله وتُغطي مساحة فِعْله، مثل الرداء الذي لا ينفصل فيه اللابس عن الملبوس، وها هو يرى حقيقته المسرحية في عيني الطبيب، خاصةً بعدما قال له:

- صحيح أنا مش شايل روحي على كفي يا فندم، ولكن شايل أرواح الناس، بالمناسبة يا حضرت الظابط المفروض انت كمان تكون شايل أرواح الناس؛ مش روحك لوحدها، هو دا المطلب الوحيد لوظيفتك.

- يظهر إني ضيعت وقتي بالكلام معاك.

لم يكن مناظِرًا ماهرًا كباقي أرباب عمله، فقرر وضع كلمة النهاية للمناقشة، قبل انكماش حجمه أكثر، تقهقر «الضابط إبراهيم» وتحرك ناحية الباب، وقبل الخروج سمع الطبيب: الوقت اللي ضاع كان وقتي أنا، ووقت الراجل اللي مرمي على السرير دا.

فهز الضابط رأسه وقال: ليك تقرير هترفعه، وهيبقى ليَّ تعقيب عند سؤالي، والباقي فيه جهات أعلى هتاخد قراره ودا اللي بيننا.

- عمر ما كان بيننا شيء، شرفت يا حضرة الظابط.

قالها الطبيب وألقى الأشعات والتحاليل على المنضدة بعصبية، بينما استوقفت «إبراهيم» الجملة الأخيرة، فاستدار بعينين حمراوين يرمق الطبيب، اقترب منه وربت على كتفه مرتين، ارتعد الطبيب من الرسالة المشفرة التي يُرسلها الضابط، فهو يعرف أن «إبراهيم» لا يقبل أبدًا بالتقليل منه، ولكن شرف مهنته وأمانته وضعهما فوق كل اعتبار، فتماسك، وتابع الضابط الذي أعاد أدراجه خارجًا من العنبر دون تعقيب، يضبط ربطة عنقه التي انفلتت ويمسح حبات العرق المتدحرجة فوق جبينه، ثائر الأفكار من هذه المواجهة التي تعثر فيها، ينقر الأرض بحذائه، يُخرج غيظه المكتوم من داخلهِ، وقبل الخروج سمع صوت الطبيب يصدح فيه حتى يسمعه:

- الراجل دا لازمله عناية أكبر، وإلا هيموت.



10

اتصلت «عبير»، انقضى وقتٌ لم يشعر به وهي تتكلم، خمش حوارها في أعصابه، قَصَّتْ عليه الصدفة التي جمعتها مع «مريم» في ديكور صيدليتها، حبكة قدرية لروايته معهما، ثم موقفها وسقوط الهاتف، حالة التيه التي عاشتها بين «مريم» و»صبري»؛ الذي يُحدثها لتعتَبِر مما حدث لـ»فارس»، ربطها للتفاصيل، ثم أعادت كلماته على مسامع «فارس» كما سمعتها بالحرف، حشرت الأحداث الجديدة في عقله، أكدت مخاوفه بأن ذلك الـ «باشا» وراء حادثته، هو من دق الخازوق أسفله، نكشت أكوام هواجسه اليابسة، كان ينتظر الفخ الذي يُعِده له، ولكنه وقع فيه بشكلٍ لم يتخيله، رمت حجرًا في أفكاره يتفتت، قالت وهي تغلق الخط:

ـ الدنيا ضيقة أوي يا «فارس»، أنا بحبك.

صَدَقَتْ «عبير»، آخر كلماتها انتشلته من الموت البطيء الذي يتمرغ فيه، احتضن قلبه كل أعضائه وأقام حلقة زار بداخلهِ، فليس من وظيفة الحب أن يشرح ويُدَقِق في كل شيء، فالوصف المستفيض يقتل

الجميع، وهي وظيفة الجرائد السخيفة، لذلك سمع ما لم تقله «عبير»، عرف ما يخبئه القدر في طيات مُصيبته، ولذلك، فإن «عبير» تعرف كيف تتعامل معه كلعبة الإشارات الضوئية، بدون استنزاف في القول أو الفعل، حَكَتْ له وتركته يعثر بنفسه على الحلقات المفقودة في الأمر، بدونِ أن تجلس على قلبه وتُنهِك باله بمُجاراتها، اختصرت، بلا كلماتٍ ببغاوية تُدخلهما في حارةٍ نقاشيةٍ مسدودة، سَرَحَ، ثم تجهم وجهه وهو يتأمل المدينة التي تخفت إضاءاتها، فَزَّ من مكانه ملسوعًا، وانتصب والنسيم يُداعب ملابسه، ودبيب نمل يستعمر لحيته الكثه فحرثها بأظافره، وبقيَّ كالمجذوب التائه يدُور حول نفسه، لمعت عيناه وهي تمسح ملاءة النجوم في السماءِ، ثم استعجل الرحيل، فقال «محمود»:

ـ التليفون اللي جالك دا قلب حالك أكتر ما هو مقلوب أصلًا، ثم مصيبة إيه اللي بتتكلم عنها يا «فارس»؟!

ـ فيه أوقات لازم تاخد قرار صعب عليك، لأنك لو ما أخدتوش هتاخده!

ـ ..!!!

ـ عشان تصدقني يا «محمود» لما قُلت ليك إن فيه كلب مسعور هو اللي ورا البلطجية، سلام..

ألقى «فارس» بعبارته كالقنبلة في وجه «محمود»، ثم تعلق بالسقالات الخشبية نزولًا، قِردٌ أمسك في زوايا الحديد إلى السلالم الخشبية في الأركان، تحرك عليها كالبهلوان، شبحٌ يقطع سواد الليل حتى وصل إلى القِببِ ذات الأهلة، لف حولها فوق صحن المسجد وهو متشبث في زخارفها ونقوشها الإسلامية، احتكت يداه في الحروف

النحاسية للآية القرآنية «قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا»، فلمح نحاسها يلمع وسط عتمة الليل، استوقفته، أحس بوخز الصدفة في عروقه، استفتى قلبه فأفتاه بأنها رسالة كتبت إليه في ألواح القدر، الله يجبر بخاطره، ويوليه القِبلَة التي يرضاها لنفسه، خرج من حديث نفسه وهو فوق السور الخرساني للحائط الأمامي، فقفز على الأرض الرخامية ثم تسلق الباب الحديدي ومنه إلى الشارع.

تمشى بين الناس والمحال التجارية، يزدحم جوفه بالغصات، مجذوبٌ يتحسس جدران البيوت، ينسحق كصاعقةٍ فوق طلائها الباهِت، مصابيح السيارات تؤرق عينيه، يتحرك في وسط نسمات صيفية وبداخله حرارة الأدغال، وتنقر أفكاره في جسده كوحشٍ يدهس الأحراش، همهمات الطريق يحُسها كلسعةِ الشرر، سقطت نجوم السماء تحترق في دمائه، شطب على دورة الدقائق، وتوقفت أمامه عقارب الساعات، وفوق الأرصفة مَرَّ يَكنُس الأوراق الجافة بحذائِه، صوت تكسيرها تحت وقع خطواته المتثاقلة يُشعره براحة مؤقتة، تسرب الزمن وهو معجون بالكبريت، تتساقط خواطره، تدغدغه، كما الصدغ إذ يستقبلُ الكَفَّ، خاصم النوم أجفانه، حفرت أقدامه في ملامح الشوارع، حرب تدور رحاها في داخله، يهيم مُعلِقًا بصره في حركة السحاب، فجأة وجد ساقه اهتدت لطريقٍ وسط الظلام، وأخيرًا لاحت أمامه العمارة التي تسكن فيها شقته، عَرِف قِبلَته، دلف وهو يتخبط في نفسه، أمسك الدرابزين يسحب جسده سحبًا فوق الدرجات، حتى دخل الشقه فتوقف لما وجد «محمود» ينتظره:

ـ انت كنت فين طول الليل؟! كلمتك كتير جدًا على تليفونك.

لم يُعقب «فارس» على كلماته، فقط أغلق الباب وخلع قميصه وطوَّحهُ على الأرض وتأمل هاتفه بلا مبالاة، سبعة وثمانون مكالمة لم يتم الرد عليها، انسلخت الساعات الفائتة من عمره بدون أن يشعر، اللعنة على الخراب الذي عشعش بداخلهِ، تجنب النظر في وجه صديقه وتسحب إلى دورة المياه وهو يفك حزام بنطاله، حالة من الخرس أصابت «محمود» فترك نفسه يغطس بين عظام الأريكة المنبوشة؛ بينما غطس «فارس» في مياه حوض استحمامه الساخنة، صوت المياه المندفعة نحو أذنيه مادة عازلة عن الكون، بأصابعه حفر فروة رأسه التي تكاثرت فيها الندوب، نكشها، استرخت مفاصله وسط البلل، تتراقص رسومات السيراميك من أسفل المياه، مثلما تتراقص الخيالات في بال المجاذيبِ، ثم انطفأت الصورة في عينيه بغتة، سقط إدراكه تحت سنابك النوم.

وهذه إحدى الليالي التي فَتش فيها عما يُسنِده فلم يجد!

حين أفاق كانت الشمس تتعمد إغاظته، تتسلل من الزجاج بسماجةٍ وتركت كل شيء ولم تتعلق إلا بوجهه، اعتدل جالسًا نصف جلسة في مكانه، عندما سمع صوت طرقات في الشارع وصياح: «أنا بيييييييييب»، ظَلَّ قليلًا على وضعه يُحاول استيعاب من هو «بيب» الذي يُعرِف الناس بنفسه؟! زاد الطَرق باستفزازٍ هيج هواجسه الثائرة، فقام يسب ويلعن للأنابيب وللبائع ولكل مصادر الطاقة، خرج يتحسس الأرض بجلدٍ بَوَّشَتهُ المياه، تائهٌ، وهو يُنادي على صديقه، فأجابه الصدى، «محمود» كما حضر انصرف، لم يجد منشفة، فجرجر نفسه

عاريًا؛ يسقي السيراميك ماءً حتى جحر نومه، التلفاز مفتوح منذ أيام على قناة «National Geographic»، فيها نمر ينقض على حمارٍ وحشي، فأولاه ظهره وتابع عُريه في المرآة، غريقٌ مقتولٌ طَفَت جُثته فوق الماء.

رجلٌ حُفِرَتْ في جسدهِ نقوشٍ بكلِ توحشِ التترِ.

في الحجرة وقف يتأمل جسده في لحم المرايا الممزق، مأساة أسطورية لم تُدوّن على جدران المعابد، ولمَ تُدرس في الكتاتيب، لمح بين شظايا الخشب ما حدث له، ومدَّ أنامله المرتعشة وتحسس بصمات «أنوس» فوق جروحه، نصل مطواته وهو يتمشى بحُريةٍ بين مسامِهِ، خطوط سكة حديد مرتعشة متداخلة بارزة فوق سطحِ جلده، عُوده ناشف مكسو بعضلاتِ الشقاء، فهو الابن المجهول للتاريخ الذي ترك في جيناتهِ خرائبه، يواجه كسادًا شاهقًا؛ في أيامِ تتفنن في مُبالغةِ أزمته الذاتية، ضحية مُجتمع قد تَوَحَشَ، وليس هناكَ سبيل إلا الثورة، الانفجار، أشعل سيجارة وعاين الانعكاس الغريب في مرآته، هو لا يعرف القتيل المعكوسة صورته أمامه! ميتٌ يسحب النيكوتين وينفخه، شجرة صمغ نبتت أمام الشروخ الممتدة في جوفهِ، ولكن، بين أعمدة الدخان وقطرات الماء المتساقط جاءته الفكرة المتهورة، قفزت في عقله طائشة عنيفة، لم يحسبها، لكنها توسطت ناصية الأفعال وقاتلت ببسالةٍ، وفي ثوانٍ بدأ في تنفيذها بدونِ تخطيطٍ، فلا يفلُ الجنون إلا الجنون، نسج قراره بسرعةٍ، فقط أطفأ السيجارة وحرك شفتيه المتشققتين:

ـ ليه لأ؟! هاروح «الوراق»، وأخلص الموضوع اللي هناك الأول، وبعدين أشوف موضوع «صبري»، إن كان ليَّ عمر!

ارتدى «Sweatshirt» على بللهِ، ودس رأسه في غطائه، وسحب بنطال وهو يركب حذاءه الـ «CONVERESE»، تمشى في شارعه دون التفاتٍ، كأن النداهة تُناديه فلا يهتم بغيرها، دهس الطريق بِعُجالةٍ، حتى وجد نفسه محشورًا في عربة الأجرة، ثائر الدماء، مغتاظ، ففي أركان حياته يرى حطامًا لا يُحتمل، هذا ميراث «يسرا» الذي تَفَتَّتَ! ولهذا تعددت لديه الأسباب، ذرائع كثيرة، تدفعه بِغِلٍ للاصطدام بالحائطِ الذي تجنبه، كأنه اعوَّز لما يكسر رتابة الحياة، فهل ينتوي الثأر لنفسه أم لها؟! وهل ما يشعر به حقيقيًا أم ادعاءً؟! فكل الدروب أمامه مسدودةٌ، تُحرضهُ على أن يكون فارسٌ حقًا، فليكن، سيخوض الاختبار، وقد يكون الضحية والجاني، البطل والمجرم، لا يهم، فقد اعتاد دومًا على النقائض، وها هو الآن يلمس دِبلة زواجه كل هنيهة مُتمتمًا:

ـ سأهدم الكون من أجلِ ذكراكِ يا «يسرا».



وسطِ ظلامٍ دامس اضجع «أنوس»، على كنبته المهتوك عرضها في وكرهِ، تتسللً خيوط نور من التلفازِ الأخرس المفتوح؛ الذي يرقد في مواجهته، يعرِض جاموسة عُشر ترفس في إحدى قنوات الرقص، إلى يساره ارتكنت منضدة مقصوفة الأطراف، استراحت عليها صدفة كبيرة مستعملة كمطفأة سجائر مفخخة بفلاتر كرتونية، بقايا سيلوفان وورق بفرة مختلف، كرتون مستخدم «كرتلة» ملفوف وجاهز، تتصاعد أعمدة دخان من موقدٍ لا يخمد حريقه أبدًا، يستلقي حافي القدمين يرتدي عباءة مغربية، يتحاشى التصاق الضوء به كالمستذئب الأصيل، دخل

عليه «جوافة الأعور»، ساعده العملاق، خَبط الحائط بيده كمن يختبر صلابته، واقترب قائلًا:

ـ جاي معانا الصالة يا كبير؟

خرج صوت «أنوس» متحشرج كصوتٍ جرار حرث يُقاوم الغرس: روعوا انتو، الدغنة الجديدة دي هدت عيلي.

ـ بكيفك يا كبير، ريح انت واحنا هننزل نخلص المصلحة..

ـ «جواڤة» زيب «عدوتة» في الزالة.

هز رأسه مصدقًا على الأمر بالسمع والطاعة: حصل يا كبير «حدوتة» هناك بيلعب بلياردو، ومستني الناس توصل وهيكملنا.

ثم تنحنح وانحنى ليقترب منه: إإإيييه، كنت باستسمحك في مشوار كدا ع السخان، وبعدين هنروحله على الصالة.

هز رأسه إيجابًا صامتًا، انصرف، في نفس الوقت وصل «فارس» إلى «الوراق»، ركب «توكتوك» يرتجف فوق المطبات، ونزل شارع «الجيش»، مَرَّ بمحاذاةِ «جوافة» ولم يتعارفا، اعتصر ذهنه حتى يتذكر كل التفاصيل الخاصة بـ «أنوس»، بالكاد تذكر اسم الحي الموجود تحت نفوذه، تحرك وهو يربط الخيوط عما سيفعله، شتات الأفكار يجتاح رأسه، لكنه استقر على أن يذهب إلى المكان المتواجد فيه «أنوس» وليكن ما يكون، يسير تحت غطاء رأسه ويتسلل شعره من أسفله، منكوشٌ كورقِ الشجر في موسم الخريف، تُطِلُ لحيته، كثيفة، تغطي ما يظهر من ملامحه، رجل كهف مُحترم، وقف على ناصية بجوار خزانة أحدهم، زوايا تَكِنُّ الشياطين فيها، يُدخن سيجارته ويلمح بطرف عينه تحديق الواقفين على طول الزقاق بجواره، ارتكن على الحائط

فوجد طفل يجري أمامه، حافي، بصدرٍ عاري، رأسه «Zero»، وجهه مترب وبقايا ريالة تحت شفته وبربور ناشف، أوقفه «فارس»، وبين اعتراضه ورفسه:

- تعرف «أنوس» فين؟

- هات سوجاره.

ناوله إحداها ووضع الأخرى في أذنه، فتابع الشقي كلامه: تلاقيه في الصالة دلوقتي.

- وهي مكانها فين دي؟

بلا لماذا ولا كيف شرح له الطريق، صفقة رابحة طلب الثمن فحصل على الضعف، وعلى طريقة النقش الفرعوني رسم «فارس» الخريطة في عقله، ثم هرب من الشارع بسرعةٍ؛ قبل أن يبدأ دود الأرض -المستكين حوله- في شمشمتهِ، تحرك في الظلام متفاديًا سيارات «السيرفيس» عبر الموقف، وتمشى في الفضاء المثبت فيه عارضتين حديديتين كمرمى، صنمان يقفان في مواجهة زعابيب الهواء، وسط النواح تخطى تُراب الملعب في الظلام حتى العزبة الجنوبية، رائحة العرق والاحتكاك والجوارب المكتومة تفوح منه، بجانبه مصرف فيه بَغلٍ نافق، ثم لاحت له الأضواء، الحياة من جديد، غربل المكان حتى عثر على الصالة.

الطفل الشقي في الاتجاه المعاكس أعطى ساقيه للريح، وبعد حوالي نصف ساعة خبط في «جوافة»، استوقفه واستحلب منه سيجارة أخرى، تموين سيكفيه الساعة القادمة، ثم ألقى بين يديه ما دار بينه وبين الغريب، طنين نحل ارتفع في أذني «جوافة»؛ من مَلعوبٍ يُحاك عليهم

في منطقتهم، فرف جفنه الأيسر فوق عينه العوراء المشقوقة، لذلك قطع مشواره وقرر العودة إلى وكرهم، إلى الصالة.

دخل «فارس» الصالة فوجد بارًا طويلًا متخمًا بالمشروبات، ترقد منضدات بلياردو موزعة بكثافةٍ، فوق كل منضدة تعلقت وحدة إضاءة خاصة بها، الصراحة المصاريف واضحة، أبواب قاعات «Video Game» تئن مفاصلها، صوت الـ «D.J» يضج بنغمات غير ملحونة، هي فقط خلطة هبد ورزع يتقافز عليها الرواد، وقف على العتبة الباركيه تفصله ثلاث درجات لأسفل، ضامًما مرفقيه إلى جانبيه و خبأ يديه في جيوبه، ظهرت أمامه إحدى مضيفات المكان بساقين ملفوفتين بالفيزون، فَحَت: تلعب.

عاين تضاريسها ـ متعمدة البروز ـ بتأنٍ، ثم ابتسم بخبثٍ وغمزها قائلًا: بلياردو!

ردّت له الغمزة ضاحكةً وهمست: أيوة طبعًا، انت مفكر إيه!

سبقته إلى منضدة فارغة، وهي تسحبه من رباط الـ «Capcho» كأي كبش، وهو يُجاريها، حاولت أن تخلع عنه الـ «Sweatshirt» لكنه رفض فعقدت حاجبيها وأتت بعصا للعب ناولتها له وأتت لنفسها بواحدة: «تشرب حاجة؟» سألته وهى تُكرر محاولتها لكشف غطاء رأسه بعنادٍ، لم تستوعب امتناعه عن تنفيذ رغباتها، تبتغي رؤية وجه ذاك الغريب، فأمسك معصمها بغشم وأبعدها عنه، ثم نظر لها بحدةٍ: عايز بيرة، وشوفي هتشربي إيه، وما لَكيش دعوة بيَّ، لحد ما أغور من هنا، ماشي.

أفلت يدها وهو يدفعها للخلف، فترنحت في الهواء، تركته وهي تتأمله؛ بنظرةٍ فاقت سُبة بالأب والأم وجميع الأهل والأقارب، اتجهت إلى البار متحسسةً لموضع قبضته على معصمها، ثم ابتلعت ريقها وهي تنفض العفاريت التي تتراقص في وجهها، تتمتم في سِرها مُغمضة العينين تُفاوض الهدوء، ظَلَّ «فارس» يرمقها ساكنًا حتى قابل وجه مألوف، لم يكن ذلك سوى «حدوتة».

انسالت الصور في عيني «فارس» كالماء بين أصابع اليد، تعلَّقت ملامح «حدوتة» في رأسه، ضاقت حدقتاه وعقد حاجبيه وهو يفحصه، برنامج تنويه عن المفقودين اشتغل في ذاكرته، لكن اللعنة على الزلزال الذي ضرب حوائطه الباهتة، الخراب اندس بغتة في عقله، أصابه عُطل، فزأرت تروسه وأقسمت ألا تدور، يُعاني، يتصدع، الخواء في أبشع أشكاله، مثل سمكَةٍ نسيت أساسيات السباحة، بقيَّ متربصًا بـ «حدوتة» الذي يجلس على البار؛ يحتسي علبة بيرة بيد والأخرى تدخن سيجارة محشوة، ذاكِرَ تفاصيله وتقاسيمه؛ يستجدي شيئًا مميزًا ينفُض الغبار من رأسه، و.... يده اليمنى التي يمسك بها الزغروف المخروطي يتيمة الخنصر، صابعه مقطوع، بُترت الصورة في عينيه فجأة، وقفزت إلى رأسه تفاصيل ليلة الحادثة الشؤم، الصورة المشوشة للكلبِ، وفكه القابض على الخنصر في اليد اليمنى لأحد رجال «أنوس»، وهذا هو نفس الرجل! فعصر «فارس» عصا البلياردو والتقط الكرة البيضاء، وقصده.

«عماد عتمان» وصل حالًا إلى القسم، قادمًا من إجازةِ استجمام صيفيةٍ مختصرة، هو و»الجماعة»، بعد زنٍ طال منها على مسامعه، كعٍ

في مشوار «خليج نعمة» لثلاثةِ أيامِ عكمة محترمة، أتى كمدخنةِ فرنٍ يُعربد بالمفتاح في باب سيارته الـ «BMW»، حكاية الحطب المشتعل في صدرهِ لا تُحكى، الإيضاح يموت بسبب نزيف الأموال الذي يعيش فيه، يتخيل ذراعيها باهظتي التكاليف وهي تلوح له، فيندم على قراره بالارتباط ببنتِ سيادة اللواء، التي تُذكره ـ كل سبعة دقائق ونصف ـ أن لولاها لطارت النجوم من على كتفيه، فيُغادر زره العروة بفتورٍ ويسمع أنينها، يتناقر معها فتصرخ في وجهه كوبور سكك حديدية هارب من محطاته، فيبتسم مُجبرًا، ويأخذها في حِضنة، يلملم السد العالي ببحيرةِ ناصر بين زنديه، ويسد أنفه عن عطرها المكتوم بين طيات اللحم والشحم.

يعصر كل صباح مشتل ليمون على نفسه، ويبتلع ما بقيَّ له من وقتٍ أمام كومة الدهانات والمساحيق التي تلطخ بها خلقتها، تُرَمِمُ تقاسيمها الآيلة للسقوط، رسم يرتقي لإبداعِ النقاشين، هي فقط سلطة ألوان، تعبث بملامح تفنت الطبيعة في تشويهها، يُقبِلُ وجنتها وهو يتعثر في شمامةٍ على شكلِ أنف، ثم يرحل غير مأسوف عليه. زفر في حنقٍ وردَّ تحية مقتضبة على «عبد المتعال» الذي كان يبتسم في تلييط، يُرحب به منكمشًا كمن فعل فِعلة، ويحمد الله على سلامته، ردود أفعال محفوظة لأي عبدٍ محترفٍ أمام ولي نعمته، بينما «عماد» يتحرك خلف دخان سيجارته ونبضه الهائج يزداد هرجًا في أوردته، مخنوق يبحث عن خلاصه، قال لخادمه:

ـ هات لي حاجة ساقعة ياله، وحصلني على المكتب.

فسبقه إلى باب المكتب في طقوسِ درسِ دين للبوزيين، فتحه منحنيًا كصلاةِ كهنة آمون: أوامر معاليك تُنفذ.

دخل «عماد» وخلع جاكيت البذلة الكتان، وهو يلعن سلسفيل جدودها، فرغم ما حاول معاليه توفيره لها إلا أنها لا يعجبها، لم تمر ثوانٍ على اضجاعه فوق الفوتيه الملاصق لمكتبه حتى دخل «عبد المتعال»، يحمل زجاجة مشبرة: عندك إيه في اليومين اللي فاتوا؟!

سأله «عماد» وهو يمُدَّ يده ليلتقط الزجاجة، ثم يوجه الريموت نحو التلفاز الـ «Mutt» على مُباراة فوق ملعب هرسته الأفيال:

- حالتين تثبيت وسرقة بالإكراه وجيبنا العيال اللي عملوها.
- متسجلين على الكمبيوتر.، (سأل وهو يتجشأ الصودا)
- لأ معاليك.
- طيب سجلهم، ما هي بقت موضة؛ كل عيل متني مش لاقي شغل يبقى حرامي، واحنا اللي نلبس، عندك إيه تاني؟

تلك اللحظات التاريخية التي يشعر فيها «عبد المتعال» بقيمته، المهضوم حقها وسط النسور والدبابير والشرائط، في هذا الوسط الميري، فها هو يتقمص دور «Sherlock Holmes»، ينفش ريشه بخيلاءٍ مثل الديك الرومي، ويقول: «صلاح الأعرج»، اللي لاقوه عريان ومقتول في الزبالة قبل ما تسافر يا باشا، عرفت مين اللي وراه.

- مين..؟..، (سأله «عماد» بملامح منقبضة مستهترة)
- «أنوس» يا باشا.

اعتدل الباشا ملدوغًا، فـ»أنوس» انقلب حاله منذ إشراك «صلاح» في عمليته مع «فارس»، ولهذا زَعَقَ «عماد»: ابن اللي.. بيصفي حساباته من ورايا، كان باين عليه إنه قلقان من «صلاح»، بس عرفت ازاي؟!

قدم له «عبد المتعالـ « ملف التحقيق، وفي باله تنتفض حفنة من الأفكار التي راودته طوال مُدة خدمته، تَتَلمذ على يد أحدهم في «معهد مندوبي الشرطة»، شرِبَ منه عُصارة تجربته الحكومية، ورويدًا رويدًا تبدلت ملامحه الطبيعية، ليرتدي وجه آخر، كالح، سمج، وانقلبت أخلاقه العادية إلى وقاحة متعمدة، واستخفاف مستفز، فهو يعرف أن العوام الذين يُقابلونه لا حول لهم ولا قوة، فعظُمت ذاتيته حتى تَفَرْعَنَتْ، وفي كل لحظة يسمع فيها اسمه متبوعًا بلقب «باشا» يُصدِق نفسه أكثر فأكثر، وفي الحقيقةِ المُرةِ أنه ليس له أي دور إلا تعذيب الناس، وهو بالفعل يتفنن فيه بمزاجٍ عالٍ، فلم يبقى له إلا رسم أهميته الوهمية على سيده، لذلك تفاخم صوته وقال:

- فيه حد شاف واحد من رجالته؛ بيرمي الشوال اللي فيه الجثة يوم الحادثة الصبح، وشَهَد.

حَكَّ «عماد» أعلى جبهته وهو يسمع كلمات «عبد المتعالـ «، ثم قال بملل: سجلتوا شهادته؟!

لم يتلقى إجابة، فأمسك الملف وفتحه وهو يبتلع ما بقيَّ في الزجاجة مرةً واحدة، ثم ـبطول يدهـ أطاح بها من الشباك، واحتقن وجهه بشدة وهو يتمشى بين سطور المحضر، قفزت كرات الدم الحمراء إلى لونه دفعة واحدة كمؤشرِ المكواة، وقف واضعًا يدًا في وسطه، وفَرَكَ

بالأخرى أنفه وهو يدور حول موضعه، ثم رفع نظره إلى «عبد المتعالـ « المتجمد بجوارِه: «أنوس» بيتفرعن! فلازم..

لم يكمل حديثه حين سمع جلبة ضخمة في الخارج، ثم اقتحم المكان أحد العساكر، عرقان، يلهث بلسانٍ ممدودٍ كضفدعةٍ تصطاد حشرة، «كَروَّت» التحية واستند على الباب يسحب نفسه المتقطع، حين عاجله «عماد»: مالك ياله في إيه؟! خد نفسك كدا وابلع ريقك عشان تعرف تتكلم، مش طالبة لخفنة أمك في الكلام.

تغاضى العسكري عن ذكر الوالدة في الحوار، وبالفعل ابتلع ريقًا مشكوكًا فيه، وهدأ بعض الشيء: مصيبة يا باشا.

ضرب «عماد» المكتب براحته: هات اللي عندك واخلص.

- مدبحة.. مدبحة يا «عماد باشا»، في صالة البلياردو اللي في آخر العزبة.
- صالة « أنوس»؟!



ترك «حدوتة» علبة البيرة فوق الرُخامة، وسحب نفسًا عميقًا من سيجارته المُعمَرَة، وهو يجلس فوق كرسي عالٍ في المنتصف تقريبًا، في الجانب الأيسر نهاية طرف البار وفتحة البآب الخاصة بالنادل، وقف فيها «فارس» أمامٍ حافة رخامة البار، وكَبَسَ الغطاء فوق شعرِه أكثر فاختفت ملامحه، ظَلّلَ عليه تحت الإضاءة الـ «Spoot» الموجهة فوق رأسه، ثم وضع كرة البلياردو البيضاء فوق الرُخام الأملس، ورفع العصا وحَكَّ مقدمتها جيدًا قبل أن يثبت يده على الحرف، «Boom»، ضرب الكرة

بكل قوته وتركيزه، اندفعت تدور بجنونٍ نحو علبة البيرة التي يحتسيها «حدوتة»، صدمتها، فقذفتها بعيدًا وأكملت سيرها حتى لَطَشَتْ صفوف الأكواب عند الطرف الآخر، على طريقة كُرة البولينج المندفعة، أطاحت بالأكواب وتطايرت شظايا الزجاج بهوجائيةٍ على الأرضِ.

حركة «فارس» الغريبة والجريئة أثارت المفاجأة والفزع معًا في صدرِ «حدوتة»؛ الذي انتفض جسده، فاختل توازنه من على الكرسي ورجع إلى الوراء، انحنى الكرسي ذو الثلاث أرجل ـبقلةِ عقلٍـ إلى الخلفِ، اتكأ على رجل واحدة ومن ثم هوى، سقط «حدوتة» على الباركيه، زرع بصل، ارتطمت دماغه بالأرض، يرفس، صرصار مضروب بشبشبٍ ومقلوب على ظهره، كُشِطَتْ فروة رأسه من الخلف، مثل كَبشٍ سلخه الجزار قبل أن يذبحه! سال الدم على رقبتهِ الباهتةِ النحيلة، وخضبَ ياقة قميصه المفتوح.

أثارت الواقعة الهرج في كل رواد الصالة، خاصة بعدما اعتدل «حدوتة» وهو يسب ويلعن، فشَدَّ أعصابه مرة أخرى وهو يستند على الكرسي ثم على حرف البار، يتحسس جمجمته بيده اليسرى، فتشبعت بدمه، وقف بجوار البار مرتبكًا، لقمة عيش ناشفة مُلقاة بجوارِ حائطٍ مهدود، دقق نظره مذهولًا في اللون الأحمر القاني على أنامله، وسحب نظرة أخرى على «فارس» المتجمد في مكانه متحفزًا، لم يرتد له طرفٌ يتابع «حدوتة» الذي يترنح، قشة تُركت ترتجف في وجه الريح، غطاء رأس «فارس» خبأ بالفعل كل ملامحه، خيم الظلام على تفاصيل وجهه، لا يظهر منه سوى شعر لحيته الكثيف، تميزه الندبة في طرف شفته اليمنى من أعلى.

الخرس أصاب الـ «D.J» وارتفع ضجيج نبض «حدوتة» يعزف منفردًا، يستمع إلى همهمات الرواد وضحكات الفتّاحّات على ما حدث له، فصاح فيهم بصوته: «باااااااااااااااااااااااااااااااااااس»!، ألجم زعيقه الجميع، لكن «فارس» لم يهتز، يُكلبش العصا مُتحفزًا، بينما لملم «حدوتة» توازنه المبعثر في عقله، واستل من أسفل ظهره بيده اليمنى ـ فاقدة الخنصر ـ مطواته، وفتحها في لقطة واحدة، ثم اتجه نحو «فارس»، في ظِل تسربِ الرواد إلى خارج الصالة رويدًا رويدًا تخوفًا، تابعه «فارس» من أسفل حاجبه المشقوق وهو منكفئ بذقنه على صدره قليلًا؛ ليُخفي ملامحه، توقف «حدوتة» أمامه يزفر كشكمانٍ مكتوم في سيارةٍ مغروسة، سحب نخرة وهو يقول:

ـ انت قد الحركة دي؟ يا ابن المـ...

ابتلع السبة قبل أن تخرج من طرف شفتيه، حينما رفع «فارس» رأسه وتعانقت نظراتهما، تيبس الموقف لبُرهةٍ، الشتيمة تُخربش لسان «حدوتة» ولا تعبُرهُ، وهو؛ صنم رافع يده القابضة على المطواةِ كي يضرب بها «فارس»، لكنه حينما تبين وجهه ارتبك وتوقفت يده في الهواء، عرفه رغم ملامحه التي تغيرت، فلا منه أنزل يده وأكمل عمله ولا منه أبقاها في حوزتهِ، فعند اتخاذ القرار يجب تنفيذه وإلا فلا، لذلك؛ استغل «فارس» تردد خصمه، رفع أسفل عصا البلياردو من الناحية الغليظة، وانهال بها على رأسه من الأمام، شجته، فتراجع «حدوتة» للخلف، مع صراخ الزبائن وهربهم، فكرر الهجوم، وكسر العصا على يده الممسكة بالمطواة.

أسقطها «حدوتة» مُجبرًا، وترنح متألمًا، لكن «فارس» أمسك بصدغه وجذبه إلى أعلى، ثم كال له لكمة بيدهِ اليمنى في ذقنه، من أسفل إلى أعلى جعلته يرتد للخلف، لحقه «فارس» قافزًا في الهواء ليسقط عليه بضربةِ مرفقٍ بين عينيه، أَغْشَى على بصر «حدوتة»، فتراجع بعنفٍ ليلتصق بحرف البار، والدنيا أُظلِمت في وجهه، ثم عاجله «فارس» وصفعه بكلوةِ يدهِ على صدغه الأيسر بغُشم، جعلت صدغه الأيمن يقرع حرف رُخامة البار، قُطِع صدغه وارتد عنهً في الوقت الذي أكملت يد «فارس» اليسرى المعجنة، عندما خَبَطَهُ بنصف عصا البلياردو ـ الموجودة في قبضته ـ على خده الأيمن، بعنفوانٍ، حمل في جيناته كل غيظ الدنيا.

خَرَّ «حدوتة» أرضًا مضرجًا في دمائهِ، سقط يلحس الباركيه، فتركه «فارس» وعاد ليلتقط مطواته التي تخلى عنها قَسرًا، هنا قام «حدوتة» من مرقده، وهرب متعثرًا، وهو يتحسس الجدران في زُللٍ، حتى فرَّ من الباب الخلفي للصالة، تنبه «فارس» له فهرول خلفه ممسكًا بالعصا بيدٍ والمطواة بالأخرى، الباب يفضي إلى ممر ضيق صغير آخره باب آخر، ركله «حدوتة» بقدمهِ وخرج، الساحة الخلفية بها براميل نبيذ وصناديق بيرة مبرشمة، كميات هائلة مرصوصة في صفوف على اليسار، وغرفتان على اليمين كمرأبٍ خلفي ملحقين بالصالة، يصل بينهما سور من الخشب قصير، يفصل بين هذه الساحة وأخرى بها سيارات نصف نقل، هناك ابتلع الظلام «حدوتة»، فص ملح وذاب، لَفَّ «فارس» حول نفسه يبحث عن غريمه، بلا جدوى، سَتَرَتهُ العتمة المفرودة في

الساحة، ولكنه لمح وسط فوارغ الصناديق شبحًا فأسرع إليه، وبمجرد أن وضع يده عليه سمع صراخًا متهدجًا؛ كشرائطِ الكاسيت في التسعينات:

ـ أنا ما عملتش حاجة، بلاش أذية وهاعمل اللي انت عايزه.

هي نفس الفتاة التي التقى بها منذ قليل في داخل الصالة: فين الواد اللي كنت باتخانق معاه؟

سألها، فأشارت بيدٍ مرتعشةٍ إلى خلف رأسه، فالتف «فارس» تلقائيًا بسرعةٍ حيث تشير، ولكنها رفعت زجاجة «بيرة» فارغة وضربته بقوةٍ على رأسه، اختل توازنه وسقط، فتلقت أنفه ركلة قوية من قدم «حدوتة» الذي ظهر من حيث لا يدري، وابتعدت الفتاة باستعجالٍ بتضاريس عالمية تضطرب، بينما تماسك «فارس» في اللحظة التالية، عندما اقترب منه «حدوتة» محاولًا تلقيمه أكثر من لكمة، لكن «فارس» أفلت من قبضته قبل وصولها، ثم جذبه من ياقته ودَقَّ أنفه بجبينه، عملية ناجحة لعجن لحوم البشر.

تراجع «حدوتة» بضع خطوات إلى الوراء، والدماء تتنافس لحجز مكان لها في ملامحه، فاصطدم بكومةِ من طفش الأخشاب، التقط قطعة غليظة منها وهجم بها على «فارس»، الذي وقف وهو ممسك بيده اليمنى المطواة المفتوحة: «عااااااااا»..صرخ «حدوتة» ليُواري خوفه ثم هوى بالخشبة فوق رأس «فارس»، تلقاها الأخير على عصا البلياردو المقصوفة في يده اليُسرى، فأطاحت بها، ثم خَبَطَه بمِشط قدمه ـ بإجحافٍ ـ في بطنه، ركلة حرة مباشرة طوَّحت «حدوتة» للوراء، فسقط على ظهره يفرغ محتويات معدته، تبعه «فارس» بسرعة، فقبض على يده الممسكة بالخشبة، وأدارها بزاوية حادة خلف ظهره وضغط

بعنفٍ، مُلِخَ كتفه، وأصدر معصمه طقطقة عظم، تأوه «حدوتة» بألم، وسقطت الخشبة قسرًا من قبضته، وتراخت أطرافه مستسلمًا لجزاره، هنًا اعتلاه «فارس» وقبض على برأسه بيسراه؛ وبيمناه وضع نصل المطواة فوق عنقه، الأضحية الآن جاهزة للذبح:

- اهدا ياله واثبت عشان ما تعورش نفسك، أنا مش جايلك انت يا حيلتها، أنا جاي عشان «أنوس»، ألاقيه فين؟
- ..!!!
- لا انطق، عشان ما أكتشفش إنك ملكش لازمة معايا، وتخليني أزعلك أكتر.
- انت مفكر تعرف تحط إيدك على «أنوس»، دا معاه حماية.
- أيوة من مين بقى اللي حاميه؟!

لم تأته إجابة فشدَّد غرس النصل في عنقه، وجذبه من شعر رأسه للخلف حتى تعانقت العيون: إيه اللي خلاكم ما تقتلونيش وانتم عندي؟ لو على «أنوس» كنتم قتلتوني، إيه بقى اللي منعه؟!

- المشوار دا مأمورية من «عماد عتمان» ظابط المباحث عندنا، هو عايز كدا، أوامره لـ»أنوس» إنه يعَلِم عليك وبس!

11

في نفس التوقيت، اقتحم الصالة أربعة من رجال «أنوس»، صراصير تهرب من غطاء بالوعة صرف، متأهبين وفي أيديهم أسلحتهم، يتقدمهم «جوافة الأعور»، يدور في يُمناه فرد خرطوش وفي يسراه يمسك سنجة معقوفة، والبقية معهم المطاوي، دخلوا بعد دقيقة من وصول المجموعة المنتظرة بالبضاعةِ، وذلك بعدما هرب الزبائن والعاملون بسبب المشاجرة السابقة.

تشابكت النوايا كاللبلابِ بين أصدقاء السوء، الزوّار ولجوا إلى الصالة فوجدوها مثل الصحراء، لم يعرفوا تفسيرًا مُقنعًا لخوائها المفاجئ، علامة تعجب كبيرة، تقدم أوسطهم ـ الأقل حجمًا ـ خطوتين، يضُخ نيكوتينه المخروط كقطارِ فحم، يُقَلِبُ الوضع في رأسه عديم الشعر، لأن إصرار «أنوس» أن يتم التسليم والتسلم في الصالةِ، بأمان مع زحمة الرواد، فأين هم؟! إذن هناك شيء غير مُطمئن يحدث وراء ظهره، خاصة عندما انتبه بتحفز للغارة التي يقودها «جوافة»، الذراع الأيمن لـ»أنوس»، في ذيلهم، كَبَسَ عليهم شاهرًا الأسلحة، داهمهم، فانطلق

فأر كبير أسفل ملابسه، يعُضُ حلماته ويُخربش جلده، لذلك ترصدتهم المجموعة.

نصف دستة من البهائم، تلاقت أعينهم مع عيون «جوافة» ورفاقه، وضعوا شنطة البضاعة على رُخامة البار، التي شهدت منذ قليل معجنة «حدوتة»، والتي لا يعرفون بأمرها بالطبع، ثم وضعوا أياديهم على ما تجود به ظهورهم وجيوبهم من مسدسات ٩ملم، تَكَهْرَب المكان فجأة ثم سكن، لا صوت إلا أزيز دحرجة الزجاجات الفارغة على الباركيه، يدفعها تيار الهواء بين الأبواب المفتوحة، موسيقى تصويرية للمشهد، تكسرُ حالة الصمت بين الوجوه والأسلحة، حديثٌ طويل بين النظرات المعجونة بالبارود، نُصوصٌ تملأ الطبعات الثلاث لجريدة الأهرام في عددها الأسبوعي، دردشةٌ لم يُسمع منها شيئًا، لكن «جوافة» ترجم الوضع فابتلع ريقه الناشف، حطبة أُلقيت تحت شمس الصحراء الغربية في أغسطس، مسح وجهه بظهر يده حلبًا للكلمات وحاول التهدئة:

- في إيه يا رجالة، الداخلة دي مش عشانكم.
- أومال عشان مين يا «جوافة»؟ وفين «أنوس»؟!

ردّ أوسطهم وهو يعُب صدره بالدخان مرة أخرى، فقال «جوافة»: الداخلة دي عشان واحد تاني جه يِعلِّم علينا في منطقتنا، ويا دوب احنا وصلنا لقيناكم في وِشِنا، ولسة ما نعرفش إيه اللي حصل فى غيابنا! والصالة زي ما انت شايف أهو.

- عايز تفهمنا إن الداخلة دي عشان نَفَر واحد وبس! وهو السبب إن الصالة مخوَّخة كدا!
- تمام كدا يا كبير.

- عيب على جثتك دي كلها لما تحب تشتغلنا يا «جوافة»! الداخلة دي لينا، وعشان كدا الـ «أنوس» بتاعك ما حضرش زي ما اتفق معانا، وبعتك انت واللي معاك تخلصوا علينا، بس انت جيبت ورا لما عرفت انكم هتزعلوا.
- لأ يا كبير، لأ، «أنوس» مِسَقَط، وأنا جاي أتمم الموضوع معاك.
- طيب فين فلوسك؟!

لم يتلقى إجابة من «جوافة» المتبول على نفسه، فقضم الفأر من لحم صدره وتابع: مش باقولك!

ابتلع «جوافة» الصمت مُرًا، ستارة غراء كبيرة مفرودة في حلقه، وعلى نغمة الـ «كحححح» تلعثم وهو يقول: يا كبير أنا كنت في مشوار، وجالي مِرسال إن فيه حد غريب بيسأل عن «أنوس»، وعرفت إنه جه على الصالة، فلغيت المشوار وجيت أنا والرجالة على ملأ وشنا، عشان نلحق قبل ما يعمل معانا الغلط، وعشان كدا ما لحقتش أجيب الفلوس معايا، صدقني دا اللي حصل.

لأسفه الشديد كان صادقًا في كل حرف يقوله، ولكن تلك الحبكة الرديئة للقصةِ لم تُقنع «الأصلع»، «جوافة» نفسه لم يقتنع بما يقوله رغم صِدقه، فأنى له إقناع غريمه! فتبلبلت ملامحه، لذلك تأججت نيران الشكوك التي تحرق أفكار الآخر، فقد علمه الكار هذا أن من يُخطئ يُسلَخ حيًا، لذلك دائمًا يختار أن يَسلِخ بدلًا من أن يُسلَخ، فتفاهم بالنظرات مع رجاله، ثم غمز جوافة ضاحكًا:

- عايزني اصدقك!

ـ من غير ما تقول يا كبير، ارمي ياد انت وهو السلاح.

راية استسلام كبيرة تُرفرف، رفعها «جوافة» بلهفةٍ لإثباتِ حُسن النية، وبدأ يتبرأ هو ورجاله من أسلحتهم، تخلوا عنها، حيث انحنى كل واحد منهم بترددٍ يُلقي مطواته، على الأرض التي تحمل كلمة «Anoos» مطموسة، لا يعرف أيًا منهم قراءتها كما لا يعرف ماذا سيحدث الآن؟! وبمجرد أن اعتدل يختلج وينهج أنفاسًا حارة لزجة، مكتومة برائحة الكحول في حلقه، كان الفريق الآخر قد بدأ في التنفيذ، انطلقت الرصاصات تخترق الصدور والقلوب في آنٍ واحد، قُتل الرجال الثلاثة المرافقون لـ»جوافة» في الحال، بينما قفز هو يتفادى الرصاص، غوريلا تهرب من الصيادين بين الطاولات، قبل أن تستقبل ساقه رصاصة ـبدون عنوانـ وهو يختبئ خلف منضدة بلياردو، لم تتح له رفاهية الألم وترَكَ دماءه التي تتدفق وأطلق من فرد الخرطوش ـالذي لم يتخلص منه بعدـ نحوهم.

استقبل أحدهم العيار وهو يجري ناحيته ليباغته، لكن أجله ناداه فكان «جوافة» أسرع منه، أخذ الطلقة وانتشر عيارها الخرزي يخترق صدره، جيوش نمل حديدية استوطنته، فسقطت به أرضًا مضرجًا في دمائه، قام ثلاثة رجال من الباقين بإمطار «جوافة» برصاصاتهم، في حين تشبث الأخير بسلاحه يُلقمه خرطوشةً أخرى، ومن خلفه أشار الأصلع لأحد التنانين، فتحرك عكس اتجاهه لينقضا على «جوافة»، كماشة، تمشيا بين لزوجة الدماء متقابلين، فوصل التنين في بادئ الأمر إلى مكان «جوافة»، أطلق رصاصة نحوه فأخطأت رأسه بقليل واستقرت في كتفه، فأطلق الأخير نحوه عياره اليتيم ليستقر في بطنة، ارتد مُرغمًا

إلى الخلف ليسقط على إحدى الطاولات نازفًا، غرس الألم نابه في مراكز إحساس «جوافة»، وبعنادٍ حاول بيدٍ مرتعشةٍ أن يحشو الفرد مرة أخرى، لكن أراحه عديم الشعر من عناده، أتى عن يساره مستورًا بعين «جوافة» اليسرى العوراء، حتى وقف فوق رأسه وأفرغ فيه رصاصاته:

- ابقى سلم على «أنوس».

انتفض جسد «جوافة» وسقط كمدرعةٍ عسكريةٍ استقبلت قذيفة «RBJ»، تزدحم رأسه بثقوبٍ تكفي لعبور قبيلة فئران صغيرة، أشار الأقرع إلى الثلاثة الباقين فتبعوه حاملين شنطة المصلحة، ولاح من بعيدٍ أضواء عربات الشرطة، يدوي بوقها وهي تقترب.



صَبَّ «حدوتة» إجابته على وجه «فارس» كماءِ النار، دخلت الحروف الحارقة في تقاسيمه فغيرت ملامحه، عجنت المفاجأة حاجبيه، جحر نمل حُفر في جمجمته ينهش لحمها من الداخل، وانفجر بداخله السؤال، ما دخل ضابط بقسم الوراق به؟! كعادة الإجابات الكسولة تتدلل، ويستحضرها فلا تأتي، لحظة ثقيلة مرت عليه في سبعة أشهر ونصف، فارتفع صفير صمتهما في العتمة، تيبُس الجسدين جعل الذباب التائه يهيم حولهما، زرقته لمعت في الظلام، تُحاصرهما رطوبة الأرض، وقبل أن ينسدل الضباب عليهما انتفض «حدوتة» ممسوسًا، غفَّله ودفع يده الممسكة بالمطواةِ، لكن بغباءٍ على الجانب الأيمن، مستخدمًا يده اليسرى قبل أن يبعدها عن رقبته باليمنى، تنبه «فارس» لثورته فلم يُحرره، فضربه «حدوتة» بمؤخرةِ رأسه في فمه فجرح شفته، وبِرَدّ فعلٍ

تلقائي ضغط «فارس» بالسلاح أكثر، وهو يرتد إلى الوراء قسرًا، وذلك عندما مر النصل في يده فوق حنجرة «حدوتة»، فاخترقها وعبر.

انقسمت رقبة «حدوتة»، بطيخة على السكين فوق عربة كارو، أصدر حشرجة عنيفة وخوارًا والدماء تندفع منه، في سوادِ الليل الذي يكسره بؤرة نور، تتسلل من باب الممر فتستقر جوارهم ساطعة، تدلت رأسه على صدره كقشرة الموز، تركه «فارس» يفرفر فوق بُقعة الضوء، حمار «National Geographic» يرفس بأطرافه الأربعة، حلاوة روح في نبضِهِ الهارب، حتى فاوضه السكون، ودب اليأس في أوصاله فخمدت حركتها، مفصول الرأس عن العنق إلا من بعض الشرايين، وأسفله بِركة دماء تتسع.

وقف «فارس» يتأمله مذهولًا، يعاني ألمًا في قلبه؛ شوكة غُرست بين النبضة والنبضة، عرق يتساقط من كل خلايا جسده، يتسحب قاصدًا عينيه المنفرجتين، يحرقهما فلا يُبالي، لم يستوعب أن «حدوتة» قتل نفسه مستخدمًا يده، عطشان، معدته تسلخ حلقه، سف رمال الصحراء في جوفه، شَدَّ نفسًا عطِنًا من الهواء الذي يَعبِقُ فيه الخمر، تأمل الحمأ الأسود للدماء التي اختلطت بالتراب الداكن، فتحفز للقيء، لكنه تماسك وتخطى الجثة التي أسلمت روحها للجحيم، وقف عند مدخل الممر كتمثالٍ فاتح ذراعيه كمن ينتظر عناقًا من أحدهم، يُتابع الدماء اللزجة التي تقطر بمللٍ من يده الممسكة بالمطواةِ، تَنَمَلتْ أطرافه خدرًا، فانزرع في الأرض لا يتحرك.

وبعد قليل، انتشله من ثباته صوت طلقات الرصاص؛ التي تبادلت داخل الصالة، فطوى المطواة ودسها في جيبه، أسرع إلى الباب الذي

عبره منذ دقائق، شاهد من شُراعته المعركة التي دارت، ثم جاءه صوت عربات الشرطة الفاضح لها وهي تقترب من الصالة، مُحرك بُخاري انطلق في صدره، عقله أخذ قيلولة ـ في غير وقتها ـ عن التفكير، وقلبه تكاسل عن ضخ الدم في عروقه، وهو يُحاذي الجدران الخشبية الزرقاء الباهتة راجعًا، حك كتفه بها ليصلب طوله مُقاوِمًا دوار بحر فاجأه، لم يتبقى له غير نبض مشلول، يلفظُ أنفاسًا متقاعسةً، وتجاهد رئته المشتعلة تطلب الهواء، أحس بوخز نقصان الأكسجين، فترنح كسفينةٍ في عرضِ البحرِ.

ذلك عندما وصل بجوار جثة «حدوتة»، فاستعاد قليلًا من الشحن، مسح المكان مفتشًا عن سبيلٍ للهروب من هذه المصيبة، فتعلقت عينه بالسورِ الخشبي، سيارات النَقل ترقد خلفه، أمسك عصى البلياردو المركونة بجوار الجثة، واتجه نحو السيارات يجر قدميه جرًا، قفز من فوق السور وعاين إحداها، هشم الزجاج بالعصا واستقر في داخل الكبينة، يتجرعُ سكوتهُ وهو يحشر العصا في أسفل لوحةِ التابلوه، كسره، وعلى طريقة «Braille» لامس الأسلاك الكهربائية، وبعد شرر صغير زمجر المحرك، ارتجفت العربةِ أسفله كمن أصابها زلزال، ضغط الوقود أكثر فدارت الإطارات حول نفسها، قبل أن تزفر عادمًا دخانيًا في سحابةٍ ضبابية سوداء، وانطلقت السيارة، بعثرت براميل النبيذ والصناديق أمامها، ثم اتجهت إلى الباب الخشبي في آخرِ الساحةِ، صدمته وأطاحت به.

مرقت السيارة من البابِ، وضلفتيه الخشبيتين مخلوعتين، تقذفهما أمام مقدمتها، لف بها «فارس» نحو الطريق الرئيسي، تقريبًا في وقت وصول سرب سيارات الشرطة، يسبِقَهُم «عماد عتمان»، هدأت المحركات أمام مدخل الصالة، وترجل فصيل مختلف من الزوار،

الضباط والعساكر بأزيائهم البيضاء تَشُقُ عباب الليل، بدأ أفراد القوة في تمشيط الصالة، فاستقبلتهم الجثث الستة متفرقة في أنحاء مختلفة، ثلاثة قربِ المدخل وواحد تقريبًا فى المنتصف وواحد فوق إحدى الطاولات، ويستكين «جوافة» ـآخرهمـ تحت أرجل منضدة، هزه «عماد» بقدمه وتأكد من ملامحه، قرد يتحسس غوريلا بين الأدغال، لقطة جديدة ونادرة من عالم الحيوان.

ـ تمام يا باشا، فيه جثة كمان في المخزن اللي ورا.

تلقى «عماد» الكلمات الممزوجة بالتحية، فردَّ بنفورٍ: حد غريب ولا تعرفه؟!

ـ دا «حدوتة» النادورجي بتاع «أنوس» يا باشا.

تخطى «عماد» جثة «جوافة» وهو يدور في مكانه وقال: واخد كم طلقة دا كمان؟!

ـ دا مدبوح يا باشا.

ـ أمم، ماشي اتصل بالمعمل الجنائي.

ألقى «عماد» جملته الأخيرة في أذنِ أحد مساعديه؛ الذي ردّ بتحية مفتعلة: أوامر معاليك، وبالنسبة لـ»أنوس»؟

لم يرُد عليه، وانسحب من أمامه يُلبي نداء مثانته اللحوحة، السكري السمج الذي يمرح في بوله يحرِقَه، دخل الحمام وأفرَغَ مخزونه، فرأى ملامح «أنوس» تتراقص في زبد البول، هو على أعتاب قرار يخلخل المنطقة أكثر مما فعله زلزال ١٩٩٢م، هو يتذكره جيدًا في صغرِه، عندما انهار بيت عائلته الوديع، يوم الاثنين الأسود الذي ذهبت فيه أسرته بلا رجعة، وطفولته البائسة في كنفِ أعمامه، مثل العبيد، منبوذٌ من ذوي

القربى المتنعمين بخير أبيه، وبعض الأقارب عقارب، فالعائلة الفاسدة هي النكبةُ التي تخسف بأي مجتمع، ذكرياتٌ معبأة بألغامٍ تنفجر داخله، فليكن، استقر رأيه على تكرار الهزة الأرضية، ترك جريمتهً في المرحاض وخرج يلملم بضاعته، ويسُب (رمرمته) في الأكل وتقاعس بنكرياس وإبرة أنسولين والعيشة ومن يعيشونها، عَقد حاجبيه وحك أنفه وقال لمساعده:

- ابعت قوة على شقته كسروها على أمه، عايزه يبيت في الحجز الليلة، ويتفسح، وبعد كدا فيشوه، وهاتوه على مكتبي بكرا بس بعد ما يستوي.

اقترب منه المساعد وتنحنح هامساً: بتهمة إيه يا باشا؟!

قلَّب «عماد» النظر في الجثث الست حوله: قتل عمد للجتت اللي هنا، وكمان «صلاح الأعرج» اللي كان في الزبالة.

تردد المساعد وهو يميل على أذنه: بس يا باشااا..

قاطعه «عماد» بالتفاتة ألجمته: مفيش بس، «أنوس» خلاص كرت واتحرق، ووجوده بقى خطر، لأن الكلب لما بيتسعر بيعض أسياده، وبيبقى مالهوش علاج غير رصاصة الرحمة، والمدبحة اللي هنا دي هي الرصاصة.



سَرَبَ النهار نوره -يتمايل فيه النسيم- على الحوائط البيضاء اللامعة، فتُهفهف الستائر حتى تتراقص وتمسح خد الجدران المصفوف عليها سطور الرُخام، وبين العبق المميز لروائح التخدير والكحول الطبي

والمطهرات، تتسلل أصوات شقشقات العصافير على الأشجار، ومع إيقاع الحفيف يتحرك العاملون في المستشفى، وترددت إليه وقع أقدام منتظمة تقترب من باب غرفته قبل انفراجه.

- عال عال، دا انت بقيت زي الفل أهو يا دكتور «خيري».
- متشكر جدًا يا دكتور.
- والله الشكر دا مش لي، لأني باعمل شغلي، ولكن ممكن الشكر دا يكون لـ»الظابط إبراهيم»..
- «إبراهيم»!

قالها خيري مندهشًا، بداخله فضول قط يدخل خرابة لأول مرة، فعلى ماذا يشكر «الضابط إبراهيم»؟! على عجنه! أم على مشوار الأهوال الذي قطعه في صحبته! فمنذُ البداية ذاق معه طعم القهر والألم، وانكسرت نفسه عندما عرف ثقافة الهزيمة، ضاع حقه في ملف التحريات الملفقة، والتحقيقات المزورة، وأكوام من التقارير المضروبة، ثم رميته السوداء في مديرية الأمن، مسح فيها اسمه وبيته وأصحابه وتاريخه، كل لحظة ينعي فيها حياته المنخورة مثل نِعال المتسولين، سَفَّ أطنانًا من ملح الأرض حتى جَفَّ حاضره وتحنط مستقبله، يعيش على هامش الوقت كأي حشرةٍ تافهةٍ، فكيف يشكر «إبراهيم» بعد كل هذا؟! فَهِمَ الطبيب حالته، فقال:

- ما تستغربش، أول ما قدمت طلب النقل بتاعك؛ اتفاجئت بتوصية للنيابة بضرورة نقلك، والحمد لله حالتك استقرت.
- «دكتور بهاء» مش عارف أقول إيه! بس عمومًا أنا...

لم يُكمل «خيري» جملته، توقف كممثلٍ فوق المسرح نسيّ النص، ثم فتح فمه وتحسس أسنانه المكتملة، هنا ضحك الطبيب في اللحظة التي دخلت «هي» عليهم الغرفة، تسير ببطئها المعتاد، وحمرة الخجل تلتهم لونها، وعطرها يمتزج بالهواء حلوٌ كحلاوة السكر في قلب الثمر، وبمجرد أن دار عبقها على أنف «خيري» عرفها؛ كما يعرف المرء ريح داره، فرائحةُ المرأة عندما تُقيم في صدرِ رجلٍ يُحبها لا تُغادرهُ أبدًا، لذلك تناسى «خيري» وجود الطبيب والتفت إليها، عيناه خرجتا من محجريهما تُقبِلان آثار أقدامها، في الأرض وفي قلبه، ومع كل خطوة منها يدندن الرُخام، مثل ابتهال الصلوات سارت إليه توشوش الكون بأحلامها، وتـ..

ـ أحم أحم، أستأذن أنا يا «دكتور خيري» وهاجي أطمئن على حالتك بعدين، عن إذنكم.

قالها «بهاء» بتوازنٍ ليقطع شَفَرَات التفاهم في أحداقهما، وبذوقٍ انسلخ مفسحًا المجال، دنت «مريم» وقعدت على فراشه، تأملت ملامحه المصبوغة ببصماتِ السجن، عينه اليُمنى التي أُغلِقَتْ عمدًا بورم بنفسجي في طريقهِ للجفاف، شفتاه المتشققتان وملامحه فقيرة الدمً، حقل الأجهزة الذي يُحيطه، ميت مع إيقاف التنفيذ، حتى غرفة العناية المركزة ـ الموضوع فيها ـ اسمها الـ «إنعاش».

«إن عاش»، «إن» دائما أداة تشكيك، تضع حياة المريض على كفِ عفريت.

ـ أنا السبب في كل اللي حصل ليك يا «خيري».

- السبب الوحيد هو القدر اللي جمعني بيكِ، وعشان القدر كان هديته كبيرة عليَّ أوي، كان لازم أدفع تمنها.

- هدية إيه؟! (سألته بجدية وهي تُجفف دموعها)

- انتِ يا «مريم».

طعم الابتسامة زار شفاهها، وتعمدت ألا تنظر في عينيه، فأشاحت بوجهها لتهرب من نظرته التي بَرَقَت من بين الغيوم، ففضلت الصمت والعبث في أصابعها، سمعته: انتِ الهدية دي، وإذا كان اللي بيحصل ليَّ هو التمن؛ فدا أقل شيء أقدر أقدمه عشانك.

صَمَتَ قليلًا، فلاحت منها التفاتة، فغاص في عينيها بكل ما يحتمله من عمقٍ، ثم فتح شفتيه: أنا بحب..

لم يكمل تلك الكلمة التي اخترقت جسد «مريم»، انتفضت لها ووضعت سبابتها على شفتيه، فأخرسته: ما تكملش يا «خيري»، أنا حاسة بيك، بس أعذرني اديني فرصة أنا كمان أحس الإحساس دا معاك.

التجارب مرت على «مريم» فبَدَلَتْها، لم تَعُد تلك الحمقاء التي تعرِض مشاعرها وتُرخِصُها، فتستنزف أحلامها على عتبة كل رجلٍ تُصادفه، فها هي تتأن، رغم أن كل الطرق تؤدي إلى «خيري»، لكنها ملسوعة المشاعر وتخاف أن تكويه بها، تنفُخْ في جمرِ أشواقه، كي لا يستخدم نفس الكلمة التي اهترأت على مسامعها، وبعد عبورها فخ «صبري»؛ غدت تلك اللفظة كالشظيةِ بالنسبةِ إليها، فحاولت أن تدرأ عن نفسها مشقتها حاليًا، وقفت معه على شاطئ علاقتهما، بعيدًا عن أمواج الكلمات الفارغة، لأنها تَعيش حالة وجدانية خاصةً، فلن تسمح

بتشويه عاطفتها الصبية نحوه، ولن تجعله مادة مُستهلكة لبضاعةٍ راكدةٍ، كانت تُدلِل عليها آنفًا.

ـ عرفتِ اللي حصل؟!

تحدث على طريقة غير الموضوع، كي لا تفقِد بريق اللحظة بالشرح الطويل، استفهمت فأجاب: مش أنا ركبت سنتين جداد.

قال جملته وكشف عن أسنانه، وضرب بظفر سبابته السنين الجديدين بصوتٍ مسموعٍ ضاحكًا، الضحكات دائما عدوى، فقهقهت ولمست وجنتيه بيدها، والحب مباراة بالإشارة، اللاعب القدير هو المتعقل، من لديه القدرة على الصمت الجليل، ويعرف متى يقوم بالحركة المفاجئة، فاحتضنها، ذلك أن لغة العِناقُ كالورقةِ الرابحةِ؛ توجز آلاف العبارات، لم تستطع مقاومته، لكنها امتلكت ورقتها أيضًا، وبهدوء انسلت من ضمته، وهو يستجدي دفء أنفاسها في صدره، فابتعدت وتركت دبيب النمل في قلبه.

ـ صباح الخير يا «دكتور خيري»، أنا شايف إن صحتك ردت على قعدتك معانا.

خرجت الدعابة «الميرية» من «الضابط إبراهيم»، يتردد صداها كعادة المستشفيات، لم يمضغها «خيري»، صمغٌ عربيٌ مصبوب في قلبه تجاهه، لم تبدُ على وجهه الراحة والضابط يدلف متحدثًا، يتململ في نصف جلسته ويهرش يديه كالمدمن، ويتعمد ألا ينظر لـ»إبراهيم»، الذي لم يعتد تجاهل دُعاباته التي تُقابل بعاصفة من الهأهأةِ، وهذا حال نفاق السلطة، ورغم أن الضابط يرتدي وجهًا جديدًا يقطر ودًّا من

ملامحه، لكن هناك شيئًا ما يخربش حلقه مما سبق بينهما، فابتلع ريقًا مُرًّا ولم يجاره، فقال «إبراهيم»:

- يا دكتور أنا برا الشغل، وجاي لك بصفة شخصية.

قال «إبراهيم» جملته وختمها غامزًا وهو يشير إلى ملابسه المدنية، فابتسم «خيري» بأسنانٍ صفراء وقال موجهًا حديثه نحو «مريم»:

- «الظابط إبراهيم» هو اللي كان مسؤول عن استجوابي.

تبادلت ابتسامة مع «إبراهيم» الذي تكلم بجدية: أنا باتأسفلك يا دكتور على اللي حصل، لكن انت عارف احنا في ظروف صعبة ومضغوطين، والتجاوز مش مقصود؛ خاصة لو مع ناس لهم قيمة وقامة زي حضرتك.

- مفيش أسف ولا حاجة يا...
- لا يا دكتور، لازم الأسف يتوجه ليك، وانا مش طالب عذر، برغم آلاف المشبوهين اللي بنحقق معاهم، وبالتأكيد فيه نسبة غلط بتحصل، والظروف اللي واقعين فيها حضرتك عارفها طبعًا، بس اللي حصل لحضرتك دا له تكفير عندي.

انعقد حاجبا «خيري»، وعينه صرخت: «انطق في عرضك والنبي!»، كأنه يخشَّى الأمل، فقد يكون طفحًا خفيفًا على سطح الواقع؛ يزول مع غسول التجارب، فالأماني متهورة الطابع، تجعل الناس تثور بهوجائية، وتدفع العقلاء في دروب الجنون دفعًا، وقد يُبررها البعض باختلاف الطقس وتقلبات الفصول، كأنها خدش من احتكاكِ التفاصيل الصغيرةٍ ببعضها، يلتئم بعد تضميده بتراب الحقيقة، فتموت الأحلام

الخضر عطشًا في صحراءِ الخيال، ولكن «إبراهيم» قرأ العبارة في حدقتيه، فحاول أن تكون جملته واضحة ومباشرة:

- وصلتني التحريات اللي طلبتها النيابة عنك، وقدمت تقريري، والمحامي بتاع سيادتك استلم نسخة، وأحب أبشرك.
- يعني ممكن أخرج من هنا؟!
- بالتأكيد يا «دكتور خيري»، لكن مش دلوقتي، فيه شوية وقت، الملف بتاع سيادتك اتحول بالكامل لمكتب النائب العام، وهيتعاد التحقيق معاك من جديد في دايرة خاصة، وفي الفترة دي حضرتك هتشرفنا معزز مكرم.
- يا فرج الله.

- منور القسم والأقسام اللي حوالينا يا «أنوس».

قالها «عماد»، وهو يُربِتُ على كتفِ «أنوس»، بعدما عبثت العساكر في ملامحهِ، أثناء سحبه من مكمنه، خلال هجوم المباحث عليه وش الفجر، فاجأوه وهو شبه مخدر، قاوم الضبطية كما تُقاوِم الأضحية الجزار، إثبات حالة ليس إلا، لكنه هَوَى، وإذا وقع العجل كثرت حوله السكاكين، سحلوه، على مرأى ومسمع من المنطقة التي لم تذوق النوم، تجمهروا وهللوا لرجال الداخلية، وعلى هتافات الشرطة والشعب يد واحدة، تم التطبيل لاسم «عماد عتمان» كبطلٍ قومي، جرجروه مكبلًا بشَبكَتِه الحديدية إلى القسم.

انهارت مملكته، فقضى الليلة في الحجز ولا يوجد تسليةً إلا هو، رُسِمَت الأشجار والفواكه على الحائط، وأُجبر على تسلقها والأكل منها، دمية تقاذفتها الأرجل، حتى لاح نور الصباح وقد استوى على الآخر، سحبه «عبد المتعال « إلى غرفة «عماد عتمان»، فوقف والأساور الحديدية تُقيد يديه أمامه، ووجهه المنبوش تداخلت ملامحه، ضُرب في الخلاط حرفيًا، وبين شفرات الجروح والدماء المتساقطة استند للجدار، عيناه مغلقتان تقريبًا حولهما بُقعٌ زرقاء قاتمة، في كل واحدة خرم بسيط في الطرف يتواصل به مع العالم، ملابسه انتزعت منه قسرًا، إلا من لباسٍ خرج لتوهِ ممضوغًا من فمِ كلب، تفاصيل جسده يظهر فيها علاماتٌ سابقة لمعاركه الخاصة، سجَل بطولات حافل، يقفُ كثورٍ عنيدٍ أكلت نصفه الضباع ويُقاوم الاحتضار، حرر لسانًا تملؤه الفقاقيع بصعوبةٍ ليرد:

ـ دا نور معاليك يا باچا.

قالها «أنوس» بفم يفتقد لمعظم أسنانه وتتقاطر منه الدماء، فاستدار له «عماد» قبل أن يعبرً خلف مكتبه: انت عارف إنك صاحب مكان، بس اعذرني، المرة دي انت جاي لنا رسمى يا «أنوس».

غمزه بتشفٍّ، ثم جلس على كرسيه ورفع ساقيه على المكتب في مواجهة «أنوس» وأردف: عشان تعرف إن الشغل اللي من ورا ضهري فيه خوازيق، وآخر الطريق بتاعه البدلة الحمرا.

رفع «أنوس» كلتا يديه المكبلتين ومسح بضع قطرات من الدماء: البدلة العمرا دي لمين يعني يا باچا؟!

ضحك «عماد» بسماجةٍ، قبل أن تتجمد ملامحه فجأة: هتكون لمين يعني يا «أنوس»؟ ليَّ أنا مثلًا!

طأطأ «أنوس» رأسه ولكن ظلت عيناه ترقبان «عماد»، وقال منكسرًا: لامؤغذة يا باچا، العين ما تعلاچ عن العاجب.

ـ انت عديت كل الخطوط يا «أنوس»، ولا فكرت نفسك كبرت؟!

ـ يا باچا أنا مهما كبرت مُچ هيبقى على معاليك، وبرضو معلچ البدلة العمرا دي هالبزها أنا ازاي يعني؟!، مُچ فاهم.

ـ انت ما شوفتش انت ممسوك في إيه، سبع جنايات قتل، أقل واحدة فيهم حبل المشنأة شوية عليها.

قهقه «أنوس» باستعراضٍ ألقى بذور الاستفزاز في أرض «عماد»، فأنزل قدميه من على المكتبِ ودمه يغلي في عروقه، ثم اقترب من «أنوس» وصفع سحنته بكفهِ الأيمن وهو يصيح: انت نسيت نفسك ولا إيه؟!

أكل «أنوس» الكف على خده الأيسر المهتوك، فالتصق خده الأيمن بالجدار، وقال: معلچ يا باچا اعذرني، أزل الكلام يضعك.

أكمل «أنوس» جملته بما بقيَّ له من ضحكٍ متقطع قبل أن يتجمد: بُز يا باچا، طالما الموضوع وَزَل لعد رقبتي، يبقى عليَّ وعلى الكل، وانا ڤي التحقيق مُچ هازكت، وانت هتيجي زيرتك، وأنا عارڤ إن فيه باچا تاني من وراك هييجي برضو، ڤإذا كان عبل المجنأة هيتلف على رقبتي فهيتلف على رقابيكم معايا.

استمع «عماد» التهديد ـالنظري ـ وهو يمسح خاتمه الذهبي من دماء «أنوس»، ثم ألقى المنديل في وجهه، وجلس يتأمله صامتًا، تاركًا هواجسه المصابة بالسعار تأكل حشاياه، فهو يعلم جيدًا أن تلك

النوعيات عديمة الجدوى قادرة على أن تُحطم دولته، ذلك أن لكل واحدٍ منهم دورًا محسوبًا في تدعيم حُكمه، فإذا سقط أحدهم يأخذ في طريقه للأسفل كل ما ومن يُقابله، مثل «شمشون» عندما هدم المعبد فوق رأسه صارخًا: «عليَّ وعلى أعدائي»، و»عماد» أول أعدائه، ورغم تزاوج مصالحهما سلفًا لكن حدث الطلاق، إذن «أنوس» سيقوم بما يقوله لا محالة، بتركيب جسمه جوع يعُض عروقه، و»عماد» يعي نواياه، ولكنه أستاذ ورئيس قسم في ضبط النفس، لأن تجاربه طوال عُمره الشقي أثبتت له أمرًا واحدًا، أن الشخص الوحيد الذي يمنعه من التدهور هو ذاته.

ـ كلامك صح يا «أنوس».

قالها وهو يضغط زرًّا صغيرًا بجواره على المكتب، فَحَضَر بعد خبطتين «عبد المتعالـ « وأدى التحية فعاجله «عماد» بقوله: نزله مع «بريزة» وحبايبه اللي في الحجز تحت؛ زي ما هو كدا، بينهم ديون قديمة كتير، الحكومة مالهاش دخل فيها، خليهم يصفوها مع بعضهم، لحد ما نبقى نعرضه على النيابة بعد بكرا، إذا كان لسه له عُمر.

ـ أوامر معاليك.

قالها «عبد المتعالـ « قبل أن يؤدي التحية ويستطرد: في واحدة برا طالبة مقابلة معاليك، أدخلها؟

هز «عماد» رأسه ـ بتململٍ ـ إيجابًا بلا رد، فقد كان باله مشغولًا بمصير «أنوس»، الذي هوت صفعة «عبد المتعالـ « على قفاه، ثم سحبه كعِجلٍ مذبوحٍ من كتفه و»أنوس» يصيح صارخًا: لينا يوم يا باچا، والله لينا يومٍ، لينا يوووم يا باااچااااااااااااااا.

ضاعت صيحاته في الطُرقة مع نزوله لأسفل، فهو يعرف أن رفقته الملغومة في الحجز ستفتك به، ذلك أنه هو من أوقع بـ «بريزة» لصالح الحكومة آنفًا، وهذا ثأر مشتعِلٌ لا يبرد بالتقادم، بينما مرت دقيقة على «عماد» ودخلت الفتاة التي طلبت مقابلته، نفس الفتاة التي قابلها «فارس» في الصالة ليلة الواقعة، أشار «عماد» على المقعد المقابل لمكتبه، وهو يُخرج علبة سجائره: اتفضلي اقعدي.

جلست بمزيجٍ من الترددِ والخوفِ، والقلق يأكل في تفاصيلها، وتعبث في أظافرهاً: أنا عندي معلومات مهمـ...

- ششش، استني بس، واهدي عشان أفهم، تشربي حاجة الأول؟!

- لأ متشكرة، بس لو ينفع ممكن سوجارة!

ابتسم «عماد» وقدم لها علبةِ سجائره، فالتقطت إحداها وناولها قداحته، فأشعلتها بعصبيةٍ تُحرِقُ المقعد من تحتها، ردتها له وهي تنفخ الدخان المتأجج بداخلها: أنا عندي معلومات عن اللي حصل ليلة الحادثة في الصالة.

شدَّت انتباهه، من تضاريسها إلى ملامحها، ألقتْ شرارة سيجارتها في وقوده، فمدَّ يده بـ «RemoteControl» ناحية التلفاز، الذي يعرض برنامجًا كرويًّا عن المؤامرة الكونية في الدوري العام! يُقدمهُ لاعبٌ أبيضًا مُعتزِلًا، فاشلٌ تم تنجيمه إعلاميًا، قصير، سمجٌ، سخيفٌ، يُطِلُ من الشاشةِ كشخصيةِ «فطوطة» في فوازير رمضان، فَأَخرَس صوته المستفز؛ وسألها: انتِ إيه دخلك؟!

ـ لامؤخذة يا باشا، أنا باشتغل في الصالة وشوفت اللي حصل.

ـ ..؟!

ـ يا باشا أنا شوفت وعرفت مين اللي قتل «حدوتة».

12

فجأة، فتح جفنيه وهو مستلقٍ على ظهرِهِ، هناك شيءٌ يَحُك في حلقهِ، دبوسٌ استقر في الشعبِ الهوائية، وعلى إيقاع السُعال ارتجف جسده المبلول، فرغم أن الطقس مكيف في غرفته، فإنه لم يمنع ماسورة العرق التي انفجرت فوق جلده، خزان مخروم يقطر ماءً مملحًا يخمش بشرته، يُخربشه، وصهدٌ يُلهب مسام جلده، سخونة مجهولة السبب تحرِق ظهره، ولسانه المُر عطشان، جلس على طرف فراشه ومسح وجهه بكفيه، لم تتغير الرؤية الضبابية في عينيه الحمراوين، نظرته مشوشة كصورةٍ فوتوغرافيةٍ مهزوزة، مَدَّ يده يتحسس مكتبه القديم، علَّه يخبط في زجاجةِ مياهٍ مُعتقةٍ هنا أو هناك، لم يجد سوى جهاز الكمبيوتر العتيق وشاشته الصفراء المقعرة للخلف، وحافِظةُ اسطوانات ثرية تمتلئ بأفلام بداية الألفينات، في حجرته التي شهدت سنوات مُراهقته، وتُحيطهً «Posters» مجلة الشباب القديمة، مُلصقةٌ على الجدران المغطاة بورقِ الحائط المزركش الحائل، قتيل تحت الغبار لم تُرفع البصمات من عليه بعد.

رفع سبابته ناحية القاتل وقال بصوت أقرب للوشوشة:
«أنا هاقتلك..!»

هكذا وعد «حدوتة» يوم اعتدائهم عليه؛ بعد أن قتل الكلب، ومضت تلك اللحظة في عقله عندما تعثر في المطواة، ملطخةٌ بدمٍ ناشفٍ بجوار هاتفه، لقد أوفى بوعده بيد «حدوتة» نفسه، صحيح أنهُ لم يقدر أن يُراعي الكلب ولكنه اقتص من قاتله! التقط المطواة وهو يفتح الهاتف، سجل المكالمات والساعة اللعينة أخبروه أن هناك عشر ساعات سُرِقَتْ من عمره دون أن يشعر، وفي كل ساعة امتلأت جيوب السجل بمكالماتِ «عبير»، فكر في مهاتفتها لكنه أحجم وهو يضغط زر تشغيل الكمبيوتر، وعلى نغمة الـ «Windows» المملة تمشى ليفتح سوق «الكانتو» المسمى بالخزانة، انحدرت الملابس عليها ختم الماضي، تحمل رائحة «Hugo» وذكريات صباه، نبش كومة الأزياء الأثرية وأخرج قميصًا «كاروهات» أقرب لملاءة سريره، وابتعد بعد أن دفن المطواة في تيه الأقمشة، خرج من الغرفة فقابلته والدته باسمة كعادتها: صحيت يا حبيبي؟!

لم يتذكر متى عاد إلى بيت أبيه؟! فلاطفها: لا يا ماما لسه ما صحيتش، عايزة حلم ليك قبل ما أصحى؟!

لم تُضحك الدُعابة والدته التي رأت عبوس ملامحه، فاقتربت منه ولمست وجنتيه بكفيها: مالك يا «فارس»؟!

نظر في عينيها الوديعتين، وطاردت ملامحه شبح ابتسامة وأصابه الخرس، فهي أمه، المرأة الوحيدة في حياته التي لا تُعوض، الوطن الذي يحتمي فيه ويخلع كل أقنعته على عتبته، ترى حقيقته بعين بصيرتها

مهما أجاد التمثيل، وفي الوقت الذي يطالبه الجميع بعدم الحزن، كانت هي التي تحمله عنه، لذلك تجنبها كي لا تكشف خبيئته، واتجه للحمام، تعرى وانزلق في حوض الاستحمام، ترك الماء الساخن يتغلغل في تحفة الفن التجريدي المحفورة في جسمه، يسلخ جلده ويُشعل الحطب المركون في خياله، مشهد اختراق النصل لحنجرة «حدوتة» يُطارده في كل زاويا عقله، استسلامه، خواره، سباحته في الهواء، نافورة دمائه، حتى استسلامه الواهن، صور تنكش أفكاره، يمضُغُ خوفه صامتًا، فالمواجهة التي عاشت في ظنونه تجسدت في واقعه، خيط السراب الذي دبّت فيه الحياة قبل النهاية، طيف الشبورة على الزجاج الذي قفز في غرفته، بقايا البقايا من «فارس» القديم؛ وقفت فوق الماء ترتعش تجُر الذيول.

شجاعته التي ذاق طعمها بعدما غمس فيها روحه، الخياطات التي شوهت جلده، المسخ الذي يُقابله كل مرة يعرى فيها، سخطه على الحياة عندما تنام نظراته بين الغُرزة وأختها، في ليلة خسر كل شيء، فتحرر عفريته من داخله ليفعل أي شيء، اختلفت ملامح وجهه وظلال تقاسيمه، التي تتمايل كظلالِ التصاميم في جبهة الأباليك التي بجواره، شيء انحشر بين عينيه وبصره، فَهُم تصوروا أن ما فعلوه به سيروي ساديتهم ويحيي سيادتهم، ولكنه ـ ها هو ـ يجتاح بر حياتهم كفيضانٍ أغرقهم.

البعض يُجبرونك على السقوط، ولا يعلمون أنك نيزك.

ساعةٌ مرت والمياه تخمر جلده، ثم رجع إلى حجرته، وفتح محرك البحث «Google» فقابلته أخبار محلية، تحت عنوان «القبض على شقي خطر في منطقة الوراق»، قفز فوق المقدمة الرتيبة ودور رجال

الشرطة في تنفيذ واجبهم الوطني، حتى لمح «أ.م.ع» أول حروف اسم «أنوس» الثلاثي، أهلًا بـ «فارس» في الحرب التي طرقت بابه، ما هي النتيجة؟! هو ينتظرها بعدما ألقى دفاتر الأشواق من يديه، وأمسك السكين، كسر حدود توجسه وغسل أفكاره في دماء ضحيته؛ بعنترية جامحة، والله يؤتي النصر من يشاء، ضاقت الجدران الأربعة فخرج، هائمًا بلا جهةٍ يقصدها، ترك لقدميه وللطرقات كامل الحرية، فقد كانت كل الدروب لا تؤدي لشيء.

«وَلَكِنّ سَمَاءكَ مُمْطِرَةٌ وَطَرِيقُكَ مَسْدُودٌ مَسْدُودْ»

انطلق صوت «حليم»، يعبث في رأسه من سماعات عربة الأجرة التى استقلها، تضاربت الأقاويل في الوقت الذي ركب فيه السيارة، هي فقط تهتز كهودجِ الجمل فوق الأرض المتعرجة، ارتجافة مقعده أحضرها إلى باله؛ كما يُحضِرُ الليل النجوم لتفرشِ السماء، كم يفتقدها؟ ضحكتها، جنونها، حنانها، يبحث عن هويته المسلوبة في حضرتها، يُطمئن روحه بقربها، يُعطر أنفاسه برحيق أنفاسها، فأسبل جفنيه يستدعيها من ذاكرته لتهوِّن عليه، وابتسم من رجع صداها بين حشاه، أخرج هاتفه؛ وفتحه بـ «Password» مكون من أربعة حروف «ع.ب.ي.ر.»، اسمها الذي يجوب عليه الأرض والسماء، وليس هذا فحسب؛ بل وجهها خلفية لشاشةِ هاتفه، ملامحها بشفتيها الكريزيتين الضاحكتين وعينيها البرّاقتين وأنفها الدقيق، وحاجبها كسيف يقطر من دمه، حجابها الأبيض الذي ينافس لون بشرتها، وتلك الخصلة المصبوغة بدمِ الغزالِ المارِقةِ من تحته، امرأة جميلة كأهداف الأهلي في الوقت الضائعَ.

امرأة فوق الحيازة تختصر الأماني، تقلب تاريخه، من هنا وهناك مرا سويا و..: على جنب يا اسطاااااااااا..

قالها بدون تفكير، توقفت السيارة وترجل منها وقد انتوى أن يذهب إليها، فهي التي تُكفكفُ الأسى عن روحه، ينام قلبه على جبينها فيُشفق على أعصابه، وتتزاحم أنفاسه الناهجة لتشُمها، رحمة الله عليه في ملامحها، وتسبح هي في ماء عينيه، وكل شيء يُمكن تجاهله؛ إلا إقامة أنثى بداخلِ رجلٍ يهواها، ولذلك يشعر بالسلام في كنفها، في «السيرفيس» التصق «فارس» في الشِباك متجنبًا عين الجالس بجاوره؛ التي اخترقت شاشة هاتفه، ففي مصر خصوصياتك عامة، اتصل بها مرة واثنين فلم تجب، فأكمل طريقه نحو كوخ أحلامه فوق أهدابها، وهو على ناصية الشارع الذي تسكن فيه تذكر ملاءة السرير التي يلبِسُها! فابتسم، لا يهم، فقد كان تائهًا وجاء إليها مُرتديًا قلبه! ألا يكفي؟! هنا أتاه اتصال منها، ففتحت نبضاته الخط قبل أنامله:

- «فارس» حبيبي، كنت قلقانة عليك جدًا، واتصلت بيك عشـ...
- انتِ فين؟
- إيه الداخلة بتاعة ظُباط المباحث دي؟!
- يا بت اختصري انتِ فين؟
- في البيت يا سيدي. (كان في تلك اللحظة تحت شرفتها)..
- بُصي كدا من الشباك.

مرت ثانية طويلة على زمنه حتى سقط القمر في نافذتها، ظهرت ترتدي عباءة بيت وردية بنصفِ كمٍ، كآنية الورد التي تطمئن فوق

خد النافذة، وشعرها الذهبي المدهون بالأحمر يتخلله ضي المصباح المتراقص خلفها، تعقصه بقلم رصاص، وكتاب ضارع ينام بين أصابعها، التفتت يمينًا ويسارًا تُغربل الشاعر باحثةً عنه، تُفتش عن بريق الشهب في عينيه، حتى يـ..: بسسسسسسس..

سمعت نداءه المشفر، ولمحته يتكئ على جدار العمارة المقابلة، ينام نظره في تفاصيلها، تأملته وضحكت: كدا مساء الخير جدًا والله يا «فارس»، بس انت بتعمل إيه يا مجنون؟!

ـ تاكلي حمص الشام؟!

ـ ماتسألش واحدة على حاجة انت عايزها.

ـ طيب كُلي معايا حمص الشام.

ـ دا أمر، والواحدة مابتكرهش في حياتها قد الأوامر.

ـ طيب أنا هاكل حمص الشام، لو تحبي تبقي معايا.

ـ أيوة هو دا بقى..

ـ هاستناكِ، ماتنسيش تلبسي حاجة، ماتنزليش كدا.

هكذا هي، تُثقفه فيها، تَفتح له كِتاب الأنوثة وتُعلمه ما لم يكن يعلمه، فما سُميت بـ «حواء» إلا لقُدرتها المذهلة على احتواء رجُلِها، تضمه، فصدرها رحبٌ مهما ضاق براح الفضاء، أغلق مُهجته عليها وحدها فتوسع الكون، غدا معها مثل الرضيع الذي لا يُفطم أبدًا، ومهما نال منها لم يشبع لأنه ـببساطةٍـ لم ينل شيئًا، كمن ذاق فعرف الطعم فقط؛ لكنه لم يلتهم بعد، وفي الموقف ـالذي عبره بالأمسـ جلس ينتظرها، تتراقص في عينيه ملامح الطريق، أشعل سيجارة ونفث دُخانها، يحرق مع تبغها كل ما يعتمل في خيالاتِه، مرت نصف ساعة في طول

ثلاثة أيام؛ حتى لاحت له من بعيدٍ، عباءة وطرحة سوداء وحذاء عالي الكعب، وجهها الأبيض ينطق بين السواد، والأحمر ـ في خُصلة شعرها وطلاء شفتيها ـ يجعل من تقع عينيه عليها يشتهي كل ما فيها، امرأة بحق، حتى الجلاميد لا تستطيع مُقاومتها، فأينما ذهبت أخذت روحه معها، اقتربت تحمل ترياق جراحه في حركتها: «Wow»..

قالها عندما هَبَّ ملسوعًا من مكانه واتجه إليها، وهو يأكل تفاصيلها بنظراته، فابتسمت في غنج وغمزته: عجبتك؟!

رفع يده وأبعد الخصلة عن وجهها، قربها من أنفه واستنشق عبيرها حتى امتلأ به صدره، ثم أخرجه متثاقلًا: عجبتيني! يا ربي.. أنا كنت مستعد ما اخرجش النفس دا وأموت، كفاية عليَّ إن ريحتك تبقى آخر حاجة دخلت جسمي.

ـ الله بقى.

لمست طرف كفه، حَرَّكَتْ أناملها فوق الخياطةِ البارزةِ فيه من أثرِ جروحه، وقالت جملتها متدللة، فتمشت الكهرباء في عروقه؛ ارتعشت مسامه، وصفقت شعيرات جسده، مضغَت ارتيابه في لحظة فتابع: أنا اللي مت يا «عبير»، مش هنتجوز بقى؟!

فقالت بثقة وهي تعبر إلى شط أمانيه: وربنا عن قريب، أنا مش هاخليك تستنى أكتر من كدا.

دارت الكلمات بينهما هامسة حتى تعلقت «عبير» بذراعه فقال: سيبي ليَّ نفسك..

غمزته، وهي تقبض بكفيها الرقيقين على معصمه أكثر، رسالتها وصلته كعادتهما معًا، فهو يعرف أنها عانت في حياتها بما يكفي، خذلها

كل من عرفته من أهلٍ وصحبٍ، عاشت سلسلة من المشاعر المدَّعية، حيث ترنح مصيرها وسط خياناتٍ ذكورية، وأصبح جمالها سر تعاستها، فلم تعرف من الذي أحبها لنفسها ومن الذي أحب مظهرها؟! كأن القدر خبأهما لبعضهما، فها هو يُقابِلُ فوق يديها نفسه، رجلٌ بحقٍ، يتسلق أصابعها ويسكن روحها، رَوَّض مشاعره البَّرية ليكون لها كما تُريد، اكتفى بها عن العالم كله، وهذا هو الفارق، فكل النساء تلدُ الذكور، وبعضهم فقط يُصبحون رجالًا، لذلك ربَتَ على يديها المتشبثة فيه، وكأنه يقول:

- «فُكِي قَبْضَة يدكِ وأريحيها، اطمئني، فنحن معشر الرجال لا نخذِل نساءنا، ولا نخونهن»



على ضوءٍ كشَّافات المصابيح الأمامية للسيارة، قطع «صبري» المسافة الأسفلتية المتعمدة الطول، التي تقسم الحديقة المترامية باستفزازٍ في قصر والده، المحاط بسورٍ لا تتسلقه العين، تُعرِش فوقه سياج وأسلاك شائكة مدعومة بكاميرات مراقبة، لو عطست نملة في شق الجدار لرصدتها لقطات الفيديو، وتوقفت أمام المدخل؛ المنحوت على الطرز المعمارية الرومانية، ترجل منها يتأمل الأعمدة البيضاء التي تُحيطها الإضاءة بوهجٍ يشُق الظلام، وتحرك وهو يسمع نقر خطواته على الرُخام الجرانيتي الذيٍ يفرش الأرضية.

دلف من الباب الأبانوسي المطعم بالحديد والزجاج المصنفر، مقوسٌ، ضخمٌ، يكفي لعبور سيارة «لوري» بمقطورتها، وبعد مشوار طويل استقر في البهو الممتد أمام غرفة مكتب والده، بداخل المكتب

يتردد صوت «كامل العيشي» مشغولًا في مُداخلة هاتفية مع إحدى القنوات الفضائية، وموضوع الحلقة عن الفساد واستغلال النفوذ والسلطة! تعوَّد على تلك المسائل، فوالده من كبارِ رجالِ السلطة التشريعية، كباقي عائلته، لكنه أصبح نجمًا تليفزيونيًا مع انتشار برامج الـ «Talk Show» السياسية، كثيرًا ما يكون حاضرًا للمشورة وللفتي القانوني، انتظره «صبري» وهو يستمع لحديث والدته في تململ، صدَّر لها أذنًا من طين وأخرى من عجين:

ـ يا حبيبي ما تزعلش من بابا لو اتنرفز، انت عارف هو بيحبك قد إيه وعايز مصلحتك، لو زعق طول بالك انت..

ـ خلاص يا ماما، قُلت حاضر، أشوف إيه الموضوع الأول.

ـ «صبري» انت عـ....

لم تكمل كلمتها حين صدح صوت والده بعدما انتهى من مداخلته التليفونية: انت شرفت يا بيه؟

اقتحم «سعد زغلول» المشهد وهو يفتح الباب الجرار لغرفة مكتبه، نعم، فوالده استنساخ بشري للزعيم الوطني الراحل ولكن بدون الطربوش، تحرك في اتجاههم بخطواتٍ واسعةٍ تَدُب في البورسلين، وصدى قرعها يتردد في قلب «صبري» الذي انتصب واقفًا ومدَّ يده ليصافح والده: أيوه يا بابا، أخبار حضرتك إيه؟!

تحاشاه ككلبٍ جربان ضل طريقه، وجلس على المقعد المقابل له وهو يزفر: زفت طبعًا..

ـ ..!!

ـ هاكون عامل إيه يعني وأنا خلفتي تِعر؟!

جلس»صبري» بدوره مبلولًا؛ وابتلع السُبة بريقه الناشف، وأسفله الكرسي تنبعث فيه ذبذبات قَلقه، يستجدي الساعة الكسولة أن تتحرك ليُفَك أسره، فتدخلت والدته تُلطف الجو وتنزع سلك الكهرباء العاري من الماء: اهدا بس يا باشا.

بعصبية التفت «كامل» إليها بوجهه المنتفخ، وشاربه الثائر، وهو يرفع سبابته في وجهها مُلوحًا بالصمتِ: مالكيش دخل بعد إذنك، كل اللي احنا فيه بسببك، دلعك الماسخ وطبطبتك على بسلامته، خلتيني في الموقف الزفت دا!

صَمَتَ وهو يمضغ شفته السفلى؛ يكظم غيظه، فقتل بعض النساء أهون من عناء مناقشتهن، وزوجته تحتل ـبجدارةـ صدارة هذا النوع، فهي ابنة عمه وهو ابن خالتها، اللذان تزوجا بالأمر المباشر من أسرتيهما، ولكنها فرضت عليه سيطرتها، خاصةً بعدما فقدت رحمها إثر حادِثةٍ بعد ولادتها لـ»صبري»، كُتب لها عمر جديد ولكن بدونِ أبناءٍ آخرين، فتمسكت بابنها الوحيد، أرضعته دلالًا حتى طفح، وضعت قلبها مكان قلبه وانتفضت نبضاتها بين أضلاعه، ردَّتْ عليه شطحاته النرجسية وخبأتها، ليعيش معها طفولة أبدية لا تنتهي، ومهما عارض «كامل» هذا الأسلوب الرخيص في التربية؛ لم تستمع، وها هو يجلس ليُعيد الشريط التاريخي الباهت، يعرف أنها جلبت أحاسيسها المتهالكة فوق الشوك، وصَبَّت الطين فوقه، لذلك أشار لها بالانصراف متجنبًا النظر لها:

ـ لو سمحتِ يا هانم سيبينا لوحدنا.

خرجت، تجر ذيلها وهي تغمز لـ»صبري»؛ تؤكد على وصيتها له قبل قدوم والده، فتجاهلها: إيه حصل لكل دا بس؟!

ـ بقى مش عارف!

قالها الوالد بدهشةٍ، ضرب كفًا بكفٍ، ثم مال أسفل المنضدة الموجودة بينهما وفتح أدراجها، نكش كراكيبها، وبعد لحظة اصطاد دفترًا ورقيًّا، نسخة من تحقيقاته مع «خيري»، رفعه وقذف أوراقه في وجهه منفعلًا: اتفضل، فهمني إيه الزفت اللي موجود هنا دا؟!

تطايرت كأوراقِ الخريف، فانحنى «صبري» يلملمها ويرتبها ثم تصفحها، تثلجت ملامحه، لونه تغير وسكنته ألوان طيف حائل، هربت دماؤه من جلده وسُدت شرايينه، ارتدى وجهًا موميائيًّا وهو يبتلع ريقه الخشن؛ بصعوبةٍ، حنَط الجفاف حلقه، وحاول الحديث لكن خذله الصوت، الحرارة التي تعوي في حنجرته طردت الحروف، فمَدَّ يده والتقط كوب الماء البارد؛ المستكين مُشبرًا فوق رُخامة المنضدة، ورفعه بيدٍ مرتعشة على شفتيه اللتين تشققتا، وقذفه دفعة واحدة في جوفه مطلقًا فوران كغليان القِدر.

ـ طبعًا انت مش عارف هترد عليَّ تقول إيه؟!

قطع والده الصمت فتلعثم، تَعْتَع، فتابع «كامل»: انطق، لو عندك رد مقنع.

ـ حضرتك دي تحقيقاتي، من معلومات سرية جت ليَّ عن المتهم دا، وبُناء على كدا كان قراري كنيابة بشكـ...

ـ الكلام دا ممكن تقوله في مكالمة للتليفزيون، عشان ما يعرفوش المطبخ فيه إيه، لكن مش عليَّ ولا على الناس اللي فوق.

ـ حضرتك يا بابا أنا بقـ...

ـ انت إيه ها؟ انت ماشوفتش التحريات قالت إيه؟!

قالها «كامل»، وأخرج ملفًا آخر ألقاه كأخيه في خِلقته، وتابع: تقرير ظابط التحريات أهو، بيكشف خيبتك التقيلة، الموضوع إذا اتسرب هيبقى شكلنا إيه يا بيه؟ سمعتك وسمعتي وسمعة العيلة كلها، هنبقى فضيحة، لبانة في بوء اللي يسوى واللي ما يسواش.

ـ مفيش داعي يا بابا، القضية اتنقلت لوكيل نيابة تاني وخلاص.

ـ هاها ضحكتني، أنا جالي مفتش من مكتب سيادة النائب، قال إنه عشان الخاطر بتاعي عندهم فوق هيكتفوا بوقفك عن العمل، وإحالتك لـ»مجلس الصلاحية»، لكن لازم يتم التحقيق؛ في الأسباب اللي دفعت سيادة «وكيل النيابة» في التحامل الفج دا على أحد المتهمين الأبرياء، تعرف لو الإعلام أخد خبر إن النيابة بتلفق التهم جزافًا هيحصل إيه؟ انت تعرف إن النيابة العامة ممكن تضحي بيك وبيَّ، وبكل واحد من العيلة كلها بسببك، عشان تنفي التهمة دي عنها.

والده شدَّ شريطًا لاصقًا على شفتيه؛ ألجمه، وأكد الكَف الذي لبسه على غفلةٍ فأطاح بكل ما يملك، «صبري»، عتمت الدنيا في عينيه، ضرير يتحسس شاربه العرقان ويمسح محجريه المظلمين، يستحلب بقايا أضواء السقف المشتتة في نظره الواهن، ومضات ضالة تسطع على عقله، ونبضاته تدفع بعضها هاربةً، هائجة، يتأمل حركة شفتي والده وشاربه الأبيض المنفوش، وهو يدفع الكلام في وجهه دفعًا، الحروف

تنطلق كـ«دانة» مدفع تُصيب رأسه، فلما أفاق كان «كامل» قد تقيأ كثيرًا من ديباجيته: فوق يا بيه.

عاد من شروده وأصابع الوالد تُسَلِم على وجنتيه الذابلتين: العمل دلوقتي إيه يا بابا؟!

- هأهأ، بتفكر دلوقتي في العمل، ما خلاص، اللي هيحصل إنك هتلبس البيجامة، في حد لبسهالك مع سبق الإصرار والترصد، بعد ما فصلها على مقاسك بالظبط، بتسأل عن العمل بعد المصيبة وما سألتش قبلها!
- يا بابا..
- اخرس، مش عايز أسمع صوتك، اترمي في شقتك ما تخرجش لحد ما الأمور تهدا، انت مصيرك متعلق بالمتهم في القضية دي، ادعي ربنا إنه ما يتهمكش بأي حاجة، لأنه لو نطق يبقى العالم بتاعك كله انهار فوق دماغك، ولو أثبَتت دايرة النيابة الجديدة أي علاقة تربطكم سوا، هتتمنى إنك كنت سألت عن «العمل» من زمان، بدل سماعك لكلام أمك!

عيون «صبري» حملَّقت بترقبٍ في الفراغ، تتداخل الصور في تركيزه قبل أن تنسل أصابعه تدريجيًا من بين الورق، دقيقة من الوجوم ثم بَرَقَتْ حدقتاه، وارتسمت كعيونِ ذئبٍ طالته رصاصة صياد، ويُريد الانتقام منه: أنا عندي حل لكل المشكلة دي.

- ازاي يا بيه؟!

وقبل أن يُجيب «صبري»، ارتفع رنين هاتفه يحمل رقم «عماد عتمان»، فرفض المكالمة ونظر إلى والده بِحِدةٍ: أنا هاتصرف.

ـ اسمع لا تتصرف ولا زفت، تترمي زي ما قُلت لك، لحد ما أعرف الموضوع دا هيخلص على إيه؟!

ـ يا بابا.

قطع كلماته باتصالات أخرى كانت لها نفس المصير، «عماد» جاء على السيرة، فهتف «كامل»: اقفل الزفت دا أو رُد.

تأمل «صبري» اسم «عماد» المتصل قبل أن ينظر لوالده، وبداخله ألف كلمة وكلمة تفور، ثم: قُلت لك أنا هاتصرف يا بابا.



امتدَّ ظلام الليل، عبر الطريق المملوء بالمتاريسِ الحديدية، وتُطِلُ أعمدة الكهرباء تبكي إنارتها الباهتة على سياجٍ متتالية، مصنوعة من هياكل السيارات القديمة والدُشم الإسمنتيةً، ثم سور القسم يتقدمه بُرج استكان فيه فرد أمن على كرسي خشب، وينتصب رشاش «Kalashnikov» بين فخذيه، وسيجارة قزمية تحترق بدخانٍ داكنٍ في فمه، ثم ساحة يكسر عتمتها نصل ضوء انطلق من نافذة غرفة «عماد عتمان»، الذي يجلس ممددًا قدميه الحافيتين على مكتبه المبعثر، متأملًا شاشة هاتفه التي تحمل اتصالًا يجريه بـ «صبري» ويتم رفض المكالمة، الأثير يقتحم توجساته، سكون، قطعته خبطات متتالية على الباب، ثم فتحه «عبد المتعال ودخل وأدى التحية:

ـ في إيه عندك يا «عبمتعالـ «؟!

ـ معاليك، الحجز تحت قايد نار، منتظرين تعليمات سيادتك.

هناك سيجارة مشتعلة على طرف برميل بنزين، قبلها كان الملل يقرص كل من في القسم، حتى قرر «عماد» إشعالها ووضعها على حافة البرميل، لا يُمكن وصف الترقب الذي ينزغ كل المحيطين، «عبد المتعالـ « يقف ووجهه يقاوم بلبلة مجنون أمام جهاز الصعق الكهربائي، يرتقب قرارًا تاريخيًا سيغير من توزيع مراكز القوى في المنطقة، نظر «عماد» إلى اسم «صبري» في قائمة آخر الاتصالات، وحاول الاتصال مرة أخرى وانتظر حتى لم يتم الرد، فضرب المكتب بهاتفه بعنفٍ كسر شاشته.

خبط جبهته، يرجرج الأفكار في عقلهِ، ثم شبك أصابعه وراء رقبته ورفع عينه لأعلى، يبحث عن التدابير المنمنمة حول اللمبة الـ «Led» التي تتوسط السقف، وبتثاقلٍ ـ ينم عن حجم التردد الذي يأكل خلاياه ـ بدأ يخفض بصره، في كل سنتيمتر تقطعه رؤيته يتغير قراره ألف مرة ومرة، عليه أن يفعل شيئًا حيال السيخ الحديدي الملتوي في جمجمته، نظر في عيني «عبمتعالـ « الذي يقف جامدًا كالتمثالِ، ثم هز رأسه إيجابًا، بصمتٍ، فك الأخير الشفرة المكتوبة بالرصاصِ في حدقتي «عماد»، فَهِمَ المطلوب وعلى الفور شرع في تنفيذه، فأدى التحية وخرج وأغلق الباب خلفه، تحرك في ردهات وممرات القسم يُدخن سيجارة محلية، محشوة تبن يحترق بدخانٍ كثيفٍ، يتسحب

ضبابيًا حول اللمبات الصفراء ـ باهتة الإضاءة ـ المنتشرة على استحياء بين الممرات.

نزل ثلاثة طوابق تحت الأرض، حتى وصل إلى غرفة تسبقها لافتة سوداء، كُتب عليها «الحجز»، بالأبيض، يجلس شوال قطن تعدى الخمسين؛ أمام الباب الحديدي المطلي بخربشاتٍ كَحَتَتْ وجهه، يرتدي زيه الميري وعلى كتفيه أربعة شرائط، ناوله «عبد المتعال» إحدى سجائره ووقف يقرع الباب بقدمه، وبعد أكثر من خبطة بترتيبٍ محدد طَلَّ «بريزة»، وجه «زومبي» مفروشٌ بالندوب، تأمله من خلفَ شُراعة بها قضبان متعرجة في أعلى الباب، نظر له «عبد المتعال» وحشر في يدهِ كيسًا أسودًا من الأكياس المخصصة لجمع القمامة، التقطه «بريزة» وتراجع حتى غاب عن النظر، ابتلعته ظلمات الحجز، بصمتٍ؛ ذاب في العتمة وكأنه لم يظهر آنفًا.

كما حضر «عبد المتعال» انصرف، وهو يُلقي نظرة خرساء على الرجل الجالس على كرسيه الخشب، في داخل غرفة الحجز تجمع خمسة رجال، تشابهت ملامحهم مع شروخ الجدار الإسمنتي الذي نُزعت أحشاؤه، بينهم «بريزة»، اقتربوا من شخص يجلس في ركنٍ؛ تظهر عليه آثار هتك عرض مع سبق الإصرار والترصد، يتأملونه كمن ينظرون في المرآة لأول مرة، وسط الظلام أحس بأنفاسهم اللزجة تقترب منه، تعطل «Option» الرؤية الليلة لأمثاله، بعدما دُفنت عينيه تحت الأورام المتسلقة ملامحه، فتقوقع في جلسته، وضم ركبتيه المتقرحتين إلى صدره المتشقق منتظرًا لأول تحرش، وبينما ابتعد باقي النزلاء ملتصقين في الركن المقابل بدأت المعمعة.

ـ «أنووووووس»!

أتاه النداء من أحدهم، ومع حرف الـ «س» لَبِسَ أنفه قبضة يسارية، هم كائنات ظلامية أصلًا، لذلك الزاوية الصاعدة للكمةِ «بريزة» لم تُخطئ «أنوس»، فأصابته بدرجةِ امتياز مع مرتبة الشرف، أصدر خوارًا مكتومًا بسبب كف أحدهم الذي لحق به وهو يترنح في الهواء؛ قبل أن يسقط على سواعدهم، فرقة تدخل سريع يُتقِنُ كل فرد فيهم عمله، اثنان أمسك كل واحد منهما بقدم وأحكم سيطرته عليها، وآخران أمسك كل واحد منهما بذراعٍ، كوموه علًى بطنه وأطرافه الأربعة حول ظهره معكوسة، جاموس بَري يتمٍ تجهيزه للذبح، بينما قام القائد «بريزة» بفتح الكيس الأسود، ووضع رأس «أنوس» فيه، ثم لَفَهُ حول عنقه وربطهُ بإحكام.

الحركة لم تأخذ أربع ثوانٍ، وفي الخامسة كان تحت سيطرٍتهم الكاملة، حاول الرفس لكن أجزاءه سُجلت غيابًا في تلك اللحظة، لا شيء فيه يقبل أوامره، فقط قاوم متملصًا من بين أيديهم بنواياه، في الثانية السادسة أداروه في الهواء وألصقوه بالأرض، وقاموا بثني قدميه على مؤخرته وضغطوا عليه تثبيتًا، أيقن أن نهايته أقرب مما تخيل، فتشبث بالهواء المعتق في الغرفة الرطبة، لكن الكيس منع وصوله، ارتفع ضغط الدم في أوعيته، ولم تحتمل مثانته فتبول على نفسه، وسيطر عليه الخوف، فاحترق الأكسجين في رئتيه أكثر.

مرت دقائق ورفعت أعصابه راية الاستسلام، وبدأ الشهيق والزفير يخبو بالتدريج، ثم استكان، ظلوا ممسكين به حتى هدأت جميع حركاته اللا إرادية، حلاوة روح بقيت في العروق، تتشنج لها الجثة بعد أن فارقتها الحياة، فخلع «بريزة» الكيس عن رأس القتيل وحملوه إلى

الركن الآخر، به الجردل المستخدم كمرحاض في خدمة النجوم الخمس للنزلاء، حيث نصبوا جسده ساجدًا، وقام «بريزة» بإمساك فروة رأسه وألقى بها في داخل الجردل، دومة عفنة محشورة بين ما جادت به أجساد السادة الحضور في هذا اليوم.

ثبتوا جسده على تلك الوضعية، يتكئ بركبتيه ويديه على الأرض، وضع أقرب لكلبٍ بلدي، ورأسه وكتفاه ومقدمة صدره أسفل فضلاتهم من البول وخلافه، ثم اتجه قائدهم إلى الباب ومد يده بالكيس للخارج، قال بصوت زنّ ماكينة جز عشب: حصووول.

- إيه يا بريزة؟!

قالها كيس القطن وهو يلتقط أداة الجريمة، ويخفيها في سترته الميرية، فتابع «بريزة» بنفس الزنة: «أنوس» أغمى عليه ووقع في الصرف، باينه مات، ما خدناش بالنا من الضلمة إلا لما واحد اتكعبل فيه، حاولنا نقومه بس جتته مخشبه.

قام الشاويش النبطجي بانفعال عديم المِلة: إيه؟! يا نهار أسود!

ثم أخرج من سترته صافرة ونفخ فيها صاعدًا الدرج وهو يصرخ: الحق يا حظابط، الحق يا حظابط «أنوس» مات، «أنوس» مات يا حظابط،»أنوس» مات، «أنوس» ماااااات..

في الصباح، نُشر خبر في صفحة الحوادث، لإحدى الجرائد المجهولة التي لا يقرأها أصحابها، عن مقتل سجين متهم في قضايا قتل في حجز قسم الوراق، وفي التفاصيل سيظهر اسمه، تم قتل «أنس محمد عبده» الشهير بـ «أنوس»، شقي خطر مسجل بلطجة وسرقات، المسجون على ذمة تحقيقات لاتهامه فى قضية قتل متعدد، وذلك في

ظروف غامضة حيث عثر على جثته منتصف ليل البارحة، إثر سقوطه في بالوعة صرف المرحاض، الخاص بالحجز الملحق بقسم الوراق، ومازالت التحقيقات مستمرة.



13

«على طول الحياة.. نقابل ناس ونعرف ناس.. ونرتاح ويَّا ناس عن ناس»

صدى أغنية «أعز الناس» للراحل «عبد الحليم حافظ»؛ تردد بين المباني التاريخية في «شارع المعز» الشهير، وعلى الأرض ـ المفروشة بالحجر البازلتي الأسود ـ تمشى الرواد إلى «رَبع المعز»، وبعد المدخل المقوس، والدرجات الرخامية البُنية، والباب الخشبي الداكِن بزخارفه الإسلامية، وتصميمه المحفور بالنتوءات، على الجانبين العتبتين المتقابلتين بتجويفات بيضوية كقِبلة المسجد، لهما حواف منحوتة من الصخر، فتعبر أسفل الشُراعة الأرابيسك المائلة، في الممر؛ تكعيبات خشبية يتدلى منها وردٌ مجفف، ثم يظهر كَهلٌ بشعرٍ رمادي خفيف، وقميص مشجر وبنطلون من القماش بشكل رِجل فيل، ويرتاح عود عربي بين يديه، يُدندن بالأغنية وحوله المنسجمون يتمايلون طربًا، يجلس بجوار القُبة المفتوحة على السماء، يسكنها ضوء بَدر نثر خيوطه

الفضية على المجسمات الأثرية، في البهو النازل لأسفل، يستند بظهره على الجدار العتيق، بجوار الدرابزين الخشبي المغطى بكِليم من الخيش يُسلم كِليمًا آخر، صُفرة الحجارة تتراقص عليها إضاءة القناديل الزيتية في السقفِ المقبب، وعلى الأعمدة المكعبة التي يتشابك فيها الحجر بالجير، عبق البخور يضوع في الممرات المتداخلة، يمتزج برائحة الكُتب المتنوعة، في المكتبة الضخمة التي تأخذ مساحة كبيرة من الرَبع.

في الغرفة المقابلة للبهو؛ جلست «عبير» مستكينة بين ذراعي «فارس»، على خُددية مُفلطحة استقرت على مصطبة رُخامية دائرية، تشابهت كِسوة المرتبة أسفلهما مع قميص «فارس» الكاروهات، أمامهم طقطوقة من النحاسِ مُربعة، عليها كوبين ممتلئين بحُمُص الشام وصحن فول ورغيفين، عن يسارهما شِباك مفتوح يُظهر التخت المنصوب، ضمها أكثر لصدره فتداخلت أناملهما، نظر لها باستمتاعٍ مع كلماتِ الأغنية، والهواء ـالمندفع من المراوح العملاقة المعلقة على الجانبين ـ يعبث بخصلة شعرها وطرحتها السوداء، غزالة ريم برية في حضن مُروضها، تسبح صورتها في بحر عينيه، مثيرةً لجِلْدِه وخياله وأعصابه، تشتعل بين يديه كجمرةٍ في مواقد الشتاء، تُدَفئ لحم صدره وتُدغدِغُ باله بألفِ خاطر، تُتقن اللهو ـبصمتها البليغ ـ في مصيره، كنجمةٍ تتبختر في وجهِ سماءِ الصيف، تُحدِث له حالة مُحببة يفتح لها رئتيه فتغسل أنفاسه، ويَغْمِس في ضيها قلبه دون أن يعرف عنها أكثر من كونها نجمة.

«ولحظة حب عشناها.. نعيش العمر تسعدنا»

ـ أنا بحبَك يا «فارس».

الكلمة حفرت لنفسها مكانًا في جلمود نبضاته، مع ذلك قال: تعرفي إني من قبل الحادثة ما نزلتش مصر القديمة.

ـ آه الحادثة اللي قلبت كيانك دي.

شَرَدّ بنظره بين الوجوه المترددة، ضاعت أفكاره في أكوام الأحداث، وفاة زوجته، تلك الحُفر على جسده، والمنعطف التاريخي الذي تخطاه بالأمسِ، فتح شفتيه وحاول التعقيب عليها ولكن شيئًا غُرس كالسكينِ في حنجرته، شحذت حواف الحروف في حلقه فظل صامتًا، فاتحًا فاه كتمثالٍ نُحِتَ ولم يُنتهى من باقي تقاسيمه، ظهرت ملامحه خاوية ولونه باهتٌ ولحيته الكثة فجأة ملأها الشيب كالجراد، وكأنما زاد عمره ضعفين أو ثلاثة، فما حدث له لا يمكن أن يمر كغمامةِ صيف، والندوب في جسده لن تذوب كالكتابة فوق شبُّورَة المرايا، وهو لا يعلم كيف السبيل إلى حل قضيته؟ لأنها ليست ككل القضايا، شَدَّتْ «عبير» أكثر على يدهِ، خربشت جلده المتيبس بأظافرها، ورفعت عينيها لأعلى تتأمل ملامحه التي تذبُل، ثم قالت وهي تزرع ألفاظها بين مراكز إحساسه:

ـ «فارس»، أنا بخاف من الحالة اللي بتحصل ليك دي.

كلماتها تقاطرت من مسامِ جلدهِ ونخرت في عظامه، مسامير دُقت في مفاصله، حاول أن يجيبها ولكن تكاسلت الكلمات فوق لسانه، تُخدره كل الشئون الصغيرة التي يحملها، واندفعت الحكايات الكثيرة في بالهِ، قبل أن تتحجر فوق شفتيه المرتعشتين، لمحت «عبير» نجمه الذي أفل، فلم تنتظر رَدَّهُ ولم تُحاول فك شفرة نظراته، أو حتى المجهول

الذي يتأمله كطفلٍ كفيفٍ، بَدَّتْ تلك الجلسة من الجلسات التي يجب أن تقتحم أغواره، وتسمع الكلمات التي تزْعَقْ بضجيج بين أحشائه، وتذوق مرارتها التي يخشَّى أن تمر على لسانه، تسمع كُل ما لا يُقال لأنه يجرح كيانه ويزيد من عشقها له، فاعتدلت وتركت نظراتها تمسح ملامحه، وتغسلها:

- المرتين اللي اختفيت فيهم عني أنا اتقتلت مليون مرة، صدقني يا «فارس» ربنا يعلم أنا عملت إيه عشان أقدر استحمل الضلمة اللي اتسبب فيها غيابك، أنا مستحملاك بكل اللي فيك من خوف وقلق وضعف، مستحملاك بالمر اللي جواك قبل الحلو، والله وجودك بس بيهوَّن كل حاجة في دنيتي، سيبني، سيبني متشعبطة في دراعك متقوية بيك؛ ما تستكترش عليَّ النعمة دي، أنا مش هاستحمل بُعدك عني، يا «فارس» أي شيء يحصلك تعال وارمي في حضني، وأنا أقدر أخليك تستحمله وتعديه، بس المهم تطمن قلبي بقربك مِني، المهم نكون دايمًا سوا يا حبيبي، وأي حاجة تانية نواجهها مع بعض.

لم تتلقى جوابًا، وأحست بنصل كلماتها في عنقه، فحاولت نبش كلماته رغمًا عنه: وما بتنزلش ليه؟ دا حتى شغلك كله هنا!

ابتسم بألم وربت على كتفيها: شغل ايه يا «عبير» هي البلد دي بتخلي حد يشتغًل!

أزاحت يده عن كتفيها: لأ كدا فهمني.

نظر في عينيها وزاد قُطر ابتسامته من ذكائها؛ فهي جرجرته إلى حوارها فاستسلم: دلوقتي في البلد دي ناس بتخسر وناس بتخسر أوي، مفيش حد كسب غيري.

قطبت جبينها البض باسمةً لما يرمي إليه وغمزته: ازاي بقى؟!

ـ أنا كسبتك، وانتِ التعويض الرباني عن كل خسارات الدنيا.

سكنت ملامحها، فتوهجت، وظلَّت عيناها متعلقةً بملامحهِ التي تجملت فجأة، من أثر نبضات قلبه المغسولة بمساحيق التجميل، وهي تبصُم على جملته الأخيرة، فأحست بمظاهر الحياة الغائبة عنه طوال تلك الفترة فاندفعت: أخيرًا يا «فارس»، حركت الجبل اللي على قلبك، حررت لسانك وقُلت حاجة تديني أمل في الحياة، وحياتي عندك ما تقلقنيش عليك أكتر من كدا، كفاية عليَّ اللي أنا حسيته طول المدة اللي فاتت، والله انت أغلى ما في حياتي؛ أغلى من حياتي أصلًا.

«حبيب قلبي وروح قلبي حياة قلبي.. يا أغلى الناس يا أحلى الناس يا كل الناس»

ابتسم «فارس» وغاص في موج عينيها، فمن يُجزِم أن الغرق مرتبط بالماء فقط؟! وشوشها: الحج دا ظابط نفسه معانا.

ابتسمت بدورها وتركت يديها في حضن يديه: أنا بعشقك.

ـ تشربوا حاجة يا أبو النجوم.

كان ذلك صوت النادل، الذي هبط عليهما كصخرةِ المقطم التي عجنت «الدويقة»، جعل جسد «عبير» ينتفض ويخفق قلبها بشدة، في

نفس اللحظة التي التفت إليه «فارس» منفعلًا: الله يحرقك، ولا أي زفت يا عم..

فانسلخ من وسطهما بعد القلقلة التي افتعلها في الجلسة، فضغط «فارس» على أناملها: اتخضيتي؟!

غمزت بطرف عينيها: عيب يا راجل أتخض وانت جانبي.

رد لها الغمزة: حبيبتي يا مشبتاني.....بس مش أكتر من تثبيتة «ليلى» لـ»قيس»!

نظرت باندهاشٍ إلى ملامحه التي احتلها المرح فجأة، واعتدلت لمواجهته: مش فاهمة!

- «قيس» كان شاف لون أحمر على إيد «ليلى»، فقال لها: «خَضَبْتِ اَلْكَفَّ بَعْدَ فِرَاقِنَا»، يعني حنيتي إيديك عشان فرحانة إننا سيبنا بعض، ردت هي بقى عليه وقالت له: «مَعَاذَ اَلله ذَلِكَ مَا جَرَى»، يعني محصلش، بتستعيذ بالله إنه يكون حصل، وبعد كدا كملت: «وَلَكِنَّنِي لَمَا وَجَدْتُكَ رَاحِلًا»، يعني لما أنا شوفتك ماشي....
- حصل لها إيه بقى؟
- قالت: «بَكَيْتُ دَمًا حَتَى بَلَلْتُ بِهِ اَلْثُرَى».. «مَسَحْتُ بِأَطْرَافِ اَلْبَنَانِ مَدَامِعِي..فَصَارَ خِضَابًا في اَلْيَدَيْنِ كَمَا تَرَى».
- يعني إيه؟!
- بتقوله لما شافته ماشي عيطت دم، فمسحت عينيها بصوابعها، والدم لون إيديها، يعني مش حنة يا ظالم ولا

حاجة، دا بكايا الدامي عليك، ودي أكبر تثبيتة عملتها واحدة على واحد في التاريخ.

قهقهت «عبير» وألقت جسدها المرتج فوق صدره ثم قالت: لا حلوة، طب إيه أكبر تثبيتة عملها واحد على واحدة بقى؟

- دي كانت تثبيتة «عنترة بن شداد» لـ«عبلة»، قالها: «وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَاَلْرِمَاحُ نَوَاهِلٌ مِنِي»، يعني افتكرتك في الحرب وقت لما الرماح انهالت عليا، نزلت مندفعة عليه زي السيل، وانتشرت في كل مكان حواليه، وبعدين كمل «وَبيْضُ اَلْهِنْدِ تَقْطرُ مِنْ دَمِي»، يعنى فِضِل فاكرها حتى و«بيض الهند» اللي هي السيوف بتنقط من دمه، المشكلة بقى في اللي جاي كمان.

- ..!!

- قال: «فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ اَلْسِيُوفِ لَأَنَهَا لَمِعَت كَبَارِقِ ثَغْرَكِ اَلْمُتَبَسّم»، يعني بعد لما افتكرها -في بيت الشعر اللي فات- كان عايز يبوس السيوف في البيت دا، عشان لما لمعت تحت الشمس؛ عملت زي ضوء البرق اللي بيخرج من بين شفايفها، لما بتبتسم، اللي هو بيتغزل كمان بياض أسنانها يعني، ودي بقى أكبر تثبيتة عملها واحد على واحدة في التاريخ.

طال الضحك بينهما تلك المرة، دائمًا يعرف فن اختيار الكلام، ومهما كانت حالته يُحرك دفة الحديث بألفاظٍ لا تُشبهها ألفاظ، ينتقي حروفًا شهية، تتسابق مليسةً كريش النعام فوق مسامعها، تُلقي بذور حُبه

كالأنفاسِ في رئتيها، فتعتاد أحلامها على وجوده، كطيرٍ بنى عُشه فوق كتفيها، فترُشُ عطرها اللاهث على صدره وزينة وجهها على نظرته، فلا يُمكن أن يكون هيامه بعينيها انفعال كأي انفعال، لأن قلبه يمتلئ تجاهها بأحاسيس لا يُمكن أن تُوصف أو تُقال، هي فقط رؤيا ملائكية مثل هدهة الأطفال، فتشابكت الأيدي أكثر، وصمتت «عبير» وظل «فارس» يتأمل جمالها ساكنًا وديعًا، لكن تراقص لهيب القناديل في عينيه البارقتين جعلها تقول:

- على فكرة عينيك فيها حاجة، فيا ريت تحكي ليَّ اللي فيهم.

في حركة تلقائية أغمض عينيه، وابتعد بنظره عنها في حين تابعت هي بقلقٍ: وحركتك دي بتأكد لي مخاوفي.

لم يجبها، فتابعته هي بنظرها تتفحصه، تقرأ ملامحه وتغوص في تفاصيله التي انتابها الشحوب مرة أخرى، تُجري تحليلًا متأنيًا لرد فعله، فتعثرت الألفاظ في جوفهِ أكثر، لا يعرف كيف يشرح لها الأحاسيس التي تتعارك بداخله؟ فليس أي شعور يُحكى، هناك عبارات مثل خنجر مسموم ينام في اللحم، وألفاظها بارود، وحروفها حارقة مثل النار، رغم هذا أراد أن يُشاركها مأساته، حاول أن يَشرح أعراض الطاعون بداخله كأنه نوبة برد! فلم يتركها للتكلم وحدها -كما حدث منذ قليل- وقال مقتضبًا:

- بُصي يا «عبير».... ما تسأليش عن حاجة دلوقتي عشان ماتقلقيش زيادة، اللي لازم تعرفيه إن كل واحد أذاني مش

هاسيبه، وما تحاوليش تخليني أبعد عن اللي ناوي أعمله، لأني مِكمل للآخر، هاخوض الحرب مهما كانت النتايج.

سكتتْ، كأنها أخاطت شفتيها ببعضهما، وبداخلها ألف هاجس ينفجر، هي تُعاني من أجله، لكنها مُستعدة لخوضِ القتال بجانبه، فهي آخر الجيوش لديه، ستُحارِب جميع خلق الله من أجلهِ لو اقتضى الأمر، فرغم شروخها لا يُمكن أن تنهار لأن ثمة من يستند عليها، وهو «فارسها»؛ أهم من في الوجود لديها، ولذلك؛ تُواري هشاشتها وضعفها خلف قناعٍ مُزيفٍ من القوة، فأخذت كوب حمص الشام تأكل منه بشراهةٍ، وهي تضرب بأناملها على المنضدة بقرعٍ منتظم، وألقت نفسها في حِضن الخديدة، انكمشت، والقلق يلُف كيانها كالذراع، رجرجها وتغلغل مُتعرجًا في أحشائها، واعتصرت اللوعة خيالها فقاومتها، وقالت:

ـ ماشي، زي ما انت عايز، مش هاتكلم بس عندي شرطين.

ـ ..؟!

ـ الأولاني مُعتاد، وهو إنك توعدني مش تخلي بالك على نفسك، عشان انت مجنون ومتهور ومش فارق معاك دا، لأ يا «فارس»، خلي بالك على نفسي أنا اللي جواك، لأني مش هاعيش ثانية لو حصل ـلا قدر اللهـ حاجة تاني ليك.

ـ أوعدك يا «عبير»، والشرط التاني؟

ـ الشرط التاني إنك تحكي لي كل شيء، وفي الوقت اللي تشوفه مناسب ليك، بعدها ترجع «فارس» من غير وجع.

- مش هاقدر أحكي كل شيء يا «عبير»، في حاجات أخاف أحكيها ليك تغير رأيك، أو تخافي مني!

شحُبت ملامحها هي تلك المرة، كأنها عدوى تنتقل بينهما، تحشرج صوتها وقاومت بكاءً مستفزًا يُلح عليها ويثقل في حمله، احتضر البدر فجأة في بصرها، فأشاحت بوجهها وارتعشت، وسحبت قطرة العبرة السخيفة من منبتها؛ ثم دفنتها في منديلها الورقي، ذابت كقطعةِ شمع تحترق بين يديه، ورفعت عينين ملتهبتين وتسلقت النقوش المحفورة على الجدرانِ، تُذاكر التفاصيل المزركشة على الشبابيك، فَمَدَّ سبابته وسحب وجهها لينام في نظرته، ومنع خيط دمع ممزوج بالكحل يستعد للسفر فوق خدها، فظلَّت تعاينه بندبته التي قطعت حاجبه الأيمن وأسفل عينه، والأخرى النائمة في طرف شاربه، صحيح أن تقاسيمه تغيرت ولكن قلبه كما هو.

والحب لا يُحسب بالوجوهِ ولكن بالأفئدةِ التي في الصدورِ.

هي تعرفه بكل ما فيه، لذلك بعثرت تماسُكها في عبارةِ: أنا أخاف منك! دا انت الأمان الوحيد اللي ليَّ في الدنيا دي كلها.

لم يرد، حيثُ تموتُ الأقوال في الحبِ بينما تُخَلَدُ الأفعال، لذلك أمسك «فارس» بالرغيف المُستريح أمامه وقطعه نصفين، ثم غمسه في طبقِ الفول وأَكلَهَا، ومن الرجالِ نوعين، أحدهما يقسِّم اللقمة والآخر يسرقها! ثم تشبث بيديها: خلاص يا «عبير» أوعدك، مش بس هاحكي لك، لأ، أقسم بالله هاخليكِ تعيشيه معايا، وتشوفيه بعنيكِ.

«لسه مشوار الحياة شايل لنا وقفات»

«معالم في طريق الحب أحلى كتير من اللي فات»



وَشوَش النسيم، على ملامح البنايات الخديوية في شارع «سليمان باشا»، ومسح ضي النهار ألوانها المصبوغة بشحوبٍ باهتٍ، سببته الشمس النشيطة، تتراقص ظلالها على الميدان، الذي يتوسطه التمثال الباقي من إرث «طلعت باشا حرب»، بطربوشه ووثيقته في يديه، يحيطه السياج الحديدي بلونيه الأسود والأبيض، وضابط مرور على كرسيه يتصفح جريدة أسفل مِظلة، مرت من جانبه سيارة ملاكي، يعمل بها صاحبها تحت غطاء تطبيق خدمات «تاكسي» معروف، تتحرك بمللٍ وإطارات لا تدور من التكدس.

ترجل «هو» منها، فلفحت ملامحه حرارة الجو، بعدما ترك الصقيع المتسرب من مكيف السيارة، يتأنق في بذلةٍ سوداءٍ وقميص أبيض اللون وربطة عنق حمراء، يحمله حذاء كلاسيك لامع أسود، واتجه بخطواتٍ هادئة -تتناسب طرديًا مع هيئته- إلى داخل المركز التجاري الشهير، لَفَّ مرة أو اثنين حتى وصل إلى مبتغاه، توقف أمام «الفترينة» يتأمل التفاصيل الداخلية لأكثر من نصف ساعة، يمسح بمنديلٍ ورقي ملامحه المعكوسة في الزجاج، عاين المعروضات وحركة العاملين والزبائن، ثم لاحت «هي» بالداَخل، تحمل أوراقًا وتضع قلمًا جافًّا بين أسنانها البراقة، وعلى غير العادة لملمت شعرها خلف ظهرها، ترتدي فُستانًا أقرب لبُستانٍ.

«هو»؛ «هي»، طعنتهما يد الحياة.

وظنت -والنصل يقطر من دمائهما- أنها قتلتهما، لكن راعها أنها جمعتهما.

انهمكت في مراجعةِ الأوراق التي بين يديها، ومن لحظة لأخرى تُخرِجُ القلم من بين شفتيها لتدوّن بعض الكلمات، أو لتُجيب على سؤالٍ من أحد رواد المكان، تبتسم في ودٍ لكل من يقترب منها، تنشر من سحرها على المحيطين بها، حتى «هو» تحرك إليها مجذوبًا، تزداد حرارته حتى طغت على حرارة شمس ذلك اليوم، ومع كل خطوةٍ يلقاها في كل الزوايا، فوق الرفوف وفي المرايا وفي مُعطِر الهواء، يحملها في طي أعماقه، يتشوش في اقترابه؛ كإرسال ضعيف يتقاطر من محطة راديو مهجورة، حتى كان على مسافة متر واحد منها فتمم على أناقته، وتأكد من ضبط ربطة عنقه وتحسس أزرار بذلته وهندامه العام، وتنحنح وهو يضبط نظارته:

ـ مساء الخير يا دكتورة.

ـ مساء النور، أؤمـ...

بترت عبارتها فجأة، بعدما رفعت عيناها عن الأوراق مبتسمةً، تدلى فكها السُفلي للحظة و»هي» تتأمله أمامها، نظراتها سقطت فيها ملايين الشموس، حتى نفضت رأسها في تلعثمٍ: «خيري»! حمد الله على السلامة، خرجت إمتى؟

قالت جملتها ووضعت الأوراق على أقرب منضدة، واقتربت منه تمُدّ يدها لتصافحه، عانق أصابعها الرقيقة، ضغط عليها برفقٍ وهو يتأمل ملامحها صامتًا، ثم: الله يسلمك يا «مريم»، أنا خرجت امبارح، ومع أول مشوار؛ كان لازم تكوني أول زياراتي.

أحست به ولفحتها أنفاسه الحارة، اشتمت شذا عطره، حتى أنها شعرت بسباقِ نبضاته، انتشرت على وجنتيها حمرة الخجل، وجه بسيط فيه محجرين محددين بالكحلِ أصفى من ماء غمامة، مستها مشاعرٌ مرهفة كأفراخِ العصافير، وأسبلت جفنيها وهي تُحاول أن تسحب أناملها بهدوءٍ من أصابعه المتشبثةِ بها، راحتها في قبضتهِ كمنجم يُلَمْلِم فيه اللؤلؤ، هو يعرفها صوت هسيسيًا جل ما يُسمع، تحوم أمامه، بُلبُلةٌ تُرشرش الندى حيث طارت وقرنفلًا، قطة تموء في وداعةٍ، ظَلَّا لدقيقةٍ جامدين على هذا الوضع، حتى لمست نظرات المحيطين بهما، تخترقهما، فتجاهلت عينه التي تذوب فيها كدوامةِ ماءٍ، فهما مليئان بالشروخ، لذلك عليهما اعتزال العالم وليكن ما يكون، ثم يحاولان ترميم بعضهما، ليلتئما ويكتملا، ولذلك هو هنا معها، فتنحنحت هامسةً:

- «خيري» مش هينفع كدا!
- تتجوزيني؟!

كلمة يغمسها السؤال، مروحة تُهفهِفُ فتمشط الهواء وتُجدله، قالها بدون أن يتركها، لم يقُلها هامسًا كما كانت تحدثه، ولكن بصوتٍ مرتفع، ليس كثيرًا ولكنه يكفي حتى يسمعه المقربين من موضعهما، انتفضَ البركان الخامل في جسدها، حدقتاها سرمديتان ليس لهما أول أو انتهاء، وجهها تفتح كوردةٍ معطورةٍ تطير بين أبياتِ قصيدةٍ، واستدارت شفتُها مُبتسمةً، سعادة أبدية؛ بدايتها الآن ولا نهاية لها، وأسبلت ريش أهدابها كحمامةٍ تُرفرف، فتحمل بين جناحيها استجابةً للصلاةِ والدعاءِ، هربت مُستترة من أسهم نظراته، شهقت وحبست أنفاسها، فسجنت في رئتيها الزمان، المكان، الأرض، السماء، وسقط عمرها على السقف مثل الإناء.

فعمر المرأة لا يحسب بعدد أنفاسها ولكن بعدد حبس أنفاسها.

فجأة دوى الهدير في المحيطين، ارتفعت الأكف مصفقةً لهذا المشهد، واقتربت منها بعض المراهقات المترددات على الصيدلية يربتن على كتفيها، و»خيري» وكأنه من عالم آخر لا يرى معه فيه سواها،لم يهتم بأي مما يحدث،لم يهتم إلا بها، في محياها رأى منزله القديم وغرفته، يلمح وسادته في أضلعها، من جبينها طَلَّت عليه شمس الصباح في طابور مدرسته، وشعرها المعقوص يرى فيه العلم ويسمع تحيته يتردد صداها داخله، يرى المآذن ولثغة الماء في ليالي الأعياد، ورقص الأنوار في قاعات الأفراح، وباب المدرسة القديم، نَقَش عليه بخطٍ رديءٍ حكايا كثيرة؛ عن حبيبةٍ مجهولةٍ في يومٍ ستأتيه، عن امرأةٍ مثل الحُلم تشتري قلبه المكسور فتُجبره وتُشفيه.

- « مريم» أنا مش هامشي غير لما تجاوبيني، تتجوزيني؟

هنا رفعت رأسها لتُقابله، تأرجح قرط طويل يتدلى من شحمة أذنها، يتهسهس، فيغسله الضوء، يضحك كما اللمعة في جوف المرايا، ظلَّتْ صامتةً لدقيقةٍ يستيقظ بوجدانها الأمل مُقهقهًا، وبَحَّة حلم حزين يكنس الخيال بذيوله، تجمد الموقف حتى حركت رأسها إيجابًا، مثل سلام الله في نهاية الصلاة، تكفكف الدمع عن وجدانها، وتُنادي الفرح الذي تقوقع في ركن ذكرياتها، ثم ابتسمت، هنا حرر أناملها من قبضته وبادلها الابتسام، كان موقفٌ لم تتوقعه «مريم» قط، وهكذا هو الحب دومًا؛ يصنع المعجزات.

- حددي لي ميعاد مع والدتك.

قالها «خيري» قبل أن يستأذنها للذهاب إلى المستشفى، ليبدأ من جديدٍ عمله الذي كان قد قضى نحبه.

الساعة قد تعدت الواحدة بعد منتصف ليلة صيفية ساحرة، تربع هلال «ذي الحجة» معقوفًا في السماءِ السوداء، تتمسح في وجهه الزنبقي سحب بحوافٍ بنفسجية قاتمة، ونجوم كسالى تتمشى بينها؛ تومِض بوهنٍ، عجوزٌ يستند على عصاه ويتحرك، وهو انتظر أمام «حديقة السادات» الموجودة في «مدينة السلام»، يدخن سيجارة لها عبق مميز، يتأمل القُبة الدائرية لخزانِ المياه الضخم، ويجلس على أحد المقاعد المنتشرة أمام سور الحديقة، يُداعب جسده هفهفات الهواء المتدللة، وبين لحظةٍ وأخرى يختلس النظر إلى ساعته.

مرت ربع ساعة وهو على حالته تلك، يُحدق في أنوار الطريق المتداخلة بعيونِ تمثالٍ فرعوني، يُنقب في السيارات العابرة عن هدفه، فجأة ظهرت إحداهن من الفراغ وجلست بجواره، دُمية كاوتشوكية مُتداخلة الألوان، قالت بغنج: انت لوحدك؟!

لم يلتفت للكائن الطفَيلي الذي اقتحم المشهد، ولم يعِر أي انتباه لجانبها الذي التصق ـساخنًاـ بجانبه، فقط ظلّ يتابع تناثر الدخان في الهواء ويتنفس شذاه، فأدركت مقصده، ومدَّت يدها وأمسكت من بين أصابعه بقايا السيجارة: إيه، مش عاجباك؟!

سألته، فالتفت إليها يتفحص ملامحها الصناعية، مرسومةٌ كالعرائس البلاستيكية، تابع غمزتها إليه بطرف عينيها، فمَدَّ يده واستعاد السيجارة؛ بعدما اقتطعت منها نفسين، ودرأ عن نفسهِ مشقة الرد، لملمت بقاياها وانسحبت، أكمل مُكُوثه يتابع «الشقط» المنتشر في المكان، خلايا رأسه متجمعة في ترقبٍ لشخصٍ واحدٍ يتابعه منذ مدة، ويحسب عليه كل خطوة يخطوها وكل نفس يتنفسه، على مدارِ أسابيع وأيامٍ مَلَّ من عَدها، يتبعه كظلٍ مخبأ في جيوب الغيب، يُسجل روتينهُ، وهوَ على يقين أن رتابة الرجل فيها نقطة ضعفه، ذلك أنه هو بنفسه ملك الرتابة، بعد قليل جاءت زميلة ثانية وقعدت كالأولى، نسخة كربونية طبق الأصل من سابقتها:

ـ إذا كانت هي مش عاجباك، فأكيد أنا هاعجبك.

ـ شكرًا.

قال كلمته وهو يسحب النفس الأخير في سيجارته، ثم طوَّحَها أمامه، رمقها بطرفِ عينه وعلى شفتيه ضحكة سمجة، أحست بلزوجتها، فحمَلَت مؤخرتها الرخيصة وانصرفت، وهي تتغزل فيه: طالما ما لكش في النسوان إيه اللي جابك هنا الساعة دي؟!

زادت ابتسامته عن الحد المسموح به؛ في عُرفِ كرامةِ رجلٍ يسمع تلك الأوصاف عن نفسه، ثم أخرج علبة سجائره وانحنى ليلتقط بأسنانه واحدة وشرع في إحراقها فـ..: هو في إيه يا سي الأوستاذ؟ لو انت مش جاي تشقط يا خويا، يبقى تقوم تمشي من هنا، دا لو تسمح يعني، عشان قاعدتك دي مقطعة علينا أكل عيشنا، آه!

ـ يا سيدتي مستني واحد جاي والله.

الإضاءة الشحيحة، المتسربة من عمود الإنارة خلفه جعلت السواد يسكن وجهه، ولكنه قال الجمله من خلف أسنان تعُض فِلتر سيجارته، وهو يُشعِلُها، فظهرت ملامحه جيدًا خلف لهب قداحته، فاستطردت بدهشةٍ: مين «فارس»، الدنيا ضيقة يا ولاد؟!

رفع «فارس» رأسه متعجلًا ليتبين من هي، كان مُدركًا أن ملامحه تغيرت عن ذلك الشخص الذي تقصده، عوامل التعرية التي حدثت في تقاسيمه تُغير ديناصورًا، ولكنه يبقى ـ بشكلٍ ما ـ ديناصور، أما هو فلم يعد ـ بأي شكلٍ ـ هو! لو قابل نفسه صدفة في طريقٍ؛ لاصطدم فيه وانصرف دون معرفة، وجهه فَصَلَ ماضيه عن مستقبله، التَهَمَ صورته القديمة، فأنى لصاحبة الصوت الأنثوي معرفته! وهو يمشي بقناعِ شخص غيره، كأن «فارس» القديم مدفون أسفل ملامحه، فشاهدهاَ، عرفهاً، حَكَّ لحيته، وقال مبتسمًا:

ـ ازيك يا «هدُى»، يخرب عقلك، عاملة إيه؟!

ومَدَّ يده ليصافحها، لكنها وبدون سابق إنذار أخذته بين أحضانها الخبيرة، عناقٌ حميمٌ عنيف الأشواق، قبلته على وجنتيه وجلست إلى جواره، ثم قالت بودٍ وهي تُربِتُ على فخذه الأيمن: والله وحشني يا «فارس»، فين أراضيك وأخبارك إيه؟!

العلاقة التي تربط الأخبار بالأفخاذ خطيرة جدًا، وبالنسبة لـ»هدى» موضوع الأفخاذ هذا شيء أساسي جدًا في مهنتها، فقد كانت فتاة ليل شفوي فقط، تُدير أعمالها عن طريق أخيها «أنوس»! حتى فتح الله عليها وكونت شبكة دعارة خاصة بها في «عباس العقاد»، أدارتها باحترافية شديدة حتى أصبحت ـ ولا حسد ـ من أكبر شبكات الدعارة

في مصر، أي شخص «عط» في مدينة نصر أكيد خَبَطَ في شبكةِ دعارةِ «العقاد»، تميزت بأسلوب خاص جدًا، ذاعت به شهرتها بين المنافسين، حيث كانت تلصق إحداهن نفسها ـبالقوةـ في أي سيارة واقفة لأي سبب في الشارع، فلو أن الشخص لم يغلق باب عربته؛ لوجد فجأة من ركبت بجواره وتتفق معه على الأتعاب، وهكذا، أدرات «هدى» هذه الشبكة باحترافية حتى عهد قريب، قبل أن يضيق الحال هناك بسببِ نُدرة الخليجيين، ومُضايقات شُرطة الآداب، وبطونهم الجائعة دومًا، وشهيتهم المُعقدة المفتوحة باستمرارٍ، فنقلت النشاط في الأمان قليلًا بعيدًا عن أعينهم، إلى محيط «حديقة السادات» في مدينة «السلام»، رفع «فارس» أصابعها عن فخذه وأعاد ذراعها لجانبها:

- آخر حاجة كنت أتوقعها أقابلك يا «هدى»، خصوصًا بعد اللي حصل عندكم من «أنوس»!
- بس ما تجبليش سيرته، هو سبب القرف اللي أنا فيه، أنا عرفت إنه اتقتل من أسبوعين تلاتة كدا، والله فرحت!

تسربت العبارة في أذنيه، فتجمدَّت اللقطة في عينيه، وتراخت السيجارة بين شفتيه وهو يلتفت إليها بحدةٍ، فوقعت، انحنت «هدى» والتقطتها تنفثها، وعينا «فارس» تتابعها وتحملق فيها، الخبر ترك في جوفه فجوة عملاقة بحجم نيزك، لا يدري بماذا يجيب؟ أحقًا ما سمعه؟! هل خبر هلاك «أنوس» حقيقة؟! حربٌ بين حِزمٍ استنكارية وأخرى مُتشككة: حد يرمي النعمة كدا يا «فارس»!

جملة «هدى» أخرجته من دوامةِ أفكاره، ثم ثرثرت، عبأت جيوبه بحقيقةِ ما حدث في «الوراق»: ظابط المباحث مسكه في قضية قتل

لـ٧ رجالة، كدا كدا كان هيلبس عليها إعدام، ولقوه مقتول في الحجز، تلاقي الظابط هو اللي قتله، عشان يدفن معاه كل حاجة سوده عملها له، هيئهيئهيئ أهو الظابط دا اللي كان مسرحه، ولما دوره خِلص قام مخَلَّص عليه.

كانت هواجسه تعصف به، فكما قالها لنفسه أن مصير «أنوس» قد حُسم، وأن نهايته ستكون من نفس عمله، فقال أول جملة خطرت على باله بصوت متحشرج: لسه البرشامة بخِتمها عليك يا «هدى» ولا..؟!

ابتسمت بطرف شفتيها: مش قُلت لك فرحت لما «أنوس» اتقتل، الوسخ ما كفهوش التسريحة اللي أنا فيها لأ دا كمان باعني لشوية من ألاضيشه والبرشامة اتقطعت يوميها.

ضحك «فارس»: يلّه مفيش حاجة بتفضل على حالها.

ـ انت مستني مين هنا يا حبيبي؟! أنا أخدمك، آه.

بمجرد انتهاء جملتها جاءت سيارته السوداء اللامعة، و»رمضان» لا يجلس كعادتهِ في مِقعد القيادة، ولكن «صبري» بنفسه يقودها، تعلقت به عيون «فارس» كتعلُقِ صيادٍ بين الأحراش، يرتقب فريسة ويترقبها، ومع لمة الساقطات حوله بدأ وداع الأكسجين للجو، وتسرب بحر من الرطوبة في الشارع، عباب أمواجه يطفح باللزوجة، فاشرأب «فارس» برأسه كي تتضح الرؤية جيدًا له، وأشعل سيجارة في مُحاولةٍ للحفاظِ على اتزانه، فلمحت الموقف «هدى»، ورأت حريق القاهرة في عينيهِ، فمسحت ظهره وقالت:

ـ هو صاحب الفاتورة دا يخصك يا «فارس»؟!

ـ يا سلاااااااام، إلا يخصني يا «هدى».

- فطمني!
- موضوع يطول شرحه.
- أمممم، تحب نخدمك فيه، لو أقدر مش هاتأخر يا «فارس»، آه.
- تعرفي عنه حاجة.
- ماليش دعوة بحياته، لكن الشيء ولزومه أعرف كل حاجة.
- فهميني تمامه في الشيء؟
- بص هو نصه التحتاني مش موجود، آه، متسجل غياب على طول، مهما ينادي محدش يُرد، وكان بيصحيه كيماوي، بس انت عارف الكيميا بتصحي شوية آه، لكن الجتة بتموت بعد كدا، ودا اللي حصل مع أخينا.

تظاهر «فارس» باللا مبالاة: طب نصه التحتاني مش موجود، بيجيلكم هنا ليه يا «هدى»؟! عشان تدعكوه مثلًا!

ضحكت غامزة: لأ أصل المحروس بسلامته «سادي»، كيفه في الضرب والربط والحاجات اللي انت عارفها دي.

تملكت من «فارس» دهشة حقيقة، وأَطْرَق لها وهي تُتابع: بُص هو مجنون تصوير، حاطط في شقته كاميرات مراقبة، بتصور كل خُرم ومتوصلة على موبايله، بيسجل كل حاجة بالفيديو، آه دا خاربها، تقريبًا بيحب يذاكر، الشغلانة لمت يا خويا.

هنا لمعت الفكرة في رأس «فارس»، انكتم، ولم يسمع باقي كلمات «هدى» وهي تَبُخ في أذنه ما تعرفه، يسمع فقط صوت عقله الذي سقطت فيه جهنم، فجأة، وضع الكون على «Mute Mode»،

لتتضح وشوشة هواجسه لأفكاره، فأقصر الطُرق لقَلْبِ الواقع هو تنفيذ الفكرة بلا تردد، مهما بَدت غاية في الخَبَل، فأعظم النقلات التاريخية للبشر كانت ضربًا من الجنونِ يومًا، قاطعها:

- عايز منك خدمة يا «هدى»، وأنا سداد ليك في أي تمن تطلبيه وأكتر، وانتِ عارفة اللي بيبص ليَّ بعين أنا أبص له باتنين.
- رقبتي ليك يا حبيبي، وماتقولش كدا ماتزعلنيش منك، انت عارف غلاوتك عندي، أنا أخدمك بعنيَّ آه.
- تسلم لي عيونك، ركزي معايا وافهميني كويس.

14

في مساء اليوم التالي، «صبري» ارتدى بيجامة منزلية، يتدلى فيها كرشه حتى أسفل الحوض بدون مشد التخسيس، تحرك متثاقلًا بمائة وثمانية وعشرين كيلو جرامًا من الدهون في شقته، حتى ألقى وزنه فوق فوتيه وثير، تمايل مُصدرًا أزيزًا ناحبًا ثم استسلم واستكان، رَنَّ جرس الباب وهو يُلقم «الجرامافون» العتيق بجواره باسطوانة أعتق، ثوانٍ مرت وإبرة التشغيل تحتك بسطح الاسطوانة، تُصدِرُ فحيحًا يطغى على صوت السماعة، التي طقطق فيها التسجيل القديم.

ـ «صبري باشا».

قالها «عماد»، مع صوت «محمد عبد الوهاب» وهو يقول: «جفنه علم الغزل»، فأغلق «صبري» الجرامافون، وهو يتجاهل يد «عماد» الممدودة في اتجاهه من أول أمس، وقال بصوت مكتوم خلف أسنانه التي يجز عليها: اقعد.. جلس «عماد» مستنكرًا الاستقبال الفاتر، ووضع ساقًا فوق الأخرى محاولًا السيطرة على أعصابه: أؤمرني يا باشا طلبت نتقابل، خير!

عقد «صبري» حاجبيه وتشابكت أصابعه فوق وسطه الواسع، وقال بعد أن زفر ليكمل الرتوش الأخيرة على حالته:

- الخير هييجي منين بعد اللي سمعته منك في التليفون؟ كان لازم نتقابل عشان تفهمني، يعني ايه اللي انت قُلته دا؟!

- أنا اللي مش فاهم، إيه ما فهمتوش! «أنوس» كان بالنسبة لنا كارت واتحرق، وصلت إنه بيهددني، هيفضح كل تعاملنا معاه، فكان لازم اتصرف بسرعة، واتصلت بسيادتك أكتر من مرة عشان أشورك، بس انت ما ردتش.

- انت ما تعرفش المصيبة اللي أنا فيها، عشان كدا ما ردتش على تليفوناتك، أنا موقوف عن العمل لأجل غير مسمى، وفيه تحقيق مع متهم في قضية عندي، ولو ثبتت إداتني هاتنفخ، واكلمك تقول إن الراجل اللي بيخلَّص سيادتك قتلته!

- يا باشا اعذرني، بس من المرة اللي فاتت أنا اتفقت مع سيادتك إن دي هتكون آخر خدمات بيننا.

هنا اندفع «صبري» من مكانه في هجمةٍ غير متوقعة ناحية «عماد»، منطاد يسقط من السماء على قرد فوق شجرة ففلقها نصفين، استقبله «عماد» فوق صدره بما يحمله من كتلاتٍ مترهلةٍ من الشحم المنفوش، الوزن زائد عن الحد المسموح لقوةِ احتمال المقعد، فانهار، وتمدد جسد «عماد» تحت مقعدة «صبري» المبالغ فيها، مما أتاح فرصة تثبيت الضابط، لحظة مرت تسحب معها روح «عماد» إثر الضغط عليه، ورئته المكتومة فشلت في استحلاب الهواء، وسمع «صبري» يقول بصوتٍ مُتعَب:

ـ اسمعني كويس عشان ما أكررش كلامي، حياتك دي كلها في إيدي، اوعى تفكر إن بمزاجك تقول لأ على خدمة أنا محتاجها، إذا كان «أنوس» مش موجود دور على غيره، أنا مش هاستنى لما أتفصل وفضيحتي تبقى على كل لسان، فاهمني، لازم تشوف لي حد الليلة، عشان يخلص لي الموضوع على بكرا بالكتير، لازم بكرا أخلص من «خيري».

هز «عماد» رأسه في تفهم مجبرًا، وقد انتفخت ملامحه ونسيَّ اسمه ومر عُمره البائس أمام عينه، ثوانٍ ثقيلة كانت كافية لينضح وجهه بالدم الثائر من ضيق التنفس، قام «صبري» مترنحًا يشدُّ أنفاسه بمعاناةٍ، بعدما اتكأ على طرف المنضدة وتشبث بحرف الفوتيه، خرتيت ينهج بعد مُطاردة عنيفة في نهرٍ تلمؤه التماسيح، كوَّم شحمه المرجرج في مكانه الأول، واعتدل «عماد» يجذب كرسيًا آخر من أثاث الغرفة، وقع عليه كجذعٍ مكسور بعد أن أكله السوس، ثم قال بأنفاسٍ متقطعةٍ كنفخٍ في قربةٍ مخرومة:

ـ يا باشا، ماتفكرش إنك ماسك عليَّ حاجة عشان تهددني بيها.

انفجر «صبري» ضاحكًا في أداءٍ تمثيلي مستعار، اهتز له جسده كله وهو يلتقط هاتفه: ضحكتني أوي يا «عمادً»، يخرب عقلك دا انت كوميدي جدًا، كنت مخبي دا كله فين؟! الله يحرق الكورة اللي بوظت دماغك.

قبل أن يكسو ملامحه فجأة الوجوم والجدية: طب اسمع دي كدا.

وضغط زر التشغيل لمقطع صوتي في هاتفه النقال، فارتفع التشغيل بصوت «عماد» قائلًا:

- يا «صبري باشا» مقتل «مصطفى» دا أنا اللي مسئول عنه، بس مش لوحدي، فلو الملف دا اتفتح في ناس كتير هتزعل، وماتنساش إن الأوامر جت لي من معاليك، فأول واحد ممكن يزعل هو سيادتك، وعمومًا مش محتاج كلامك دا يا باشا، ما تقلقش؛ «فارس» دا هيتم التعامل معاه الليلة، هيتمنى الموت، ودي تبقى آخر خدمات متبادلة بيننا.

انفرج فم «عماد» كباب حقيبة السيارة عندما يفقد قفله، وانعقد حاجباه من الصدمة وتحشرج صوته: إإ..إإ.. فأشار له «صبري» بالصمت: ما تقولش حاجة، عرفت بقى إن لو أنا روحت في داهية، حبل المشنقة هيتلف على رقبتك.

انتفض «عماد» واقفًا بحدةٍ، دار حول نفسه كالحواةِ فوق منصات العلم، الدبابير المتأرجحة على كتفيه على وشك الانفلات، فها هو يعيش على حافةِ السقوط، كل أمجاده وتاريخه وبطولاته تتهاوى، مثل أوراق الخريف في وجه الريح، دومًا تتلاعب به الأقدار، فما حياته إلا سلسلة أبدية من الهُراء، تيتم بسببِ زلزالٍ جاء خصيصًا ليُدمره، وعاش طفولته مثل اللقيط بين أبناء عمومته، يُعاني من حُطام كأنه هو الوطن المُهدم؛ لذلك لم يتم بناءه على نظافةٍ، حتى بعدما التحق بكلية «الباشاوات»؛ ألقوه في النجوع لخدمةِ المهمشين، ولما قرر الارتباط لم يجد إلا ابنة الباشا الكبير، لأنه تعلم أن ظهره المكشوف يجب أن يُغطى، ولكنه

تزوج بقردٍ يتقافز باستمرارٍ فوق أكتافه، وبعدما ذاق طعم المصلحة مع «صبري»، ها قد جاء الوقت الذي يتجرع مرارتها، فقال منفعلًا:

- لأ دا انت اتجننت رسمي! انت كدا هاتوديني وتودي نفسك ورا الشمس.
- اقعد واسمعني للآخر، الخدمة المرة دي لو ما تمتش وبسرعة أنا اللي هاتضرر.
- يا باشا من عيني بس «أنوس» تعيش انت، ومفيش غيره معايا دلوقتي، اصبر واستناني أسبوع كدا، وهاتصرف.
- «عماد»، الوقت مهم المرة دي، ما امتلكش الأسبوع دا.
- يا باشا في مصيبة تانية انت ما تعرفش عنها أى حاجة..

ثم أخذ نفسًا عميقًا وتنهد: «فارس».

عقد «صبري» حاجبيه ونظر فى قلقٍ واضح لـ»عماد»: ماله؟ مش موضوعه خلص!

- اللي ماتعرفهوش بقى يا باشا؛ إن «فارس» قتل رجالة «أنوس» الـ٧ عندي، في وسط منطقتهم.

هب «صبري» واقفًا ملدوغًا مهتزًا، وفُتحت عيناه بخوفٍ واضح، نخر وقال كلمات مُعترضة حمقاء، يُرددها كل من هبَّ ودبَّ دليل على اللا شيء، ثم دوى الصمت، إلا من ضجيج أنفاسهم المتدافعة، كقطيع جاموس بري يُطارده نمر جائع، قام «صبري» يستجدي كوب كحول يروي خوفه الذي حنط لسانه وحلقه، اتجه ناحية ثلاجة صغيرة والتقط منها زجاجة «Jack Daniel’s» مشبرة، ترتعش بجوار أخواتها، صب لنفسه كأس «Duble» بلعه مرة واحدة، لتسبح فيه كل أسماك هواجسه

المتوحشة، وتأكل من لحم قلبه المتوجس خشية، وهو يسمع استكمال حديث «عماد» المرتجف من خلفه:

- «فارس» دا طلع مش سهل، ومش هيسيب حقه، وما اعرفش اللي ناوي عليه! وخايف يكون عرف عني أو عنك أي حاجة، وعشان كدا بلاش نفتح على نفسنا فتحة جديدة، وما نعرفش آخرها إيه.
- ..!!
- أنا خايف يا باشا.

فالتفت «صبري» بوجهِ مومياءٍ فُتح قبرها حديثًا، شحُب لونه وبرزت عظامه وتآكل جلده بلا مقدمات، والكحول المثلج في معدته يفور، نظر إليه نظرة خاوية بلا أي تعبير، تيبس، جسدٌ جِبلة وروح مُفلسة، فأكمل «عماد» تأكيدًا: أنا خايف أوي.

- تعرف الراجل اللي بيبيع لحمة حمير وكبدة كلاب دا، مش واخد باله إن الفراخ اللي مراته بتشتريها وتأكلها لولاده بتبقى واخدة هرمونات مسرطنة! وبتاع الفراخ دا بيشتري فاكهة وخضار لنفسه ولأهله مُعدلة وراثيًا، التلاتة دول بياخدوا أدوية مغشوشة، والصيدلي اللي بيبيع لهم الأدوية مريض بالقلب وركب دعامة غير صالحة للاستخدام الآدمي، وكل المجموعة دي بتشربماية من الترعة والمصارف والتاجر مفهمهم إنها مايه معدنية، وفيه مدرس بيصفي دم التاجر الغشاش دا في منظومة تعليم

فاشلة ومالهاش ترتيب على العالم، وكلهم بياكلوا من قمح مسرطن استورده راجل أعمال فاسد، ومع كل دا بتلاقي تعامل مع صنايعي حرامي وإعلامي كذاب ومزور، وما تنساش إن المنظومة دي مش هتكمل من غير سياسي بتاع سبوبة، والسلسلة دي هتلاقي في آخرها موظفين مرتشين في مقابل سكوتهم عن الفساد دا كله.

العبارات انطلقت من «خيري»، تركض كوحوشٍ هائجةٍ تدهس أحراش الغابات، ترددت بقوة يملؤها الأسى، وهو جالس في المكتب الذى شهد ظلمًا وظلمات عليه منذ أكثر من الشهرين، رأيه كافٍ لتوضيح الأمور بالنسبة للضابط «إبراهيم»، الجالس في مقابلته، لم يتخيل «خيري» أبدًا أن يأتي يوم ليقول مثل تلك الكلمات في هذا المكان ولمن؟ لضابط التحقيق معه، يكشف له الطين الذي انغرس فيه أبناء البلد، بعدما سار الناس عُماة عُراة خلف شهواتهم، فسقطوا في فِخاخ الاحتياجات والضروريات الدائمة، فاستنزفوا أنفسهم؛ أكلًا وشُربًا وتكديسًا للثروات، وبعد كل هذه التُخمة لم يشبعوا، ولن يسُد جوعهم الحيواني إلا التُراب، فطأطأ «إبراهيم» رأسه منكسرًا، وهَمَّ بتمتمةٍ بضع كُليماتٍ ولكنه توقف عندما تابع «خيري»، كأنما تذكر إفادة مهمة لعباراته السابقة:

- آاااه وماتنساش يا «إبراهيم بيه» موظفين الحكومة المرتشين، عشان بيشتروا بفلوس الرشاوي الحرام لحمة وفراخ وفاكهة وأدوية وماية معدنية من اللي سبق وقُلت عليهم، وبيدفعوا الباقي في مصاريف دروس وتعليم

عيالهم، واذا اتبقى حاجة بيشتروا بيها شقق في عمارات سكنية المقاولين غاشين في الموَّن بتاعتها وبتبقى النتيجة إنها بتنهار.

- تقصد دولة بتنهار!

- أنا مش ناوي أكون جزء من المنظومة دي، بأي شكل أو لأي سبب.

تَمعضّ «إبراهيم» وعضّ شفته السفلى، استقراء المشاهد يؤكد أن خطة «خيري» الانسحابية؛ هي خير وسائل الدفاع، فقد حشدت المنظومة كل قوتها لاستعباد الناس، جاهليةٌ جديدةٌ، هو نفسه ذاق مرارة نكوص العقل والاستغلاق على الباطن، لا يعرف عن ذاته سوى أنه وريث شرعي للدبابير، فلم يكن له اختيار إلا اتباع الخط الذي سار عليه والده، خاصة بعدما قدم حياته ثمنًا لمُحاربة الأفكار المتطرفة، فقد استشهد بعد ميلاده بأسبوعٍ واحدٍ، مع زملائه يوم عيد الأضحى، حمايةٌ لمديرية أمن أسيوط سنةً ١٩٨١م، فتربى الولد يتيمًا، يتم شحنه كل لحظة كُرها للإرهابيين بمُختلف أيديولوجيَّاتهم، وما تلك المنظومة التي تُمنهِج الانحراف الآن؛ إلا وجهًا قبيحًا للإرهاب العصري، سرطانٌ مُبتكرٌ أطلقوه في لفيفِ العوام، يحلل أصحابه كل حرام من أجل مصالحهم، لذلك تمتم:

- عندك حق والله يا «دكتور خيري»، لكن من ناحية تانية أنا كان فكرتي عشان أجيب حقك ليك، أيوه عارف إن المحامي بتاع حضرتك قدم شكوى فيه للنائب العام، بيتهمه بالتعسف في التحقيقات وبالتلاعب في أوراق

القضية، لكن انت ما ذكرتش إنك خطبت خطيبته السابقة، ودا سبب كافي لتحامله عليك.

- أرجو يا «إبراهيم بيه» بلاش نتكلم في النقطة دي بالتحديد.

- حاضر، بس أنا ماقصدتش شيء، كل الحكاية إننا عايزين إن لو حد فاسد في المنظومة، ونقدر إننا نثبت فساده ما نتأخرش، عشان فساده ما يطولش بيه حد تاني.

تجرعت الجدران الأربعة السكوت بعد جملة «إبراهيم»، وظلّ «خيري» محدقًا فيه ويعتصر الكلمات في حلقه، تاهت الألفاظ في هواء صدره، لم يجد ما يرد به حتى قطع «إبراهيم « الصمت: «خيري»، انت راجل اتظلمت واتهنت بما فيه الكفاية، وربنا سبب الأسباب عشان الظلم يتشال عنك، ماتبخلش على نفسك برد حقك، وإنك تخلي اللي عمل الظلم دا ياخد اللي يستحقه، لأنك لو سكت مين عالم ممكن يحصل لغيرك إيه بسبب نفس الشخص؟!

- لا يا «إبراهيم» أنا مش موافق، أنا نويت أبعد، قدر الله وماشاء فعل، أعذرني، المنظومة دي كلها أنا مش عايز أدخل في وسطها، كفاية الشكوى اللي قدمها المحامي فيه، لكن خليني بعيد، أنا أضعف من الصراع دا، خليني بعيد يا «إبراهيم».

- ما تخافش يا «خيرى» أنا هاكون معاك، هاحميك، بس محتاجك عشان ياخد جزاء عمله، انت ما تعرفش اللي في إيديه سلطة وبتكون نفسه ضعيفة ممكن يعمل بالسلطة

دي إيه؟! وممكن يسلطها على خلق الله ازاي؟! بتبقى أسهل حاجة عنده الظلم، والحساب بالنسبة له بيكون بعيد، ودا بيزوده جبروت، ونادرًا لما حسابه بيقرب، فلو حصل؛ لازم نمسك في الفرصة ولازم يتحاسب، عشان نرفع أي ظُلم محتمل أو متوقع على أي شخص تاني بريء، الوضع مش بسهولة الانسحاب اللي انت مفكرها، صدقني «صبري» مش هيسيبكم في حالكم.

فقد جاءت قضية «خيري» لتكشف الغشاوة عن بصيرة «إبراهيم»، فعادت إليه فطرته الربانية، لكن للأسف الشديد كلماته حقيقية أكثر من اللازم، فإن الواقع هو أَشرُ الكوابيس التي يُلاقيها الإنسان، خاصةً عندما يحيا في نعمةٍ يستكثرها عليه مجتمعه، ويسعى الآخرون ـ بكل غِلٍ ـ حتى تضيع منه، فيرشِقونه بِسهامِ نظراتهم الحاسدة، ويطعنونه بخناجِرِ أفاعيلهم المسمومة، ويفرشون لَحظاته بكلماتهم المحطِمَة، ويتنمرون عليه كلما أتى أو راح، ولهذا تتحول البيئة التي يعيش فيها إلى قاع الجحيم، و»خيري» قد ذاق مرارة هذا السيناريو الملعون، أدرك أن هناك من يتنافسون في ماراثون جهنمي الطابع، ولذلك هو لا يُريد أن يكون أحدهم، فقال:

ـ دا للي ناوي يقعد له في البلد دي، أنا هاتجوز وهاخد مراتي وأسافر يا «إبراهيم»، هابعد عن البلد دي وهاروح لأي مكان في الأرض؛ ممكن نلاقي فيه احترامنا وقيمتنا والعيشة المريحة بدون لا ضرر ولا ضرار، الوطن الحقيقي

هو اللي يكفل لمواطنيه أبسط حقوقهم، وهو حقهم في الحياة نفسها، وللأسف دا مش متوفر هنا.

ـ الهروب مش هو الحل.

ـ لا صدقني الهروب هو الحل الوحيد للمعادلة دلوقتي.

ـ دا آخر قرار عندك؟!

ـ أنا متأسف جداً يا «إبراهيم» بس دا فعلا آخر قرار عندي.

سرى في جسدهِ تيارٍ كهربي وهو يعاين «خيري»، الذي وضع وجهه بين كفيه مستندًا على ركبّتيه، الدنيا كُلها تسلقت كتفيه، ظَلَّ «إبراهيم» يناديه متأملًا فلم يلتقط شيئًا، فما هي قيمة الوطن الذي لا يحلُم أبناؤه سوى بمُغادرته؟! حتى رفع رأسه وكانت عيناه داميتين ممتلئتين بالدموع، ففي أعماق أعماقه سؤال بغير جواب، يصرخ لماذا؟ لكن وضح جليًا أن كل الأمور صارت سواء، وصل إلى ذروة اليأس في حياته، وغدت السماء بلون الرصاص، فلا تعنيه العواقب كلها بعدما ذاق غِلظة السُلطة، وغلبه العذاب في زنازينها، والآن بعدما جَفَّ نبعه ومات عَطشًا في الصحراء؛ لا يهتم في أي وقت ينفجر الماء تحت الرمال، لأنه لعن تلك الأرض، ومسح من دفاتره القديمة مواسمها الخصبة، وذكرياته اللاهية فوق عشبها، لذلك قال بصوتٍ متقطع مبحوح الرنين:

ـ ما تفكرش إن دا حل سهلً بالنسبة ليَّ، دا أصعب الحلول المتاحة، ولكني مش هاستنى في البلد بالوضع دا، «صبري» دا مش شخص، لأ، دا فكرة، والأفكار مابتموتش يا حضرة الظابط.

قال جملته ثم صمت، مُفكرًا في فلسفة المعصية، التي تدفع المرء لِفعلِ ما لا يُرضي الله، بالرغم من استحالةِ فِعل ما لا يريد الله! وهذا ما يجعل كل طاغية يستمر فيما يفعله، لأن استقراره قد زين الظلم في نفسه، وهذه المشيئة الربانية التي تجعله ابتلاءً للناس، فهل كل ما فات كان بإرادة إلهية؟! ولماذا؟ فتجربة «خيري» أثبتت أن نعمة الرب لا تتحقق إلا بعد دفع ضريبتها، إذن فالعذاب لا يتناقضُ مع الرحمة، بل هو ثمنها، وفي أحيانٍ كثيرةٍ يكون جوهرها، وما مجيؤه اليوم إلا احتفالًا بالمنحة الربانية إليه، فتعلَّقتْ عيناه الغائمتان بعقربِ الساعة الذي يدور خلف «إبراهيم»، تبدل وجهه، تهلل محياه، وهبَّ واقفًا ودار حول مقعد «إبراهيم»، يتأمل المكتب باسمًا:

- السجن دا كان وش السعد عليَّ، ومعرفتكم هنا عملت ليَّ اللي عمري ما تخيلت إنه يحصل، وبالمناسبة السعيدة دي مش هينفع أعزم حد قبل منك انت و»الدكتور بهاء»؛ على حفلة خطوبتي.

ابتسم «إبراهيم» ووقف بدورهِ واتجه إلى «خيري»، الذي يقف بجوار الشرفة وينظر للفراغ، واحتضنه بحرارةٍ وقبل وجنتيه بحبٍ واضح، ثم قال: ألف ألف مبروك يا «دكتور خيري» ربنا يتمم بخير، بالتأكيد لازم آجي، انت فعلًا أخ عزيز جدًا عليَّ.

- هاستأذنك بقى عشان أروح أعزم «دكتور بهاء».

وانصرف «خيري» بخطواتٍ تقرع في رأس «إبراهيم»، الذي جلس مهدودًا على كرسيه بوجهٍ جامد، واجمٌ، ضمّ ذراعيه على صدره، ثم قطب جبينه لترويض الوحوش المفترسة في رأسه، وعاقدًا الأمر فى

عقله، يريد ولا يريد، فالأقدار جميعها مكتوبةً في الألواح، وصحيح أن المصائر كلها مرهونة بقراراتِ أصحابها، لكنه لن يُشارك بتخاذله في اللهو بالخواتيم، ومن مكانه سمع بعض الأسرار في رهبةٍ، لكنه سيمتلك خارطة المدينة التي ضجت بظلم العباد، فقد تأكد من أي صوب تهب عليه رياح الشر، وآن الأوان لغلقَ الباب في وجهها، عَلَّ ما يفعله يُجمِلّ سيرته عندما يحكيها لأولاده، لأنه بريء من المقاصد السوء، ويكفيه سريرته النقية، سيقفُ لـ»صبري»، فقد تأكد أن أفعاله هي صورة للإرهاب المقنن. و»إبراهيم» قد وهب نفسه آنفًا لمحاربةِ الإرهاب.



حين أسند «صبري» رأسه على عجلة القيادة في سيارته، تعطل عقله عن العمل، صدأت تروس دماغه وتآكلت حوافها، دسّ المفتاح بترددٍ وهو يذوق طعم دُخان السجائر لأول مرة، استوت عنده رائحة حريق التبغ برائحة حريق أحشائه، ثوانٍ لا تُبالي نهشته وهي تنساب تدريجيًا من عُمره، قبل أن يُزمجر المحرك، تحركت الإطارات فوق الأسفلت تُخربش فيه كل بِضعة أمتار، بسبب حركته المتلعثمة فوق المكابح، يسير كطفلٍ يخطو فوق عتبة بيته إلى الشارعِ للمرةِ الأولى، وبين إشارات المرور وبعضها تنقر صور الطريق في وجدانه، والأفكار تتزاحم على عقله مثل طيور الأبابيل، ترمي هواجسه بحجارةٍ من سجيل.

المصائب لا تأتي إلا بالجُملة، فتبيع وتشتري فيه قطاعي، الحكاية بدأت من ليلة أمس بعدما صرف «عماد عتمان» كما أحضره، عفريت مِصباحه فقد قدراته الجهنمية الخارقة، وكإجراء اتقائي على الشبشب الذي لُصِق في خِلقته من «عماد» اتصل بـ «هُدى»، خدمة التوصيل

المجانية للدعارة حتى باب المنزل، فهو يشعر بمُضاعفاتٍ خطيرةٍ؛ بعد الركلة التي يُعاني آثارها في قضية «خيري»، الموضوع تراكم فوقه ويُنغص عليه حياته، ولكن تقنيته الدفاعية ـ مع الرخيصة التي جاءته ـ نجحت، وانتهت الليلة، أو هكذا توقع.

بعد عصرِ اليوم استيقَظَ كعادته، تمطع في سريره كوحيد القرن في موسم التزاوج، ثَم تدحرج حتى الكنبة الموجودة في دورة المياه على هيئة حوض استحمام، ترك الماء يتخلل أعضائه المتداخلة، يغسل من فوقه خطايا البشر جميعًا، خرج مبلولًا تحت «البُرنس» وبحث عن هاتفه لإجراء مكالمة، فلم يجده! قَلَبَ الشقة عاليها أسفلها، نبش في كل أركانها، هَبَّ كوبور الجاز في وجه الفلبينية، فأرداها مخصوم منها نصف الشهر، نَقَّبَ في كل زاوية من زوايا المتاهة التي يعيش فيها، حتى تسحب اليأس إليه وأعياه الجهد، فجلس على طرف أريكته يحتسي قهوته؛ التي أعدتها له خادمته الصفراء وراحت في داهية، تجرعها مرة واحدة على غير عادته.

عرف جيدًا من هو اللص الذي امتدَّت يده نحو أشيائه، وكم كانت تلك الأشياء ثمينةً جدًا؟! نعم هي العاهرة التي روضته ليلة أمس، التي امتص رحيقها ومضغ تضاريسها وبصم على كل منحنياتها، حَاوَلَ أن يُطمئن نفسه في إمكانية استرجاعه، ولكن الأفكار اقتادته مرة أخرى إلى أهمية محتوياته، ماذا لو تسربت الألغام الموجودة به؟! كل مُصيبة ارتكبها موجود نسخة منها عليه، كل كارثة شارك فيها هناك ذيل منها يلهو بداخله، خوازيق تكفي الكرة الأرضية كلها كي تمنعها من الدوران.

هَمّ بالنزوحِ إلى وكرها حتى يسترجعه، ولكنه تذكر الخُراج الذي ينتظره في المستشفى، ارتدى ملابس رياضية على غير عادته، ووضع في جيبِ بنطالهِ مسدسه الشخصي، بعدما زوده بكاتمٍ للصوت، سبق إصرار وترصد لجريمة قتل مرتقبة، بعد المغرب شحن نفسه في سيارته شحنًا بدون «رمضان»، انتهى من سرد ذلك الشريط، عندما وصل أمام المستشفى التي يرقد فيها «خيري»! هذا ما أوهمه «إبراهيم» به، وذلك قبلها بيومٍ واحد، عندما طلبه في مكتبه ليُعاتبه على تحريات القضية، فهي التي أودت بمستقبله النيابي، نزل من سيارته وتمشى بخطواتٍ حاول أن يصبغها بثقةٍ مفتعلةٍ، يُخبئ ارتعاشته في الـ «Training Suit» مثل جوال القطن.

- التحريات يا فندم اتعملت بإتقان، بضمير! واتقدمت رسميًا لرياسة النيابة، وعمومًا المتهم «خيري» لسة في المستشفى بيتعالج، والتحقيق لسة هيتفتح معاه من جديد، بعد استقرار حالته، أي اعتبارات تانية أنا ماليش دعوة بيها.

صوت «الضابط إبراهيم» ما زال في رأسه، ولهذا هو هُنا ليمنع التحقيقات الجديدة بأي ثمن، وها هو يتحرك بين ممرات المستشفى، في الصمتِ الذي فرضه الليل الخامل المنسال على القاهرة، طائرة تعمل بنظامِ القيادةِ الآلية تقصد حجرة «خيري»، وقف أمام الباب الأبيض واضَعًا كفه على صدره، في مُحاولةٍ لشد لجام الضربات في قلبه، فأحس بافتراس شحمه في عظمه مع كل نبضة، سحب شهيقًا عميقًا وزفره متثاقلًا، استعدادات غواصة في المحيط القطبي، بضع لحظات

انسلخت من عمر المشوار حتى يُطَمئِن نفسه ويهدئ من روعه، والتفت يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا، اللهم إلا شيطانه الذي ركبه ودلى قدميه.

رغم هذا استلمته رجفة، اجتاحت أصابعه وهو يرتدي «جوانتي طبي» ليُخفي آثار بصماته، ثم فتح الباب واستقر خلفه يمضغ أعصابه، وقف للحظات يستند بجانبه على المقبض الذي غاص في دهونه، يده اليسرى على صدره المكركب الأنفاس، ويده اليمنى في جيبهِ ممسكة بمسدسه الصغير، ثم توجه إلى السرير الوحيد في الغرفة، يتحسس طريقه وسط الظلام، حتى لا يلطش في أي شيءٍ، وعلى هدايةِ بصيصٍ من نورِ الشارع، الذي يعبر من فتحة الشباك، ليسقط ضيه على منضدةٍ، موجود عليها محتويات طبية، حقن وسرنجات وأشعات وبعض المحاليل، فوسوس له شيطانه بفكرةٍ أخرى، لتنفيذ ما ينتويه بشكلٍ مختلفٍ ولكنه أكثر كمالًا.

اتجه نحوها، وانتقى سرنجة فارغة، سحب الضاغط مستقبلًا فيها الفراغ، بضعة سنتيمترات من الهواء عبروا إلى داخل الحقنة، حمولة كافية يلقيها في وريدٍ نافر من «خيري»، لتصنع له جلطة عاتية ذات شأن، تُريحه من هموم الدنيا، في خبايا الخبايا، فلا منٍ شاف ولا من يدري، ورغم قراره الَجريء، فإنه وقف للحظة ممسكًا بطرف السور الحديدي، المحيط بالسرير ليلتقط أنفاسه، مُقاومًا رجفة انتابت أطرافه وبعض هذيان يدور من حوله، ففي كل الأحوال هو أجبن من أن يقتل، مرت اللحظة تنحل في وبره، أبد الدهر تمشى في ثانيةٍ إلا ربع عليه، دفتر حياة «وكيل النيابة» فَرَّ بداخل باله، اضطرب، ثم أكمل طريقه وهو يسحب الملاءة عن السرير.

وفي نفس اللحظة، فجأة أضيئت الغرفة كلها، دفعةٌ واحدةٌ، وظهر السرير الفارغ أسفل الملاءة، خرجت حدقتاه من محجريهما بقلةِ عقلٍ تتأمل المرتبة الخالية، وعينه تضاعف بؤبؤها، تجمد «صبري» ذهولاً وهو ممسك الملاءة بيده اليسرى، وباليمنى ممسك بسرنجة الهواء، جريمة مكتملة الأركان، دُقَّ الزار في وجدانه، فالتفت بوجه عرقان وملامح تهتز ـ كمريض الحُميات ـ نحو الباب، الخازوق انطلق ولن يلبث إلا أن يلبسه، مَيَّز في وسط وهج النور المفاجئ جسدًا ممشوقًا وملامح يعرفها جيدًا، ولكن رأسه فيها جيش نمل ينهش لحم ذاكرته، فتأكله، يُريد أن يخربشها بأظافره، فلم يتبين هذا الذي اقتحم المشهد، وشاهد ما كان يُقبل عليه.

ـ مساء الخير يا «صبري باشا».

هذه النبرة يميزها «صبري»، لكن تأبى دماغه عن إسعافه، تأتيه البيانات متقطعة كصوتِ اتصال محمول خارج التغطية، تَذْكُرُ له اسم صاحبها بصوتٍ معدني مهزوز، أو أن العيب في استقباله الضعيف، تتقاطع الحروف بداخله «إ..بـ....هـ..»، ما زال مغمض العينين، من الشمس التي نزلت فجأة لتنام في سقف الغرفة، ممثلةٌ في شكل اللمبة الموفرة الباهتة، ورغم نورها الواهن إلا أنه وضع يده حاجبًا لشعاعه حتى يعتاد عليه، فأمثاله يعيشون فقط في الظلِ، لو لمسهم الضي يحترقون كمصاصي الدماء، تجمدت اللحظة؛ حتى لمح في قبضة الزائر فوهة مسدس ٩ملم مصوب إليه، انتابته رعشة تزحف كثعبانٍ بين مسام جلده، كهربة تزداد فولتاتُها في أطرافه، وزلزال بقوة ٩ريختر مع كل ملم من المسدس، ضرب أعصابه، فسقطت من قبضته السرنجة.

ـ اهدا يا «صبري باشا».

سمع الصوت القوي مرة ثانية فلم يميزه، فجاهد حتى يقول: مين؟!

ـ ياااه، بقيت أعمى القلب والنظر!

بدأت عينا «صبري» تعتاد الضي، وبهدوء بدأت تميز تقاسيم وجه الواقف أمامه: «إبراهيم»!

قالها «صبري» بدهشةٍ ثم أغمض عينيه وتمتم مستسلمًا: هي دي النهاية!

15

«يا عم سلامة راحت فين السلامة..والحب والحنان»

«وليه الغلابة..آااه وكلاها الديابة..والقسوة في كل مكان»

ارتفع صوت «حكيم» عبر مكبر الصوت، من الفلوكة المتهالكة التي تشق طريقها فوق سطح النهر العتيق، مقدمتها المدببة الخضراء المفروشة بالصدأ تكسر صفحة الماء المسالم، تُقشره على الجانبين، فتُحدِث موجات بيضاء مُتتالية في المدى الأسود لمجرى النيل، وتتراقص الإضاءات ـ مختلفة الألوان ـ معكوسة على الماء، فوق السطح وبين المصطبة التي أخذت حرف «U»، والقوائم الحديدية المجدولة المتجهة نحو التعريشة الصاج المطعمة بالخيزران، هناك فتاة تتلوى مثل الجرذ المسموم، ترتدي جلبابًا قصيرًا وتتحزم بشالٍ فلسطيني، جسد مدكوك في المنتصف ذات نهد ناهد، تتمايل بين المتكئين على الأرائك الخشبية على الجانبين، تركت شعرها الغجري متحررًا بلونه الأسود الفاحم يلهث خلفها، تُلقي أثيره الرخيص على أنوف المحيطين بها، فيطغى على نكهة الدُخان الأزرق الذي يخرج من

سجائرهم الملفوفة بزيت الحشيش، بجانب شمسية ضخمة من الخوص وارتهم، مدعومة بألواح بلاستيكية قاتمة.

وفي موضع متميز بجوار الرُبان، جلس «محمود» ممسكًا بزجاجة «Meister» ويشحن سيجارة مُفخخة باللهب، خطةٌ محكمةٌ لمداعبةِ خياله، فيُحلق فوق رؤوس المتخدرين على النهر، يستلقي بجواره «فارس» على ظهره عاقدًا ذراعيه خلف رأسه، بينما تعلقت عينه بحركة السحاب، لكزه «محمود» وناوله السيجارة، فأمسكها «فارس» ثم التقمتها شفتيه، استحلب حشيشه بنفسٍ طويلٍ، كتمه بداخله حتى داعب طبقة الأم الجافية، وزفره في بطءٍ ملولٍ، يتعمق في الموسيقى، تمثالٌ يحشش وهو شاخص في الخواء، ينكُش إيقاع الأغنية في نواياه، هزج اللحن الثائر يُدغدغ خواطره، فحتى في الموسيقى صوت الطبلة أعلى من صوت القانون!

في حين مال «محمود» على رجل في العِقدِ السادسِ من عمره، ذي بشرة بُنية غامقة ناصعة وشعره ملفوف، يرتدي جلبابًا صعيديًا رمادي اللون فوقه لاسة، حافي القدمين، يُمسك المرساة وينظر للخارج نظرة اللا شيء، قال له «محمود» وهو يناوله زجاجة بيرة؛ استخرجها من شنطة تحمل تموين الليلة: امسك يا مصباح، هي المزة اللي زي الحية دي جديدة؟!

أمسك «مصباح» الزجاجة: انت منفض لنا يا «محمود باشا»، وما بقيتش بتسأل زي الأول، عمومًا أيوة دي أول ليلة لها هنا.

«يا عم سلامة ما تقولي في إيه..هي القيامة قامت ولا إيه»

كان صوت «حكيم» يصدح بنهايةِ الأغنية، وارتفعت صوت الخاتمة الموسيقية، فبدأت الحيّةُ في التمايل على الزبائن لتلتقط تحياتهم المالية، كان كل من في الجمع يرفع يده بما يقدر عليه، وريقات مالية فئة الخمسين أو المائة جنيه، ويضعها بيديه في حمالة صدرها ويتحسس ما لذ له من تضاريسها، حتى اقتربت من «فارس» الذي تحاشاها، وظلَّ ممددًا يتأمل لمعة نجمة خافتة، فقد اعتاد تجاهل الأهلة، ينفث دخانه الأزرق بمزاجٍ، فتركته ومالت على «محمود»، فابتسم نصف ابتسامة سمجة، وأخرجٍ مائة جنيه ووضعها في حمالة صدرها، هَمّت بالانصراف لكن «محمود» قبض على رسغها فأوقفها، وهو يقول بابتسامةٍ واسعة: لأ استني رايحة فين؟

ومَدَّ يده مرة أخرى في حمالتها، فأخرج ورقتين ماليتين من فئة الخمسين جنيهًا: أنا كنت بادور على فكة لـ»مصباح»!

ثم التفت لـ»مصباح»: ما تقولها حاجة يا «مصباح» دي ما تعرفنيش..

وقبل أن تفرش له الشال الفلسطيني، لحقها «مصباح»: امشي انتِ يا «منالـ «.

حَطَّتْ الفلوكة رحالها، عند المرسى الخاص بها أمام «ماسبيرو»، وقام المزاجيون من سكراتهم، يتمايلون على السلم الخشبي الذي يقود للبر منصرفين، بينما بقيَّ «محمود» ومعه «فارس» مضجعًا كما كان، وقال: اعملنا شاي يا «مصباح».

ـ عيوني يا «فارس باشا».

تزحلق «مصباح» ممسكًا بذيله بين أسنانه، نزل من فلوكته تاركًا أصحابها فيها، وعلى ضفة النيل أقام موقدًا من الخشب، وضع عليه بَراد نُحاس مُخربش وأشعل النار، تابعه «فارس» بنظره، حتى تحدث «محمود»: إيه يا شقيق الحاجة المهمة اللي عايزني فيها؟!

اعتدل «فارس» من تكويمته، وألقى الفلتر الكرتوني لسيجارته، ثم نظر لصديقه وأخرج من جيبه ذلك الهاتف الثمين: امسك.

التقطه «محمود» في الهواء وهو ينظر له باستغراب ويحاول فتحه فلا يستجيب، فقال: إيه دا؟!

ـ تليفون «صبري»، عايزك تفُك شفرة الـ «Password» وتفتحه.

ـ جالك منين دا؟!

ـ فاكر «هدى» بتاعة «الوراق».

ـ أممممم، فاكرها طبعًا، بس رسيني جالك ازاي، واتكعبلت في «هدى» فين؟

جاء «مصباح»، يحمل كوبين من الشاي بديلًا عن الإجابة وانصرف، ضخ «فارس» المشروب الرسمي للمصريين في معدته، ماء مجارير مغلي مع نشارة خشب يُسمى شاياً، وظَلَّ «محمود» يتابع «مصباح» حتى ابتعد، فقال متداركًا: «فارس»، أنا مش فاهم حاجة، ما اعرفش انت عملت إيه مع «أنوس»! وما اعرفش وصلت لـ»هدى» ازاي؟! وإيه علاقتها بموبايل «صبري» اللي معاك؟!

تابع «فارس» شرب الشاي، ثم نظر إلى السماء دون تعقيب، جامد الملامح بلا انفعال، يرتشف بشرودٍ كعادته الأخيرة، صحيح أن الإنسان السوي يحتاج الانفراد بنفسه دومًا، خلوة ذهنية يتفاوض فيها مع نجواه، فيُعيد رسم خريطة الواقع، بما يتناسب مع حجم انفعاله، ويبني في خياله ترتيباتٍ مُفصلة على حجم نواياه، وهي لحظات عزيزة على المرء؛ مُحرمٌ على غيره مشاركته فيها، فنظر إليه «محمود» وكأنما يتعرف عليه لأول مرة، حاول فتح أي كلام، يكسر به الجمود الذي انتاب الجلسة، لكنه فشل، ظلّ صامتًا يرمق «فارس»، يتفحص ملامحه المجهولة، لحيته الكثة وشعره الطويل، يُزنهر بعينه في كلِ شيء، مُخيفٌ، سمعه يقول:

- عايز تعرف إيه يا «محمود»؟

- عايز اعرف راح فين صاحبي؟!

- أنا مرمي قدامك يا «محمود»، بلاش كلام الروايات دا وحياة أمك..

- دا مش كلام، شوف نفسك بقيت ازاي؟!

قالها «محمود»، وثَبَت شاشة الهاتف الزجاجية أمام وجه «فارس»، تأمل ملامحه المعكوسة ولم يستطع تجاهلها، فقد حفظ مُحياه، لكن، الجميع يُشاهدون ثباته الظاهري، وتُرعِبَهُم وحدته، فلم لا يطَّلِع أحدًا على خرائبه الداخليه وشروخ روحه؟! فمن يقدِر على الولوج إلى عوالمه الدفينة بكل غرابتها؟! مصمص شفتاه وهمَّ بقولٍ شيء؛ حينما أخرسه «محمود» ثانيةً، وضع يده على شفتيه وقال: استنى، سُك على الكلام دا، واحكي لي اللي عايز تحكيه، عارف إن جو انت اتغيرت والهبد دا ما بياكلش معاك عيش.

ـ يا «محمود».

فزَّ «محمود» ملسوعًا ونظر لـ»فارس»: لأكدا البداية غلط! انت ناوي تلف وتدور عليَّ، كأني حد غريب، ماتنطق يَاله، محدش في الدنيا هيخاف عليك ويساعدك قدي، انت واخد في وشك ومبعد عني ليه كدا؟! لو كل الخلق اتخلت عنك أنا اللي هاسندك.

الصداقات تستمر فقط عندما تُقدِّر جميع الأطراف الظروف، ولذلك «محمود» سَيجن، لأنه يحتمل «فارس» بكل ما فيه، فالحياة غير ممكنة بدون حبٍ صادق وصُحبةٍ وفية وأكلةٍ شهية، وصداقتهما ـعلى مدار العمرـ لا يُمكن اختزالها في سهرةٍ لطيفة، أو نُزهة على ضفاف النيل، يلُفهما نَفَسُ دُخان وتغسلهما رشفة كحول، وإنما قوتها في تضمُنِها لزحزحةِ أثقالٍ وتبَّني هموم ونكد وحَمْل تبعات، وقد كان ميثاقهما دائمًا مواجهة الشدائد وخوض الأهوال سويًا، وإذا كان ما بينهما ادعاءً فليختبئ كل منهما في وكرهِ ويُغلِق عليه بابه، لأن الله يمتحن النَفْسُ فيما تدَّعيه، ولهذا قرر «محمود» السير على الأشواك معه، لأن أُخُوَّتهما ليست جُزافية في وصفها، ولا مُرتبطة بأهواء البال المضطربة، لكنها ارتباط مصائر، أحس به «فارس» الذي يَرُج كوب الشاي المُتَرب بين يديه وقال:

ـ برضو عايز تعرف إيه؟!

فجلس «محمود» خاضعًا وربَتَ على فخذه: قُل يا صاحبي انت عملت إيه مع «أنوس»؟ وإيه اللي رماك على «هدى» تاني؟

ثم أمسك الهاتف، الموضوع على المصطبة الخشبية بجوار «فارس» ورفعه: وإيه حكاية موبايل «صبري» اللي معاك دا؟!

ابتلع «فارس» ريقه المر بآخرِ رشفةٍ، ثم جرجر باله، الذي اختلط به الحشيش بلطشاتِ الهواء؛ بالأغاني المتداخلة على المراكب المتسربة بمحاذاتهم، سبب له المزيج تخبطًا سمجًا لم يتوقعه، وصُبغت الحياة في الفتلة الداخنة الرفيعة بين الأزرق والبنفسج، عن حكاية الحريق الذي يشمه في أحشائه، من انتقام تجرع لذة شرابه فقط وما زال عطشًا، السر الذي يحملاه هما الاثنين، «فارس» وقراره، يجب أن يطلع عليه ثالثهما «محمود»، «كان» دائمًا ترتيبه الثاني في المشورة بعده، كلمة «كان» أربكت ملامح «فارس»، لكنه ملأ صدره بهواءِ النيل، ثم نظر لهلال السماء، يستدعي التدابير الربانية حول وهجه الفضي، أمه دائمًا تقول: «العبد في التفكير والرب في التدبير»، وهو يقف بعدما قتل الأمر تفكيرًا، وتتقاطر دماء سريرته الممزقة من يديه، لذلك قطع الطريق على تردده وقال:

- ماشي يا «محمود» هاحكي لك كل حاجة.

ثم التفت إليه بحزم: بس الأول هتعرف تفتح لي الموبايل دا؟!

- أكيد، عيب عليك دا لعبتي، بس احكي لي بالتفصيل الممل، ومن الأول وحياة أبوك.



الضوء المفاجئ الذي تلقاه «صبري» أجهد حدقتيه، فرفع يده اليسرى المرتعشة مُظللًا على عينيه، تفاصيل الغرفة أصبحت حادة وتزهزهت الألوان أكثر، تجتاحه هلوسات مُقنعة بحركة القيشاني من الجدران إلى السقف، حتى المرتبة التي دهسها القطار، الملقاة فوق السوست الحديدية للسرير؛ ضجت فيها الحياة، ظهرت فيها بُقعة مُشجرة

تتحرك أغصانها نحو الأرضية، فتتشابك لبلابيًا أسفله، والرخام يمتلئُ برؤوسٍ سوداءٍ، بدأت تتمشى كجيش خنافس، ما زال الضي يُرّخِم عليه، فتحاشاه وهو ينظر إلى وجه «إبراهيم»، يتأمل ـ بغيظٍ مكتوم ـ ابتسامته الشامتة، ومسدسه الموجه نحوه، صامتًا كجبلِ الثلج الذي اغتال الـ «Titanic».

ـ قُل كل اللي عايزه واخلص يا «إبراهيم».

اكتفى «إبراهيم» بنفس الابتسامة المستفزة، وهو يتابعه حتى جلس على السرير الذي كان سيفتك بصاحبه، ثم قال دون أن يغير من وقفته، أو من تعبيرات وجهه الساخرة، أو حتى يخفض مسدسه: كان عندي ظن إن ممكن يكون لسة فيك شيء من الإنسانية!

ثم تضاعف قطر ابتسامته: بس نسيت صحيح «إن بعض الظن إثم».

قال جملته وغمز لـ»صبري» الذي ازدرد ما بقيَّ من ريقه، بصعوبةٍ، وخبط بشدة على صدره: عرفت ازاي؟!

تحرك «إبراهيم» بضع خطوات لداخل الحجرة بعد أن أغلق الباب، وجلس على كرسي صاج في مُقابلة السرير، ومدَّ قدميه على سالمنضدة التي التقط منهاً «صبري» للتو السرنجة وقال بعد أن زفر: دا راجع للحدس بتاعنا كرجالة شرطة، انت خايف إن «خيري» يشهد عليك، عشان كدا رميت لك طرف الخيط بإنه في المستشفى، وتوقعت إن معاليك لازم تتصرف في أسرع وقت قبل إدانتك، الطُعم دايمًا بيستغل لهفة السمك على أكلة سهلة، دا شغل ظُباط انت ما تعرفهوش، بس تعرف إيه الل ما توقعتوش؟!

- ...!!
- ماتوقعتش إن جنانك يوصلك إنك تيجي وتخلص على الراجل بنفسك، أنا شطحت بأفكاري وتخيلت إنك هتبعت حد يعملها، وكنت هاقبض عليه برضو وهيوصلني ليك، بس ما خطرليش إنك مرعوب؛ لدرجة إنك انت اللي تنفذ كمان!
- لا ما أصل الراجل اللي بينفذ لي تعيش انت.

تعجب «إبراهيم»، من اللا مبالاة التي اعترف بها «صبري» وهو يضع يديه الاثنتين في جيوب بنطاله، حالة استسلام، تؤكد أن وكيل النيابة يعرف أن لا مفر له، مرايا منصبه اللامعة كُسرت، ولن تعود كما كانت مهما حاول ترميمها، فمُداواةُ الزجاج المكسور ضربًا من الخيالِ، كانت جلسة «صبري» في غير اتجاه موضع «إبراهيم»، الممدّد بجوارهِ مصوبًا مسدسه الميري تجاهه، فقام من جلسته ولف حول سور السرير الحكومي، مُتفاديًا حركة خطوط البلاط، التي تتلوى كالحيَّات بين الأغصان المتساقطة من المرتبة، فما تزال الهلوسات تسيطر على تركيزه، حتى جلس في مواجهة «إبراهيم» وأقرب لفوهة مسدسه، بنفس طريقته السابقة، ممددًا قدميه العِجالي متقاطعتين كحرف «X» نحو الأسفل،، حركته استثارت خلايا استشعار الضابط؛ ضد أي فعل مفاجئ من «صبري» الذى تجمد، ينظر إليه في تمعن، هناك أمر غامض في رد فعله، قبل أن يرفع حاجبه الأيمن ويقول:

- أفهم من كلامك يا «إبراهيم» إن مفيش بلاغ رسمي ضدي!

- أيوة يا «صبري»، لكن دا ضبط متلبس مش محتاج بلاغ رسمي، الله يا باشا ما انت سيد العارفين!

- أيوة مفهوم طبعًا، أنا بس باستفهم عن موقفك الشخصي.

عقد «إبراهيم» حاجبيه وقطب جبينه، نكش أكوام التفسيرات فلم يفهم مقصده: مش فاهم!

- يعني دلوقتي جاي تمسكني متلبس لوحدك، من غير بلاغ، أو قوة أمنية، أو حتى أفراد دعم في حالة مقاومتي مثلًا.

- أتمنى يا باشا الموقف يمشي بدون شوشرة على سمعتك.

ابتسم «صبري» بأسنان غامقة: أممم شوشرة، بمناسبة الشوشرة هل انت سامع حاجة؟!

بتلقائيةٍ أنصت «إبراهيم» جيدًا، فلم يعثر إلا على صخب أنفاسهما فقط، ثم بعد بُرهة: لأ مش سامع أي حاجة!

ضحك «صبري»، ثم فَكَّ تقاطع ساقيه الرافض للوضع: فعلًا يا «إبراهيم» مفيش أصوات، دا معناه إن مفيش حد في الممرات، أو أي نشاط من أي نوع، أو حتى عناصر من أمن المستشفى مثلًا، أو أطباء أو حتى عيانين ممكن يشهدوا باللي هيشوفوه!

بَرَقت عين «إبراهيم» وهو يستنطق ملامحه الباهتة، ومال برأسه بزاوية حادة وقال باستنكار: وهو إيه اللي هيشوفوه؟!

- الجريمة دي.

قالها «صبري»، وانطلقت من جيب بنطاله رصاصة مباشرة أصابت «إبراهيم»، خرجت من مسدسه صامتة بسبب كاتم الصوت، واصطدمت في أسفل الكتف الأيسر لـ»إبراهيم»، انفجرت نافورة دم من مكان

الرصاصة، غطَّت صدره بالكامل في أقل من لحظة، ضاعت صرخته المتألمة مع عويل سيارة الإسعاف، التي اقتحمت حديقة المستشفى بالأسفل، يُصاحبها دويها المعروف، وارتج جسد «إبراهيم» مترنحًا وهو يرتد بكرسيه للخلف، فسقط على ظهره، طار من يده مسدسه وانقلب المقعد فوق رأسه.

دبت الرعشة في جسد «صبري» الهُلامي، فقام يهذي مُتعثرًا في العشب الأخضر الذي ينمو في أرضية الغرفة، مُحيطًا بجسد «إبراهيم»؛ يبتلع جثته التي تفترش الأرض بأطرافٍ متخاصمة، وملامحه تنطفئ تحت تقلصات الألم، وبركة من دمائه الداكنة تتسع، لتسقي جذور الأعشاب النابتة في هلوساته، فاقترب «صبري» منه يتأمل أنفاسه المهترئة؛ كمنديلٍ ورقي مستخدم يتلاعب به الهواء، وجسده المثقوب يرتعش بكهربةٍ لا تتوقف، وكزه بأسفل حذائه الرياضي فقبض على قدمه بأصابع مرتخية، ثم انفكت من نفسها برعونةٍ في لحظتها، شحب لونه واستسلم للخلاص، أخرج «صبري» مُسدسه، يتصاعد من فوهته بقايا دُخان ثم وجهه تجاهه، قبل أن يشعر بهرجِ الخطوات التي تتكاثر في الممرات، عربة الإسعاف تحمل لهم زائرًا جديدًا، فخشيَّ أن يستمع إليه أحد، فوشوشه:

ـ خسارة الرصاصة التانية يا «إبراهيم»، انت كدا كدا ميت!

تركه يلفظ أنفاسه الباقية، يُسلم روحه في الوقت الذي تختاره، أُصيب «إبراهيم»، في سادس الليالي العشر من ذي الحجة، لم يتخيل أنه سيموت بالبطيء نازفًا، كما حدث لأبيه ـ سلفًا ـ في عيد الأضحى! بينما خبأ «صبري» المسدس، وتمم على مظهره ومسح عرقه، ثم أطفأ

النور، فتح الباب برفقٍ، فتحة تكفي لعبور ثور، حشر فيها رأسه حتى طلَّت تتلصص، نظر يمينًا فلم يرى أحدًا، ويسارًا وجد ظهور العاملين في معاطفهم البيضاء، يتدافعون نحو الأسفل، فأخرج باقي كتلته وأحكم إغلاق الباب، ثم خلع الجوانتي الطبي ودسّه في جيبه، انصرف بسرعةٍ مقاومًا دوار يجتاح رأسه، وقشعريرة تتسحب بين مسامه فيرتجف لها جسده.

- يا رفيق افهم، ربنا خلقك إنسان بتغلط عشان تتعلم، ما ينفعش تبقى إله!

انطلقت من بين شفتي «محمود» بانفعالٍ، فخرجت الحروف بتوكيدٍ مُبالغٍ، قوية، يتردد صداها بين جنبات النهر، حمله النسيم حتى سمعه المارون القلائل على الكورنيش، حتى «مصباح»، اشرأب من أسفل الفلوكة يتابع ما حدث بين الرفيقين، شاهد «محمود» واقفًا يضرب كفيه ببعضهما بعصبية، حتى خُيل إليه أنه سيمزق نسيج جلده، يدور حول نفسه كالمجاذيب في حلقاتِ الذِكر، يتحاشى نظر «فارس» الذي يخترقه كمنظارِ التقريب في بندقيات القنص، ثم التفت إليه ـ نصف التفاتة ـ يحدجه بريبٍ زَمَّ من أجله شفتيه السوداوين، وتسمر يُتابع الفراغ، يترنح، مع حركة الفلوكة المستسلمة لانسيابية الماء، فلوّح بيديه نفيًا، عندما عاجله «فارس»:

- أنا مش عايز أبقى إله، لأن الإله بيحاسب، أنا بقى عايز أقرب لهم الحساب دا مش أكتر!

- لأ، اللي انت حكيته مش ممكن يطلع منك يا «فارس»، واللي ناوي تعمله مستحيل يكمل بالشكل اللي انت مخطط له!

رأى زوال المعاني من ملامح «فارس»، ولما تلاقت العيون تَلَجَّم، فنفض «محمود» عن نفسه الذهول، واقترب من صديقه يجلس بجواره، التقط كوب «النشارة» الصاقع يمصمص به الخطة، يدخل في مُشاوراتٍ دبلوماسيةٍ مع سرب صراصير، يزحف ويطير في رأسه، تَحُكّ أرجلهم المشعرة في أفكاره الجافة، يخشَّى حريقًا يقترب بسببِ شرارةِ الاحتكاك مع حطب أعصابه الجاف، لم يعي كل أقاصيص «فارس»، يضرب رأسه ألف مرة على سبيل الإفاقة، وفي النهاية اكتشف أن ما سمعه حقيقة، فسلك طريق النصيحة:

- ياض افهم، ربنا سترها معاك، اتلم وكفاية.
- وإذا أنا اتلميت يا «محمود» هما هيتلموا؟!
- ..!!
- اللي حصل إني قطعت ديل التعبان، وباقي راسه اللي مليانه سم ولازم أقطعها، وإلا ما كنتش قربت ناحيته أصلًا.
- اللي انت مخطط له دا كبير، كل اللي فات كوم واللي جاي كوم تاني.

ضحك «فارس»، وأخرج سيجارة شرعية مستوردة وشحنها، ثم صرف نظره نحو الهائمين على سياج الكورنيش، والجالسين فوق فواصله الخرسانية، يعاين حركاتهم الروتينية وطبائعهم المفضوحة من سلوكياتهم، نفاق، ضعف، تملق، حسد، غِل، شهوة، عُهر، قلق، حزن،

وأحيانًا إيمان وتقوى، ومعهم طيبة ممنوعة من الصرف، وأحلام معلقةٌ على قوائم الانتظار، أمثلة للطبقاتِ الاجتماعية المطحونة، المروجون للإشاعات وأوهام الانتماءات وتحريض الائتلافات، فصيلٌ شعبيٌ غارق في خيبةٍ سرمديةٍ، تحت مبادئ مُلفقة وشعارات كاذبة، وتعصبٌ همجي مخبول كصراعِ الثيران، مملوءٌ طبلًا وزمرًا وعراكًا وقتلًا باسم المذاهب، فابتسم «فارِس» ساخرًا:

- انت فاكر إني خططت لأي حاجة من اللي فاتت!
- ..!!
- «محمود»، أنا لحد دلوقتي ماخططتش لأي شيء، وكل اللي حصل قبل كدا تقديرات ربنا، ولكن بداية التخطيط من أول قعدتي معاك الليلة دي، فحدد لنفسك دور بقى، يا إما تبقى معايا في اللي باقوله، يا إما -يا صحبي- تبعد نفسك.

أنهى كلامه، وضغط زر الـ «Pause» في الحياة كلها حولهما، فصمت «محمود» وهو يُفتش في دفاتره القديمة عن صديقه، وعن ردٍ مناسبٍ، ينتقي بِضع كلمات حُلوة المذاق، ليدفع بها المرار عن «فارس»، لكن الأخير عاجله: دا رأيك الأخير!

فانتفض «محمود» ممسوسًا، يضرب بقدميهِ عقارب وهمية على الأرض الخشبية للفلوكة، بقرعِ مدوٍّ منفعلًا وقال: لأ، اهدا عليَّ، المرة دي بالذات مش هاسمحلك تقَوِّلني كلام ما قُلتهوش، سيبني أرد عشان أبقى مسؤول عن قراري قدامك، وقدام نفسي الأول.

ـ عمومًا يا «Bro» لو قررت تبعد دا حقك، بس ماتحاولش تخليني أبعد، لأنه مستحيل يحصل، واللي في بالي هاعمله.

ـ يا بني أنا خايف عليك.

ـ عارف يا شقيق والله.

ـ وطالما عارف؛ مش قابل نصيحتي ليه؟!

ـ عشان فات وقتها يا «شبانة»، كنت ممكن أسمع كلامك لما خرجت من المستشفى، فاكر؟! ولكني ما سمعتهوش، وقُلت لك إني مش هاسيب حقي، وبرضو ـ لو فاكر ـ انت قُلت ليَّ إنك معايا!

ـ أيوة ما كنتش مفكر إن الحكاية واسعة أوي كدا.

فضرب «فارس» بكفيه فوق رأسه وتقافز، ثم زَعَقَ بانفعالٍ برُكاني وقال: يعني انت ما فكرتش إن الكلب «صبري» دا ورا كل اللي حصلَ ليَّ مثلًا! دا انت بنفسك حكيت لـ»ضياء حسن» حكايتي معاه، على أساس إنه هو الوحيد اللي له مصلحة في أذيتي.

ـ أيوة، بس ماتخيلتش يكون بجد، وظابط المباحث دا كمان.

ـ ماله!

ـ إيه اللي ماله، انا مش عارف انت بتفكر ازاي؟! طيب «صبري» موبايله دا عليه كل بلاويه.

قال «محمود» جملته وألقى الهاتف إلى «فارس» وانتصب واقفًا، تجتاحه رعشة منفعلة فالتصق بالقائم الحديدي لا إراديًا، تصطك أسنانه

كشُخشيخةٍ في يدِ طفلٍ وهو يُتابع: هنعملها ازاي؟ بالنسبة للظابط يعني، مستحيل يحصل اللي بتفكر فيه!

قام «فارس» ممسكًا بالهاتف وألصقه في كف «محمود» ثانيةً، وقال بسخريةٍ متوترة: طب وإذا حصل.

ـ هو تحدي! مش هتقدر تكمل، الموضوع خطير، انت بتقول قتل..»قتل»..قتل يا «فاااارس»!

ضغط على حروف الكلمة للتوكيد على الخطر، وفتح فاه وهمَّ بقولِ شيءٍ لكنه صمت مُفكرًا، ثم اعتصره التساؤل: بس ازاي؟

لم يُجب «فارس»، فقط أولاه ظهره واتجه ناحية النهر، ذلك حينما بدأ الحشيش في تولي دفة الليلة، أيقن ذلك عندما بدأت الروح تدب في كل شيء جامد من حوله، نبضات منتظمة في قعرِ الفلوكة وفي الضفتين، وحتى في كوبري «قصر النيل» بأسوده الأربعة على الناحيتين، انقباضًا وانبساطًا بإيقاع ثابت، تقترب منه الضفة الأخرى وتقذف به نحو السماء، يخرِقُ دماغه في هوائي مبنى الإذاعة والتليفزيون، يتأمل البيوت وحكاياتها الخفية، ودليل سلامها أن لا صوت لها ولا رواية عنها، وكأن الدراما الحياتية العادية لا ترتقي للمستوى القصصي، مع أن أرقى أنواع العِبر هي المعيشة الرتيبة المعروفة، التي يطمح «فارس» في أن يعيشها فقط.

ـ ازاي دي بقى تسيبها لترتيباتي أنا.

قالها «فارس»، بنبرةٍ حادة قوية، فتفحص «محمود» في ظهره وقد بدأت حالته تسوء أكثر من صديقه، ومع صافرة السكون التي انسدلت فجأة، وموسيقى الصمت التصويرية للمشهد، جعلت من الأخير أصمًّا،

أخرس، أعمى، نكش حنجرته عن أي صوت فلم يجد غير الخواء، هدوء مُباغت أقلقه «مصباح» الذي قطعه بـ «كححححكحح»، المعسل البلدي مع الأفيون في «الغرقانة» تجعل السُعال مربوطًا في ذيل كل نفس، فعاد «محمود» إلى مكانه وضجَّت جلسته بصوت «DJ» على مركب تسير بجوارهم، ووضحت الرؤية مع ارتجافة الفلوكة إثر دوامات المياه التي ضربتهم، فاستفاق على أضوائها، هنا تحرر صوت «محمود» أجش متقطع وقال:

- لأ يا «فارس»، لأ، أنا مش موافق.

فاستدار الأخير في مواجهته، وهو ينفث الدخان مكتومًا، مُتخشب الملامح مشوه النفس، جدار برلين يقف فوق النيل: ماشي يا صاحبي، يبقى تفُك لي شفرة الموبايل دا، وبعد كدا يحلها ربنا، وشيل موضوع ظابط المباحث دا من دماغك.

- ماشي، هافتح الموبايل، وهافضح أم «صبري» دا، لكن غير كدا لأ، أنا مش هاسيبك تضيع نفسك يا «فارس»، أقسم بأخوِتنا أنا اللي هاقف لك وامنعك بأي شكل، ولو بالقوة، ودا رأيي الأخير!

16

الساعة ضربت التاسعة صباحًا فوق الجدار، أسفلها يجلس مستكينًا، فوق مقعد خشب قاعدته من الخوص المجدول، أمام المقهى، تعوّد أن يرتاده في فتراتٍ طويلة من حياته، يستقر في مكانه مُختبئًا من الشمس خلف نظارته السوداء، يتلصص على مشهد «ميدان التحرير»، يسترجع شريط ذكرياته عن الثورة الينايرية، المنصات، الهتافات، المنشورات، التجمعات، اللافتات، تاريخه ينساب أمامه مثل المياه، فأين ذهب المستقبل الذي ثار من أجله؟! يتصفح هاتفه، يقرأ سطور رواية بتقنية ملفات الـ «PDF»، فهي وجبة أدبية سريعة التحضير لأي قارئ، والعابرون يرقبونه بشكٍ، يعتقدون أنه يلهو بينما هو يصنع المجد! رواية مُغامرات كما يُفضل دومًا، بعنوان «كنز النبي سليمان»، لم يطرأ أي خاطر على بالِه ـ في أي لحظة ـ أن تغدو حياته نفسها مغامرة! أمامه حقيبة يده الجلدية السوداء؛ بجوارها يرتاح قدح قهوة ينسج فوق وجهه أقاصيص فاقت حدود المحال.

«فالقهوة تخترع ألفاظًا ما مرت يومًا فوق اللسان»

وهذا بالضبط ما يحتاجه اليوم، ارتشف منها عندما توقفت السيارة المرتقبة أمام مدخل المقهى، «Mini Cuper» سوداء تلمع بموجةٍ فِضيةٍ تحت الشمس، ونزلت «مريم»، الميدان أنكر عُمره، بمظاهراته وثوراته ومنصاته ومصادماته وخطاباته وائتلافاته وخياناته ومصالحاته، فقط التف حول عِقدها المتأرجح على صدرها، دار حول خصرها، والتهم الرصيف خيوط فستانها واقتحم أسوار معصميها، فَرَّ أسفلها من هذا الكوكب، يتمسح في حركتها وجه النهار الضاحك، وتمشى السحاب الصافي فوق ملامحها بلا وعي يحمل أشواقه مثلها، حركت بإيقاعها الأسفلت فاندفع يُقبل خطواتها، وخلفها ليل ضفائرها يلهث فوق ظهرها، مُهرة عربية أصيلة، تتمايل عليها ظلال الشُرفات في الأبنية العتيقة تبكي وتنسجم، هي امرأة يُكتب العمر بين يديها.

رآها «فارس» فاعتدل، وقف بملامح بشوشةٍ، وفروة لحيته أكلته بسخونةٍ فمشطها بأنامله، ومسح على رأسه ليهذب بعض الشعيرات المارقة، نقرات كعب صندلها العالي تقرع على قلبه، فتسابق مع عينيه ناحيتها حتى وصل إلى يدها، عانق أصابعها الوديعة بسلامٍ، وضغط عليها كما اعتاد: كنت متأكد انك هتيجي يا «مريم».

ابتسمت رغمًا عنها، وأسبلت جفنيها لتغرق أكثر في ملمس يديه، لم تُحرك شفاهها، طقوسها معه تُجبرها أن تترك لشفتيه حرية التعبير، عما يدور في خلدهِ وفي خلدها على حدٍ سواء، دار على عقبيه وهو يشير للمنضدة التي احتضنته: مكان رومانسي جدًا!

قالتها فابتسم، فقد اختار مكانًا لا يصلح بالفعلِ للقاءٍ غرامي، جلست فأشار للنادل: هات عصير لمون من غير سكر.

قال الطلب بدون أن يسأل «مريم»، فهو قد قرأها وحفظها من الدفة إلى الأخرى، حتى بالفهرس الخاص بها والمقدمات والإهداءات أيضًا، فارتفع صوت كـ»ميكروفون» الأفراح يصدح في المقهى: لمون فريش وصاية من غير سكر لـ»فارس» باشا وصُحبته..

غمزته: انت مشهور أوي هنا يا «فارس».

ـ أقل حاجة عندي.

ـ ما صدقتش نفسي لما «عبير» قالت لي إنك عايز تتكلم معايا.

ـ أخبارك إيـ....

ـ خش في الموضوع يا «فارس»!

تنحنح «فارس» إحراجًا من اقتضاب كلمتها وتغير ملامحها، لقاؤه بها كحُلم طيور البحر بالمراكب، لن يُكمل حياته بسلام إلا بما ينتوي قوله الآن، لكنها لم تَعُدْ تلك الوديعة المتعلِقة بذراعهِ، فجُملتها السابقة تعني أنها امرأة أخرى، استقراء وجهها يختلف عما عهده بها، فما كان بينهما سلفًا مضغته الأيام الماضية وبصقته، أصبحت تجربتهما دربًا موجودًا بالذاكرة، وهذا هو مصير الحب المحشو بالغيرةِ المجنونةِ والشكِ القتَّال، والسر في ذلك أنه بدأ بتربصٍ عُدواني أقرب منه للشعورِ المسالِم، فالمحبةُ مرهونة دومًا بالثقةِ، وها هما بعد كل ما فات يجتمعان كغريبينَ لا يعرفان بعضهما، حاول البحث في كتيبِ الإرشاداتِ الخاص بها عنها، لكنها قاطعته:

- «فارس» أنا مش «مريم» اللي كنت تعرفها.

قالتها، فهزّ رأسه إيجابًا: عارف، أنا كنت لسة بادور على مخرج للكلمة بتاعتك دي؛ في اللي أنا أعرفه عنك، بس ما لقيتش!

- عايز إيه؟!

- بُصي يا بنت الناس، استحملي كلامي المرة دي، وافهميه، عشان دا أهم كلام ممكن تسمعيه مني.

وضع النادل كوب العصير على المنضدة، ثم انصرف كما حضر وتنهدت «مريم»: ماشي يا «فارس» أنا مش هاتكلم، هاسمع كل اللي هتقوله للآخر، وبعدين هارد عليك.

ارتشف من قهوته وترك البن ينام في حلقه، ويروض الأفكار في عقله، ثم تابع بعد أن امتص جرعته: الشهور اللي فاتت يا «مريم» كانت مُوجِعَة بشكل فظيع ليَّ وليكِ، الفترة اللي انتِ احتجتيني أبقى سندك وتتكي عليَّ عشان تقومي كنت أنا اللي مكسور، اكتشفت هشاشتي وضعفي، صدقيني يا «مريم» وفاة «مراتي» قطَّعت بسكينة في لحمي.

كلمة بين علامتي تنصيص كانت توجعها قديمًا، و»كانت» فعل ماض يدُل على انتهاء الفعل، فاستقبلتها «عادي»، لأول مرة ينطق «فارسها» بكلمة «مراتي» أمامها، هي تعرفه كان إذا حضرت سيرتها يذكرها باسمها، «يسرا»، و»كان» أيضًا فعل ماض يدُل على انتهاء الفعل، والآن يجلس معها متحسسًا دبلتها حول إصبعه، رغم أنها لم تعُد هناك! لكنه يحتفظ بها في كفه، ما زال متشبثًا بوجودها في حياته، تلك المرة اختلف الـ «فارس» عما عهدته، هو يشعر بقيمة زوجته بعد رحيلها، لقد ودَّع حياته المزورة آنفًا، غابت في دوامةِ أفكارها للحظةٍ،

كانت كفيلة لاكتشافها الأرض الجديدة التي تستقر عليها معه، حتى أخرجها صوته وهو يُتابع:

- بعد وفاة «أم ياسين» أنا حسيت إني صغير جدًا في الدنيا دي، وإن ربنا بيعاقبني لما أخد الهدية اللي كان عطيهالي، ودايمًا بتظهر قيمة الواحد بعد وفاته! وكمان زاد العقاب بالحادثة وانتِ أكيد سمعتِ عنها.

هزت «مريم» رأسها بألم صامتة، فمسح بالبُن حلقه متسائلًا: ما سر المحبة المفاجئة التي يكتسبها الإنسان بعد رحيله؟! فتزداد قيمته وهو ميت فقط! أليس أنفع له أن يشعر بهذا التقدير وهو حي؟! ثم تأمل وجوه العابرين في الميدان شاردًا، هناك حكاية لكل من يمُر أمامه الآن، مآسٍ لا يعلم عنها أحد، فكل مرء له معركته السرية التي ليس فيها بطلٌ سواه، فكرة أن أي إنسانٍ له مواجهته الخاصة أعادته إلى نفسه، فتابع: اللي حصل ليَّ غَير نظرتي للحياة أكتر، حسيت إني مش أنا، اللي بيكلمك دلوقتي مختلف عن اللي عرفتيه، مش لوحدك اللي اتغيرتِ يا «مريم»، أنا كمان اتغيرت جدًا، وبالمناسبة التغيير اللي حصل لنا دا للأحسن، ودا أنا شايفه فيكِ.

- يظهر إن القدر قربنا لبعض في فترة كان دا أحسن شيء ممكن يحصل لنا، وبَعَّدنا عن بعض في فترة برضو كانت أحسن شيء ممكن يحصل لنا، دا باين من كلامك مش كدا؟!

- أيوة، حكمة الله دايمًا مابنفهماش في وقتها، لكن بعدها بفترة بنحمد ربنا إنها حصلت، كل اللي ربنا بيجيبه

كويس، بيكون خير للواحد حتى لو مش على هواه. يا «مريم» فيه تفاصيل كتيرة انتِ ماتعرفيهاش، بُعدي عنك دا مش بإرادتي، ولكن فعلًا أنا كنت مش مستحمل شيء في الدنيا، وانتِ كنتِ في وضع حرج جدًا، ومش محتاجة من واحد زيي كمان يشيلك فوق طاقتك، يشيلك من همه وقرفه، أنا نفسي ما كنتش مستحمل اللي حصل ليَّ، وتغيُري دا كان مخليني زي المجنون، وكنت قررت أمشي في سكة عارف إن اللي بيمشي فيها ما بيرجعش حرفيًا، أنا ما قدرتش أواجهك بكل دا وأحمله عليكِ، لأني كنت متأكد إن اللي فيكِ مكفيكِ انتِ كمان.

على صراخِ الصمت المطبق في العيون؛ استرقت السمع لكشطاتِ نبضاته أسفل ضَلوعه، ضجيج الشارع خَفُتَ حتى أصبح الوضع العام لصوت الخلفية «Speakers Muted»، وتشابَهتْ وجوه الناس حتى بهُتَت الملامح، ومع التطور الطبيعي للحالة تكاثر الضباب حتى اختفت الشمس، وتفتَّت الكون، لم يبقى إلا الاثنين والفراغ، كأن الأرض تستقبل «آدم وحواء» جديدين، والميدان الذي تقلقلت حركته؛ تمشي على شوقٍ متلهفٍ لحديثهما، بلا وعيٍ انطفأ محيطه حتى تنحنحت: إيه اللي اتغير دلوقتي يا «فارس»؟!

- اللي اتغير دلوقتي إني تقريبًا وصلت لآخر المشوار؛ اللي قُلت لك إني مشيته، فاضل فيه الخطوة الأخيرة، ونهايته مش هتنفع أبدًا من غير ما تعرفي تفاصيله.

قال جملته، ثم أمسك حقيبته وفتحها وأخرج منها أسطوانة مدمجة ناولها لها: امسكي الـ «CD» دا وأنا هاحكيلك.

سكت قليلًا، يُلملم الحكاية، سيبدأ في كسر دماغه أمامها لأول مرة، كي ترى بنفسها ما يُخبئه من أفكارٍ متضاربةٍ، سيكشف لها عن الأرض الوقف بداخلهِ، المملوءة بالفِخاخ، دون أن يضطرها ـ كالسابق ـ إلى غزو عقلهِ، فهو الذي يفتح بيديه أبواب حصونه المنيعة، ليسمح لها بالعبورِ إلى مجالهِ المُكَهْرَب، ما سيفعله يَدُل على تبدل أخلاقه، فلم يعد «فارس» هو نفس الشخص الأناني في مشاعره، الذي لا يعرف إلا النهب، لكنه الآن مِعطاء وهَّاب بتلقائيةٍ، ولهذا سيُشركها في الأمر، فقَطَّبَ جبينه وتحشرج صوته ألمًا:

ـ الحكاية يا «مريم» ابتدت يوم زيارتك في المستشفى، تاني يوم انهيارك بعد خطوبتك على الزفت اللي اسمه «صبري».

ظَلَّ يهرس أرض الخرابة التي كانت منذ مدة حديقة عامة، استولى عليها «مركز شرطة مشتول السوق» وحوَّلها إلى مرأب للمركبات التي بلا هوية، اسطبل خيل أُحيل للمعاش وينتظر طلقة في جبينه، كُتلٌ محشورة في بعضها من السيارات والدراجات البُخارية والتكاتك، ألواح صاج مدهونة بالصدأ الذي نحل جسدها، تسرح فوقهم أمواج من الأتربةِ الناعمة، وبين دواماتِ الهواء التي تحمل له الغبار توقف تائهًا، يتأمل الرقم المكتوب فوق شاشة هاتفة، يتردد في الاتصال به للمرة المئة أو المرة المئة بعد الألف، خرج يكنس الشوارع بحذائه الزاحف، خطان

متعرجان متوازيان يزداد طولهما مع خطواته، يسير تحت وهج النهار كالخُفاش يلطم جسده في كل ما يُقابله، يتحاشى البشر ويتعانق مع كل حائط يقترب منه، يحتكُّ بكتفهِ في سورِ الحديقة في محاولةٍ لصلبِ طوله.

ليلته لم تكن سهلةً إطلاقًا، فالكحول السائل في عروقهِ مع الحشيش الذي ينتشر ضبابيًا في صدره؛ جعل عقله خارج نطاق الخدمة مؤقتًا، رجع إلى سطح بيته فلطشه الهواء، أصابه عطل فني، فتلاشت الرؤية بغتة وسقط على لوحة مفاتيح الـ «اللاب توب» أمامه، تنبه مع لون الصبح الذي يصبغ ظلام الليل برماديتهِ الفاتحة، صدغه محفور بعلامات الأزرار، كبُرادةِ حديدٍ ساخنةٍ بَصَمتْ عليه، تركيزه مَسنون مُدبب كخنجرٍ يقطع الأفكار قطعًا، راعه الحالة الجديدة لصفحة «فارس» الـ «See first» بالنسبةِ له، مكتوب:

- «سأتذكر دائمًا أني أُجدف عكس تيار هذه الأيام؛ وحدي!»

فهم أنه المقصود بعد نقاشهما سويًا، لكنه تجاهل الأمر وبدأ في العمل، ركبت ملايين العفاريت فوق أصابعه، فطاوعته برامجه الجهنمية في مُهمته، اخترعت له حلولًا لكل عثرة، في قمةِ أدائهِ المهني، يستحق ترقية فورية من شركته، فك شفرة الولوج إلى هاتف «صبري» المحمول، ثم اقتحم «مغارة علي بابا» الفاسدة، استخرج نسخة من كل شيء فيه، صور، فيديو، ملفات «Word»، تسجيلات، ثم فتح «Mozilla Firefox» وبضغطة زر أرسل «Email's»، بالملفات الموبوءة، إلى جميع المواقع والقنوات الإخبارية ونجوم مواقع التواصل الاجتماعي،

ستكون فضيحته على آخر اليوم لدى عشرات الملايين من المتابعين، وحلقات النميمة المقننة في برامج الـ «Talk Show»، ثم بعث بنسخةٍ إلى بريد «فارس»، بعدها ترك محرك البحث الثعلبي يقوده في خريطة تصميم «هيلتون رمسيس»، بعد رحلة مصورة بين رُدهاته وصلت الساعة إلى الثامنة صباحًا؛ ساعة البكور، فتمتم:

ـ بالمنظر دا «فارس» مش هيرجع عن اللي في دماغه أبدًا.

وبلحظةٍ استقر على ما سيقوم به ويُنغص عليه موقفه، طَسَّ ملامحه بقبضةِ ماءٍ انسالت أغلبها من بين أصابعه، يرتدي ملابسه التي لم يُغيرها منذ ليلة أمس وهو مع «فارس» فوق الفلوكة، اتجه إلى مركز الشرطة، وبعد سؤال مقتضب مع أمين شرطة يضع مُزيل عرق عفانة ويتحدث من فتحةِ أنفه، عرف منه أن «ضياء حسن» تمت ترقيته بعد ضبطية كبيرة، نقلته إلى مديرية أمن القاهرة، وبين خذ وهات كرمش له «محمود» الخمسين بلبلًا واستل منه رقم هاتفه، أحد عشر رقم موضوعون على شاشة هاتفه الآن.

كإبرةٍ بوصلةٍ ترتعش قرب مغناطيس غشيم، تشتت قراره؛ وهو يتهجأ «الشرطة في خدمة الشعب» المكتوبة على حائط حجرة الفيش، وكانت علامة اختصرت الوقت ووضعت قراره حيز التنفيذ، حَكَّ لحيته وبلل شفتيه الناشفتين وهو يضغط اتصال: آلو..

ـ صباح الخير، «ضياء بيه»؟!

ـ أؤمر..

ـ مع حضرتك «المهندس محمود شبانة»، فاكرني سيادتك من يوم قضية «فارس» في «مشتول السوق»؟!

- ..!!

- آ..آلو..آلو..

لم يتلقى إلا الصمت، واستمر عداد الثوانِ يلهث في المكالمة الخرساء، مرت دقيقتان والحالة صفر، أغلق الخط، وتسمر في وسط الشارع بين السيارات الهائجة مُترددًا في إعادة الاتصال، وَهَنَتْ مفاصِله فَسَلَّم نفسه لأقرب مصطبة، جلس، يشكو حاله؛ الذي لا يسُر عدوًّا ولا حبيبًا، لَبَّخَ في وحل «فارس» حتى رُكبتيه، لا منه ظَلَّ واقفًا على الشاطئ ولا منه تعمق وأنقذ صديقه، ثم انتفض جسده وتلوى كثُعبانٍ يستمع إلى مزمارِ الحاوي؛ عندما ارتعش هاتفه المسكين باتصال «ضياء»، وضع الـ «Vibrations» المضبوط عليه رجرج «محمود» كغَرفَةِ ماءٍ في قربةٍ منتفخة، ولما تماسك من اهتزازه كان «ضياء» يعيد الاتصال مرة ثانية:

- متأسف يا بشمهندس الشبكة في مُديرية الأمن مقبوض عليها، هاهاها أخبارك إيه؟!

- أحم أحم، بـ.. بخير يا ااا فندم اللـ.. الحمد لله.

- صوتك متغير شوية.. ولا دا من الشبكة برضو!

- والله أنا كنت متردد إني أكلم سيادتك، ولكني مش ناسي إنك أخ أكبر لينا وهتحمينا، على حسب كلامك ليَّ.

- بالتأكيد يا بشمهندس دا واجبنا وشغلنا و.. و..

اهتم «محمود» بعمود الدخان الذي يتراقص في عُلبته المعدنية، فتجنب استكمال سماع الديباجة المحفوظة، وحشره بين شفتيه المهتزتين وأشعله، ولما أفاق كان «ضياءً» قد وضع كل فنون الخطابة

التي يحفظها في سطورٍ متتابعة، الغريب أن شبكة المحمول احتملت كم العنتريات الميرية التي قيلت! حتى وصل إلى لُب الموضوع: اهدا بس يا «محمود»، أنا حاسس إنك متشتت جدًا.

سحب «محمود» ـ متوترًا ـ من السيجارة كما لم يفعل من قبل، تآكل ثُلثيها مشتعلًا بين أسنانه المصبوغة بالنيكوتين قبل أن يزفره، خرج الدخان الأبيض مندفعًا من رئتيه يكسر صحو أشعة الشمس، مدخنة لمصنع طوب: فعلًا يا فندم، أنا من امبارح باحاول أوصل لحضرتك، والحقيقة كنت متردد جدًا إني أكلمك أصلًا.

- قلقتني، فيه إيه؟!
- في قضية «فارس»، حكيت لسيادتك عن وكيل نيابة اسمه «صبري»، وهو الوحيد اللي له مصلحة في اللي حصل لـ»فارس».
- أيوة فعلًا، بس صاحبك ما وجهش اتهام لحد.
- عشان كان متأكد إنه حتى لو قدم اتهام هيخرج منها.
- طب ايه اللي استجد دلوقتي؟!
- اللي استجد إن اللي بعت البلطجية يبقى ظابط مباحث قسم الوراق، اسمه «عماد عتمان»، وهو على علاقة بوكيل النيابة دا، وعملوا مع بعض حاجات مشبوهة كتير من النوعية دي.

سكوتٌ، هنا انتابت «محمود» الرعشة، تلك البرودة التي تتسحب في مراكز الإحساس عند الخطر، كأنما يدخل إلى بيتٍ مهجورٍ متوجسًا مما فيه، كمن يقوم بفعلةٍ حمقاءٍ ويتلفت حوله ليتأكد أن لا أحد رآه،

هنا أحس بالمصيبة التي لبسها بسبب اشتراكه في الأمر، هو يعرف نفسه جيدًا، يُحب صديقه ويخشَّى عليه من الضرر، ويخشَّى أن يضره وهو يسعى لحمايته، مستنقع حمأٌ مظلم يمتلئ بِبِرَكِ أفكارٍ آثنة؛ تتسرب رائحته النتنة إلى أنفه فتدعوه للقيء، ذلك عندما سحب «ضياء» انتباهه:

- الكلام اللي بتقوله يا «»هندسة»».. خطير.. ومحتاج دليل.

كلمة «هندسة»، المحشورة في وسط الجملة أشعرته بسخافةِ دوره، لو تم حذفها ما أثر ذلك على مضمون العبارة في شيءٍ! لكنها خربشة حكومية مقصودة، تُذَكِره بقيمته التي من المفروض أن يخاف عليها؛ إذا لم يكن يخاف على رفيقه، تخمشه، كحوافرِ وحشٍ مغروسةٍ في لحمه، هذا الإدراك لاح له في زُمرة الحدث، جعل كل شعرة في جسده تنتصب تشجيعًا على وكستهِ، خاصةً أن تاريخه الثوري قد أضاف لجعبتهِ خبراتٍ ابتزازيةٍ كثيرة كهذا النوع، وتشهد على ذلك أرضية المعتقلات الرطبة، وغرف التحقيق العازلة للصوت، حفظ أسلوب الترهيب؛ الذي يشربه أي شخص قبل أن تُعلَّق على كتفيه الدبابير، ولأسفه يكون غالبًا التهديد حقيقيًا!

- انت معايا يا «بشمهندس».
- إيييـ.. أيوه يا «ضياء بيه» معاك، فيه دليل على الكلام دا يا فندم، هيتقدم بكرا ببلاغ رسمي لمكتب النائب العام.
- طب جميل.
- اللي مش جميل بقى يا فندم اللي ناوي «فارس» يعمله!

جَذَب انتباه «ضياء».

وبأمر يخص أمن الدولة تم وضع الحياة النابضة من حوله على وضع الـ «Flight Mode»: و»فارس» نـ..

تم القبض على الشبكة مرة أخرى في المديرية، لم تُعطه مساحة كافية حتى يستمع لـ»ضياء»، تفننت شبكة المحمول اللعينة في العبث بأوتار أعصابه، تعزف لحنًا سمجاً يُوَتِره أكثر فأكثر، تُتَبِله كشريحةِ لحم جملي نيئة عصية، حاول هو إعادة الاتصال لكن..»الموبايل اللي طلبته مقفول ممكن تبعت ا..» أغلق في وجهها المكالمة، وهو يسُبها ويلعن شركتها ويدعو الله أن يُسقط جميع خطوطها.

ثم بعد قليل جاءه اتصال جديد: أيوه يا «محمود» معلش، قُلت «فارس» ناوي على إيه؟

فسحب هواء الكرة الأرضية في صدره، ثم زعق: «فارس» هيقتل بنفسه «عماد عتمان» ظابط مباحث قسم الوراق.

17

خَطَّ الكحل بلونهِ الغامق على وجنتيها طريقه، كأنما عيناها وسط الضياء غمامة إفريقية تَدمَع، نافورة زرقاء تفضي إلى فسقية، تمسحها بمنديلها المصبوغ، وخيالها تنقر فيه حكاية «فارس» كبومةٍ تقتات الكتاكيت، تتغلغل فيها تفاصيل التفاصيل كما السكين، كل كلمة تنسل بين ضلوعها فتُهرول وراءها حرائق متنهدة الأنفاس مبحوحة، وشوشة الآهات في رئتيها مُوجِعَة، عاد إليها يزرع الشروخ في وعائها، فتشققت شفاهها وكأنها عبرت الصحراء الغربية مشيًا، ترتعش أهدابها فيبكي على أطرافها الزمن ويضع فوق زجاج اليوم الدموع، أيقنت حجم الألم الذي عانى منه، ولوعة الفقدان، وهزيمة النفس، والإهانة، وتدنيس بيته، وملامحه التي حفرت عليها الأيام الماضية، رأت كفه المشقوق والجروح الغائرة التي تخفيها لحيته، والندبة المستريحة في حاجبه الأيمن وأسفل عينه، وتحتها الأخرى التي تقطع طرف شاربه، فأسبلت جفنيها وتخيلت جسده المفروش بالقطعِ، والسحلِ، والتمزيق.

لذلك ربتَّت على يدهِ، ثم تحسست آثار الخيوط الجراحية المتداخلة على ساعديه، وتُزاحم عروقه النافرة، لمست الصهد المتصاعد من مسام جلده المهترئ، حريقٌ يلتهم حطب أوردته، يسعل صدره لهيبًا فيبُخ النار في كل كلمة يقولها، تسخن شرايينه وهو يؤكد على أنه لن يترك حقه، نبضه يثور، يتدافع، يجوع جوعه فيأكل شخصيته القديمة، لم تعد تعرف هل تشفق عليه أم تحسده على ما وصل إليه من نضج؟! تكسرت أغصانه الُمسَوَّسة وانخلعت جذوره وارتمت الجذوع، فتَسَحَّبَ صوته الهادئ يتداخل وسط أفكارها:

- يا «مريم» أنا مش زعلان، لحد كدا مبسوط الحمد لله، اللي حصل كان خير، بيقولوا «الضربة اللي مابتموتش بتقوي»، وأنا فعلًا بقيت قوي جدًا، الدنيا شكلها اختلف بالنسبة لي، وأكيد دا كويس، كويس ليَّ ولـ«عبير» اللي هوَّنت مرار الأيام اللي فاتت عليَّ، وما سألتنيش عن أي حاجة، وما طلبتش تفسير لتقلباتي المبالغ فيها، وربطت مستقبلها بيَّ، واستحملتني برغم إني ما استحملتش نفسي، كويس لـ«ياسين»؛ اللي أكيد هاقدر أربيه بشكل أحسن مما كان هيتربى.
- انت عانيت جدًا يا «فارس».
- الحمد لله، الخير ربنا كتبه ليَّ في اللي كرهته، أنا صحيح ما أخدتش اللي أنا عايزه، لكن ربنا اداني اللي أنا محتاجه.
- يا «فارس» ساعات المنحة بتتولد من رحم المحنة.

الطبيب النفسي عندما يمسه الجنون، فيقف أمام المرآة ويقول «Relax»، وبداخله يرى الشياطين تتحزم وترقص في فوضى وهمه، هكذا تحدث «فارس» ببساطةٍ يمسح بها غبار البركان الذي قرر أن يُفجره في وجه الجميع: أنا مش عايز حاجة تانية.

جملته الأخيرة كانت الكذب بعينه عندما يمشي على قدمين، فقالت: عايزني أعمل حاجة بالـ «CD» دا؟

فأمسك الأسطوانة وأدارها في يديه يرى انعكاس صورته في جانبها اللامع، ثم سلّمها لها: دا بقى هدية ليك، هيبين حقيقة «صبري»، وبإذن الله هيشرب من نفس الكاس اللي شربه ليك وليَّ.

عقدت حاجبيها ونظرتها تقول له: «فهمني الله يسترك»، فمَدَّ يده وتشابك مع أصابعها: هو المسؤول عن مقتل «مصطفى».

قالها في وجهها دفعة واحدة بلا زينة، فهتفت ملدوغة: مقتله!

- «صبري» دبر الموضوع عشان يبان إنه قضاء وقدر، كمان هتلاقي رشاوي وقضايا متلفقة وبلاوي كتير، الـ «CD» دا وموبايله وكل المستندات اللي فرغناها؛ هتتقدم بكرا في بلاغ رسمي للنائب العام، قبل أجازة الوقفة والعيد الكبير.

صبَّ الكلمات وهو لا يُفارق أصابعها، أحس بنبض وريدها الذي يطن كعُش دبابير، انعكس تَتَابُع الصور في الميدان على ملامحها، تبدلت من العبوس والدموع لفرحةٍ طرقت باب قلبها واخترقت حواجز الألم، وكأن حالة ميدان «الشهداء» ـعفوًا ميدان «التحرير»ـ بهتت على حالتها، حُشرت في تقاسيم وجهها لقطات مُتتابعة لثورة يناير،

ولافتات «عيش، حرية، عدالة اجتماعية»، حتى استكانت ملامحها كحالته الخاملة الآن، تأملها؛ بشرتها الصافية المرصعة بحبات النمش وتابع.

- فيه نسخة من الملفات دي هتنزل النهارده على كل الـ «Social-Media»، عشان تبقى فضيحته بجلاجل.

كشريطٍ سينمائي مُتهالك تحركت في عينيه مشاهد ما حدث له، وَقفَتْ الحياة على صدره؛ كذُبٍ هائجٍ يقتل حارسه، عَقَدَ حاجبيه وقَطَّبَ جبينه فصُبغ لونه بالأحمر القاني، وخلَع نظارته وظهرت عيناه وقد احتلها اللهب، معبأةٌ بالدموعِ فأمسك منديلها ومسح عينيه، فتشوهت ملامحه ببقايا الكُحل، فابتسمَت وأخرجت له منديلًا آخر مسحت به وجهه، وهو يقول بصوت مبحوح:

- أحم أحم..»مريم» أنا كنت باتمناكِ، لكن فعلًا ربنا خبى ليَّ وليك الخير، وأكتر كمان من اللي احنا اتمنناه لنفسنا.

- الحمد لله يا «فارس».

ظَلَّ يتأمل عينيها المغرورقتين اللامعتين، هي جهنمه الصغيرة التي نام في جوفه رمادها، خمدّت شرارتها بعدما انطفأ وهج روحه، حكايته معها انتهت في الشتاء فاحترق البرد على شفتيه، يشُم فيها رائحة الأيام وتلهث خصلاتها السوداء في عمره كقطيع الفهود، فغرس أناملها في حضن كفيه وتفحصها، لآخر مرة، قرر أن يخترع أبجدية جديدة تكون على مساحة مكانتها الجديدة بداخله:

- مش عايزك تفتكري وشي الوحش يا «مريم»، عشان خاطري، عايز طيفي لما يخبط عليكِ تبتسمي وتقدري

المشاعر اللي ربنا زرعها في قلوبنا لبعضنا، وتقولي لنفسك إني فعلًا ما خدعتكيش في أي كلمة قُلتها ليك، ولكن القدر له حكمة أكبر من إدراكنا احنا، ودايمًا بيكون ربنا له رؤية أوسع من تفكيرنا المحدود.

سحبت يديها بخجل وضحكت: نسيتني، خطوبتي، أكيد هاتيجي.

ـ أكيد، هاخطف البت «عبير» في إيدي واحضر، وهارقص معاها «Slow» جانبك انت و»خيري».



نزل الليل عليه وهو في وحله الخاص، طال وقوفه في الشباك يحملق في الفراغ الأسود أمامه، حتى ملَّ منه الشباك والفراغ والسواد، يتحسس الركلة التي استلمها فأطاحت بكل شيءٍ صنعه، تهدمت مملكته رغم الدعامات الإسمنتية والقوائم الخشبية والحديد المسلح، لكن قرار الإزالة كان واجب التنفيذ، قرار إيقافه عن العمل سارٍ، ويجب إخلاء مكتبه من كل متعلقاته، تنتظره في المنزل بيجامته وكحوله والساقطات، لا لن يقربهن بعد الخازوق الذي لا يعلم نتيجته حتى الآن، تآمرت الدنيا عليه فجأة، كُرباج سوداني يَجلِد ذاته، فتح أزرار قميصة وشمر ساعدين «بتلو» حتى المرفق، يضع يدٌ في وسطه والأخرى ممسكةً بفنجانِ قهوةٍ ترسب في قعره البُن، سيفتقد أوامره لـ»رمضان» بفنجان قهوة من البن المخصوص، بنطلون بذلته مثبت في حزامه الجلدي مسدسه الذي يعتز به دومًا.

ـ تمام كدا يا «صبري باشا»، كل حاجة زي ما أمرتني.

خرجت الكلمات تتراقص فرحة من «رمضان»، وعنون حالته بابتسامة تنم عما في داخله، فأخيرًا سيتم الإفراج عنه وتنتهي فترة العبودية التي يحياها في خدمة هذا السيد، سيلملم هلاهيله وسيحشر نفسه في أول قطار يقابله صباحًا، فالليلة ليلة عيدين، غدًا أول أيام عيد الأضحى وأول أيام عيد حريته، اليوم أسعد وقفة عرفات تمر عليه في حياته كلها، سيرحل بعبله وعرقه إلى بيته وأرضه وطينه وملحه ومِشه ليكون هو سيد قراره، يعود ليلبس الكلسون والصديري ويمسك فأسه فيزرع ويقلع ويحرث، ترجع إليه هويته التي تفننت الحياة في طمسها، يعود لـ..، قُطعت سيالة أفكاره بالتفاتة «صبري» ناحيته، الشيطان يسكن نظرته:

ـ طيب روح هاتلي قهوة من البن المخصوص بتاعي.

انصرف «رمضان»، يعصر مشتل ليمون ليُنفذ آخر أوامره، لا مانع من استمتاعه بآخر لحظاته الديكتاتورية، بينما بقيَّ «صبري» بين أطلال مملكته، يتحسر على نفسه، يمصمص شفاهه ويعاين حطامه المعلب في الكراتين استعدادًا للرحيل، اختار ليلة العيد حتى يبتعد في صمتٍ مُستغِلًا الإجازة، ليهرب من عيون العاملين المترقبين، فيحمي نفسه من نظراتهم الشامتة والشاتمة، يعلم؛ أنه ابن حلال ويستحق كل خير! رفع رأسه التي تزن كوكبًا نحو السماء المعتمة، تحمل وحمة دموية هلالية في شكل قمر يتزايد، طغى احمرار عينيه على لونه الفضي، رفع ذراعه يتحسس لونه المتوهج في هالةٍ تمسح خدود السحاب، فوجد سائله اللزج يُغرق يديه كمصفاةِ دُشٍ تصُب الدم، هكذا خُيل إليه، تصلب

يتأمل بُرادته التي انجذبت نحو مغناطيسية أنامله، حتى سمع طَرَقَاتٍ على الباب: أدخل.

قالها «صبري» وهو شاخص كرسم فرعوني فوق جدار معبد، أتاه صرير الباب وسمع: بصراحة ما قدرتش أًمنع نفسي، كان لازم أشوفك في الموقف دا، اللهم لا شماتة يعني يا سيادة وكيل النيابة.

الثلاث كلمات الأخيرة قيلت توكيدًا بإيقاعٍ أبطأ من البطء نفسه، الشماتة في شكلها الـ «Organic»..

«صبري» من أولئك الذين يجعلون المرء ـ بدون تفكير ـ ينتظر لحظة سقوطهم، ليسن أسنانه وينهش في لحمهم القذر، ثم سيتقيأ في جوفهم سُمًا ويرجهم ليتخلل كل مسامهم، ثم ينثر الملح في جراحهم تمهيدًا لعملية التحنيط بعد السلخ، ويقُص جلودهم بمنشارٍ صدئ، ثم يدهنه بالقطران، وذلك قبل أن يفرشه كدواسةٍ أمام باب البيت، مثل جلود أضاحي العيد، فليكن الواحد مُستعدًا لهذه اللحظة، وبين يديه كُتيب إرشادات تلك الـ «Options» جميعها، وهو يعي جيدًا أن الأنياب العطشى لدمائه كثيرة، فقال:

ـ جاية تشمتي فيَّ يا «مريم»!

لفظ الكلمات بأنفاسٍ مبلولة، كإسفنجة يمسح بها النادل سطح البار، منقوع براطيش يقطر من وجدانه، يقف كما هو ممسوسًا بالظلام الذي يلفه أمام النافذة، ويتفحص «مريم» في زجاجها تعبث في صوره المكدسة فوق بعضها، براويزه المذهبة والفضية أكوامٌ أكوام، على شفاهها الباسمات أكثر من تهكم، انتابته رعشة مفاجئة ورفت عينه اليسرى، واعتصر المرار أمعاءه ونخر عظامه وصُبَّ في دمائه، تسابق

النمل ينبش في جمجمته، فانتابه صداع شديد لم يُسجِل مقياس ريختر درجته، أطلق لجام النبض أعلى أذنيه.

ـ جاية تشمتي فيَّ يا «مريم»!

رددها بخفوتٍ، وهو ينفُخ هواء صدره كأفرانِ الغاز، يؤكد به اللهيب المنزلق من كعب قدمه إلى شرايينه حتى رئتيه، ثم ينطلق من فتحات أنفه ليحرق جحور النمل في رأسه، قبل أن يُغمم حلق الشباك بضلفتيه الخشبيتين بالدُخان، حتى يصير كيانه رمادٌ يُنادي رماد: أظن من حقي بعد كل اللي عملته فيَّ، حقي أستمتع بمشهد نهايتك، حقي أفرح بأول عيد حقيقي ييجي في حياتي.

قالتها «مريم» بشكلٍ ينقعِ الكرباج السوداني في الزيت قبل أن يملأه بالمسامير، ثم يُعري «صبري» من كسوةِ الجاه ويُلقيه متسترًا بترهلاته في ميدان عام ويَجلِده، ويحشو جراحه جيرًا حيًّا، قبل أن يربطه بالمقلوب على حمارٍ أعرج ويطوف به القطر المصري، مشهده المعكوس وجسده النازف المتقرح جعل خط إدراكه ينقطع، وتحتضن نبضاته الضلوع وتركض، يتلفت حول نفسه كضريرٍ يقف في مُفترقِ الطرق بدون عصاه، تحدث كثيرًا كثيرًا؛ لكن صوته لم يخرج من شفاههِ، التفت ناحيتها بحركة ميكانيكية:

ـ عملت فيكِ ايه يا «مريم»، دا أنا كنت عايز أعملك قيمة.

ـ تعمل ليَّ قيمة!

ـ أيوة كنتِ هتبقي من أسياد البلد دي، بس انتِ اللي وش فقر.

ـ أسياد البلد دي! لأ فعلا أسياد باللي أنا شيفاه دا.

تحدثت وهي تلف حول نفسها تنظر إلى أطلاله، لم يحتمل تهكمها عليه فاقترب منها بعصبيةٍ، فتراجعت للوراء بتلقائيةٍ، وفي نفس اللحظة تعثر هو، خرتيت وَقَع وما يلبث إلا أن يسقط من السقف إلى الدور السفلي، ضحكت وهو يستند إلى الكراتين فتتفتَّت تحت قبضته وتتبعثر، حتى اعتدل على ركبتيه لاهثًا، كلبٌ ضال يستكين في خرابةٍ بعد مُطاردة عنيفة مع أطفال الشوارع.

- دا وضع مؤقت، ولكن كل شيء هيرجع زي ما كان وأحسن، الضربة ما موتتنيش، «الضربة اللي ما بتموتش بتقوي».

نفس الجملة التي سمعتها من «فارس» صباح أول أمس، تُعاد مرة أخرى على مسامعها ولكن الفرق بين إحساسها من «فارس» وإحساسها من «صبري»، كما الفرق بين المنتج المستورد وبين المنتج المحلي: ما تقلقش يا «صبري» مش هترجع أبدًا زي ما كنت.

- اشمعنى؟!

- مش هاقُلك، عشان فيه كارت أخير انت ما تعرفهوش، وعمومًا التحقيق معاك بعد أجازة العيد، وهتعرف كل حاجة.

- انتِ السبب في كل المصايب اللي أنا فيها دي، بلاش تستفزيني.

- إذا كنت أنا السبب في كل اللي انت فيه؛ يبقى أنا أقول إيه؟! «مصطفى» اللي مات بسببك، وكل اللي حصل لـ»خيري» واللي اتسببت فيه لـ»فارس»، كل دا وانا اللي عملت فيك مصايب! صدقني أنا باشفق عليك مش أكتر،

انت اللي لفيت الحبل دا حولين نفسك، وهو نفس الحبل اللي هيخنقك.

ـ بتشفقي عليَّ!

ـ أيوة، انت مريض صدقني، ما تخيلتش إن فيه حاجة انت تبقى عايزها وما تمتلكهاش، ما اقتنعتش إني أحب غيرك، حتى لو كان أقل منك، لكن الحقيقة انك انت اللي أقل من أي حد في الدنيا دي يا «صبري».

ـ كفاية يا «مريم».

ـ لأ مش كفاية، ولما كنت عمال تدخل وتشقلب حياتي، وتقَّفِل الدنيا في وشي ما كانش كفاية، لما خلتني أدوق طعم الموت مرة وألف ومليون ما كانش كفاية، انت عارف ربنا هيعمل فيك إيه؟

ـ كفاية يا «مريم».

ـ أكيد ما تعرفش، انت لو تعرف ربنا أصلًا ما كنتش عملت اللي انت عملته!

كلماتها تقطع شرايين «صبري» وتصفي دمه، تضغط على زر «Delete» في احتماله، فينهار كفحلٍ حوله قطيع من الذئاب، جاءته على غفلةٍ زادت من عتمةِ المشهد أكثرَ في عينيه، ضربته آلاف المرات على رأسه، تحسس موضع أناملها على خده دون أن يشعر، يدها لم تتحرك من جوارها، فقط كلامها قام بالواجب وزيادة، وضع يديه على رأسه محاولًا تثبيت نبض يحوم حول دماغه، طبول سحرة إفريقيين في الأحراش، عفريت ينسج هواجسه فيغزل بلحمه النار، ومع أزيز اللمبة

النيون وطقطقات متقطعة يصدرها الـ «Starter»، اضطربت المياه الراكدة في جوفه الآسن، ورائحة العطن سدت مسامه، وأفرغ هرموناته المتعفنة.

التقزز الذي أوحل فيه حياته برغبته ووجد فيه متعتة، لم يسمع كل عباراتها التي قالتها، سقط في بئرِ شهوته العميقة، رأى فقط شفاهها ـالعصيةـ تتحرك ولم يستمع إلا لنفسه، ولأول مرة في حياته البائسة تجمعه بها غرفة واحدة ومغلقة الباب! رغبته فيها حركته كما فعلت دومًا فهجم عليها، اختطفها في حضنه يعتصرها ويلعق تفاصيلها عنوة، يضمها، يُقبلها بالإكراه، ويأكلها.



تأنقَ كما لم يفعل من قبل، حتى يوم دُخلته لم يكن متوهجًا بهذه الطريقة! ارتدى الحبل كله بما عليه، بذلةٌ سوداءٌ قاتمة ينسدل حرف ياقتها؛ على صدره بطرفين يلتقيان بزرٍ يتيم يسكن في عروته، أسفلها قميص غامقٌ يجتاحه الكي مفرودًا تَلُم ياقتهً القصيرة ربطة عُنق سوداء رفيعة، ويقف على حذاءٍ يبرُق جِلده تحت الضي، مَرَّ على بيت العائلة وأخذ «ياسين» بين ذراعيهِ، ضَمَهُ حتى لامس ضُلوعه، في لحظةٍ تكاسل فيها عقربِ الثوانِ عن الدوران، بعدها تناقر مع والدته كما كان يفعل في الأيام الخوالي، وقَبَّلَ يد والده وجمعت أربعتهم مائدة الطعام، إفطارٌ يُعوِّض ما فاتهم في رمضان، تضاحك معهم وكأن الضحك سيغلو ثمنه بعد ذلك.

- قيمة الأب بتظهر في قيمة ولاده، عشان كدا أنا أحسن أب في الدنيا، لأن إبني أحسن ابن في الدنيا.

هكذا قال أبوه وهو يُربِتُ عليه، والده الأبسط من البساطة أعطاه الشيء الذي يحتاجه، الأمل، لذلك قام متفائلًا وسَلّم نفسه للمرآةِ، يُتمِم على وجاهته ضبطًا لثباته الانفعالي، مشط شعره الطويل إلى الوراء، قَبَّل دبلة «يسرا» المستريحة في يدِه، ثم التقط لنفسِه صورةٍ مع والديه محتضنًا «ياسين»، توثيقًا للحظةٍ قد لا تمنحه الدنيا مثلها ثانيةً! بعدها لمهم جميعًا بين ذراعيه وشَمَّ رائحتهم وحبسها في صدره، وانسلخ من البيت متحاشيًا النظرات المتسائلة وانطلق، وصل إلى «الملحق التجاري لهيلتون رمسيس» بعد ساعة.

الجو يتخلله صقيع المكيفات، اختار طاولةً متطرفةً قُرب السُلم الكهربائي وجلس على كُرسي؛ يُقابله آخر خالٍ يفصله عن البهو، الذي أكلت ثلاثة أرباعه مقاعد وطاولات الكافيه، طلب «Hammerhead Coffee» بطل العالم للكافيين في الوزن الثقيل، مشروبٌ عنيفٌ يكفي لإيقاظِ تنينٍ لمدةِ أسبوعين منتبهًا، وهو لا يُريد أن ينتبه إلا للساعتين القادمتين فقط، احتساه ببطءٍ، وترك لمزيجه الوقت الكافي ليُطلِق مفعوله السحري في أعصابه، ينبعث الدخان في مطفأته المزدحمة بكومةِ سجائرٍ انسحق رمادها و..

ـ كُنت ناوية أنفضلك على فكرة.

أفاق «فارس» من أفاعيلِ أفكارهِ الشاردةِ على صوتِ «عبير»، قالت جملتها وهي تَمُطّ شفتيها الكريزيتين وتضرِبُ البوز في وجهه، فالنَكَدُ له حقوق حصرية للمرأة المصرية، ومهما قاومته فهو يغلِبها في النهاية، تفاجأ «فارس» بوجودها أمامه، ففَزَّ من مكانه يمُدُّ لها يده لكنها تجاهلته وقعدت، فعاد يُربت على كتفها الثمين، كان على مدار

ساعة يأكله الترقب، يُتابع باب الـ «Mall» الزجاجي، ويُفتِشُ عنها بين وجوه العابرين، باله مُشوّشًا بأفكارٍ ثائرةٍ، ملسوع الخاطر، ينتظرها على الجمر ويترقب وجهًا آخر غيرها، فلم يُلاحظها وهي آتية، ساقاها القياسيتان الملفوفتان في الجينز، على نغمة كعبها العال ـ المبالغ فيه ـ مع كل خطوة، إيقاعها مُتعمد الجاذبية، وخزته بنظرتها، عندما لمحت صورتها المهتزة في بريق عينيه، فأيقنت أنه لم يسمعها فكررت:

ـ أنا كنت ناوية أنفضـ....!

ـ أنا بعشقِك.

هل جرب أحدٌ يومًا وجع الكلمة إذ تنفجر؟! حيث الحب رحلةٌ متهورةٌ في لفظةٍ كالشظيةِ، حروفها الملغومة تغسلُ الروح بالبارودِ، شهورٌ فاتت على «فارس» وهو مُشتعِلُ الفَتِيل، صراخهُ المكتوم يُعبئ شروخ وجدانه بالملحِ، فينثُر أحاسيسه الجافة فوق أشواك الظروف، أما الآن فقد جاء إليها ليكشف عما يُخبئه، ويحرر ـ بإيجازٍ ـ المسكوت عنه في سريرتهِ، حاملًا في ندوبِ جسدهِ الانفعال، مُلقيًا تبغ هواجسه الممضوغ بداخلهِ، تلهثُ نظراته ـ المتيمة ـ لها بحماسٍ يَدُقُّ النجوم ويُفَتِّتُ القمر، فيسقُط قتيلًا في جوفها، ويستحِمُ في موجِ دمائها، حتى يسطع نوره الفضي من أحداقها، لذا كَرَّر الإغارة، أخذها بجرعةٍ مُكثفةٍ من الدهشة، شحنها بالقشعريرةِ، حَرَّضَ البراكين الخاملة في صدرها، واقتبس نبرته الحارقة من جحيم شفتيها:

ـ أنا......بـعـشـقـك.

فالمرأةُ المناسبةُ تكون في حياةِ الرجُلِ كرفةِ جفنٍ أو كطعنةِ خِنجَر، تُحدِث انقلابًا في ضميره وخواطره، لأنها نسخةٌ واحدةٌ يستحيل

أن تتشابه أو تُعاد، تظهر في العمرِ مرة، تنبشه، تلملمه، تُلقي الشتاء ـ بأمطارِه ورعودِه ـ فيمسح مناخ أفكاره، فإذا مَسَّ هواها القلب، وترك بين جدرانه مدامعه وشكواه؛ يصبح ما عداها ليس إلا تعويضًا؛ كأبعادِ دخانٍ مُبعثر، كنافذةٍ مفتوحةٍ على الوهم.

سَمِعَتْ «عبير» الكلمة فأوقدتْ أصابع التفجير بين نبضاتها، وقالت دون أن تنظر في عينيه وكأن السؤال لغيره: ما لقيتش غيري يا «فارس» عشان أكون مِرسالك لـ»مريم» ؟!

ـ كان لازم يبقى انت ما حدش غيرك.

هكذا قالها ببساطةِ من يُخبرك كم الساعة في طريقٍ عام، لم يكن لديه إلا هي كي تقوم بهذه المهمة، لكنه اختار الوقت الخطأ، فبدلًا من أن يقول لها: صباح الخير؛ قال: أُريد أن أُقابل «مريم»! ضربةٌ موجِعةٌ لمشاعرها، وفخٌّ خطيرٌ لكبريائها، لكنها اعتادت على هذه التقلبات الخطيرة لحياتها، فالمرأة الجميلة تصحو كل يوم على مواجهةٍ جديدةٍ مع حظها العثر، رغم هذا فإنه يعرف أن الدنيا واسعة بالنسبةِ لهما؛ لكنها أضيق من خُرم الإبرةِ على كل واحد منهما بمفرده، خاصةً عندما تُهاجمه الوساوس، فَالعالم في غيابها يخاف أن يزوره الضوء، بيوت مهجورة يغمرها السكون، تستأذِن الأعمدة التي يملؤها الألم أن تنكسر، أرصفة منبوشة تمسحها جحافل الوهن، لا تطيب الحياة إلا بوجودها، فلا يتذكر إلا ملامحها من بين حُطام الوجوه، فيختَلِقُ الصُدف اختلاقًا حتى يُلاقيها.

ـ والله يا «عبير» مستعد أبيع دمي عشانك..

- يا «فارس» أنا اللي جوا دمك، ومش هاسمحلك تبيعه إلا لما تخرجني منه، وخروجي من دمك دا معناه موتي، وكل زعلي بيكون غيرة عليك مش أكتر.
- آسف إني زعلتك بمقابلتي لـ»مريم».
- أنا بس نقحت عليَّ نرجسيتي، وما قدرتش استحمل قعدتك معاها، مع إني متأكدة إن كل حاجة راحت لحالها.
- يا روحي أنا عيني مليانة بيكِ، وعشان كدا مفيش واحدة خلقها ربنا تقدر تدخل مكانك، حتى -لو لا قدر الله- انت ما بقتيش في حياتي؛ برضو أنا اكتفيت بيك، بس عمري ما اكتفي منك أبدًا مهما حصل.

وضع يداه كحمامتان فوق يديها، وترك أصابعه تقوم بالدور الذي وكل لها عند خلقها، احتضن أناملها وتحسس الخاتم ذي الوردة النائم حول بنصرها محفور عليه اسمه، لم تخلعه على مدار تلك الشهور منذ أن ألبسه لها، تكمن مَشاعِرها فيه، تمسح به الوجع عن جلدها، يكفي أن حروف «فارس» دومًا تنام فوق بصماتها، الكون كله بما فيه يدور حول فضيته اللامعة، والحياة كلها تسكن في قطره، فكأنما أسباب الوجود تُحيط إصبعها، سحبت يديها من بين يديه برفقٍ وهي تتأمله، ثم مالت إليه تهمس: وحشتني.

- انتِ ما وحشتنيش.

سمعتها، فعوجت شفتها العلوية بزاويةٍ منفرجة، فآثر السلامة واستدرك: أصلك هتوحشيني ازاي وانتِ ساكنة عيوني وفي قلب

خيالي؟! بس أنا اشتقت لك، دا أنا باشتاقلك وانتِ معايا فما بالك بقى لما تبعدي عني!

- أيوة كدا اتعدل.

قالتها غامزة فضحك فتابعت: أنا بحبك أوي يا «فارس».

- يا ليلة العيد أنستينا جدًا بقى وجددتي الأمل فينا والله.

- مش قادرة خلاص على بعدك عني، وباقعد أعد كل ثانية عشان ربنا يقرب البعيد وتبقـ...

بترت كلمتها، ثم فتحت شفتيها وهمَّت بقول شيء ما، ولكنها أطبقتهما مرة أخرى واستسلمت لحضن يديه ليديها، هناك بعض الألفاظ تقف كقطعةِ الصبار في الحلقِ، بعُلقمها وأشواكها، لا يُمكن أن تخرج فتجرح أو تبقى فتُمرر الجوف، حزمة من علامات التعجب والاستفهام، حالة من اللا تصرف تستحكم حلقاتها أكثر، فيتساوى البوح بالجرح، أو الصمت بالموت، لذلك لم تتحدث وتركت نبض وريدها ينتفض في يديه ليُخبِره، ونقشت الحروف الداميات على نظرتها، بريقٌ سماوي دامع حار.

- خرجي اللي جواكِ يا «عبير».

- لازم تكون حسيته!

- بس لازم أسمعه منك.

- انت مش عايز تتجوزني يا «فارس» ولا إيـ....!

وضع طرف سبابته على شفتيها الممتلئتين، فجعلها تأكل عبارتها: ششششش..دا مُنى عيني اتجوزك.

ـ طب إيه بقى اللي مانع، أنا مش هاجي أقولك وحياتي عندك اتقدملي، أنا موافقة على أي شيء منك، المهم أكون معاك يا سيدي، أنا كدا قطعت عليك كل الحِجج.

ـ حجج إيه بس، اللي بتقوليه دا مش واقعي.

ـ وهو كان إيه بيني وبينك واقعي؟! ما كله خيالي.

أُفٌّ، هو لا يطيق البذلة التي ارتداها أصلًا، يُريدها؛ لكن الظروف التي يُعاني منها تُقيده، وإنجاب أطفال آخرين ـفي ظل هذه الأوقات العصيبةـ يعتبر جريمة، وهو لا يحتمل وزر معاناتهم المتوقعة، وبعدما تراقص الجِنّ في خِلقته همَّ بالرد عليها لكنه توقف، تكسرت الألفاظ على حافة أسنانه، تدلت الحروف متشبثة بطرف لسانه عندما رآه، الجبردين والقميص الكتان ومسدسه الميري في جانبه، يتلقف احترامات ويرتجل المحبة، «عماد عتمان» أحد أكبر الكائنات عديمة الجدوى في التاريخ، يدخل من الباب فاردًا صدره على سبيل الهيمنة، يتعامل مع المحيط بفكرة مرياع الغنم؛ عندما يُحاول فرض سيطرته على القطيع، كمٌّ لا بأس به من المتمسحين فيه؛ أو في النجوم التي تزين كتفيه، حتى استقر موضعه في مواجهة المنضدة التي يجلس عليها «فارس» و»عبير»، وصل في موعده الذي لا يخلفه أبدًا، كما درسه «فارس»، يعرف جيدًا أنه لن يتأخر عن ليلته التي يقضي نصفها في هذا الكافيه، هو يعيش في جدول مُحدد، مكتوب بالورقة والقلم؛ مضبوطٌ مثل الساعة، وقد تأكد «فارس» أن هذا الجدول يُلزِمه بالمجيء، وهو ينتظره..

- «عبير»...................«عبير» انتِ غيرتِ اسمك ولا إيه؟!

- عارفة إنك هتثبتني وخلاص.

- بعد فرح «مريم»، إبقي حددي لي ميعاد مع أمك، عشان آجي أخطبك، يلعـ...

ابتلع «فارس» تهكمه مع التفاتتها، احتضنت تفاصيله في عينيها، وتخللت أصابعها أصابعه؛ كما الريشة تدخل في جوفِ المِكحَلةِ، ومع ضجيج الزفة التي تطوف في شوارع لُبها ابتسمت، مثل النجمة التي تتبختر بمفردها في ليالي الصيف، فهي لم تَقُلِ أبدًا أنها غير كل النِساء، لا تحلُم ببيتٍ وزوجٍ ودفءٍ وأبناءٍ عفاريت يكبكِبون حياتها! لكنها لا ترغَب في زيحةٍ مزورةٍ، بل تُريده هو، أن تُكْمِل المشوار بجانبه، تسعى للم الشمل، وهذا لن يكون إلا بعقدِ قرانهما، فلم يكن الزواج نفسه الغاية المثلى؛ بل هو الوسيلة الوحيدة لاستمرارهما معاً، وهو يعرف أن علاقتهما لن تدوم هكذا للأبد، فمن غير «فارس»؟! تلتقيه بأمانٍ تحت سقفٍ واحد، فلا تشعر أنه غريبًا يغصبها على العيشِ معه، وحتى الأمومة المجردة لم تتمناها! لكنها أرادت أن يحمل رحمها نطفة الإنسان الذي تُحِب، بصمته، جيناته، جزء منه ينمو بداخلها، ويخرج معجونًا بهما، فاقتربت برأسها منه، فشَمَّ شذا عطرها في أنفاسها الناهجةِ، وهي تقول:

- انت عارف عايزة أعمل فيك إيه دلوقتي؟

فمال عليها بدورهِ؛ يعبُّ رحيقها في صدره أكثر، وغمزها بطرفِ عينه مبتسمًا بخبثٍ: إيه بقى ها؟؟!!!!!

- نفسي أصرخ وأقول إنك خلاص هتبقى بتاااااعي.

- أستغفر الله العظيم، أنا جه في بالي القذر حاجة تانية خالص والله!!!!

ضَحِكَتْ وهي تعي مقصده الشيطاني، وتمايلت بتناغم مع صوتِ الموسيقى؛ المتهادي من السماعات الداخلية في المكان، وكيانها كُله يتسربل بالإيقاع، وعيونهما تفضح ما أُخفيَّ في سرهما، طوال عُمرِها لم تذوق طعم البهجة إلا معه، ولذلك بنت لها بيتًا في ضواحي قلبه، ولا تُريد من الحياة إلا أن تسكُن فيه، بينما رجع «فارس» بظهره للوراء، أمسك هاتفه ولقمه بشريحة محمول جديدة، ثم فتحه وكتب رسالة «SMS»، واختار جهة اتصال لاستلامها، «عماد عتمان»، ثم ضغط على إرسال في اللحظة التي قال فيها:

- «عبير»، كل اللي طالبه إنك تستحملي الواقع بتاعي.
- انت حتى لو قَتَّال قُتلة يا واد، هاشتِرك معاك في الجريمة.
- مش لدرجة أخليك شريكة في الجريمة يعني!

ثم مسح الرسالة من السجل، وتابع بنظره «عماد»، الذي يُخرج هاتفه المحمول وتمتم: أعتقد!!

بينما انهمك «عماد» في قراءة رسالة جاءته من «Privat Number»، نَصُها:

- [قابلني في الحمام حالًا، «صبري» اتقبض عليه، واعترف بمشاركتك في قتل «مصطفى»، ماتتأخرش دا لمصلحتك انت]

18

فجأة، ارتفع صرير الإطارات وهي تزحف في محاولةٍ للتوقفِ، وقسرًا أدارت عجلة القيادة على اليمين، فلَفَّتْ السيارة حول نفسها مرتين بالعرضِ، وسط سحابة ضبابية من الترابِ حولها، تتصاعد من الأسفلت المغبر الذي بصمت عليه طبقات الكاوتشوك، ذلك أن قدمها ضغطت على المكابحِ بكل قوتها، وكردَّةِ فعلٍ مال جسدها الخفيف على اليسارِ بحدَّةٍ، فاصطدم رأسها بعنفٍ في زجاجِ البابِ الذي تهشم، تحركت الصورة ـ في عينيها ـ بالبطيءِ؛ عندما طَلَّ نصفها العلوي للخارج، تُحيطه حفنة زجاج مكسور تتطاير، تخللتها شظاياه الدقيقة جدًا، ثم تناثرت على الأرض كحباتِ السكر، قبل أن تَرْتَدّ إلى مقعدها مرة ثانيةً؛ مع ثباتِ العربة أخيرًا، خلفت وراءها غيمة عفار تتبدد ببطءٍ، فتكشف عن آثارٍ حركتها الحلزونية على الطريق.

كُتِمَتْ جميع الأصوات في الكونِ؛ إلا من همسهساتِ القرط المرتعش في أُذنيها، وعلى استحياءٍ تَسَحَبتْ إليها الموسيقى الشهيرة لأغنية «يا ليلة العيد»، مثل الوشوشة، تصاحبها همسات «كوكب

الشرق» من مقهى منزوٍ في نهايةِ أحدِ الأزقة، بعد بُرهة؛ رفعت رأسها المجروح ـ داخليًا وخارجيًا ـ تتحسسه، وتتأمل الدماء التي خَضَبتْ أناملها المرتجفة، وبكلِ ثقلِ الدنيا ألقت وجهها بين كفيها الصغيرين، فكأنما تقبض على حزمةِ الهواجس التي تمرح أسفل جِلدها، تُحاول فتح نافذة للنورِ كي تَنْبَلِجَ بِطَانَتُهَا، تُريد أن تدفع الأمر المطمورة في مخاطرهِ، لتستوعب أن ما حدث لها في تلك الليلة قد وقع فعلًا، وعليها تحمُّل نتيجة العواقب مهما تكن، فهي الآن تنتظر في حي مجهولٍ أَنْكَرَ نفسه منها، تتصاعد الأدخنة من سيارتها، ومعها جُثة طازجة، أهلًا بالجحيم المركز!

تذكَرَتْ الأحداث منذ ساعة في مكتب «صبري»، عندما هجم عليها كضبعٍ يقضم عُنق غزالة شاردة، لفها بذراعيه لكن قبل إحكام سيطرته عليها فلتت منه، هربت من براثنه ونفضت عن جسدها ما علق بها من شوائبه، تقهقرت بقدمين مُرتجفتين للوراءِ في اتجاه الباب، لكن الأمور لا تسير دائمًا وفق الأهواء، فتعثرت في بعض الكراتين الموزعة في أرجاء الغرفة، ارتبكت فوقعت على وجهها فرمى جسده المترهل على جسدها النحيف، لوى ذراعيها وراء ظهرها وجذب شعرها للخلف، وبين صراخها بدأ ينكُش ملابسها تمزيقًا، وينبش كل ما فيها، رجرج الأرضية وتقاذفت أشياؤه المتناثرة في الأركان، في تلك اللحظة دخل «رمضان».

بعض المواقف تدفع أحدهم للانفعالِ، تُلقي في قرارهِ الخاملِ زوبعة تلتهم أعصابه وأوردته..

دلف يحمل فنجان القهوة المخصوص، لم يكن الموقف يحتمل التردد، فأطاح بالقهوة وانطلق في اتجاه «صبري»، أمسك بتلابيبه وجذبه إلى أعلى من فوق «مريم»، فارتفع جسده قسرًا بين يدي «رمضان»، حاوية تترنح يجذبها سِلكُ وِنش، فتملصت «مريم» من أسفله وقامت بأنفاسها المتخبطة تهرب ناحية الباب، وتشبثت بالرفاص السمج، بتفاهةٍ عاند المقبض يدها لا ينفتح بينما تجمدت اللقطة في عينيها، وتحرك عقرب الثوانِ اللعين ـ في ساعة الجدار على يمينها ـ بمللٍ، فترتج الحياة مع كل طقطقة يُصدرها، صوته مزعج، عنيف، وحركة الزفير والشهيق انتابتها مثل نوبات صرع تجتاحها، تضربها، ثم سمعت صوت انطلاق رصاصة.

على طريقة الغُميضة استدارت، تنتفض، نهيجها يُبعثِر نظراتها والأفكار داخلها تتلعثم، وجدت «رمضان» بجوار قدميها مُمددًا على الأرض، ودماؤه تغطي صدره في بُقعة تتسع ببطءٍ، وفوقه يقف «صبري» ممسكًا بمسدسه والدخان يتصاعد منه، ظَلَّ المشهد جامدًا قبل أن يسقط المسدس من قبضةِ «صبري» الرخوية، أصابت أصابعة المخلية العظام ارتعاشة؛ فلم تحتمل وزن المسدس، وفجأة انطلق عدوًا إلى الخارج، خرتيت هائج دفع «مريم» ليبعدها عن طريقه، سقطت بجوار «رمضان» ولكنها سرعان ما قامت لتنفذ بجلدها هي الأخرى، لكن يد «رمضان» الواهنة تعلقت بقدميها، لطخها نزيفه، وتزحلقت أصابعه على ساقها، ثم قال بأنفاسٍ مشحورة:

ـ ماتسيبينيش أموت هنا!

دار المشهد كله في مخيلتها، بدونِ تفسير قررت أن تُنفذ أمنيته الأخيرة، فلن يَقْدِرُ أحدٌ أن يرفض الطلبِ الأخير للمحتضر، خاصة إذا كان قد افتداه بنفسه، وإذا تعاطف مع تاريخه القديم، لذلك ارتدت «مريم» جوربيها على كفيها وأسندته، بينما انحني هو ليُمسك مسدس «صبري» ويدسه في جيبه، على طريقة الأفلام تحركت به دون أن تترك بصماتها، نزلا من ناحية الباب الخلفي، في غفلةٍ من الحارسين اللذين يتجمعان في ركنٍ يتسامران قتلًا للوقت، يدخنان ويلعنان الأوامر التي جعلتهما يبيتان ليلة العيد في مبنى النيابة، يتمنيان أن ينهدّ فوقهما وفوق الجميع، تجنبتهما، وجاءت بسيارتها ثم شحنته فيها، تصرفها لا يخضع لإدراكٍ منطقي، ثم عاد الزمن للحظةِ الحالية فاسترجعت رباطة جأشها، ترجلت وتلفتت حولها فوجدت المكان غير مأهول، ساكن، مظلم كبئرٍ عميقة، لا يكسر سكونه أي نفر إلا مواء قطة تلتصق بالرصيف، وكوم قمامة لا نهاية له، ونورٌ يبهت خارج من المقهى اليتيم في نهاية الزقاق.

ففتحت الباب تتحسس نبض «رمضان» الصامت، ثم سحبته كذبيحةٍ من قدميه ـبالجوربينـ واسندته على الرصيف، مُحاذيًا للقمامة، أفزعت القطة التي هربت لبعيدٍ تترقبهما بفضولٍ، ثم أدارت محرك السيارة وانطلقت بكل سرعتها حتى ابتلعها الظلام، بعد قليل خرج النادل من المقهي يحمل شوالًا من فضلات ليلة العيد، بواقي تموين الزبائن، فاقترب من الجثة مُعتقدًا أن أحدهم زوَّد العِيار في احتفاله بليلة العيد، ولكنه فوجئ بأنه يحتفل في العالم الآخر! ولوَّل، صرخ، أحدث جلبة جمهرت بعض المارة القليلين في الأزقة المحيطة، دبَّ الهرج فيهم، وتم إبلاغ الشرطة التي وصلت دوريتها بعد ساعة، فُرض

كردون على المنطقة، بينما حضر أفراد المعمل الجنائي لرفع البصمات، وحملوا جسد «رمضان» في كيسِ الموتى، وتم التحفظ على المسدس في كيسِ الأحراز.

في نفس الوقت عادت «مريم» إلى بيتها، أسكنت سيارتها في المرأب وغسلتها بالكامل، ثم صعدت بتأنٍ إلى المكان الذي تنتمي إليه، عادت لشقتها، لغرفتها، لأشيائها الصغيرة، لبيئتها البسيطة التي لا يصِحُ أن تخرج منها، كسمكةٍ وديعةٍ تعود أخيرًا إلى مياهها، فتركت الماء يغسل شوائب تلك الليلة من على جسدها، دخلت إلى فراشها لترتاح على وسادتها في انتظارِ الغد الجميل، وعاهدت نفسها أن تمحو تفاصيل الليلة من ذاكرتها، أجرت اتصالًا تليفونيًا بـ «خيري»، مرت ثوانٍ حتى تلقت منه ردًا، فعاجلته بقولها:

ـ أنا بحبكـ أوي يا «خيري».



انفجار «Chernobyl» تكرر في عينِ «عماد»، وهو يقرأ الرسالة، عقله توقف بغتة ولم تفلح معه مُحاولاته المستميتة لتشغيله، وبعصبيةٍ أغلق هاتفه، ثم تحسس مسدسه ـ بعفويةٍ ـ وهو يهُبُّ من جلستهِ مُكرهًا، فسلاحه الميري هو الضامن الوحيد لنجاته، تلفت حوله، لكن تداخلت الوجوه في نظرتهِ؛ مع زحام الرواد المعتاد في ليلة كتلك، يعرف أن هناك عين تترقبه فحاول أن تكون نقراته على البورسلين مسموعة، علَّ دَبدبَاته تقرع في أذني من يتابعه، حتى وصل إلى باب دورة المياه فدفعه بِعُنفٍ؛ جعل عامل الخدمات يُلملم جرده ومساحته

وشرشوبته ويخرج، مستعيذًا بالله منه، وظَلَّ «فارس» يرمقه بصمتٍ طغى على الكون في وعيهِ.

سيُغامر الآن، فحياته التافهة ليست لها قيمة، إلا إذا جعل المستَبْعَد يحدُث!

استأذن «عبير» للذهاب إلى الحمام ولم يستمع إلى ردّها، فكل الأصوات من حوله لا تُسمع، حالة من الخرسِ أصابت ضجيج الحياة، صفير السكوت يجتاحه فيُغلف كل شيء، مَدَّ أصابعًا ترتجفُ نحو ركبتيه المترنحتين تثبيتًا، وسحب نفسًا عميقًا ملأ به صدره، حتى يُزاحم نبضات قلبه الثائرات توجُسًا، لحظة مرت وتحرك «فارس» في عَقِبِ «عماد»، بخطواتٍ كسولةٍ وسط جموع الناس، اقترب وفتح الضلفة المُعلق عليها لافتة «W.C»، وعلى نحيبِ مفاصلها رأى الخواء بالداخل، لم يكن هناك أحد بانتظاره، عبر بخطوتين وتأمل الحائط على الجانب الأيسر، تكسوه كليًا مرآة ضخمة، استقرت على حافة رُخامة جرانيتية سوداء، نبت في منتصفها أربعة أحواض، وعلى الجانب الأيمن وجد أربعة دورات متجاورة بحوائط أولوميتال متشابهة الأبواب.

عاد «فارس» بنظره يسارًا مرة أخرى، فقابل انعكاسًا لصورةِ شخصٍ يقف من خلفه، فارتد متافجئًا وهو ينظر إلى الوراء في اتجاه «عمادٍ» الذي يضع يديه في وسطه، يُظْهِرُ مسدسه في جرابه، متجمِدًا بتحفُزٍ للغريب الذي تجرأ عليه، وبعد صمت متبادل قال: أؤمر! ابتسم «فارس» بقلقٍ، ومسح شعره وضبط ربطة عنقه بسماجةٍ، أما «عماد» فقد فار الدم في وجههِ: انت مين وعايز إيه؟!

تَصَلّب»فارس» كالجلاميدِ؛ ثم استدار للمرآة يمشط لحيته الكثة هادئًا، يُتبل الطبخة كي لا تكون صعبة المراس، يتفحص وجه غريمه المنثور في المرايا ساكنًا، تتداخل الإضاءات على الزجاج مع ملامحه، وتتشاكس مع انعكاسها على السيراميك؛ الذي يُغطي أعلى الحائط، ثم تنحنح وهَمَّ بقولِ شيءٍ ما؛ عندما اقتحمت المكان شِلة شبابية، فانكتَم، وبَقْيّتْ نظراته الجهنمية مع «عماد» تقول ما لا يُقال، يتبادلان الوعيد الخفي وسط مزح الشباب المبالغ فيه، وتهريجهم الصاخب بلا داعٍ، وبعد دقائق ثقيلة تسربت الجماعة؛ غادرت كما ولجت، فانتظر «فارس» قليلًا حتى ابتعدت الخطوات عن الباب الذي يُغلق أوتوماتيكيًا ببطءٍ، وعاد الوضع كما كان.

- إيه يا «عماد باشا»، الرسالة مش واضحة!

- بص ليَّ هنا وأنا باكلمك.

مؤشر الاستفزاز وصل لأقصى درجاته، والغليان الذي يُبقبق في دماءِ «عماد» لا يُحتمل، فأطلق صهد سخونيته من جلده ومَدَّ يده اليمنى ليجذب الكتف الأيمن لـ»فارس»، لكن الأخير استدار فجأة وكال له لكمة يسارية خطافية في أسفل حلقه، ضربة عنيفة جعلت الدنيا تهتز في إدراكِ «عماد» الذي لم يتوقع تلك الخطفة، فخانه تركيزه ونَكَصَ غصبًا على عَقِبَيهِ، ليصطدم بباب دورة المياه الأولى قبل أن يعود ثانية، فعاجله «فارس» بأخرى من يمينه؛ عانقت أنفه فانكسر بطقطقة عالية تبعتها صرخاته، انقَلَبَ إلى البابِ ثانية بقوةٍ أكبر، ومع تلعثم حركته وضغط جسده على الضلفة سقط احتمال الحلق، فانخلع من السيراميك بزاويةٍ منفرجةٍ تكفي لعبور جسد «عماد»؛ المرتج كموجةِ بحرٍ واهنة،

وخلفه «فارس» يُلقم أنفه لكمة ثانية، وثالثة، ورابعة، بنفس مبدأ اضرب على الحديد وهو ساخن، تكاسلت ساقاه عن حمله فقاوم للوقوف وهو يمسك بالحائطين المتقابلين، لكن السطح الأملس جعل أصابعة تنزلق، حتى خبط في قاعدةِ المرحاض، و»فارس» في إثَرِه، اصطدمت ركبتيه في حرف القاعدة الصحية، فانهار قوامه ليجلس عليها.

سقط هاتف «عماد» في مياه البالوعة، بينما حاول الوقوف بعنادٍ، ولكن قدم «فارس» اليمنى الذي يندفع من ورائهِ كان لها رأي آخر، استلمها في بطنه فأعادته إلى موضعه مع عجين أحشائه، ثم عاجله بضربةٍ من راحةِ يسراه خلف الأذن اليمنى لـ»عماد»، جعلت اليُسرى تلتصق بالصبَّانةِ، وهو يقول بغيظٍ: طبعًا انت أعمى القلب والعين ومش عارفني.

ـ انت مين يا ابن المـ...

لم يُكمل «عماد» اللفظ، وابتلع بقية حروفه مع سنته الأمامية؛ التي استقبلت لكمة مستقيمة مباشرة من يمين «فارس»، شجت شفته العلوية وجعلت رأسه يرجع بقسوةٍ، فيلتصق بحرفِ صندوق القاعدة الصحية، كشطت فروته وهو يصرخ: «آاااااااااااااااه» خرجت مكتومة محملة بدمائه، لأن «فارس» لم يُعطه رفاهية التعبير عن الألم، ذلك أنه أمسك صدغيه وجذبه لأسفل بشدةٍ ليقابل وجهه بضربةٍ غشيمةٍ من ركبتهِ اليمنى، جعلت جمجته تحمله وترتدُّ بعنفٍ لتعانق الوزرة من خلفِ المرحاض، قبل أن ينهار ثانيةً على المقعدةِ، وترك بصمة دمائه على السيراميك المحطم وبقايا من فروتهِ المقطوعةِ، نزفت مؤخرة رأس «عماد» فأغرَقَت سترته وقميصه، فأمسك «فارس» شعره يجذبه لأعلى، وهو يرتكز على ركبته تثبيتًا، ثم صفعه بكفٍ عبأه بكلِ غِل الدنيا، وقال:

ـ عرفت أنا مين ولا لسة؟!

نَهَجَ «عماد»، وملامحه المتألمة تستجمع تكبره الذي يُختَبَرُ: انت مفكر إني هاسيبك دا أنا هانفخك.

ـ إجابة غلط!

قالها «فارس» قبل أن يهوي على أنفه بضربةٍ قوية من مرفقه، على طريقة عجين الفلاحة فعلها، جعل «عماد» يفقد حاسة الشم، وتمت إراقة الدم من أنفه المقصوف، تابع «فارس»: ثم أظن إنك في موقف ما ينفعش تهدد منه!

وهنا ضربه «فارس» براحتِهِ اليمنى في ثغرة النحر، فانتفض جسد «عماد» مرة أخرى وهو يتأمله، ثم تمتم: أنا عرفتك؛ انت «فارس».

ـ عليك نور.

ـ انت مفكر انك كدا بتاخد حقك؟!

ـ حقي! القانون اللي ماتعرفهوش هو اللي هيجيبه ليَّ.

انفجر «عماد» ضاحكًا، وطَرْطَش الدم من بين شفتيه، فمسحه بكُمِهِ المهترئِ وقال بصوتٍ منخور: قانون مين؟! يا جدع افهم، احنا أصحاب القانون في البلد دي، بنعمل الدستور والقوانين والمسميات دي على مزاجنا، عشان مصالحنا احنا.

مَدَّ «فارس» يده فأمسك ياقته وجذبه لأعلى يتأمل عيناه الزائغتان: يبقى انت كدا ما فهمتش الرسالة يا «عماد بيه»!

فظَلَّ «عماد» ساكن النظرة؛ تجتاح أعصابه الكهرباء، بملامحٍ مُقتّرة التعبير، يأكلها التيه، انتفض الاستفهام في عينيه، فتابع «فارس»:

- أيوة يا باشا «صبري» اتقبض عليه، واعترف عليك، بعد ما سلم النيابة تسجيلات ليك، وصدر أمر ضبط واحضارك بتهمة التخطيط والقتل العمد، وشوية والبوليس هييجي عشانك، وياخدوك مُرابعة زي الدبيحة لحبل المشنقة.

بعد أن انتهى «فارس» من جملته صفعه على خدهِ الأيسر بيمناه، عنفوانه كله وضعه في تلك اللطمة، فَشَخَ وجه «عماد» حرفيًا، واتجهت دماغه نحو طفاية السجائر الفُخار بقساوةٍ، عجَنَت خده الأيسر، تفتفت إلى شظايا سقطت مغسولة بدماء «عماد» الملهي على عينه، مزيج مؤلم يعانيه يتغلغل في كل كيانه، تأوه، وتهتكت أذنه اليمنى من الضربة، ونزفت بسخاءٍ فجز «فارس» أسنانه:

- أنا كنت لازم أشفي غليلي فيك، من اللي انت عملته فيَّ يا ابن الكلب.
- أنا أنقذتك من حبل المشنقة، عندي دليل إنك قتلت «حدوتة»، لكني حفظته، وما عملتش بيه محضر!
- ..!!
- أيوة، أنا ما عملتش فيك حاجة، صبري هو السبب.

تلك الجملة المتفتلة ألقت جذوة النار في وقود «فارس» الهائج، فاحترق جوفه وخرجت السخونة من عينيه، فأمسك «عماد» من شعر رأسه وجذبه خارجًا به من المرحاضِ، ثم ضربه في حلق الباب الذي احتضنه وسقط به أرضًا، قبل أن يُمسك شعره ثانية ليجذبه لأعلى ويطيح به بكل قدرته نحو المرآه، كالكرة الكاوتش طار جسد الضابط والتصق بالمرآة، تهشمت، وسقط على الأحواض الرخامية، اخترق حرف الرخامة

جانبه فانقلب على بطنه، ومن فوقه انهمر الزُجاج المسحوق مثل كومة الرمل، وهو يلعن نفسه والقدر والزمن والبذلة و»صبري»، ومن داخله تتمزق صور مملكته، يُكذب النهاية التي يعيش بأسها الآن، فلا يُمكن أن يَقَع مثل الثور هكذا! ولكن لو أن ما يُقال ليس حقيقة ما تجرأ «فارس» عليه قط! وها هو ينظر إليه بغضبٍ، كان يكبِتَهُ على مدار الشهور السابقة، ثم نفض قبضته من شعر «عماد» المنتوف من جذوره في الحركة الفائتة، وهنا اهتز هاتف «فارس» برنين مميز.

انتبه «فارس» للاتصال لبُرهةٍ، كانت كافية ليفاجئه فيها «عماد» ـالمدغدغـ بمسدسه الميري، أشهره في وجه «فارس» الذي رفع يديه مُرغمًا: ما تتجننش يا «عماد» البوليس جه برا، وكدا انت هتلف حبل المشنقة حوالين رقبتك.

ظَلَّ «عماد» يرمقه بسكوتٍ وأرهف السمع جيدًا، بالفعل تسلل صوت سيارات الشرطة في الخارج، فَأَنْكَرَه، دراسته ـأيام الكليةـ للعلوم السلوكية وعلم النفس تؤكد له أن «فارس» يُهيئ له أوهامه، يتلاعب بهواجسه وظنونه، لكن رغم هذا فإنه أحس بحالةٍ من الهرج تجتاح المكان، في نفس اللحظة دخل عليهما أحد رجال الأمن، تكهرب الوضع أكثر، وَجَدَّ «عماد» جالسًا على الحوض، ينزف من كل تقاسيمه، وتتناثر شظايا الزجاج من حولة تملأ الأرضيات والحمام المحطم، و»فارس» يرفع يديه أمامه مستسلمًا للمسدس، ومن حولهِ أطلالًا باقيةً من معركةٍ حربيةٍ، فأبلغ عن الوضع في الجهاز اللاسلكي، وهنا صرخ فيه «عماد» بهيستريا:

ـ اطلع برا وإلا هاقتله..هاقتلوووووه..

فقال رجل الأمن وهو يتقهقر: اهدا يا باشا، ماتجيبش لنفسك مصيبة، البوليس هنا أصلًا، كدا انت اللي هتروح في الرجلين.

ظهر على ملامح «فارس» الرعب لأول مرة في تلك الليلة، وغصبًا استجاب لأمر «عماد»، وأما الأخير فقد اقتنع بنص الرسالة التي جاءته، فوصول الشرطة في هذا التوقيت معناه سقوطه الأكيد، فتشتت قراره في كل الاتجاهات، تائه، ولكن يجب عليه أن يُحافظ على ورقةٍ رابحةٍ في اللعبة، فنزل وضَمَّ يدي «فارس» فوق رأسه، ولَفَّه مُكرهًا في اتجاه الخروج، يدفعه كأي رهينة معتبرة في موقفٍ خاسر كموقفهِ، بينما سبقهما رجل الأمن وابتعد عن طريقهما، وتركزت كل أفكار «عماد» في الدفاع عن مصيره، بأي ثمن.



«صبري» موجود في بهو القصر، شَرَّف منذ ساعة وارتمى في حضن أمه على الأريكة ينتحب، يبكي، يُبربر، يتحشرج صوته كخوارِ عجلٍ مذبوحٍ، وفي صدره تتعارك الأنفاس، يختنق، يعرف جيدًا أن حكم الإعدام قد كُتب في حقه، وما يتبقى هو التنفيذ، يدرك أن حبل المشنقة قد لفه بيديه حول رقبته؛ منذ أن كان يقف خلف الباب ويختلس النظر إلى «مريم»، حِمْلهُ يئن في روحهِ التائكةِ كخرقةٍ قديمةٍ، هَمهَم بحكايته في البداية، ثم جاءته القدرة على البوح، اعترف بجريمته الليلة وهو بين يدي أمه، أغرقها بالتفاصيل.

كلماته نزلت في حضرة صُداع يطعن الأوردة بين رأسيهما، هو ينهار وجسده يترجرج كعُلبةِ الحليب، وهي تنغص عليها مرارتها، رغم ذلك استخدمت قاموسها اللغوي في تهدئته، لها حيل خاصة في تدعيم

أساساته الرشحة وترميم قوائمه المتداعية، أكدت أن والده «الباشا» عندما يرجع سوف يحل كل تلك الإشكالية، حاولت أن تُقنع نفسها أولًا كي تُقنعه بالأمر؛ حتى اقتنعت، فتعصبت ـ كعادتها ـ لرأيها، لهم بديل الظهر ألف ظهر، فلن يُضرَب على بطنِه أبدًا، وهذا هو منطِقُ القوة، طَلَبتْ منه الاطمئنان، فطالما بقيَّتْ أمه تتنفس فلا مكروه سيمسه، وفي زمرة ألفاظها المتهدلة دخل والده، فربتت على كتف «صبري» أكثر وهمست في أذنه:

ـ أبوك جه أهو سيبني أنا اتكلم.

طَلَّ «كامل باشا» في مدخل القصر بقدمين متلعثمتين، يتحرك بالتصوير البطيء، الفراغ يحصد ملامحه هائمًا، وارتعاشة شفتيه تفضح ما لديه، يقطر حزنًا من لونه الباهت الذي يطوف فيه الموت، خطواته فيها شيء مختلف عما عهدوه دومًا، وتيهٌ يتسحب في ارتجاف بين نظراته الزائغة، يدل على شروخ قد شابت جدار هيبته، هناك أمر لعين وضع كبرياءه على المحكِ، وفي بهو القصر رأى العناق فاقترب منهما، يعاينهما وخلف شفاهه المطبقات ألف عبارة، وفجأة ـ بلا مقدماتٍ ـ صفع «صبري» بقوةٍ وقال بعصبيةٍ:

ـ جيت للصدر الحنين بتاعك يا ابن أمك.

ـ انت اتجننت يا «كامل»!

زعقت زوجته وهي تحتضن ابنها أكثر، وكأنما تُحاول أن تُعيده إلى أحشائها، تحتاج لقبيلةِ نسوةٍ حتى تُخفي هذه الجثة، وصرخات «صبري» تدوي أكثر في فراغ البهو؛ يتصاعد انتحابه الذي زاد أضعافًا، تركته ينساب في قعر الأريكة، فلكزه والده بقدمه ضيقًا، ووقف يتأمله

وهو يجز أسنانه مُغتاظًا، يقبض أصابعه ويبسطها في حركاتٍ ميكانيكيةٍ متوترة، نفسه تَثور وهو قليل الحيلة أمامه، ثم ألقى جسده في هدوءٍ على كرسيه، كأنه عامود إنارة يسقط على قارعة الطريق، أرخى مفاصله وفَكَّ ربطة عنقه وقال بانكسارٍ:

ـ الجنان دا انتِ سببه يا هانم، بتربيتك للمحروس.

ـ طيب اهدا كدا ونشوف حل للمصيبة اللي احنا فيها، ثم انت عرفت ازاي أصلًا؟!

ـ أنا لسه راجع من زيارة لسيادة النائب، وأطلعني على الأدلة اللي اتقدمت في حق بسلامته.

ـ مش فاهمة حاجة.

ـ ولا عمرك هتفهمي، شوفتي وصلتينا لفين، ابنك طلع عجلة ملهوش في شغل الرجالة يا ست هانم! فضيحته على كل المواقع، ومش بس كدا؛ دا رشاوي وتلفيق تهم لمصالح خاصة، وكمان تحريض على القتل، واشتراكه بالتخطيط لجرايم وبلاوى سودة، خلاص ابنك ضاع ومش هنقدر نعمله حاجة.

لم تمتلك الأم إلا أن تُربت على ظهر وليدها، حنيتها تتضاد مع الموقف وقالت بتحدٍ: يعني ايه؟ ابني ضاع ومش هنقدر ننقذه!لأ يا «كامل» اتصرف، «صبري» مش ممكن يحصل له حاجة.

ثم تخلصت من حمولة وليدها، وواجهت «كامل» وقالت وهي ترفع سبابتها في وجهه: ابني مش هيتسجن، انت فاهم.

ـ يتسجن!

قالها بدهشةٍ تتسحب في تقاسيم وجهه، بشفاهٍ مرتعشةٍ، ثم رجع برأسه للوراء كأنه سُلطان مُدلل يستجم على البحر، ثم ماجت الجدران وتراقصت الإضاءة، قبل أن تنطلِق خلية نحل تطن في أذنيه، ثم ضحك في سخريةٍ سوداءٍ وقال هادئًا: عارفة، لو أخد تأبيده على مصايبه يبقى ربنا وقف معاه، أقل حاجة القاضي هيحكم عليه بالإعدام، أصلك ما تعرفيش حاجة.

هنا ارتفع صوت «صبري» باكيًا، لطَمَ وجهه وعضَّ يده ندمًا، اسودّت الدنيا في عينيه بعدما انصبغت بلونِ أعماله، فدبّت العزيمة في والده وأراد أن يُعلِم عليه بصفعةٍ أخرى، ولكن الهانم وقفت مانعةً له وهي تقول بدهشةٍ: بس ازاي الموضوع وصل للنائب؟!

- فيه بلاغ اتقدم من مجهول امبارح، عن ابنك، بلاغ موجود معاه اسطوانة عليها اعترافات متصورة، صوت وصورة لأكتر من قضية وجريمة، مشترك فيها مع ظابط فاسد، وكمان فيديوهات جنسية لابنك انتشرت على الانترنت.

كلماته خرجت وهي تمزق أوردته، فيها لفحة من قلبِ الجحيمِ ترفرف، وتحوم حولها زبانية العذاب، نزلت عليها كالقدرِ المحتومِ، وتركت على أذنيها الملتهبتين الصديد، شيء من الهذيان يجتاحهم فلا يعرفون الخلاص، انسابت الحروف مسنونة الحواف تقطع الأوردة، تنخر في العظام الضعيفة، وتُلقي الحضارة في النار، وتتفتَّت على حدودها الأحلام والآمال، أُطلِقَ في جوفها سرب غربان ينهشون حشاياها، فكأنها جيفة منتفخة، هي أصلًا لم تحتمل ما قاله «صبري» آنفا، وجاء أبوه يصب على رأسها المصيبة صبًا.

مرحبًا بكم أيها السادة في الجحيم.

سقطتْ إلى جوارِ «كامل» كنعلِ حذاءٍ مثقوب، كورقةٍ ذابلةٍ تتطاير في مهبِ الريح، الدوارُ يَختَالُ بحريةٍ في عقلها؛ فالأخبار العنيفة تمضغ قوتها، والضلال يكسو موقفها، فأرخت رأسها المخسوف على يدها المرتعشة وتمتمت: دا غير مصيبته الليلة كمان!

انتبه «كامل» لكلام زوجته فأفاق من إرهاقه، وبكلِ كَمَدِ معيشته أمسك برقبتها، ثم جذبها نَحوه من شعرها، ومَدَّ يده الأخرى ليقَبِضَ على ذقنها، وثبت عينيه الداميتين في عينيها، وجزَّ أسنانه حانِقًا وهو يقول: إيه اللي حصل الليلة كمان؟!

19

على تراقصِ أنوارِ المراكب الملونة المبهجة؛ التي تقطع صفحة النيل في وسط عتمة الظلام، وهي تحتفِلُ بالساعات الأولى من العيدِ، ظهر على الماء انعكاس المبنى الشهير للفندق بحرف الـ «H»، علامته المسجلة، دائما تلك المنطقة تنام هادئةً إلا من السيارات التي يُصيبها هوس الجنون؛ عندما يلوح في أفقها النهر العتيق، وخاصة في الأعياد، لكن تلك الليلة جاءت مختلفة عما سبقتها وحتى عما ستأتي بعدها، ضج الهرج في الشارع الفاصل بين الملحق التجاري والفندق، عندما قُطعت صفوف المتنزهين بسربٍ من سيارات الشرطة، اندفعت بشريطٍ طولي، ثم تكدست في المساحةٍ الدائرية الواصلة بين البابين، اشرأبت الأعنَاق، وتوقف المارون عن الحركة، وظلَّ من العيون تساؤل ليس له إجابة، ماذا يحدث؟! علامة استفهام شكَّلها فصيل القوة الأمنية الذي اقتحم الشارع.

ترجل من السيارة الأولى «ضياء»، بالبذلة الملكي والقميص المفتوح، ومن خلفه مساعداه بالزي الميري الأبيض، الاضطراب سيد الموقف، كبحرٍ صامتٍ أسفله دوامات عنيفة تأكل باطنه، اندفع أفراد قوة التدخل السريع، مدججين بالرشاشات الآلية والخوذ والدروع السوداء المعتادة، أشباحٌ غاضبةٌ تعرف ما عليها فِعله، دقيقة انقلب فيها الحال، ثلاث سيارات أمن مركزي سدت الطريق في وجه موقف السيارات، الذي يُطل على ميدان «عبد المنعم رياض»، فرضوا كردونًا أمنيًّا حول نطاق الفندق والملحق التجاري.

داخل الـMall» تناثر الرواد، جماعات وفرادى أمام الزجاج يتأملون، أبعدهم رجال الشرطة وأفسحوا لـ»ضياء» ومساعداه المجال، أمامهم تجلس «عبير» بلا اهتمامٍ للهراء الذي يحدث رغم جلله، كما تركها «فارس» في مكانهما منذ دقًائق، تتابع الموقف من بعيدٍ، لكن في تلك اللحظة ظهر «فارس» خارجًا من دورةِ المياه، يضع يديه فوق رأسه ومن خلفه «عماد» مدهوس الوجه، يقطر دمًا في خطٍ مُنَقَطٍ بالأحمرِ على البورسلين أسفله، كل ملامحه معجونة، يُمسك بكتفِ «فارس» وموجهًا المسدس على رأسه، زاد هدير الهرج وتخبط الرواد هلعًا، يبتعدون عنهما، هنا سُمع صراخ «عبير» وهي تنطلق ناحيته ـ عكس اتجاه الناس ـ بعدما شاهدته:

ـ في إيه يا «فارس».

ـ ارجعي يا «عبير» لورا، ما تتدخليش، فيه سوء تفاهم..

قالها « فارس» وهو المسَيَّرُ، يتحرك تحت رحمة «عماد» كما يشاء يوجهه: امشي يا حيلتها. صرخ فيه «عماد» وهو يدفعه حتى وسط البهو، فواجههما رجال الشرطة، في مقدمتهم «ضياء» الذي أشهر مسدسه بتلقائيةٍ هو ومساعداه وصوبوه تجاه «عماد»، عندما هتف «فارس» مرتجف الملامح بهلع: الحقني يا «ضياء بيه» عايز يقتلني.

فأمسك به «عماًد» بغيظٍ وجذبه من شعرِ رأسه فألصق به فوهة مسدسه: ما اسمعش حسك ياله، امشي من سُكات.

هنا تدخل «ضياء» مُلطفًا من حرارة الجو: اهدا يا حضرة الظابط.

«عماد» فقد أعصابه ووجه مسدسه نحو «ضياء»، وتقدم للبوابة وهو يزعق: نزل مسدسك وارجع يا فندم وإلا هاقتله.

تقهقر «ضياء»، وأخفض مسدسه وأشار لمساعديه اللذين امتثلا لأوامره، بالكاد حشروا أنفسهم وسط الجماهير؛ التي تُشاهد العرض المباشر وتوثقه بالـ «Video's»، أفراد القوة دفعوا الأكتاف والصدور والظهور لإبعادهم، يتخللون الأجساد حتى أصبحوا أمام الملحق التجاري، وعَمَّتْ الفوضى، تكتلت عناصر الشرطة على جانبي الزقاق وعلى سلالم الفندق من الاتجاهين، يُحيطون بـ «عماد» المتشبث بـ «فارس» يقوده، حتى وقفا أمام الواجهة الزجاجية للملحق التجاري، وحول سيارات الشرطة اصطفت قوة التدخل السريع؛ متحفزون لأي أمر، يرتكزون برشاشاتهم الآلية التي ينطلق منها شعاع الليزر الأحمر، كشبكة عنكبوتية حول «عماد» و»فارس» من أمامه، وفي المقدمة وقف «ضياء» ومساعداه، وتاهت «عبير» وسط الزحام.

في عتمة المشهد لمعت إضاءة العدسات في كاميرات الهواتف، ضي الـ «Flash» تراقص من كل شبر أمام الزجاج ومن الداخل، مرايا لامعة كالنجوم، زاد الهرج في الموقف الـ «Live Now» على شبكات التواصل، تلكَ المادة الدسمة التي يلتهمها كل من وقف يصور، سبق صحفي له ولكل المتفاعلين عنده، سيجمع الليلة عددًا لا بأس به من المتابعين، هوس المشاركات والإعجابات، النجومية المزورة التي يحلم بها كل من هبَّ ودبَّ، لمعة الشهرة التي يرجوها الجميع بلا استثناء، ولذلك أصبح الكل ـ تلك الأيام ـ هو مصدر الخبر ومراسله في نفس الوقت، بينما زاحمت «عبير»، حتى انسلت من بين أكوام البشر وهي تصرخ في «ضياء» باكيةً:

ـ أرجوك يا فندم انقذ «فارس» هو ما عملش حاجة.

ربت «ضياء» على يديها وقال لـ»عماد»: حضرة الظابط، انت عارف إن اللي بتعمله دا مش هينفعك.

فضغط «عماد» بمسدسه على رأس «فارس» وقال متخوفًا: عارف يا باشا، عارف، بس خلاص يا روح ما بعدِك روح.

فتقدم «ضياء» خطوة تجاهه وهو يجز أسنانه قبل أن يهتف فيه بحنق: مفيش سبب للي بتعمله، فبلاش تودي نفسك في داهية.

ضحك «عماد» بأداءٍ تمثيلي: الاشتغالة دي اتعلمناها في الكلية، فبلاش تعملها عليَّ، أنا مش هاسيبه غير لما سيادتك تبعد عن هنا، أنا مش لُقمة سهلة، ومش هاسلم نفسي ليكم بسهولة كدا، طالما وصلتوا ليَّ يبقى مفيش حاجة هتحميني غير سلاحي.

ثم صرخ بهيستريا وهو يغرس فوهة المسدس في رقبةِ «فارس»: يلّه ابعدوا، وإلا أقسم بالله هاقتله، هاقتلوووووووووووه..

ـ انت عارف برضو إني مش هانفذ اللي بتقوله، ولآخر مرة بقولك ما توديش نفسك في داهية.

ـ الداهية كدا كدا أنا رايحها.

قال كلمته ورفع زر الأمان في مسدسه، ثم ضغط أكثر على رأس «فارس»، بلغ التوتر ذروته في نفس اللحظة التي تَحَفَّز فيها «ضياء» ومساعداه، قراءة المشهد تقول له أن «عماد» لن يردعه شيء عما ينتويه، واعترافاته تؤكد القصة التي حكاها له «محمود»! ولكن هناك حلقة مفقودة! رغم هذا يجب أن يتصرف بسرعة، خاصة أن نبأ المصيبة بدأ يتسرب ليجذب بُرادة الناس كالمغناطيس، يتجمهرون من كل شق وجحر كالفئران حول قطعة جُبن، يُتابعون الموقف من بين الأكتاف والرؤوس، كأنهم في ملعب المباراة النهائية لكأس العالم، وعيونهم تبرُق في كل رُكنٍ مثل الحيوانات المفترسة، يترقبون، فالمواجهة مادة دسمة لجلسات النميمة، بينما رفع رجال الشرطة أسلحتهم في ردِّ فعلٍ مناسب لفعلِ «عماد»، تملكت الدهشة من أحد المساعدين فمال على الآخر وهمس:

ـ أنا مش فاهم حاجة! هو مش المفروض إن الظابط هو اللي كان مُهدد بالقتل وجايين ننقذه هو؟!

ـ أيوة.

ـ طيب إيه بقى، هو الوضع متشقلب ليه دولقتي؟!

ـ أنا كمان مش فاهم زيك بالظبط، الواضح قدامي إن الظابط دا ملطوط من حاجة معينة، وبيهدد «فارس» بالقتل! خلينا نتعامل مع الموقف اللي قدامنا، مالناش دعوة بقى بأي كلام تاني، لأننا مش هنتحاسب غير على اللي حاصل فعلًا.

في حين أرهف «ضياء» السمع في سماعة أذنه اللاسلكية، لأحد قناصي فرقة التدخل السريع من خلف السيارة: هو في المرمى بتاعي دلوقتي يا فندم، في انتظارك عشان تدينى الأمر.

لم يتلقى القناص ردًا من «ضياء» الذي قال لـ«عماد»: يا حضرة الظابط لآخر مرة هاقولك سلِم نفسك.

ـ وأنا لآخر مرة بقولك مستحيل دا يحصل.

تلك آخر كلمة تردد صداها في المكان، ومع الحرف الأخير دوى صوت رصاصة انطلقت فجأة، فانفجر الوضع.



اللمبةُ الحارقةُ أجبرته على أن يرفع يده المرتعشة أمام عينه باعتراضٍ، فلا يشعر أحدٌ بمرارةِ زوال المُلك إلا المَلِكُ نفسه، حرفيًا هو بكلٍ التفاصيل المملة في الأمر، «كامل العيشي» نجم يبهت ثم يختفي بين السحابِ الداكن، ما زال مُلقى على الكُرسي المتعرج أسفله، اكتشف خشونة ملمسه؛ التي جعلت احتكاكه يطفح عرقًا يُبقِع نسيجه الحائل، اللعنة على بيوت الأثاث، لأول مرة يعرف الغربةِ بين جنبات هذا البيت، ورغم الفخامة والضخامة والترف المقصود؛ أحس بوخز الحياة التي تغسل مُحياه بالكآبة، جلس يستمع للحكاية، ضرب أخماسًا

في أسداسٍ، وتراكمت المعادلات في رأسه حتى تزاحمت النتائج، أنهى «صبري» رواية مقتضبة مفادها أنه قاتل، وبين كل كلمة وأخرى تنبت أمه من العدم، لتؤكد له أنه ابنه وسمعتهما من بعضهما، وكل عام وأنتم بخير جدًا.

لأسفه الشديد كانت المرأة مُحقة بطريقة مستفزة، لم يحتمل «كامل» أكثر، صفراء معدته تسلخ جوفه، فمال جسده على جانبه الأيمن وتقيأ على البروسلين، ثم تنحنح ولم يرفع رأسه بعد وقال: والمطلوب دلوقتي أحميك من اللي انت عملته؟!

لم يتلقى جوابًا من ابنه الذي لمحه وهو منكسر العين منكفئ الرأس: أُومال هتسيبه لحد ما يروح مننا، واحنا ما لناش غيره.

قالتها المرأة بسرعةٍ كالبرق، تعتدي على عذرية أوجاع زوجها، تصفعه بكلمتها حتى لا يُسَلِّم نفسه للمصيبةِ، فرفعَ رأسه صامتًا وتأمل ملامحها بعينين غائمتين، رؤيته ضبابية، فقال خافتًا كمن يتحدث لنفسه: أسيبه ازاي، لأ طبعاً، أنا بنفسي اللي هابلغ عنه.

- انت اتجننت!

قالتها الأم المكلومة بفزعٍ، وانتفضت من مكانها إلى الأريكة المفسوخة تحت ابنها، فلملمتهً في حضنها، أحاطت هُلامه الطري بذراعيها التي تكفي لسداد كل ديون مصر، ثم تابعت بعد أن قبلَّت رأسه: أنا هاوَقَفَك يا «كامل»، أنا هاوَقَف البلد كلها، ولا حاجة تمس شعرة واحدة من راس ابني.

ثم أفلتته ومسحت وجهه الخشن وقالت: اطلع انت يا «صبري» يا حبيبي، خُدلك حمام سخن ونام، وما تقلقش أبدًا.

قام «صبري» مترجرجًا، جوال بطاطس مهروسة، انسحب يَجُر ترهلاته حتى أول درجات السلم حينما استوقفه والده: «صبري»..

تجمد في مكانه ولم يلتفت إلى الأب الذي تابع: ما تصدقش كلام أمك، لأن كلامها أقنعك إنك أحسن حد في الدنيا، وإن كل حاجة ملك إيديك، وتقدر تعمل اللي انت عايزه في أي حد، وتقدر تتحكم في مصاير الناس، وعشان كدا انت ما نفعتش تبقى وكيل نيابة، وبرضو أقنعتك إنك أحسن وكيل نيابة، ودي النتيجة، انت فكرت لما تتكلم بالقانون تبقى أكبر منه، ولكن الحقيقة إننا خُدّام للقانون مش حُكام عليه.

تحركت قدما «صبري» تكنس خيبته وألمه، ومع كل خطوة صدى كلمات والده تقطع في شحمه، وكل فاصلة تحفر في عظامه، حتى صعد لغرفته التي هجرها آنفًا، فخلع ملابسه كلها، تعرى تمامًا ووقف يزوم من حوله الهواء، زاغ بصره بين صوره، البورتيريهات المتنوعة المختلفة الأزمان، المنتشرة على الرفوف بتناسقٍ وتتابع، كل صباح ينظفها وليمعها فريقٌ من الخدم، بتعليمات الهانم، الآن عاًد إلى تاريخه السالف، عمره منذ الحبو للمراهقة للبلوغ و حتى الشباب والنضوج، اقترب منها وسكن في تفاصيله القديمة، كأنه يُراجع تلك الأيام، تطور ملامحه، ينكُش الأيام كلها بين اللَّقطات، ضحكته وهو على كتف والده ومن خلفهم بُرج إيفل وكأن الدُنيا كلها ملك يديه، وهنا أمام بُرج بيزا المائل، يُفكر، خطأ في الأساس جعله من عجائب الدنيا! فلماذا خطأ أساسه هو لم يفعل المثل؟! الله، كُل شيء مخلوقٌ بِقَدرٍ، فما بال أقداره تفعل فيه الأفاعيل؟! أكمل التفتيش في ذكرياته المصوَّرةِ، يلهو على

شاطئ البسفور، و يُخيم عند جبال الألب، ويقف بجوار الكريملن، وهنا، وهنا، وهنا طوّح الصور في أرجاء غرفته وحطمها.

ثم تَعَطَّل أمام المرآة، ينهج ويتأمل التثدي الذي يُعاني منه، ربت على شحوماته، وفي خلفيةِ مشهدهِ تتردد كلمات والده الأخيرة، مرة وأخرى في أذنه، بصدى مزعج ثم خبت جمرة الألفاظ وحل مكانها السكوت بصافرته اللعينة، رفع يديه على أذنه يُريد أن يبتعد عن الكون كله، يتقوقع في داخل دهاليزه، يتلوى كالحيّةِ، يتسرب الصقيع في جسده، البرودة التي تتسلل للواحدِ عندما يكون بمفرده ويُحسُّ بأن هناك من يُطِلُّ عليه، وفعلًا طَلَّتْ عليه ملامح «مصطفى»، هاجمته وهي تُعيدُ عليه كلمات والده فهرب منه، وجد نفسه أمام المرآة ثانية فتخيل أن ملامحه تتبدل فوق جسده العاري، وفجأة انصعق ورجع للخلفِ، فتعثر في حرف السجادة وسقط على ظهره، عِجلٌ يرفس في مواجهة الجزار، انتصبت كل شعرة في جسده في موجة قشعريرة تجتاحه.

وعندما رفع رأسه يتحسس وجهه في المرآة ثانية، وجد صورة «رمضان» قد رحلت، بعد أن خُيل إليه أنه يهاجمه، ويُكرر نفس الكلمات، اللعنة على والده، فهرب إلى دورة المياه حتى لا يُقابل صورة «إبراهيم»، فماذا حدث لـ»إبراهيم»؟! حطَّ علامة استفهام جديدة، وألصق بجوارها علامة تعجب، ثم بدأ بفتح الماء في حوضِ الاستحمام، تيبس للحظات أمام مرآة الحمام في الفترة التي يمتلئ فيها الحوض، تحسس ذقنه النابتة تخدش بشرته الخشنة، فأمسك ماكينة حلاقة بالكهرباء وأوصل السلك، بدأ في حلق شاربه الذي طالما التصق بملامحه ولم يتخل عنه أبدًا! يتمرد الآن على وصية أبيه، استأصله كورمٍ

خبيثٍ من وجهه، وعاين شكله الجديد، يُذاكره، ماذا فعل ليستحق ما يحدث له؟! سأل نفسه مشدوهًا، ففي روايته الخاصة هو أطيب خلق الله، وما دونه هُم الأشرار!

يُقِرُ أمام نفسه أنه أتقَنَ دور الوغد ببراعةٍ، فَجَعَل كل من يُقابله يخشاه ويتجنب غضبته، لكن القِصة لها سَردٌ مُختلِفٌ لديه، فرغم أن الشيطان ينتظره كل صباح على حافةِ سريرِه؛ ليسأله عما يجب فِعله اليوم، فإنه في المساءِ ينكفئُ على نفسه، ينهار، وتشهد على ذلك وسادته التي شربت ملح دموعه الأجاج، فقط لأنه لم يكن أبدًا هكذا، ولكن القلب له في أمرِه شئون، فلم يعُد لديه اختيار، وما رداءة وضعه الآن إلا تطورًا طبيعيًا لكل ما فعله، وهذه نتائج أطماعه، فكأنه هو الوريث الشرعي لأبيه الأكبر «قابيل»!

لم يعلو فوق الصمتِ المخيف صوت، خيَّم على المكان، لا يكسر جلاله إلا خرير المياه، فاض الحوض، وبدأت الأرضية البورسلين ـتحت قدميه العاريتينـ تغرق، وهو ممسكًا بالماكينة التي تدور أسنانها، يتخيل عنقه وحولها حبل المشنقة، أما بالأسفل فظَلَّ والداه فى مكانهما لم يبرحاه، والموت ثالثهما، قاتَلَهُما الخوف من المجهول واعتصر أحشاؤهما، مرار يتساقط في جوفِ كلٍ منهما، حتى أزاحت والدته مؤخرتها الثقيلة وتنحنحت، عندما حدث انقطاع مؤقت في تيار الكهرباء قبل أن يعود في اللحظة التالية، فقالت:

ـ هاطلع اطمئن على «صبري».

أصدر لها ضحكة ساخرة سوداء دون رد، فقط تابع خطواتها وهي تطقطق على السُلم الرخامي، ومصمص شفاهه أسفًا، فقد حاول جاهدًا

أن يحافظ على الوضع الاجتماعى لأسرته بين الصفوة؛ لكن يا لحسرته!
مرت دقائق والأفكار تأكل رأسه، جحر ثعابين محفور في جمجمته، تلدغ الحيَّاةُ عقله، تسممه، تعصره، سمعها: «كاااااامـــل»، انتفض مع صرختها، فَزَّ من مكانه ملسوعًا، يُحاول أن يبث في أوردتهِ عزم يحتمل مصيبة جديدة، حينما تعثر في الدرجة الأولى، سقط، وهو يسمع استغاثتها الثانية، زحف، حتى صعد لغرفة «صبري» مرتبكًا، نشفت عروقه، وتخشب أمام دورة المياه، عندما وجد زوجته على الأرض فاقدة للوعي، أما «صبري»، فقد غاص في حوض الاستحمام عاريًا، وفي يده طرفي سلك ماكينة الحلاقة المقطوع وموصول بالكهرباءِ، وشرر التيار القاتل يتصاعد بلمعته الطيفية فوق الماء، نعم، فقد انتحر «صبري»، قرر إنهاء حياته مصعوقًا، غادرت الروح الآثمة إلى بارئها.

افتقر قلبه للرحمة على الناس وحتى على نفسه.

مات «صبري» منتحرًا..



دوى صوت الرصاصة، مَرقَت من جوار «عماد»؛ لتخترق الزجاج من خلفه فيتحطم، هوجةٌ، تناثرت فيها شظاياه على الجميع، ومع الضجة المتصاعدة والصرخات انفلت الوضع، هرجٌ، اضطربت الخطوات المُدْبِرَة عن المكان، وتخبطت الأجساد، بينما زاد الضغط على أعصاب «عماد»، فكَبَسَ على الزناد وهو موجهًا فوهة مسدسه نحو «ضياء»، انطلقت طلقتة وعبرت بإنش واحد من جوار جمجمة «فارس»، صفّرتْ في أذنهِ فانحنى راكعًا وأمسك دماغه، وكتم خيط الدم الخفيف الذي تسبب فيه الرّايش فوق حاجبه، بينما أكملت الطلقة سيرها نحو «ضياء»،

فأخطأته، لكنها أصابت أحد مُساعديه في كتفه الأيمن، فانقَلَبَ للوراءِ مُرغمًا، ليسقُط بعُنفٍ على زجاج السيارة المستقرة خلفه، حطمه، ثم تدحرج على مقدمتها مضرجًا فى دمائه، وفي ردّةِ فعلٍ مساوية للفعل ومضادة له في الاتجاه كما قال «نيوتن»، أطلقَ «عماد» الرصاص تلقائيًا، فأصاب يد «عماد» اليُمنى الممسكة بالمسدس، وأطاحت به ومعه سبابته معلقًا بالزناد، ارتجف كفه الدامي، صرخ، وبذهولٍ تفحص إصبعه المبتور بخاتمهِ الذهبي، الذي انفصل عنه للأبدِ.

في نفس اللحظة، جاء أمرٌ غير مُباشر لضابطِ القنصِ؛ عن طريق الفعل الذي أقدم عليه «ضياء»، فكأنما ألزَمهُ ضمنيًا أن يتعامل مع الموقف، فرَمَى عِيارَه مصوبًا على جبهة «عماد» الذي يترنح في مرماه، واندفعت الطلقة الجديدة لتستقر بين عينيه، فتقهقر مُرغمًا للخلفِ، ارتدَّ ساقطًا على الرُخامِ، فاردًا أطرافه كنجمةٍ تزحف فوق شظايا الزجاج المهشم، وهنا صدحت «عبير» وهي تنطلق:

ـ «فاااااااااارس».

فما هو الحب؟! إنه الأرض المثالية التي تركض فيها الوجدان، كطفلٍ حافي القدمين يعيش اللحظة ببراءةٍ، هو الانفعال الصافي الذي يزور القلب فيتصرف بعفويةٍ، هو الحرية التي تُمنح للسجين فينطلق بإحساسٍ نقي، مثل العصفور غير المراقَب وغير المجبر، هو المرآة التي تُجرد الإنسانَ من كل أقنعته، فيقف أمام ذاته وهو في ذروة إدراكه بما يُريده ويتمسك به، لو عرف أحدٌ كل هذا سيعرف لماذا انطَلَقَتْ «عبير»؟ مَضَتْ تحت الشَّرَارِ الكثيف للبارود نحو «فارس»! أما هو فهرول ناحيتها فاردًا قوامه برشاقةٍ، مبتعدًا عن جثة «عماد» التي تُغربلها

الطلقات، فمع المُحبين لا يوجد علامات استفهام أو تعجب، تُقبل أفاعيلهم فقط.

رَكَضَ «فارس» إلى «عبير»، يتحاشى الرصاص؛ المارِق بجوار بذلته الكلاسيك مفتوحة الأزرار، وربطة عنقه التي تهفهف في الهواء، بهلوانٌ بين الأعيرةِ النشيطة، التي تمر بشريطٍ متوهج في الليل، ومضاتٌ مُضيئة تملأ الفراغ، تنطلق محترقةً بضي فضي باًرق في الشارع نحو جثة «عماد»، فتضطرب من شدةِ غربلتها، أسرعً إليها بين ألوان أشعات الليزر الحمراء المتقاطعة كخيوط عنكبوتية حولهما، وأيضًا كانت هي تقابله من الناحية الأخرى، وقد سقط حجابها ولهث شعرها هائجًا خلفها بذهبيتهِ المصبوغةِ بلونِ الدم، يلمع من بين خصلاته الرايش المضطرم، ولا تهتم إلا بـ «فارس»، ثم خطفها بين ذراعيه أسفل الغبار والدخان، ظَلَّ المشهد متوقفًا للحظةٍ، بباروده، وأضوائه، وحرارته، وأصواته، وبصفير المقذوفات التي تهبط في محيطهما، كالألعاب النارية، حتى صرخ «ضياء»:

ـ وقف الضرب، وقف الضرب.

هناك منطقة بداخلِ كل شخص تُريد التخلص من المنطق والمفروض، وهذا ما حدث في تلك اللحظة، حيث رفع «فارس» ذراعيه حاملًا «عبير»، أبعدها عن الأرض، ودار بها حول نفسه دورةً كاملة، يعجن تفاصيل جسدها بتفاصيله، وهي تتعلَّق بربطةِ عنقه، قبل أن يُسقطها بين ذراعيه، فتمسح بصدرها ضلوعه، حتى امتزج بها وهو يضمُها في حضنه.

فالإنسانُ لا يحتاجُ إلا حِضنًا؛ يُخرج من بين جوانحه تعب الأيام، ويفضح مكنون مشاعره.

عانقها، قبلها، فهي التي تُسقِطُ الراء من تلك الحرب، اختلط عرق جسده مع ماء عينيه الغزير، وهي شاركته الدموع بالدموع، خشية الفقد بين هوجائية الرصاصات، سالت محاجرهما بملوحةٍ امتزجت في شفاههما، وما أشهى أن يُغمِّس المرء البكاء مع من يهواه، فمذاق الغرام لا يُماثله شيء، فهو زائر خفيف مؤقت الإقامة؛ كثير المشاوير، لا يقترب إلا ليبتعد! لكن الوضع هنا تَبَايَنَ، لأن النظرة للحياة تَبَدَّلتْ، فتلك الحرائق التي تتركها المشاعر تحت سماوات الأفئدةِ، والخربشات التي تَخمش الجلد في رحلتها، والأتربة التي يُخلفها رمادها في الأحداق، كلها وُلِدَت الآن؛ في الشعرة التي فصلت حياتهما عن موتهما، فكيف يُغادرهما الحب؟!

- أنا قلبي انخلع عليك.

قالتها ورَمَتْ ما بقيَّ من كلماتها بين شفتيه، ليستطعم معها ما أحسته: أنا عمري ما هاخليكِ تنخلعي عليَّ تاني.

قالها وهو يضمها؛ وهي تتشبث بمؤخرةِ رأسه، ثم دَفنَتْ ملامحها في كثافةِ لحيته، وتنهدت: مش هاسيبك ولا هاخليك تسيبني تاني.

قَبَضَتْ على ربطة عنقه، فمسح جبينها بيديه وتمتم: خلاص يا حبيبتي، مفيش سبب يخليني اسيبك تاني.

ثم التفت إلى الخلف، فتعلقت عيناه بالجثةِ الهامدةِ التي يتفحصها رجال الشرطة، وبجوارهم «ضياء» يتابعهم ويطلب الإسعاف عن طريق

اللاسلكي، وعلى نغمات الـ «تششش تشش» عاد إليها حازما: خلاص، اتقتل السبب اللي كان مخليني اسيبك.

اتسعت عيناها اندهاشًا، وتعمقت أكثر في نظرةِ عينيه المغرورقتين، ثم وضعت أصابعها على شفاهها غير مُصدقة لما سمعته، تبحث عن لسانها، وهي ترى دمعاته الحارة المتدحرجة على وجنتيه، وقبل أن تدور رأسها تشبث بها وتابع بصوتٍ متحشرج: في المعز قلت لك: «مش هاحكي لك، دا انا هاخليكِ تشوفي بنفسكِ».

أشفقت عليه، وقبلته في جبينه وفي عينيه، فأبعدها برفقٍ عنه وهو يبتسم على خلاف الموقف: بلاش البوسة في العين أحسن تفرَّق.

فأمسكت بياقة بذلته وجذبته على نفسها أكثر وقالت: إذا كانت بتفرَّق بين كل الناس؛ دلوقتي ما بيننا هتجمع!

وبعنادٍ، قبلته ثانيةً في عينيهِ، ثم جلجلت قهقهاتُها، فقد انتهى القهر، ورغم أن ضحكتها تُزلزل الكون وتهدمه فإنه معها سعيد البناء، احتضنها أكثر وضمها في طياتِ جسده، تراقص المشهد حولهما، بقيتْ هي معه ترف كحمامةٍ وصلت عشها، فشيّع معها عصر الحزن والكبت، وانطفأت بداخله كل الآلامِ الناحبة، تأمل فمها الملموم وشعرها الذي يرتاح على ظهرها تحت الأضواء، وتفحصها، بعينين تلمع ضاحكةً مع كل «Flash» يصُب النور عليهما، لا يوجد غيرها في دمه غريقة أنيقة، انفصل بها عن الهتافات التي تنسدل مع تترِ النهاية، تصفيقًا وتهليلًا للبطولة الشُرطية، أو الصافرات التي يُطلقها البعض لموقفِ العاشقين المتلحفين ببعضهما، ليلة العيد كما يجب أن تكون، اقترب «ضياء» منهما يمطّ شفتيه بفتورٍ ملولٍ، وربت على كتفِ «فارس»:

- انت بقى يا عم «فارس» هتتفضل معانا.

هز «فارس» رأسه متفهمًا ثم ابتسم وهو ينظر في عينيهِ بثقةٍ وقال: تحت أمرك يا فندم.

ثم عاود النظر لـ«عبير»، وقَبلها على جبينها وقال: ما تخافيش يا حبيبتي وما تقلقيش أبدًا عليَّ.

فهتفت «عبير» بهلع: واخدينه على فين يا حضرة الظابط؟! انت شوفت خطيبي هو اللي كاًن هيتقتل و...

قاطعها « فارس « مبتسمًا وقد تضاعفت ثقته أكثر: قُلت لك ما تقلقيش عليَّ.

ثم التفت إلى «ضياء» وغمزه: مش بس حضرة الظابط هو اللي شاف، لأ دا كل الناس دي شافت اللي حصل، وصورته كمان، ودلوقتي حالًا كل المواقع والنشرات هينزل عليها أخبار، وصور، وفيديوهات عن بطولة الشرطة في إنقاذي؛ من تهديد ظابط شرطة فاسد، باعترافه هو نفسه قبل ما يموت، بالصوت والصورة..

ابتسم «ضياء» شبه ابتسامة، مزيج عجيب من الدهشة والإعجاب والغيظ، فبادله «فارس» الابتسام، وعلى وجهه آيات النصر كلها متجمعةً، وهمَّ بقولِ شيءٍ ولكن «ضياء» عاجله: ما تتكلمش، هنروح المكتب ونكمل هناك.

هز «فارس» رأسه متفهمًا، فتشبثت فيه «عبير» وقالت وهي تحضن كفيه: انت الراجل بتاعي يا «فارس..

فتوغل في عينيها: وأنا أقسم بالله ما هاسمح يبقى ليك راجل غيري.

20

الأشياء الجنونية التي يقوم بها أي شخص لها دوافعها، والتهور الذي يذوقه في أدائها يحتمل وحده معاناته، وعند تنفيذها لن يطلب أن يُساعده أحد، لإدراكه أنه حتى إذا طلب فلن يُجاب، الجميع سيتركونه يُعانق شتات نفسه، ويجمع أجزاءه ويمضى، غير عابئين بالشَّرَرِ الذي يُخربش دواخله، يتغامزون بينهم على سخافة قراره الذي هدم روتين حياته، ونَتَفَ مستقبله من جذوره، وقاد انقلابًا على رتابة أيامه، وضخ الوقود في مُحركاته التي صدأت كي تنطلق، رغم أنه يُحيي إرادة تفلحُ آفاقه، تُشعِل فتيله الرطب فينفجر، وتنعي معيشته المنخورة مثل الأحذية القديمة، لذلك لا يمكن التنبؤ بأفعاله، حيث تتغير ملامحه، ويحشو بالألغام أحلامه، ويكتُب بالسكينِ فوق أحداقه، ولو أن الدافع لكل ذلك هو الحب فربما يكون الجحيم مقبولًا.

لأن الطبيعي أن الناس يؤمنون بالمشاعر، وهذا ما يجعل البشرية مستمرة.

ولهذا كشفت الشخصية الجديدة عن «فارس» مختلفٍ، حيث اندفع للتفكير والترتيب والتنفيذ، فلم يعُد هو كماً هو، والضريبة التي دفعها باهظة التكاليف، كان ثمنها لحمه وأعصابه وروحه، لذلك تحرك غير مُبالٍ، تتقابل نظراته باستهتارٍ مع «ضياء» طول الطريق، يكتم في نفسه آلاف الآلاف من الأحاسيس، فقد بدا مُعقمًا ومُستخلصًا من أي صراع، مُرتاح البال، مُستقطرًا ـ مثل العطر ـ من أصولهِ، فقد قَشر وجدانه، ومسح غُبار أفكاره، وغسل هواجسه من الشوائبِ، فجأة وجد نفسه في مكتب «ضياء» وسمعه يقول:

ـ «فارس»، أي تحقيق هيطلعك، هيبرأك، وهتقدر تثبت إن الظابط اتهجم عليك بدون سبب، وانت ضربته دفاعًا عن نفسك فهددك بالقتل بمسدسه، ومصر كلها شاهدة، وهتقول مش معقول تكون سهران مع خطيبتك وتورط نفسك!

مكتبة ضخمة، مُتخمة المجلدات نظيفة دليل على الاعتناء بها، واضح أنها للاطلاع الشخصي وليست لاستكمالِ الديكور فقط، ثم علم مصر على سارٍ صغير، يتكئ على حافة شباك في يسار المكتبة، و»ضياء» الذي الذى يجلس خلف مكتبه وأمام المكتبة؛ يتحدث إلى «فارس» من خلف أصابعه المشتبكة، قبل أن يعتدل ويفتح علبة سجائره، أخرج اثنتين له ولـ»فارس»، دخن»ضياء» سيجارته، واستكمل حديثه وهو ينفخ الدخان: طبعًا مش هاقدر أفسر الطلقة اللي انضربت على إزاز المول، وهاقول الحقيقة، إن تبادل النار كان رد فعل، بعد إطلاق النار علينا من ناحية القتيل اللي جثته في المشرحة دلوقتي، وكدا الأزمة تُخصنا إحنا بعيد عنك.

ثم شدَّ نفسًا عميقًا فأحرق السيجارة كلها، وأشعل أخرى وأكمل: انت رتبت كل حاجة، ولبستني الموضوع صح، أحييك!

سحب «فارس» الدخان إلى رئتيه ورفع رأسه ينفثه بهدوءٍ: طب حضرتك بتحقق معايا ليه؟! كل الإجابات عند سيادتك.

- يا بني دا مش تحقيق، أنا باستفهم منك.
- أؤمرني يا حضرة الظابط.
- مين اللي ضرب الطلقة.
- يعني سيادتك ما تعرفش؟!
- عارف إن «محمود» اللي عملها، واتجاهها من ناحية الفندق، بس لخمة اللي حصل وسرعة التصرف خلتني أنفضله، لكن خلي بالك؛ رقمه اللي مكلمني منه معايا، وتسجيلات شركة المحمول هتثبت تورطه، ودا خيط مهم وأقدر أجيبه منه.
- دا رقم خط مجهول من واحد في الشارع، وحتى لو هتجيبه هيقول انه اتصل بيك يعرفك بتخوفاته، وبرضو هيخرج، لو هيتورط كان يبقى ساعة الموقف نفسه، ودا مستحيل من ردود أفعال رجالتك! واللخمة زي ما حضرتك شرحت.

تَعَمَد «فارس» الضغط على حروف جملته، حتى لا يُشعِره بالتقصير، وألقى الكرة في ملعب غير ملعبه، رغم هذا سال العرق على جبين «ضياء»، وخرجت الكلمات متقطعة: طيب افرض إنك كنت اتقتلت بالغلط.

غمزه «فارس» ثانيةً، وطَرَقَ على الكلمات أكثر ليُمَسْمِرَه: ثقتي في سيادتك أكبر من الاحتمال دا.

ثبته، ثم دخن وتابع القرع بمرزبة ثقيلة على المسمار: سيادتك ماتغلطش الغلطة دي..

طاردت ملامح «ضياء» شبح ابتسامة وحك بأظافره رأسه عديم الشعر وقال بثقة: ولو نفترض حصل!

- مفيش أجمل من الموت لهدف منطقي، ويبقى تعويض مثالي عن هدف حياتي اللي طلع تسلل..

عقَدَت جملة «فارس» كل ما كان يجول في خاطر «ضياء»، فزمجر الأخير: أنا مش جايبك عشان نهرج يا «فارس»، اخلص كدا وقُل السبب؛ اللي يخليك ممكن تضحي بحياتك عشان تعمل اللي عملته دا! احنا مش لعبة في إيد كل واحد؟!

أمر يبكي استفهامه في القلب، سؤال «ضياء» انفجر نازفًا في أحشاء «فارس»، وللإجابة استحضر في خياله تفاصيل التفاصيل، لكل ما حدث له، فتحجرت الدمعة فى عينيه وتثاقلت، فهُناك أمورٌ لا يُمكن شرحها، لأن مفاهيمها مُرتبطة بالتجربة، وما لاقاه «فارس» لا يُمكن أن يُلاقيه «ضياء»، فأنى له تفنيد الدوافع المحشوة بالكبريت! فمن مَر بنفسِ الحالةِ هو من يعي إحساسها فقط.

لذلك تحشرج صوت «فارس» منكسرًا متألمًا عندما خرج، وقال: الظابط دا بعت ناس استباحت عِرضي، وقَطَّعِت لحمي ودنست بيتي، وقتلت آخر حاجة باقية ليَّ من مراتي، لو قتلوني كان يبقى الوضع هين، لكنهم خلوني أعيش وأنا باتمنى الموت في كل لحظة، باشوف

في المراية واحد ما اعرفوش، غريب مُضطر اتعامل معاه كل لحظة، تخيل إنك تتكسف تبُص لجسمك! وخايف من مشاعر حبيبتك عشان مش عارف دا حب ولا عطف! بقيت مُجبر أواجه نظرات الناس ليَّ، وشكهم، وأجاوب على تساؤلات عيونهم، واسمع مصمصة شفايفهم، موتوني ومستكترين عليَّ شهادة الوفاة، دا حتى إكرام الميت دفنه، وانا بقى اندفنت بالحياة يا فندم.

تساقطت حروف الكلمات من فم «فارس» كالأسهم المارِقةِ في كبدِ «ضياء»، فها هو يَصِفُ له مأساته، فهو يعيش في بيئةٍ غير صالحة للبشرِ، وأمره مُتعلِق بجموعةٍ من الأفاكين والمنافقين والمتشككين والسفلة، ومطلوب منه تفسير نفسه وكشف دواخله وتبرير تصرفاته، وشق دماغه لإظهار أفكاره، وكتابة بيان مُطوّل بكل معتقداته، ونشر عريضة ـ أو أكثر ـ للدفاع عن تصرفاته، واحتمال شطحاتهم وخيالاتهم وأوهامهم، وعليه دائمًا حكاية تاريخه القديم كله، وانتظار ما سيحكمون به عليه، ورغم أنه استنزف طاقته فلم يعُد يحتمل السخافات والتجاوزات هذه، لكن لزامًا عليه التعايش معهم بشكلٍ أو بآخر، صمت «ضياء» يجر الكلمات جرًا من بين أحشائه، فخرجت ديباجة متكابرة باهتة: يا بني بالمنظر دا البلد هتبقى غابة، لازم كل الناس تاخد حقها بالقانون، مش همجية.

فضرب «فارس» سطح المكتب: والله إذا كان رجالة القانون أصلًا هما اللي لجأوا للهمجية، يبقى احنا نعمل إيه؟!

لم يتلقى إجابة، كان السكوت هو الجواب الوحيد على تلك الطعنة الجديدة، فأدار «فارس» مقعده ليكون في مُقابلتهِ وتابع:

- والله احنا جيل حاليًا من أتعس الأجيال، منفتح على العالم، عارفين كل حاجة فاتتنا بالتفصيل، عارفين عيشة الناس اللي مش عارفين نعيش زيهم، والأماكن اللي مش قادين نروحها، متابعين الطبقات اللي احنا مش منهم، واللي بيتفننوا عشان يحسسونا بالدونية أكتر وأكتر، والمسخرة إننا مطالبين نكون في أقصى درجات الرضا بالواقع، وكمان نصقف له، ونستحمل، عشان هما عندهم ضغوط واحنا عندنا كحك بسكر! أقسم بالله الجهل دا نعمة ظهرت بوضوح دلوقتي بس.
- يا بني البلد على كف عفريت، احنا من ٢٠١١ مش قادرين نقف على رجلينا، وبنحارب في أكتر من جبهة، وشايلين أرواحنا على كفوفنا، وفي وسط الكلام دا ممكن تحصل شوية تجاوزات بسيطة، ومن حالات فردية.
- حالات فردية! فعلًا انت صح، لكن دايمًا الحسنة بتخص والسيئة بتعم!
- زي ما فيه وحش فيه برضو الحلو، عادي في كل الدول، بس انت متحامل قوي على الداخلية، مع العلم إن ظابط الداخلية دا مواطن عادي، ممكن يبقى حلو وممكن يبقى وحش، قيمته جوا البرواز اللي فيه صورته وعلى كتافه الدبابير، زي الموظف الشريف والمرتشي والاتنين مواطنين عاديين، وزي الدكتور اللي بيراعي ضميره في المستشفى والدكتور اللي بيزوغ ويروح عيادته والاتنين

مواطنين عاديين، النماذج منتشرة كتير جدًا والناس ماسكة في الداخلية!

أسبل «ضياء» جفنيه كأنما يستدعي الكلمات، بعد سباق المناقشة كان لابد من وقت مستقطع يفرضه أحدهما، ثم رجع إلى الوراء ليستند على ظهر الكرسي، بينما رفع «فارس» عينيه نحو السقف في سكوت، فكل منهما يلف ويدور حول نفس النقطة، ومهما رحل عنها فإن مصيره يعود به إليها، فأشعل سيجارته التي انطفأت في يده دون أن يشعر، في حين أشعل «ضياء» سيجارة أخرى وهو يستطرد: اللي انت بتقوله صح يا «فارس»، بس انت مش واخد بالك من حاجة، الناس قاعدة في بيوتها ومش متخيلة إنهم بيهدوا الاقتصاد بتاع البلد دي، عايزين ياكلوا ويشربوا ويخلفوا والدولة تصرف عليهم وهما مأنتخين.

- مأنتخين! حضرتك متأكد إنك بتتكلم عننا، يا فندم احنا تعبنا.
- والله يا عم «فارس»، أنا شايف بلاد دلوقتي سكانها بيتمنوا يتعبوا زينا كدا، في مقابل إنهم يقفلوا عليهم باب بيتهم بالليل ويناموا مطمئنين وهمـ...

بَتَرَ «ضياء» عبارته، فقد أحس بسكينه الصدئ التي دفعها بغتة في عظم «فارس»، شرد الأخير ولا يدري كيف امتلأ الجرح بالملح هكذا؟! وظَلَّ «ضياء» صامتًا، مجرد عبارة خرجت منه دون تذوقها؛ لا يكفي أبد الدهر حتى يُضيّع مرارتها، فالكلمة أعظم قدرة لدى الإنسان، السلاح المعجزة المتاح لجميع البشر، هي الداء والدواء دومًا، «الكلمة أمانة»، وبين نسيجها تَمرِق أسهم لا يمكن استرجاعها إذا انطلقت،

فبعض الألفاظ تقتبس حروفها من مآسي البشر، وبعضها الآخر يزيد من تلك المآسي، وهذا ما حدث الآن، بمعاناةٍ تماسك «فارس» مُقاومًا رَعشة في عينه اليسرى ورفَّ جفنها كنحلةٍ، وتنحنح ثم ـ بهدوءٍ مُر ـ قال بصوتٍ مُتحشرج:

ـ آهٍ من حتة يناموا مطمئنين في بيوتهم دي! هي سبب مصيبتي، يا فندم الكارثة حصلت ليَّ وانا نايم في بيتي، المرار اللي دوقته والضلمة اللي عششت في عيني؛ كانت عشان ما اطمأنتش وأنا بابي مقفول عليَّ!

قالها «فارس» فتبادلا الصمت المتحسس لأي انفعال، حتى أسمعا الجدران والممرات في المديرية أنفاسهما، ثم قام «فارس» يسحق رماد سيجارته، واستل أخرى من علبة «ضياء» بدون استئذان وشحنها باللهب، فالأمر بينهما أصبح عِشريًا بعد ماراثون النقاش السالف، ثم صمتا يتفحصان حريق سجائرهما؛ الذي يتصاعد دُخانه نحو اللمبات الـ «Led»؛ التي تتدلى من النجفة المعلقة في السقف، فلمح «فارس» في لونها السكري لون نهاره الذي شابه الصفار، حقدٌ وكُرهٌ تَسَحَّبَ كالجرذان في شقوق حياته، تعلقه الزائل بالانتقام الزائل، وهو ما فعله، وانتظاره الآن في لحظاتٍ تُعيد ترتيب شخصيته الجديدة، ثم بعد بُرهة تمتم كأنما يوشوشه:

ـ البلد الوحيدة في العالم اللي لو رجعت ١٠٠سنة لورا هتتقدم!

ـ دا كلام فارغ، بيروج له إعلام خارجي ممول من قوى عايزة تهد دولتك.

لم يُعطِه «فارس» إجابة مُحددة، فاندفع «ضياء» يصُف السطور على مسامعه: طيب، وقبل الـ ١٠٠ سنة دي، هل كان فيه أمان للمواطنين؟! ولا انت ما تعرفش إن الشعب كان ماشي حافي، والناس بتشتغل بالسُخرة عند الباشوات! قامت ثورة يوليو وسَلِّمت البلد لولادها اللي فسدوا فيها، وهبت الأراضي الزراعية للفلاحين، فبوروها وبنوا عليها بيوتهم وضيعوا الثروة الزراعية.

ـ ثورة يوليو العسكرية!

هنا كان دور «ضياء» في القهقهة، قام واقفًا وضرب كفًا بكفٍ ودار حول كُرسيه ليستنِد عليه، ثم قال: لأ يا حبيبي تعال افهمك، طول التاريخ بتاعنا واحنا ما نعرفش غير العسكرية، وبنقدسها، قبل ثورة يوليو كان «الملك فاروق»، دا كان متخرج من كلية «وولتش للعلوم العسكرية البريطانية»، واللي قبله أبوه «الملك فؤاد»، عسكري برضو متخرج من «تورين الحربية الإيطالية»، وبالنسبة لباقي أسرة «محمد علي» كلها برضو عسكريين، وقبل منهم العثمانيين وطبعًا دول عسكريين، وقبلهم المماليك برضو عسكريين، وقبلهم الأيوبين عسكريين، واللي قبلهم واللي قبلهم لحد ما توصل لـ «أحمس» طارد الهكسوس و»مينا» موحد القطرين، هتلاقي نفسك بين العسكريين، موضوع حكم العسكر دا مش بقاله ٦٠ سنة وبس، لأ، انت بغبغان! ماشي في الهوجة ورا اللي المفروض نخبة ومثقفين، وهما لا نخبة ولا حتى مثقفين، وأقل ما فيها كانوا عرفوا تاريخ العسكرية على البلد دي!

ـ احنا هنفضل نجادل بعض وخلاص!

احتدّ «ضياء» وخرج من مكانه ينتزع شوكة التصقت بصدره، وهو يضرب سطح مكتبه براحتيه، وشعاع الضي يسقط فوق رأسه فيتراقص ظله على وجه «فارس» شحيح التعبير، فضغط «ضياء» على نبرة صوته في حروف كلمته: جدال ايه انت جايلي بمصيبة!

زفر بحنقٍ، قبل أن يرجع إلى كرسيه ليفرد مسند ظهره إلى الخلف، ثم انحنى يخلع حذاءه، حتى يُعطي بَراحًا لأصابعه التي عجنتها الساعات الماضية، بينما فَزَّ «فارس» مُكهربًا من مكانهِ ضاحكًا، ضاربًا كفًا بكفٍ بدوره، كأن رودود أفعالهما نسخة كربونية، منافسة لتقمص الدور أكثر، تحرك حول نفسه دائريًا ثم اتجه إلى النافذة، وظلَّ عاقدًا حاجبيه وهو يتأمل المتاريس الأسمنتية المعقوفة المصفوفة أمام المديرية، يشاهد العساكر الهائمين بأسلحتهم وملابسهم وعرقهم حول المبنى، والأشجار العارية الطويلة التي يُداعبها النسيم على الناحية الأخرى أمام «متحف الفن الإسلامي»، «شارع بورسعيد» الناعس في هذا الوقت، منطقة «الدرب الأحمر» الموشحة بالظلام، الأرصفة الخرسانية وفوقها السياج المدهونة بالهباب، الأبواب الحديدية، والسيارات الخجولة المتسربة في هذه الساعة، والأنوار المُعلقة على المآذن التي تُطلُّ على المنطقة الأثرية، سرح فيها، لكن بعد بُرهةٍ سمع من خلفه «ضياء» يقول:

- يا بني انت، اهتم بنفسك بقى، وربي ابنك واتجوز اللي بتحبها، وعيش، الحياة منحتك الحاجة اللي بيحلم بيها أي بني آدم، الفرصة التانية، اغتنمها، وقضي اللي باقي لك من العمر متهني في بيتك، مع واحدة مريحاك ومطمنة بالك وفاهماك، انت صحيح عانيت يا «فارس»، لكن

مكافأة المعاناة دي قدامك، مدّ إيدك وخدها بدون أي شيء يعكرها عليك، بلاش تشغل نفسك بأمور تزعلك، أقسم بالله اللي حصلك دا نعمة، ما حدش عارف قيمتها إلا اللي مفتقدها.

رغم عناد «فارس»؛ لكنه أقر بواقعية كلمات «ضياء»، ومع هذا تساقط ظلام السماء إلى جوفه، فاحمٌ يلعق جدران روحه، وبنفس طريقة حركة السحاب الكسولة التفت إلى «ضياء»، وعَقَدَ ذراعيه أمام صدره، ساكنٌ كالبيتِ المهجور. «فارس» نفسه قد لا يعرف لما هذا الجدال؟! فقد قام بكل ما أراده وانتهى الأمر، لكنه ـ بعد كل ما فات عليه ـ يجهلُ حقًا من يكون؟! بات على مدارِ الأيام السالفة يطرِق أبواب القدر، يُدعِم هشاشته بقواعِد اليقين، ويعبئ إرادته بشرارةِ انتقامه، والناس حوله تتهجأ ملامحه الملفقة، لكنهم بِحارٌ، فلن يحكم على أعماقهم وهو يقفُ مُرتاحًا فوق الشطآن! وهكذا غدا «فارس»، أدرك ـ بعد تجربته ـ أن اللهَ مُطَّلِعٌ على السرائرِ، وهذا يكفي، فأسْنَدَ خِصْرَه لحافة النافذة، وترك الهواء يُداعب ظهره، لكنه استكمل النقار وقال:

- يعني مطلوب مني أنسى اللي حصل لي، هو المستقبل ممكن ييجي للبني آدم بدون ما يبقى له ماضي؟!

سؤال يُضاف لحزمةِ الأسئلةِ الماضية، ينقر فوق سقف الخيال كثوب مهترئ يجر ذيله، ضيف ثقيل تحت الجفونِ المالحات، رُقعةٌ مُعتِمةٌ تتسع في الأفكارِ، صمت «ضياء» لما رأى الإجابات الكسولة مستعصية عليه، وشَبَّكَ أصابعه خلف رأسه ومَدَّ ساقيه فوق بعضهما على مكتبه، في حين أن «فارس» المتكئ على حافة النافذة دَقَّقَ

النظر فيه وابتسم بطرف شفتيه، لأنه فطِنّ لخواء جعبة «ضياء»، بينما جاوبه الأخير بالسكون، وكأنه ملَّ من تلك المناقشة التي يُحاصره فيها «فارس» بالفخاخ، فقد علمته مهنته أنه يعيش في عالم غير متزن، ورغم هذا فيجب عليه أن يكون صاحب الرأي الأرجح في كل مناقشة، وهو هنا مسحوبًا رغمًا عنه إلى حالة من خراب المنطق، تتمزق فيها هيبته المحفوفة بالقول الصحيح دومًا، لذلك آثر السكوت حتى لا ينذلِق رأيه كبرميلِ ماءٍ فوق الرمال، ولكن «فارس» ظَلَّ جامدًا في وقفتهِ منتظرًا إجابته، لذلك هز له رأسه إيجابًا ليدرأ عن نفسه مشقة الحديث، فقال:

ـ تعرف يا «ضياء بيه» المثال بتاع الراجل اللي بيورد الفئران؟!

وصل «ضياء» للحافة وعليه أن يترك نفسه للسقوط: لأ ماعرفش يا سيدي!

قالها بتهكم ابتلعه « فارس» مُرغمًا وتابع: فيه راجل فلاح راكب قطر ومعاه شوال من الخيش، كل عشر دقايق يشيل الشوال ويقلبه على عكس اتجاهه، فالراجل اللي قاعد في الكرسى اللي قدامه متابع حركته الغريبة، فسأله: انت كل شوية تقلب الشوال ليه؟! فقاله أنا باشتغل مورد فئران لمعمل تجارب، أسطاد الفئران وأعبيها في شوال وأوديهم للمعمل، ولازم كل شوية أقلبه زي ما شوفت، فقاله اشمعنى، فرد صاحبنا وقاله الفئران لما بتتقلب وتتقلقل بتتخانق مع بعضها، ولكن لو فات عليها وقت هتهدا وتبدأ تفكر في مخرج، فهتاكل الشوال وتهرب، لازم لها قالبة جديدة كل ما تبدأ تهدا عشان ما تفكرش في المخرج.

حالة الصُلح بين الظاهر والباطن، عندما يقف الإنسان عاريًا أمام روحه فيجلِدها، هذا ما يحدث الآن، لذلك ظَلَّ «ضياء» جامدًا وكأنه يهضم الكلمات في جوفه الملتهب، حالة شقاء عند كشف الوجه الحقيقي للمنظومة التي تُدار بها الأشياء، وضع متدن للإنسانية في مخاط المصالح اللزج، هنا قام «ضياء» واتجه نحو ثلاجة صغيرة وأخرج منها زجاجة مياه، وأطفأ بها تلك الحرائق التي تأججت في أحشائه، وكانت فرصة لالتقاط الأنفاس من تلك المبارزة الكلامية ثم رجع إلى مكانه، وحاول قلب المنضدة:

- هاحكي لك موقف حصل معايا شخصيًا، على ناصية شارعنا مطعم واحد سوري، وفي وسط زيادات الأسعار الغريبة الراجل مازودش أسعاره، فسألته انت ليه مابتزودش، قال: بنكسب وبنقلل من مكسبنا في سبيل اننا مانضيقش على الناس، فقُلت له: انت راجل وطني أكتر من مصريين كتير، تخيل قال إيه؟!

هز «فارس» رأسه بلا مبالاة، فابتسم «ضياء» وزاد الضغط على حروف جملته التالية:

- مايعرفش قيمة الوطن إلا اللي انحرم منه.

عبث التردد في ملامح «فارس»، وشعر أن الحروف تُربت على جدران قلبه، تُكون صورة مختالة في خاطرِه المنحول، يعي انفلات صباه بين الشوارع والأزقة وفوضاه على الحيطان، ملامح البيت وألوان جدرانه ورائحة الطوب ورطب الطقس والعرائش المتهدلة، أرخى على بالهِ عبق الأرض كلما سجد بجوار والده، وسجادة الصلاة والمسبحة والمصحف

الكبير والجريدة والمقعد الركين وكوب الشاي الكشري، والنعناع المُعلق في الشُرفات، وصوت النرد في طاولات المقاهي، لاحت له الكتاتيب والفصول وحصص الألوان والخط والتخت والحقائب والواجبات، النهر والنجوم والبيادر وأصوات العصافير الملحنة على المآذن والكنائس، الأصدقاء والضحكات واللعب والمباريات والهتافات، طعم الوطن المزروع هواه بداخله دون أن يُبادله الحب.

فيبقى الوطن حتى لو كان حجرًا يقضُم عليه الليل نومًا.

زاغت نظراته بعيدًا بعيدً، ودوى صمت يختلف عما سبق، لا يُمكن أن يخون الوطن! هو ينتمي إليه بكل ما فيه أو برغم ما فيه، يعشق حبات الندى التي تمسح ترابه، مولود بحبه، فالإنسان يعيش عمره باسم وعائلة ودين وجنسية؛ يعشقهم وهو لم يخترهم، وهنا أحس «ضياء» أن كلماته لها مردود إيجابي عند «فارس» فأكمل الطرق: «فارس»، فوق، حياتك زي الكتاب يا ابن الناس، وأيامك هي الصفحات، ما ينفعش تفضل واقف في نفس الصفحة طول عمرك، لازم تقلبها عشان الحياة تكمل، وإلا!

قرأ «فارس» عين «ضياء» رغم آلاف المجاهيل التي تتراقص في لمعتها، فهم ما يرمي إليه، فانكتم، لذا قام «ضياء» وربت على كتفه في هدوء، ثم انحنى ليؤكد له ما قاله بنظرته الخبيرة في علم النفس، واستطرد: فكر في اللي اتكلمنا فيه، اتفضل مع السلامة.

قال «ضياء» جملته الأخيرة، وكأنما أراد أن يُنهي جدالًا سيستمر طويلًا بلا فائدة، فالمناقشة تستمر في خطين متوازيين لن يُكتب لهما التلاقي أبدًا، فقام «فارس» وتحرك ناحية الباب قبل أن يُنادي عليه

«ضياء» بصوتٍ قوي رجرج النجفة من فوقه، فتسمر في مكانه ويده معلقةً على مقبض الباب، تمثال شمع ينتصب بلا أي حركة أو التفاته، فتابع «ضياء» الكلام من خلفه:

- نصيحة أخيرة مني، مش لازم تخليني أشوف وشك هنا تاني يا «فارس».

أومأ «فارس» برأسه إيجاباً دون أن يلتفت له وخرج، الجدال انتهى، تلك القضية بالفعل أغلقت بألفِ ألفِ قفل، وكل الدروب لن تصل بها إلى إدانة لـ»فارس» أو لصاحبه، و»ضياء» أكل الطعم ومضغه وبلعه بل وهضمه، وبالنسبة له تلك ليلة العيد بحق، سيغدو نجم الـ «-Social Media» الأول، سيُكتب له أن يكون رجل الشعب وأداته في مواجهة كل الفاسدين، وفي اليوم التالي ستتهافت عليه القنوات الفضائية، وسيؤكد لهم أن مكالمة هاتفية جاءته وأبلغته بالحادث، فتوجه مباشرةً بحسهِ الأمني إلى المكان، ورأى القتيل يهدد المواطن وقرأ فيه إصراره على موقفه، خاصة بعد أن تم إطلاق النار عليه من مجهول لم يُستدل عليه، وبدأ القتيل في إطلاق رصاصاته، فأصابت طلقته أحد مساعديه، فلم يتردد للحظة في إردائه، لأنه أصبح خطرًا مُحتمًا على الأمن العام، سيؤكد أيضًا ألا تمييز بين رِجال الشرطة أو المواطنين العاديين، فلم يُشكل ذلك فارقًا كبيرًا معه، فالكل سواسية أمام القانون، ويجب أن يحاسب المخطئ أيًا كان على خطئه، التفاصيل واضحة والإجابات حاضرة بل والدوافع أيضًا.. أُغلِقت القضية.



أول أيام عيد الأضحى..

تمشى في دهاليز مديرية الأمن يُرافقه مُجند نعسان، متاهة العنكبوت التي ضاع فيها «علي الزيبق»، سلالم وأبواب إليكترونية، ثم وجد نفسه أمام المدخل ومنه لشارع «بور سعيد»، اتخذ طريقه من جوارِ المتاريسِ الخرسانية المعقوفة المرصوصة حول مبنى المديرية، متجنبًا نظرات العساكر الذين يرمقونه بشكٍ، بين أصابعه سيجارته الأخيرة لم تنطفئ بعد، فألقاها وهو يتخطى الحواجز الحديدية المتتابعة ناحية «باب الخلق»، حيث لا يوجد باب ولا حتى خلق في تلك اللحظة الليلية، ثم انعطف إلى «شارع الخيّامية» وفي نواياه ألا يُدَّخِنَ ثانيةً، فقد انطفأ أخيرًا البركان الثائر في جوفهِ، على الجانبين المحال التي تلملم بضائعها، العطارين والنحاسين والنجارين، البيوت القديمة التي تقف ـ رغم تصدعها ـ في وجه الزمن، وأخيرًا لاحت الأكشاك الخشبية على يساره، صفوفٌ متشابهة متآكلة متفسخة منحولة، يصرصر خشبها؛ المسنود على الأحجار الصماء لسور القاهرة العتيق، أشباح مكعبة الأشكال تقطع سواد المدى.

حتى وصل إلى «بوابة المتولي» الأثرية، ساعة السحر تسحب ذيلها وتودع الوقت، وهو يعبر أسفل القبة الحجرية، التي تتكئ عليها المئذنتين الشهيرتين المسافرتين نحو السماء، توقف لهنيهة وهو يشاهد القمر المتآكل بفضيته التي يشوبها السواد، يتوسط المسافة بين هلالي المئذنتين، هو الآن أسفل سحر التاريخ الشاهد على عراقة هذه الأرض، تُطِلُّ عليه القبة ببرجيها والممر المكشوف الذي يتوسطهما، يمسح بصره وبصيرته في صُفرةِ الصخرِ القديمة، كتلة بنائية ضخمة مصمتة

يزوم حولها الهواء، تنين أسطوري فارد جناحيه، هنا عُلِقَتْ رؤوس رسل التتار، وخطاف المشنقة التي أعدمت السلطان «طومان باي»، استشهد بكبرياءٍ، دفع عمره ضريبةً لإيمانه بهذه الأرض، لفظ أنفاسه الأخيرة ثمنًا لمواجهته الاحتلال العثماني، هذه الدولة عسكرية، وهذا الباب اسمه «باب زويلة» نسبة لقبيلةِ بربر مُقاتلة، جاءت مع جيش «جوهر الصقلي» لغزو مصر، لو نُكِشَتْ كُتب التاريخ المصري سيخرج فقط قادة الجيوش!

تيبس «فارس»، يُلقي هواجسه القديمة في حواف الطوب الخشنة، من خلفه تُخشخش صناديق الفضلات المتكومة، وعلى جانبيه النوافذ المقوسة التي يغطيها السياج، تقوده إلى المصراعين الخشبيين المفروشين بالصاج، يملأ وجهيهما قواطع الحديد المربعة، خطواته الكسولة نقرت في الممر المسقوف بالقبة التي مسح الزمن زخارفها، هنا جلس «المتولي» لتحصيل ضريبة الدخول إلى القاهرة، كيف هان التاريخ على أبناء هذا البلد هكذا؟! تساءل في نفسه، وحذاؤه ينقر فوق الأرض المرصوفة بالحجرِ المتعرج، جرانيت وبازلت أصفر وأسود، يلمع مع ضي الكلوبات المزركشة أمام مسجد «المؤيد شيخ»، هو يعلم جيدًا تاريخ هذا المكان، حتى أنه شاهد على الأحجبة القماشية؛ التي عَلَّقَها أهل المنطقة خلف الباب الأثري، تاريخ من الدجل والتنجيم والنصب باسم التقرب من الأولياء.

فَكَّ ربطة عنقه، وتحرك زائغ العين حتى وصل لـ»مجموعة السلطان الغوري»، أول مرة يشعر أن قلبه معلق بين السماء والأرض، فجر أول أيام عيد الأضحى يقترب، يغسل الزمن ما علق فيه من الشوائبِ السالفة،

ارتقى فوق الدرجات الخشبية للمسجد، المرتفعة فوق الحوانيت الصغيرة، ومن حوله تسرب الناس يُقَبِّلُون بعضهم البعض ويوزعون التهاني، وجيوبهم مملوءة بالحلوى للأطفال، في رحابِ هذه البقعةِ الأثريةِ بدأت الحكاية مع أول اتصال من «عبير» له، وبدأ انفراج ضلفتي باب المسجد ـ المحشوتين بالنحاس ـ مع أزيز المفصلات، فارتكن فوق الدرابزين، وجد من يسلمون عليه بدون سابِقَ معرفة، فوقف على البسطةِ الموجودةِ أمام المدخل، «كل عام وأنتم بخير» قالها فؤاده قبل لسانه، أخرج هاتفه وفتح السجل الصامت المملوء باتصالات «عبير» و»محمود»، وأجرى اتصالًا بـ «محمود» الذي فتح الخط بسرعة، ضجيج حول صديقه يطغى على صوته الذي بالكاد سمعه وهو يقول:

ـ أيوة يا «فارس» إيه الأخبار؟!

فارتفع نظره يعاين قواطع السقيفة الواصلة بين الجانبين وقال: اطمئن يا «محمود»، صاحبك رجعلك، «فارس» بخير.

فصرخ «محمود» فيمن حوله: يا «مصباح» قُل للبت «منالـ « الجديدة دي توطي الصوت، وتتهد شوية، مش عارف اتكلم.

ثم عاد لـ»فارس» مرة أخرى: الحمد لله يا شِق، كنت خايف «ضياء» يتأخر، والرنَّة بتاعتي ما تبقاش في الوقت المناسب.

ـ الحمد لله كله في الوقت الصح، زي ما رتبناها بالظبط، المهم انت بتعمل إيه عند «مصباح»؟!

ـ يا دوب ضربت الطلقة في الإزاز زي ما اتفقنا، وشوفته بيتغربل قدامي، واتأكدت انك نفدت يا إبن المجنونة انت، روحت خالع على طول، صحيح كان على عيني

أسيب كمية اللحم اللي في الفندق، بس «من خاف سِلم»، فحبيت أعوض شوية باللحم البلدي الجديد اللي عند «مصباح»، ليلة عيد بقى وكل سنة وانت طيب يا «فارس».

- وانت دايمًا في كتفي يا «شبانة»، هاشوفك بعد صلاة العيد يا صاحبي.

ومع النسيم الناعم المحمل بآيات النقاء؛ بعيدًا عن كل ذنوب البشر، أحس بأن أنفاسه قد تطهرت، ولم يشعر إلا وهو يخلع نعليه ويمشي فوق الأرض الخشبية للمسجد، نزل إلى أماكنِ الوضوءِ، فهو الآن مولود مثل الأسماك على سواحل الأحلام، متسكعٌ على نواصي العمر، رجل غجري متصوف مطرود من ماضيه، درويشٌ في حضرةِ المستقبل، توضأ وصعد يمسح بعينيه النوافذ ذات الزجاج الملون بالزخارف، والأعمدة المحفورة بالنقوشِ الذهبية، ووضع قدمه على العتبة الرخامية الدقيقة، المفروشة بالسجاجيد الحمراء المطرزة، التي فوقها إيوان القبلة والمنبر والمحراب، تتدلى عليها القناديل المقعرة، فرفع بصره ناحية منارة المئذنة، وفجأة:

- أيوة يا حبيبي، إيه الأخبار؟

«عبير» أتت عبر الأثير، هو لم يعرف متى اتصل أو متى اتصلت؟! هي فقط لاحت إليه ندية مثل الوضوء، كل ما يهمه أن لثغتها حلوة على الهاتف، لها نبرة رائقة تضبِطُ إيقاع نبضه، اِمرأةٌ تُعدِّلُ المِزاج أفضَلُ مِن كوبِ «القهوَةُ» المصنوعُ بِالوَلهِ، تُربِتُ على اِضطِرابِ وِجدانِه فتُهدهِدُهُ، شقشقت مثل العصافير المستريحة فوقه في تجويفات السقف، تأتيه

بلحظةٍ كالحُلم، تناديه بفمٍ مضموم حنون الصدى، يكاد معها يستنشق رائحة جلدها َالنقية، رغمٍ المسافاتَ التي تفصلهما، لهفتها عليه وحُمى أنفاسها وجحيم صدرها، كَلَمَهَا، وأكمل سيره فوق العتبة الخشبية الأخرى، والبوابة المزركشة ودهس السجاد بقدميه المرتجفتين حتى القِبلة، وقال:

- والله العظيم بحبك يا «عبير».

- طمن قلبي عليك يا «فارس»، وحياتي عندك.

- يشهد ربي عليَّ إني عمري ما هاسيبك يا حبيبتي.

- برضو طمني يا حبيبي.

حكى لها كل شيء حدث في مديريةِ الأمن، أراح بالها، وإنّ أَعظم ما تُقدِمُهُ لمِن تُحَب أن تُطمئِنَ قلبهُ، مسح دموعه التي لم تتوقف، وهو جالس في الإيوان الأيمن لصحن المسجد، ربطّتْ على قلبِهِ بكلماتها؛ التي حشرت الحياة في طويتهِ حشرًا، فهي التي طافت على سيرتها الأنجم المضيئات، مثل وداعة المروج ظهرت في بيداءِ خياله، زرعت نجواه مشاتلًا، وعلَّقَتْ على أطراف روحه أطواق الورد، هي «عبير»، حبيبته، اختصار أمانيه، سقى الله بوجودها تربته الميتة فأحياها، لأنها احتملته حتى تحرر من قيوده، فكان قلبه يقول لها دومًا: «الحُبُّ رفاهيَةً لا تُتاحُ لِلعبيدِ، لِذلِك يجِبُ أن أتنفّسَ حُريّتي كيْ أَشُم هَواكِ"، وها هو يشُم هواها، قال بجد:

- قوليلي بقى آجي عندكم إمتى؟!

اتفق معها، أكد أنه سيأتي لمقابلة والدتها غدًا، ليطلبها حليلته أمام الله وأمام جميع خلقه، فتغدو الأنثى التي يطفئ في رحابها حريق العمر كله، ويغمس في عيونها أحلامه، ويوكِل لها أيامه، فالرجل لا يساوي شيئًا بدونِ امرأةٍ، خاصةً لو كانت امرأة يعشقها، فهي الأنثى التي روَّضتْ الفحل البري بداخله، ولملمت شتاته ووضعت له أساس العمر الذي انهار آنفًا، فلم يكن حبه لها افتراضًا، أو نوبة تهور مصيرها الزوال، بل هو أداة تُرتِبُ أوراق مستقبله الذابلة، ومن مبسمها أخذ سببًا للبقاء، للوجود، وشفاهها الشهية مثل حبيبات التوت الحلوة، تدفعه دومًا للاستمرار، يريدها زوجته، وأمًّا لابنه «ياسين» الذي فقد الأم، وكاد أن يفقد الأب أيضًا.

ـ أنا هاستناك يا «فارس»، وعايزاك بكل حاجة فيك.

قالتها له «عبير» وانتهى الاتصال، ثم ارتفع أذان الفجر شاهدًا عليهما، وبينما قام المصلون لأداء ركعتين خير من الدنيا وما فيها؛ إذ بدأت تكبيرات العيد، الله، صفق قلبه، وانتصبت مسامه مقشعرة، باحت أفكاره بما لم تكن تبُح، وكأن عِقْدَه الرابع اختزله كبرعمٍ صغير، طفلٌ هانئٌ ينقش رسوماته في الترابِ، يجري بين البساتين ويحمل بين أكفه الوريقات المغمسة بالندى، يلهو وهو يقبض على أمان أحلامه، وإذا جاء الليل استحال نومه، وكتب فوق سقيفة غرفته ألف أقصوصة تُروى، حتى تحترق وسادته بنارِ أشواقهِ لصباحٍ جديدٍ، وما أجمل أن يكون ذاك الصباح يوم عيد، ألف ألف رحمة علَى أحلام الصغار البريئة فوق كل شارعٍ وطريق.

قامت الصلاة، فصلى مع العشراتِ المتواجدين، بعد صلاته جلس وقرأ ما تيسر من الذكر الحكيم، ثم خلع لأولِ مرةٍ دِبلة «يسرا»، قبلها وأَسكَنَها جيبه، ها هو يطوي صفحة الماضي حتى يُطالع الصفحات الجديدة، تمتم: رحمة الله عليك يا «أم ياسين»، ثم تكور في شكلِ الجنين أمام المحراب المصنوع من الرُخامِ الملون، بجوارهِ المنبر الخشبي الذي اتخذت نتوءاته من السنِ المَدقوقِ بالزخارفِ، التي تتخللها حشوات صغيرة مطعمة بالحليات، يملؤها الزرنشان، بينما الناس يتسربون للخارج وآخرون يدخلون، استمرت التكبيرات، شردّ هادئًا، فقد فعل كل الأشياء التي ركضت في رأسه، وهذا هو الحل الوحيد، تعلَّق بصره بالوزرة الممتدة للسقف المطرز بالرخام، نظيفة كصفحةِ أفكاره الآن، مكتوب عليه بالخط الكوفي والمملوكي آيات القرآن، شُرفات الآمال تنفرج له، مع صوت إذاعة القرآن الكريم، فأطلق من بين رئتيهِ صهد مكتوم منذ شهور، طرد العفريت الذي سكن دمه، فقد محت الليلة تشوهات جلده، وطيبت ندوبه، وملامحه تعود الآن كما كانت، فالحزن إذا رحل جَمل الملامح كما يُجَمِلُ الروح، وهذا ما يفعله الحب.

يوشوشه صوت مقيم الشعائر، أحسَّ بنبرةٍ من السماء هبطتْ فيه، وعلى أنغامِ الفرقعات التي يلعب بها الأطفال بالخارج عاد إليه «فارس» الذي يعرفَه، رجل كأي مواطن عادي، ليس له علاقة بأي فئة أو مؤسسة أو ائتلاف، مجرد شخص نشأ مع غيرهِ في بلدٍ واحد، أقصى طموحاته أن يتمتع بحقِ المواطنة، يُحب تلك الأرض التي أنجبته حتى يتوارى في ترابها، ويتشارك مع الطيبين من أبنائها في الحياةِ عليها، يرى أنجمها في أعينِ المكبرين حوله، وابتساماتهم تحيي نفسه التي نسيها، ثغور جميلة

يُصلي على قطرها السماحة والإيخاء، صافية مثل اتساع السماء، يجلس ويتلقى الأكف بسلاماتٍ ومسكٍ وعيدان أراك، فل ورياحين وزينات معلقة من حولهِ.

يسرح في الوجوهِ المغسولةِ بماءِ الورد، لم تعي الأرض شعبًا يهوى شعائر الله كالمصريين، هي محفورة في صدورهم ويورثها كل جيل لما بعده، لذلك أَحَس «فارس» أن تلك اللحظات مُنَزلةً عليه من قلبِ الجنةِ، يقطف من أشجارها رمانًا وعنبًا، وتدهشه النار التي غدت في صدره بردًا وسلامًا، وكل قضاياه المعلقة على جدران نفسه قد سَقَطتْ، وحتى المراثي التي كُتبت على روحه قد شُطِبَتْ، فهو الذي أغمد سيفه الليلة بعدما أنهكه الصليل، يُردد التكبيرات مع الناس بصوتٍ قوي، فإنه التائه الذي فتش البسيطة شرقًا وغربًا، ونقب البحار والأنهار حتى وصل لأعماق الأعماق، وهو الآن في نهايةِ رحلته، بعدما عرف السر الخفي وراء الوجود.

سيرتاح من الكفاح قليلًا، فأي فؤاد حَيِيّ يستنزفه الإرهاق.

توالت الصفوف بداخلِ المسجدِ وخارجه، وأهازيج الصبية تتزايد كلما اقتربت الصلاة، والأنوار المعلقة تتراقص، والمفارش المطرزة تتوالى، والشوارع التي امتلأت بالمصلين، الجلابيب البيضاء، والملابس الجديدة المعطرة، لحظة ربانية لا تقبل الغش، والأصوات كلها تتشارك في تكبيراتِ العيد، تُحيي السُنة المحمدية لهذه الأمة، والـ «Microphone» يتنقل بحرية بين الأيادي، فينال كل واحد شرف إحياء هذا العرس، حتى أُلقي بين أصابع «فارس»، فقبض عليه وقلبه يختلج، ثم تحمست حنجرته، ورفع التكبيرات بصوتهِ:

ـ الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا، لا إله إلا الله وحدهُ، صدق وعدهُ ونصر عبدهُ وأعز جندهُ وهزم الأحزاب وحدهُ، لا إله إلا الله ولا نعبدُ إلا إياهُ، مُخلصين له الدين ولو كره الكافرون، اللهم صلِ على سيدنا محمدٍ، وعلى آلِ سيدنا محمدٍ، وعلى أصحابِ سيدنا محمدٍ، وعلى أنصارِ سيدنا محمدٍ، وعلى أزواجِ سيدنا محمدٍ، وعلى ذريةِ سيدنا محمدٍ، وسلم تسليمًا كثيرًا.


تشكيل للنشر والتوزيع